تعليقات
على ثلاثة الأصول

للإمام المُجدِّد محمد بن عبد الوهاب
المتوفى عام ١٢٠٦ هـ
رحمه الله

كتبها
إمام بن علي الأثري

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإنَّ أشرفَ عِلْمٍ على الإطلاقِ هو علمُ التوحيدِ؛ لِتَعَلِّقِه بمعرفةِ اللهِ سبحانَه، المستلزمةِ للإيمانِ بِه، قال اللهُ تعالى لرسولِه محمدٍ ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فأَمَرَهُ بالتوحيدِ، وجَعَلَهُ قبلَ العملِ، وما ذلكَ إلَّا لأنَّ التوحيدَ هو الأصلُ في قَبولِ الأعمالِ.

ولأنَّ الوقوعَ في ضدِّهِ -وهو الشركُ- سببٌ في حُبُوطِ الأعمالِ وفسادِهَا، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وهو الذي عليهِ مدارُ السعادةِ في الدُّنيا والنجاةِ في الآخرةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وهو حقُّ اللهِ على العبيدِ، كما قال ﷺ: «حقُّ اللهِ على العِبَادِ أنْ يَعبُدُوهُ، ولا يُشرِكُوا بِهِ شيئًا».

ولمَّا كان الأمرُ كذلكَ؛ أَحبَبتُ المساهمةَ بالتعليقِ على كُتُبِ ورسائلِ الإمامِ المُجدِّدِ محمد بن عبد الوهاب؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليهِ من بيانٍ لحقيقةِ التوحيدِ والشركِ، وهذهِ هي الرسالةُ الأولى:

«ثلاثة الأصول»

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يُبارِكَ لنا في أقوالِنَا وأعمالِنَا، وأنْ يَجعَلَها خالصةً لوجهِهِ الكريمِ. آمين.

كتبه

إمام بن علي الأثري

١٤ / ١ / ١٤٤٨هـ

٢٨ / ٦ / ٢٠٢٦

للتواصل عبر الواتس ٠٠٩٦٦٥٥٩٣٣٤٩٢٠

مقدِّمات:

المقدمة الأولى: هذه الرسالةُ تُسمَّى «ثلاثة الأصول»، وربَّما أُطلِقَ عليها «الأصول الثلاثة»، وللمؤلِّفِ رسالةٌ أخرى بعنوان: «الأصول الثلاثة»، وهي رسالةٌ صغيرةٌ كَتَبهَا المؤلِّفُ للصِّبيانِ والصِّغارِ.

ومرادُ المؤلِّف بـ «ثلاثة الأصول»: الأسئلة التي يُسأل عنها الإنسانُ في قبره، حينما يقول له المَلَكان: مَن ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَن نبيُّك؟

وسُمِّيت هذهِ الأسئلةُ بـ «الأصول الثلاثة»؛ إشارةً إلى أنَّ جميعَ فروعِ الدِّينِ مبنيَّةٌ عليها.

وقد جَعَل المؤلِّفُ بينَ يَدَي هذهِ الرسالةِ ثلاثَ مقدِّماتٍ اشتَمَلتْ على ثلاثةِ أمورٍ:

الأمر الأول: العلمُ بأربعِ مسائلَ.

الأمر الثاني: العلمُ بثلاثِ مسائلَ.

الأمر الثالث: التعريفُ بمِلَّة إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

ثم خَتَمها بخاتمةٍ تكلَّم فيها عن البعثِ وأمورِ الآخرةِ، وإشارةٍ تَتَعلَّقُ بالكفرِ بالطاغوتِ.

المقدمة الثانية: أهمية هذه الرسالة:

قال الشيخ عبد العزيز ابن باز: «وقد كان الشيخ محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ -رحمه الله- يُلقِّنُ الطلبةَ والعامَّةَ هذهِ الأصولَ؛ لِيَدرُسُوهَا، ويَحفظُوهَا، ولِتستَقِرَّ في قلوبِهِم؛ لكونِها قاعدةً في العقيدةِ».

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «يَلزمُ الأميرَ أنْ يأمرَ على جميع المدرسين وأئمةِ المساجد بالحضورِ عند مَن يُعلِّمُهُم دينَهم، ويُلزمُهُم القراءةَ فيما جَمَعَهُ شيخُنا -رحمه الله- في "كتاب التوحيد" من أدلةِ الكتابِ والسُّنةِ، التي فيها الفُرقانُ بين الحقِّ والباطلِ؛ فقد جَمَعَ على اختصارِهِ خيرًا كثيرًا، وضمَّنَهُ من أدلةِ التوحيدِ ما يَكفي مَن وَفَّقه اللهُ، وبيَّن فيه الأدلةَ في بيانِ الشركِ

الذي لا يَغفِرُهُ اللهُ، ويُلزِمُهُم سؤالَ العامَّةِ عن "أصولِ الدِّينِ الثلاثةِ" بأدلتِها، و"أربعِ القواعدِ"؛ فما أعظمَ نفعَها على اختصارِها لطالبِ الهُدى».

وكَتَب الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ آلِ الشيخِ لأئمةِ المساجدِ آمِرًا لهم تعليمَ جماعةِ المسجدِ «ثلاثة الأصول»، وأنْ يَعقِدَ لهم مجلسًا يوميًا يَسألُهُم عنها، قال رحمه الله: «يَتَعيَّن على إمامِ كلِّ مسجدٍ أنْ يقومَ بعدَ صلاةِ فجرِ كُلِّ يوم بتعليمِ ثلاثةِ أشخاصٍ من جماعةِ مسجدِهِ أو أكثرَ حَسَبِ الاستطاعةِ أُصولَ الدِّينِ، كـ «مختصر ثلاثة الأصول»، و«شروط الصلاة»، وأنْ يَتَعَاهَدَ جماعةَ مسجدِه بالنصيحةِ والتذكيرِ والدرسِ، ويَعقِدَ لهم مجلسًا يوميًا يسألهُم فيهِ عن أمورِ دينِهِم، ويُعلِّمُهُم ما يَخفَى عليهِم فيها، ومَن طَلَب مُهلةً لِتَذَكُّرِهَا وتَحفُّظِهَا فيُمهَلُ، ومَن امتَنَع مِن ذلكَ يُلزَمُ بِه من قِبَلِ الإمامِ والمؤذِّنِ والهيئةِ، وإنْ لم يَمتَثِلْ فيُرفَعُ باسمِه إليكُم، لِتقومُوا حولَهُ بِمَا يَلزَمُ؛ براءةً للذمَّةِ، ونُصحًا للأمةِ».

قال المؤلِّف:

﴿بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾

افتَتَح المُصنِّف كتابَهُ بالبسملةِ؛ **تبرُّكًا** بذكرِ اسمِ اللهِ تعالى.

واقتداءً برسولِ اللهِ ﷺ في رسائلِه ومكاتباتِه، كما في كتابِه ﷺ إلى هِرَقلَ عظيمِ الرومِ، وفيه: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** الحديث، وكما في صُلْحِ الحديبيةِ، لمَّا أَمَر النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه أنْ يَكتبَ: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**.

واقتداءً بالأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ، قالت بَلقِيس مَلِكَةُ سبأٍ لمَّا جاءَها كتابٌ من نبيِّ اللهِ سليمانَ عليهِ السلامُ: **﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** [النمل: ٣٠][(١)]، وقد قال اللهُ لنبيِّه: **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾** [الأنعام: ٩٠].

وهو الذي جَرَى عليهِ عَمَلُ المُصنِّفينَ قديمًا، قال الحافظ ابن حجر: «وقد استَقرَّ عملُ الأئمةِ المُصنِّفِينَ على افتتاحِ كُتُبِ العلمِ بالبسملةِ، وكذا مُعظَمُ كُتُبِ الرسائلِ».

وكذلكَ لم يَبدأْ بِهَا أحدٌ من المُصنِّفينَ في الحديثِ، كالإمامِ أحمدَ، والبخاريِّ، ومسلمٍ، قال ابن حجر: «تصانيفُ الأئمةِ من شيوخِ البخاريِّ، وشيوخِ شيوخِه، وأهلِ عصرِه، كمالكٍ في "الموطأ"، وعبدِ الرزاقِ في "المُصنَّف"، وأحمدَ في "المسند"، وأبي داودَ في "السُّنن"، إلى ما لا يُحصَى ممَّن لم يُقدِّمْ في ابتداءِ تصنيفِه خُطبةً، ولم يَزِدْ على التسميةِ وهمُ الأكثرُ، والقليلُ منهم مَن افتَتَح كتابَه بخُطبةٍ».

---

(١) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية:** «وتُكتَبُ البسملةُ أوائلَ الكُتُبِ، كَمَا كَتَبها سليمانُ، وكَتَبهَا النبيُّ ﷺ في صلحِ الحديبيةِ، وإلى قيصرَ، وغيرِه، فتُذكَرُ في ابتداءِ جميعِ الأفعالِ، وعندَ دخولِ المنزلِ والخروجِ منهُ؛ للبركةِ، وهي تَطردُ الشيطانَ».

وهذا بخلاف هَدْيه ﷺ في الخُطَب، فإنَّه كان يبتدئُ بالحمدلةِ:

١ – ففي «صحيح مسلم»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ ضِمَادًا قَدِمَ مكةَ، وكان من أَزْدِ شَنُوءَةَ، وكان يَرقِي من هذهِ الرِّيحِ، فسَمِعَ سُفهاءَ مِن أهلِ مكَّةَ، يقولونَ: إنَّ محمَّدًا مجنُونٌ، فقال: لو أنِّي رأيتُ هذا الرَّجُلَ لعلَّ اللهَ يَشفِيهِ على يَدَيَّ، قال: فلَقِيَهُ، فقال: يا محمدُ، إنِّي أَرْقِي من هذهِ الرِّيحِ، وإنَّ اللهَ يَشفِي على يَدِي مَن شَاءَ، فهل لك؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الحمدَ للهِ، نَحمَدُهُ ونَستَعِينُهُ، مَن يَهدِهِ اللهُ، فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلِلْ، فلا هَادِيَ لَهُ، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أمَّا بعدُ**».

٢ – وأخرج مسلم أيضًا، من حديث جابر رضي الله عنه أنَّه قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يَخطُبُ النَّاسَ، يَحمَدُ اللهَ، ويُثنِي عليهِ بما هو أَهلُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: «**مَن يَهدِهِ اللهُ، فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَن يُضلِلْ فَلَا هَادِيَ لهُ، وخَيرُ الحديثِ كتابُ اللهِ**»(١).

تنبيهان:

التنبيه الأول: دَرَج بعضُ المُصنِّفينَ على تعليلِهِم البدءَ بالبسملةِ بقولِهِم: اقتداءً بالكتابِ العزيزِ. وفي هذا التعليلِ نظرٌ من وجهين:

أحدُهُما: أنَّنا متعبَّدونَ بتلاوةِ القرآنِ بهذهِ الكيفيةِ التي أنزلها اللهُ، ولا نَعلَمُ وجهَ الحكمةِ في البدءِ فيهِ بالبسملةِ، فلا يَصحُّ القياسُ.

الثاني: أنَّنا لَسْنَا مأمورينَ بالتأسِّي بأفعالِ اللهِ، وإنَّما مأمورونَ بالتعبُّد

---

(١) وأمَّا البَدءُ بالحمدلةِ في بدايةِ التصانيفِ والمراسلاتِ، فليست بسُنَّةٍ؛ لأنَّ كُتُبَ النبيِّ ﷺ إلى الملوك والأمراء ليستَ فيها البدءُ بالحمدِ، وإنَّما فيها البَدءُ بالبسملةِ فقط، وكذلكَ كُتُبُهُ التي أَمَر بكتابتِها التي فيها الدِّياتُ والصدقاتُ وغيرُ ذلكَ لم يُوجَدْ فيها خُطبةُ الحاجةِ، **قال ابن حجر** في «الفتح» ٨/ ٢٢٠: «وقد جُمِعَتْ كُتُبُ النبيِّ ﷺ إلى الملوكِ وغيرِهِم، فلم يَقَع في واحدٍ منها البداءةُ بالحمدِ، بل بالبسملةِ».
وقال أيضًا ١/ ٤٤: «لفظُ الحَمْدِ والشهادةِ إنَّما يُحتاجُ إليهِ في الخُطَبِ دونَ الرسائلِ والوثائقِ».

بالأحكامِ التي أَنزَلَها في كتابِه.

التنبيه الثاني: هناكَ فرقٌ بينَ البسملةِ والتسميةِ، فالبسملةُ: قولُ: ﴿**بسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ**﴾، والتسميةُ: قولُ: (بسم الله)، والبسملةُ تكونَ عندَ تلاوةِ القرآنِ، وأمَّا التسميةُ فتكونُ عندَ فعلِ شيءٍ مُستَحسَنٍ، كالأكلِ، والشُّربِ، والدخولِ إلى المنزلِ والخروجِ منهُ، وركوبِ الدابَّةِ، وهكذا.

قوله: ﴿**بسمِ اللهِ**﴾ الباءُ أداةٌ تَخفِضُ ما بعدَها، ومعناها في البسملة: الاستعانة، فيكونُ التقديرُ: باسمِ اللهِ أُؤلِّفُ، حالَ كوني مستعينًا بذكرِ اللهِ، مُتبرِّكًا بِه.

قوله: ﴿**اللهِ**﴾ لفظُ الجلالةِ (اللهُ): عَلَمٌ على ذاتِه سبحانَهُ وتعالى، وهو أصلُ الأسماءِ؛ ولهذا تأتي الأسماءُ تابعةً له، كما في قولِه تعالى: ﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

ويَتعلَّق بهذا الاسم ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: لفظ الجلالة (الله) بمعنى المألوهِ؛ أي: المعبودِ، فهو مُشتقٌّ مِن أَلَهَ يَألَهُ إلَهةً، أي: عَبَد يَعبُدُ عبادةً، فهو إلهٌ بمعنى: مألوهٍ، أي: معبودٍ.

المسألة الثانية: لفظ الجلالة (الله)، هو من الأسماءِ المختصَّة به سبحانَه، فلا يُطلَقُ على غيرِه، قال تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [الإسراء: ١١٠]، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» [الفاتحة: ١]: «وهو اسمٌ، لم يُسمَّ بِه غيرُه تبارك وتعالى».

مسألة: اسمُ (الرحمنِ) من الأسماءِ الخاصَّةِ باللهِ تعالى، فلا يُسمَّى بِه غيرُه، قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ: «واسمُه تعالى (الرحمنُ) خاصٌّ بِه، لم يُسمَّ بِه غيرُه، كما قال تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [الإسراء:

١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وأمَّا الرحيمُ، فإنَّه تعالى وَصَف بِه غيرَهُ، حيثُ قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، كما وَصَف غيرَه بذلكَ من أسمائِه، كما في قولِه سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصلُ: أنَّ من أسمائِه تعالى ما يُسمَّى بِه غيرُه، ومنها ما لا يُسمَّى بِه غيرُه، كاسمِ (اللهِ)، و(الرحمنِ)، و(الخالقِ) و(الرزاقِ)، ونحوِ ذلكَ؛ فلهذا بَدَأَ باسمِ اللهِ، ووَصَفَهُ بالرحمنِ؛ لأنَّه أخصُّ وأَعرَفُ من الرحيمِ؛ لأنَّ التسميةَ أولًا إنَّما تكونُ بأشرفِ الأسماءِ، فلهذا ابتَدَأَ بالأخصِّ فالأخصِّ». انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

المسألة الثالثة: ذَكَر اللهُ تعالى عن بعضِ مشركي العرب أنَّهم أنكرُوا اسمَ الرحمنِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقد أجابَ عن هذا أهلُ العلمِ، فقال الحافظ ابنُ كثيرٍ في «تفسيره»: «الظاهرُ أنَّ إنكارَهُم هذا إنَّما هو جُحُودٌ، وعِنَادٌ، وتَعَنُّتٌ في كُفرِهِم، فإنَّه قد وُجِدَ في بعضِ أشعارِ الجاهليةِ تسميةُ اللهِ بالرحمنِ. قال ابن جرير: وقد أَنشَدَ بعضُ الجاهليةِ الجُهَّالِ:

أَلَا ضَرَبَتْ تِلْكَ الفتاةُ هَجِينَها *** ألا قَضَبَ الرحمنُ ربِّي يَمِينَها

وقال سُلَامة بن جُندُب الطُّهَوي:

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَينَا عَلَيْكُمُ *** وما يَشَأْ الرحمنُ يَعْقِدْ ويُطْلِقِ».

وقال امرؤ القيس:

تِلْكَ المَوَازِينُ والرَّحْمَنُ أَنزَلَهَا *** رَبُّ البَرِيَّةِ بينَ الناسِ مِقيَاسَا

[المقدمة الأولى]

قال المؤلِّف:

اعْلَمْ -رَحِمكَ اللهُ- أنَّه يَجِبُ علينا تعلُّمُ أربعِ مسائلَ:

الأولى: العلمُ. وهو معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّه، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ.

الثانية: العملُ به.

الثالثة: الدعوةُ إليهِ.

الرابعة: الصَّبرُ على الأذى فيهِ.

الشرح

هذه هي المقدمةُ الأولى، وقد ذَكَر فيها المؤلِّفُ أربعَ مسائلَ مهمةٍ، وهي:

١ - وجوبُ معرفةِ اللهِ تعالى.

٢ - وجوبُ العملِ بالعلمِ.

٣ - وجوبُ الدعوةِ إلى اللهِ تعالى.

٤ - وجوبُ الصبرِ على الأذى في الدعوةِ إلى اللهِ تعالى.

قوله (اعْلَمْ -رَحِمكَ اللهُ- أنَّه يَجِبُ علينا تعلُّمُ أربعِ مسائلَ) أي: يجبُ على كُلِّ فَردٍ مُكلَّفٍ من ذَكَرٍ أو أنثى تَعلُّمُ هذهِ المسائلِ الأربعِ، ومَن لم يَتَعلَّمْهَا فهو آثِمٌ.

وظاهرُ قولِ المؤلِّفِ (يَجبُ) أنَّ العامِّيَ يَجبُ عليهِ أنْ يَتَعلَّمَ هذهِ المسائلَ بالدليلِ، وأنَّه إنْ لم يَفعَلْ فهو آثمٌ، وهذا الظاهرُ غيرُ مرادٍ قطعا، وإنَّما المرادُ: أنَّ مَن ليس عندَهُ آلةُ الاجتهادِ، فدليلُه في المسألةِ قولُ العالِمِ؛ لقولِ اللهِ تعالى: **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** [النحل: ٤٣]، ففي هذه الآيةِ الدليلُ على أنَّ العامِّيَ يَكفِيهِ سؤالُ العالِمِ، ولا يُكلَّفُ طلبَ الدليلِ، وأمَّا مَن كان عالمًا بالدليل، فيَجبُ عليهِ طلبُ الدليلِ، ولا يَسَعُه التقليدُ.

قوله (الأولى: العلمُ) هذه هي المسألةُ الأولى من المسائلِ الأربعِ.

ويَتعلَّقُ بالعلمِ أربعُ مسائلَ:

المسألة الأولى: المرادُ بالعلمِ هنا: العلمُ الشرعيُّ، وهو معرفةُ الهُدَى بدليلِه، وضده الجهلُ.

قال ابن القيم في «الكافية الشافية»:

١٥٧٦ - والعِلمُ مَعْرِفَةُ الهُدَى بِدَلِيلِهِ *** مَا ذَاكَ والتَّقليدُ مُستَوِيَانِ

المسألة الثانية: العلمُ الذي جاء مَدحُه في الكتابِ والسُّنةِ هو العلمُ الشرعيُّ لا العلومُ الدنيويةُ، ولا يعني ذلكَ التزهيدَ في العلومِ الدنيويةِ، فهي بلا شَكٍّ علومٌ نافعةٌ، وإنَّما المرادُ تفسيرُ النصوصِ دونَ غُلُوٍّ أو جَفَاءٍ.

قوله: (وهو معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ) هذا القدرُ الذي ذَكَرهُ المؤلِّف هو القدرُ الذي يَجبُ تعلُّمُهُ، وهي التي سيَشرَحُهَا على وجهِ التفصيلِ.

ومن الأدلة على وجوبِ معرفةِ هذهِ الأصولِ الثلاثةِ: قولُه تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحجرات: ١٥].

وجه الدلالة: أنَّ الإيمانَ النافعَ هو الذي لا يَعتريهِ شَكٌّ بوجهٍ من الوجوهِ، ولا يتأتَّى هذا إلَّا بالعلمِ، فالعلمُ هو الذي يُبدِّدُ ظلماتِ الشكِّ والرَّيبِ(١).

ومعرفةُ العبدِ لربِّه تَتَضمَّنُ أقسامَ التوحيدِ الثلاثةِ: توحيدَ الربوبيةِ، وتوحيدَ الألوهيةِ، وتوحيدَ الأسماءِ والصفاتِ.

وسيأتي بيانُ ذلكَ بإذنِ اللهِ تعالى عندَ قولِ المؤلِّفِ: «وأعظمُ ما أَمَر اللهُ بِه التوحيدُ».

---

(١) انظر: «تفسير السعدي» ص/ ٨٠٢.

قوله: (ومعرفةُ نبيّهِ) هو محمدٌ ﷺ، ومعرفتُه ﷺ فَرضٌ على كُلِّ مُكلَّفٍ، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لذلكَ عندَ الكلامِ على الأصلِ الثالثِ، وهو معرفةُ النبيِّ محمدٍ ﷺ.

قوله: (ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ) سيأتي الكلامُ على ذلكَ عندَ الكلامِ على الأصلِ الثاني، وهو معرفةُ دينِ الإسلامِ.

قوله (الثانية: العملُ به) أي: العملُ بالعلمِ، وذلكَ بفعلِ الواجباتِ واجتنابِ المُحرَّماتِ، والعملُ هو ثمرةُ العلمِ، فمَن كان عِلمُه عَونًا له على العملِ؛ فقد حقَّق المقصودَ من العلمِ وطَلَبِه.

قال ابن مسعود: ليس العلمُ عن كثرةِ الحديثِ؛ إنَّما العلمُ خشيةُ اللهِ.

وقال الحسن: إنَّ الرَّجَلَ لَيتعَلَّمُ البابَ من العلمِ فيَعملُ بِه خيرٌ من الدنيا وما فيها.

وقال سفيان الثوري: العلمُ يَهتِفُ بالعملِ، فإنْ أجابَهُ حَلَّ وإلَّا ارتَحَل.

والعملُ بالعلمِ سببٌ في رُسُوخِه، قال الشعبي: كُنَّا نَستعينُ على حفظِ الحديثِ بالعملِ بِه.

وإذا لم يَعمَلِ العبدُ بعِلْمِه عاقَبَهُ اللهُ تعالى بنسيانِه وعدمِ الانتفاعِ بِه، قال اللهُ تعالى عن اليهودِ: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾ [المائدة: ١٣]، عاقَبَهُم رَبُّ العالمينَ بأنْ نَسُوا العلمَ، ونَسُوا العملَ بِه[1].

---

(١) **قال السعدي** في «تفسيره» ص/ ٢٢٥: «يُخبِرُ تعالى أنَّه أَخَذ على بني إسرائيلَ الميثاقَ الثقيلَ المُؤكَّدَ، وذَكَر صفةَ الميثاقِ وأَجْرَهُم إنْ قامُوا بِه، وإِثْمَهُم إنْ لم يَقُومُوا بِه، ثم ذَكَر أنَّهم ما قامُوا بِه، وذَكَر ما عاقبَهُم بِه ... فكأنَّه قيل: ليتَ شِعْري ماذا فَعَلُوا؟

وفي المقابل إذا عَمِلَ بعِلْمِه زَادهُ اللهُ هُدًى وتُقًى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧](١).

وفي القول المأثور: مَن عَمِلَ بما عَلِمَ، أَورَثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لم يَعلَمْ.

ومن النماذج التي رُويت عن السَّلف في العمل بالعلم:

فعن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: يَرحَمُ اللهُ نساءَ المهاجراتِ الأُوَل، لمَّا أَنزَلَ اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا. أخرجه البخاري (٤٤٨٠).

وهل وَفُّوا بِمَا عاهدُوا اللهَ عليهِ أم نكَثُوا؟ فبيَّن أنَّهم نَقَضُوا ذلكَ، فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي: بسببِه عاقبنَاهُم بعدَّةِ عقوباتٍ:

الأولى: أنا ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ أي: طَرَدنَاهُم وأَبعَدنَاهُم من رَحمتِنَا، حيثُ أَغلَقُوا على أنفسِهِم أبوابَ الرحمةِ، ولم يقوموا بالعهدِ الذي أُخِذَ عليهم، الذي هو سببُها الأعظمُ.

الثانية: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: غليظةً لا تُجدِي فيها المواعظُ ولا تَنفَعُها الآياتُ والنُّذُرُ؛ فلا يُرغِّبُهُم تشويقٌ ولا يُزعِجُهُم تخويفٌ، وهذا من أعظمِ العقوباتِ على العبدِ؛ أنْ يكونَ قلبُه بهذهِ الصفةِ التي لا يُفِيدُه الهُدَى والخيرُ إلَّا شَرًّا.

الثالثة: أنَّهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ﴾ أي: ابتُلُوا بالتغييرِ والتبديلِ، فيَجعلُونَ للكَلِمِ الذي أراد اللهُ معنًى غيرَ ما أرادَهُ اللهُ ولا رسولُه.

الرابعة: أنَّهم ﴿نَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فإنَّهم ذُكِّرُوا بالتوراةِ، وبِمَا أَنزَلَ اللهُ على موسى، فنَسُوا حَظًّا منهُ، وهذا شاملٌ لنسيانِ عِلْمِه، وأنَّهم نَسُوهُ وضَاعَ عنهُم، ولم يُوجَدْ كثيرٌ ممَّا أَنسَاهُمُ اللهُ إيَّاهُ؛ عقوبةً منهُ لهم، وشاملٌ لنسيانِ العملِ الذي هو التَّركُ، فلم يُوفَّقُوا للقيامِ بِمَا أُمِرُوا بِه. ويُستَدلُّ بهذا على أهلِ الكتابِ بإنكارِهِم بعضَ الذي قد ذَكَر في كتابِهِم، أو وَقَع في زمانِهِم أنَّه ممَّا نَسُوهُ».

(١) **قال السعدي** في «تفسيره» ص/ ٧٨٦: «﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بالإيمانِ والانقيادِ، واتِّباعِ ما يُرضِي اللهَ ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ شُكرًا منهُ تعالى لهم على ذلكَ ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: وفَّقَهُم للخيرِ، وحَفِظَهُم من الشَّرِّ، فذَكَر للمُهتَدِينَ جزاءَينِ: العلمَ النافعَ، والعملَ الصالحَ».

والمُرُوط: جمع مِرْط، وهو الإزار.

واختَمَرنَ: أي: غَطَّينَ وُجُوهَهُنَّ.

وعن سالم بن عبد الله بن عمر: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عبدُ اللهِ، لو كان يُصلِّي من اللَّيلِ**»، فكان بعدُ لا يَنامُ من الليلِ إلَّا قليلًا. أخرجه البخاري (١١٢٢).

وعن عمرو بن قيس المُلَائي أنَّه قال: إذا سَمِعتَ بشيءٍ من الخيرِ، فَاعْمَلْ بِه ولو مرَّةً، تَكُن من أَهْلِه.

وعن وكيع بن الجرَّاح أنَّه قال: كُنَّا نَستعينُ على حفظِ الحديثِ بالعملِ بِه، وكُنَّا نَستعينُ على طَلَبِه بالصوم.

وقال الإمام أحمد: ما كَتَبتُ حديثًا عن النبي ﷺ إلَّا وقد عَمِلتُ بِه، حتَّى مَرَّ بِي: أنَّ النبيَّ ﷺ احتَجَم، وأعطى أبا طَيبةَ دينارًا، فأَعطيَتُ الحَجَّامَ دينارًا حينَ احتَجَمتُ. «سير أعلام النبلاء» ١١/ ٢١٣.

وقال البخاري: إنِّي لأَرجُو أنْ أَلقَى اللهَ ولا يُحاسِبُنِي أنِّي اغتَبتُ أحدًا. «هدي الساري» ص/ ٤٨٠.

- وقد جاءت النصوصُ الشرعيةُ في الترهيبِ من تركِ العملِ بالعلمِ، فمن ذلكَ:

=قولُه ﷺ: «**والقرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ**». أخرجه مسلم (٣٤٣٩)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

=وقولُه ﷺ: «**يُؤتَى بالرَّجُلِ يومَ القيامةِ، فيُلقَى في النَّارِ، فتَندَلِقُ أَقتابُ بَطنِه، فيَدُورُ بِهَا كمَا يَدورُ الحِمَارُ بالرَّحَى، فيَجتمعُ إليهِ أهلُ النَّارِ، فيقولونَ: يا فلانُ ما لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأمُرُ بالمعروفِ وتَنهَى عن المُنكرِ؟ فيقولُ: بَلَى، قد كنتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتِيه، وأَنهى عن المُنكرِ وآتِيه**»[1]. أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

---

(١) **قال النووي:** «قال أبو عبُيد: الأقتاب: الأمعاء. وقال ابن عيينة: هي ما استدار في البطن، وهي الحوايا والأمعاء، والاندلاق: خروج الشيء من مكانه». «شرح صحيح مسلم» ١١٨/١٨.

=وقولُه ﷺ: «**إنَّ أولَ الناسِ يُقضَى يومَ القيامةِ عليهِ ... ورَجُلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمَهُ، وقرَأَ القرآنَ، فأُتِيَ بِه، فعرَّفَه نِعَمَهُ فعَرَفهَا، قال: فمَا عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعَلَّمتُه وقرأتُ فيكَ القرآنَ، قال: كَذَبتَ، ولكنَّك تَعلَّمتَ العلمَ ليقال: عالِمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ بِه، فسُحِبَ على وَجهِه، حتَّى أُلقِيَ في النارِ**». أخرجه مسلم (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا حدَّث بهذا الحديثِ يَبكِي حتى يُغشَى عليهِ، ولمَّا حُدِّث بِه معاويةُ رضي الله عنه قال: قد فُعِلَ بهؤلاءِ هكذا، فكيفَ بمَن بقي من النَّاسِ؟ ثم بَكَى بكاءً شديدًا، ثُمَّ أفاقَ، ومَسَح عن وَجهِه، وقال: صَدَق اللهُ ورسولُه: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنيَا وزِينَتها نُوَفِّ إِليهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ ۝ أُولئِكَ الَّذينَ لَيْسَ لَهُم في الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ**﴾ [هود: ١٥- ١٦].

=وقولُه ﷺ: «**مَن تعلَّم عِلْمًا ممَّا يُبتَغَى بِه وجهُ اللهِ، لا يَتَعلَّمُه إلَّا لِيُصِيبَ عَرَضًا من الدنيا، لم يَجِدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامةِ**» يعني: رِيحَها. أخرجه أحمد /، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

=وقولُه ﷺ: «**مَن طَلَبَ العلمَ لِيُمارِيَ بِه السُّفهاءَ، أو يُجارِيَ بِه العلماءَ، أو يَصرِفَ وجوهَ الناسِ إليهِ، أَدخَلَهُ اللهُ النارَ**». أخرجه الترمذي، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

=وقولُه ﷺ: «**إنَّ أشدَّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ عالمٌ لم يَنفَعْهُ اللهُ بعِلْمِه**». أخرجه ابن بشران في «الأمالي» (٨٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

=**وعن ابن مسعود** رضي الله عنه أنَّه قال: لا تَعلَّمُوا العلمَ لثلاثٍ: لِتُمارُوا بِه السُّفهاءَ، أو لِتُجادِلُوا بِه الفقهاءَ، أو لِتَصرِفُوا وجوهَ الناسِ إليكُم، وابتَغُوا بقولِكُم وفِعْلِكُم ما عندَ اللهِ، فإنَّه يَبقَى، ويَذهَبُ ما سِوَاهُ.

والصحابةُ رضي الله عنهم جَمعُوا بينَ العلمِ والعملِ:

فأخرج الحاكم في «المستدرك» عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كُنَّا نتعلَّمُ من رسولِ اللهِ ﷺ عشرَ آياتٍ، فما نَعلَمُ العَشْرَ التي بعدَهُنَّ حتَّى نَتَعلَّمَ ما أُنزِلَ في هذه العَشْرِ من العملِ.

وأخرج الطبري وغيره عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي أنَّه قال: حدَّثنا الذينَ كانوا يُقرِؤنَنَا أنَّهم كانوا يَستَقرِئُونَ من النبيِّ ﷺ، فكانوا إذا تَعَلَّمُوا عشرَ آياتٍ، لم يَخْلُفُوهَا حتى يَعمَلُوا بما فيها من العمل، فتَعَلَّمْنَا القرآنَ والعملَ جميعًا، وأنَّهُ سَيَرِثُ القرآنَ بعدَنَا قومٌ، يَشربُونَهُ شُرْبَ الْماءِ، لَا يُجاوِزُ هذَا، وأشار بيدِه إلى حَنكِه.

وأخرج الحاكم في «المستدرك» عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه قال: لقد عِشنَا بُرْهةً من دَهْرِنَا وإنَّ أحدَنَا يُؤتَى الإيمانَ قبلَ القرآنِ، وتَنزِلُ السُّورةُ على محمدٍ ﷺ فيَتَعَلَّمُ حَلَالهَا وحرامَهَا، وآمِرَهَا وزاجِرَهَا، وما ينبغي أنْ يُوقَفَ عندَهُ منهُ، كما تَتعلَّمُونَ أنتمُ اليومَ القرآنَ، ثم لقد رأيتُ اليومَ رجالًا يُؤتَى أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ، فيَقرَأُ ما بينَ فَاتِحَتِه إلى خَاتِمَتِه، ولا يَدرِي مَا آمِرُهُ، وَلَا زَاجِرُهُ، ولا ما ينبغي أنْ يُوقَفَ عندَهُ منهُ، ويَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ.

وفي رواية: إنَّا كنَّا صُدُورَ هذهِ الْأمةِ، وكان الرَّجُلُ من خِيَارِ أصحابِ رسولِ اللهِ وصالِحِيهِمْ ما يُقِيمُ إلَّا سُورةً من الْقُرْآنِ أو شِبْهَ ذلكَ، وكان القرآنُ ثَقِيلًا علَيهم، ورُزِقُوا عِلمًا بِه وعَمَلًا، وإنَّ آخرَ هذهِ الأمةِ يَخِفُّ علَيهِم القرآنُ، حتَّى يَقرَأَهُ الصَّبيُّ والعَجَمِيُّ، لا يَعلَمُونَ منهُ شيئًا، أو قال: لا يُسَلِّمُونَ منهُ الشيءَ.

وأخرج ابن ماجه في «سننه»، عن جُندُبِ بنِ عبدِ الله قال: كُنَّا مع النبيِّ ﷺ ونحنُ فتيانٌ حَزَاوِرَةٌ، فتَعَلَّمْنَا الإيمانَ قبلَ أنْ نَتَعلَّمَ القرآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمنَا القرآنَ، فازْدَدْنَا بِه إيمانًا.

قال السِّندي في حاشيته على «سنن ابن ماجه»: «(حَزَاوِرَةٌ) جمع الحَزْوَر، ويقال له: الحَزَوَّر -بتشديد الواو- هو الغلامُ إذا اشتَدَّ وقَوِيَ وحَزُم. كذا في "الصحاح"، وفي "النهاية": هو الذي قارَبَ البلوغَ. قولُه: (فَازدَدنَا بِه) أي: بسببِ القرآنِ».

فإن قلت: ما مرادُهُم رضي عنهم بأنَّهم تعلَّموا الإيمانَ قبلَ القرآنِ؟

والجواب: مرادُهُم: كمالُ التسليم لأمرِ اللهِ تعالى الشرعيِّ والكونيِّ القَدَريِّ، والتسليمُ لأمرِ رسولِه ﷺ، فتُسلِّم لأمرِ اللهِ وأمرِ رسولِه الشرعيِّ بالطاعةِ والامتثالِ، وتُسلِّم لأمرِ اللهِ الكونيِّ القَدَريِّ بالصبرِ والاحتسابِ.

ولهذا يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: «الإيمانُ بدونِ قراءةِ القرآنِ ينفعُ صاحبَهُ، ويَدخلُ بِه الجنَّةَ، والقرآنُ بلا إيمانٍ لا ينفعُ في الآخرةِ؛ بل صاحبُهُ منافقٌ؛ كما في "الصحيحين" عن أبي موسى الأشعري، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **"مثلُ المؤمنِ الذي يَقرأُ القرآنَ كمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، طَعمُها طَيبٌ، ورِيحُها طَيبٌ، ومَثَلُ المؤمنِ الذي لا يَقرأُ القرآنَ كمَثَلِ التَّمرةِ، طَعمُها طيبٌ، ولا رِيحَ لها، ومَثَلُ المنافقِ الذي يَقرأُ القرآنَ كمَثَلِ الرَّيحانةِ، رِيحُها طيبٌ، وطَعمُها مُرٌّ، ومَثَلُ المنافقِ الذي لا يَقرأُ القرآنَ كمَثَلِ الحنظلةِ، طَعمُهَا مُرٌّ، ولا رِيحَ لها"**». «مجموع الفتاوى» ١٥/ ٧١.

ومِصداقُ ذلكَ في قولِه ﷺ: «**أكثرُ منافِقِي أمتي قُرَّاؤُها**». أخرجه أحمد، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقد ذمَّ اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى، ووَصَفَهُم بالضَّلالِ والغضبِ، لمَّا ضيَّعوا العلمَ والعملَ، فاليهودُ عَلِمُوا ولم يَعملُوا، فاستَحقُّوا غضبَ اللهِ تعالى عليهم، والنصارى عَمِلُوا بلا علمٍ، فضَلُّوا، لذا قال سفيانُ بنُ عيينةَ وغيرُ واحدٍ من السَّلَفِ: مَن فَسَدَ مِن علمائنا، ففيه شَبَهٌ من اليهودِ، ومَن فَسَدَ مِن عُبَّادِنا، ففيه شَبَهٌ مِن النصارى.

قوله (الثالثة: الدعوةُ إليهِ) أي: الدعوةُ إلى اللهِ تعالى، فمَن عَلِمَ وعَمِلَ، فإنَّه يَدعُو إلى ذلكَ، وممَّا يُبيِّنُ شَرَفَ الدعوةِ إلى اللهِ تعالى أنَّها وظيفةُ الرُّسُلِ وأتباعِهِم، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقد وَرَد في فضلِ الدعوةِ إلى اللهِ تعالى أحاديثُ كثيرةٌ، منها:

١ - قولُه ﷺ: «**مَن دَعَا إلى هُدًى، كان لهُ من الأجرِ مثلُ أجورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنقصُ ذلكَ من أجورِهِم شيئًا، ومَن دَعَا إلى ضلالةٍ، كان عليهِ من الإثمِ مثلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنقُصُ ذلكَ من آثامِهِم شيئًا**».

٢ - وقولُه ﷺ: «**مَن دَلَّ على خيرٍ، فلهُ مِثلُ أجرِ فاعلِه**». أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣ - وقولُه ﷺ: «**إذا مات ابنُ آدمَ انقَطَع عَمَلُه إلَّا من ثلاثةٍ: صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنتَفَعُ بِه، أو وَلَدٍ صالحٍ يَدعُو لهُ**». أخرجه مسلم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه أنَّه قال: ما تَصَدقَ عَبْدٌ بصَدَقةٍ أفضلَ من موعظةٍ يَعِظُ بِهَا إخوانًا لهُ مؤمنينَ، فيَتَفرَّقُونَ، وقد نَفَعَهُمُ اللهُ بِهَا.

وعن سفيان الثوري: لا أَعلَمُ من العبادةِ شيئًا أفضلَ مِن أنْ يُعلِّمَ الناسَ العلمَ.

وقال ابن الجوزي: مَن أَحَبَّ ألَّا يَنقطِعَ عَمَلُه بعدَ موتِه؛ فَليَنشُرِ العلمَ.

وقيل لابن المبارك: لو قيل لكَ: لم يَبْقَ من عُمُرِكَ إلَّا يومٌ ما كنتَ صانعًا؟ قال: كنتُ أُعلِّمُ الناسَ.

وقال ابن القيم: مَن عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ فذَاكَ يُدعَى عظيمًا في مَلَكُوتِ السماواتِ.

وقال أيضًا تعليقًا على قولِه ﷺ: «إنَّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السموات والأرض يُصَلُّونَ على مُعلِّمِ الناسِ الخيرَ»: «لمَّا كان تعليمُه الناسَ الخيرَ سببًا لنجاتِهِم وسعادتِهِم وزَكَاةَ نفوسِهِم؛ جازَاهُ اللهُ من جنسِ عَمَلِه، بأنْ جَعَل عليهِ من صلاتِه وصلاةِ ملائكتهِ وأهل الأرض ما يكون سببًا لنجاتِه وسعادتِه وفَلَاحِه.

وأيضًا؛ فإنَّ مُعلِّمَ الناسِ الخيرَ لمَّا كان مُظهِرًا لدينِ الرَّبِّ وأحكامِه ومُعرِّفًا لهم بأسمائِه وصفاتِه، جَعَل اللهُ من صلاتِه وصلاةِ أهلِ سماواتِه وأرضِه عليهِ، ما يكونُ تَنويهًا بِه، وتشريفًا لهُ، وإظهارًا للثناءِ عليهِ بينَ أهلِ السماءِ والأرضِ».

وقال أيضًا: «أَنفَعُ الناسِ لكَ: رَجُلٌ مكَّنكَ من نفسِه حتَّى تَزرَعَ فيها خيرًا، أو تَصنَعَ إليهِ معروفًا، فإنَّه نِعْمَ العونِ لكَ على منفعتِكَ وكمالِكَ، فانتفاعُكَ بِه في الحقيقةِ مثلَ انتفاعِه بِكَ أو أكثرَ، وأَضَرُّ الناسِ عليكَ مَن مكَّنَ نفسَه منكَ حتَّى تَعصِيَ اللهَ فيهِ، فإنَّه عَونٌ لكَ على مَضَرَّتِكَ ونَقصِكَ». «الفوائد» ص/ ٢٧٩؛ ط عطاءات العلم.

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز: «والعلماءُ الذينَ أَظهَرُوا العلمَ هم خِيرَةُ الناسِ، وأفضَلُهُم على وجهِ الأرضِ، وعلى رأسِهِم أئمةُ الرُّسُلِ عليهِمُ السلامُ وهم الأساسُ في الدعوةِ والعلمِ والفضلِ، ويَلِيهِم أهلُ العلمِ على طبقاتٍ؛ فكُلُّ مَن كان أَعلَمَ باللهِ وبأسمائِه وصفاتِه، وأَكمَلَ في العملِ والدعوةِ، كان أَقرَبَ الناسِ من الرُّسُلِ ومن درجاتِهِم ومنازِلِهِم في الجنةِ».

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: «وزَكاةُ العلمِ بأمورٍ منها: نَشْرُ العلمِ، كمَا يَتَصدَّقُ الإنسانُ بشيءٍ من مالِه، فهذا العالِمُ يَتَصدَّقُ بشيءٍ من عِلْمِه، وصَدَقةُ العلمِ أَبقَى دومًا، وأَقَلُّ كُلْفةً ومَؤونةً؛ أَبقَى دومًا؛ لأنَّه ربَّما كلمة من عالِمٍ تُسمَعُ يَنتفِعُ بِهَا فِئَامٌ من الناسِ، وما زلنا إلى الآن نَنتفِعُ بأحاديثِ أبي هريرةَ».

وممَّا ينبغي التنبيه عليه: أنَّ الدعوةَ إلى اللهِ تعالى ليست مقتَصَرةً على التعليمِ والخطابةِ، بل بهذا وبغيرِ ذلكَ، فكونُكَ تَدعُو أخاك أو زميلَك أو ولدَك ممَّن تَراهُ يحتاجُ للوعظِ والتذكيرِ، فهذا من الدعوةِ إلى اللهِ تعالى.

وكونُك تَدعُو إخوانَك لحضورِ مجالسِ العلمِ واصطحابِهِم معكَ، فهذا من الدعوةِ إلى اللهِ، وشراؤُكَ للكتبِ الدينيةِ النافعةِ وإهداؤُها لمَن يحتاجُها للتَّعلُّمِ، هذا من الدعوةِ إلى اللهِ تعالى.

وكَفَالتُكَ لطلبةِ العلمِ وتفريغُهُم لتعليمِ الناسِ، هذا من الدعوةِ إلى اللهِ تعالى.

وإنشاؤك لصفحاتٍ على وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ تَنشرُ فيها دروسَ أهلِ العلمِ، هذا من الدعوةِ إلى اللهِ تعالى، وهكذا.

قوله (الرابعة: الصبرُ على الأذى فيهِ) بعدَ الدعوةِ إلى اللهِ تعالى يأتي واجبُ البلاغِ، وهنا يَحتاجُ الدَّاعي إلى أنْ يُوطِّنَ نفسَه على تَحَمُّلِ المكارهِ والصِّعَابِ التي سيَلقاهَا في طريقِ دعوتِه؛ لأنَّه ما من داعٍ قام للدعوةِ إلى اللهِ تعالى، مُتَّبِعًا في ذلكَ منهجَ السلفِ الصالحِ، إلَّا لاقَى من الأذى والعَنَت ما اللهُ بِه عليمٌ، وقد قال تعالى لخيرِ خَلْقِه محمدٍ ﷺ: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾** [الفرقان: ٣١][(١)]، وقال: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾** [الأنعام: ١١٢ - ١١٣][(٢)]، وقال: **﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا**

---

(١) والمعنى: **﴿وَكَذَلِكَ﴾** كمَا جَعَلنَا لك عَدُوًّا من مشركي قومِك **﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾** قبلَك **﴿عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾** أي: المشركين، فاصبِر كمَا صبَرُوا، **﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾** لكَ **﴿وَنَصِيرًا﴾** وناصرًا لكَ على أعدائِك. «تفسير الجلالين».

(٢) **قال السعدي** في «تفسيره» ص/ ١٤٢: «يقولُ تعالى -مُسَلِّيًا لرسولِه محمدٍ ﷺ- وكمَا جَعَلنَا لكَ أعداءَ يَردُّونَ دَعوتَك، ويُحاربُونَك، ويَحسُدُونَك، فهذهِ سُنَّتُنا، أنْ نَجعلَ لكُلِّ نبيٍّ نُرسِلُه إلى الخَلْقِ أعداءً من شياطينِ الإنسِ والجِنِّ، يَقومُونَ بضِدِّ ما جاءَتْ بِه الرُّسُل **﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾** أي: يُزيِّنُ بعضُهُم لبعضٍ الأمرَ الذي يَدعُون إليهِ من الباطلِ، ويُزخرِفُونَ لهُ العباراتِ حتى يَجعلُوه في أحسنِ صورةٍ، لِيَغترَّ بِه السفهاءُ، ويَنقادَ لهُ الأغبياءُ، الذين لا يَفهمُونَ الحقائقَ، ولا يَفقهُونَ المعاني، بل تُعجِبُهُم الألفاظُ المُزخرَفَةُ، والعباراتُ المُموَّهةُ، فيَعتقِدُونَ الحقَّ باطلًا والباطلَ حقًّا، ولهذا قال تعالى: **﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾** أي: وَلِتَمِيلَ إلى ذلكَ الكلامِ المُزخرَفِ **﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾** لأنَّ عدمَ إيمانِهم باليومِ الآخرِ وعدمِ عقولِهم النافعةِ، يَحمِلُهُم على ذلكَ **﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾** بعدَ أنْ يَصغُوا إليهِ، فيُصغُون إليهِ أولًا، فإذا مالُوا إليهِ، ورَأَوا تلكَ العباراتِ المستحسنةِ، رَضَوه، وزُيِّنَ في قلوبِهِم، وصار عقيدةً

وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤][(١)]، وقال: **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٦][(٢)].

وقال وَرَقة بن نَوفَل لرسولِ اللهِ ﷺ: ليتَنِي أكونُ حَيًّا، إذْ يُخرِجُكَ قومُك، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَ مُخرِجِيَّ هُمْ؟**»، قال: نعم، لم يأتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ بِه إلَّا عُودِي، وإنْ يُدرِكْنِي يومُك أَنصُرْكَ نَصْرًا مُؤزَّرًا». أخرجه البخاري (٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

ورسولُنا ﷺ قبلَ البعثةِ كان يُسمَّى في قومِه بـ(الصادق الأمين)، فلمَّا جاءَهُم بالحقِّ ناصَبُوهُ العداءَ، وقالوا عنهُ: شاعرٌ، وساحرٌ، ومجنونٌ، وأنَّه يَتَلقَّى القرآنَ من الكهنةِ! فلا بُدَّ من الصبرِ.

وفي وصيةِ لقمانَ لابنِه: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** [لقمان: ١٧].

راسخةً، وصفةً لازمةً، ثم يَنتجُ من ذلكَ أنْ يَقترِفُوا من الأعمالِ والأقوالِ ما هُم مُقترِفُونَ، أي: يأتُونَ من الكذبِ بالقولِ والفعلِ، ما هو من لوازمِ تلكَ العقائدِ القبيحةِ».

(١) **قال الشيخ السعدي** في «تفسيره» عند هذه الآية: «أي: فاصْبِرْ كما صَبَرُوا، تَظفَرْ كما ظَفَرُوا».

(٢) «هذا تسليةٌ للمؤمنينَ، وحَثٌّ على الاقتداءِ بِهِم، والفعلِ كفِعْلِهِم، وأنَّ هذا أمرٌ قد كان مُتقدِّمًا، لم تَزَلْ سنةُ اللهِ جاريةً بذلكَ، فقال: **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ﴾** أي: وكَمْ من نبيٍّ **﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾**، أي: جماعاتٌ كثيرونَ من أتباعِهِم، الذينَ قد رَبَّتْهُمُ الأنبياءُ بالإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ، فأصابَهُمْ قَتْلٌ، وجِرَاحٌ، وغيرُ ذلكَ **﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾** أي: ما ضَعُفَتْ قلوبُهُم، ولا وَهَنَتْ أبدانُهُم، ولا استكانُوا، أي: ذَلُّوا لعَدوِّهِم، بل صَبرُوا وثَبتُوا، وشَجَّعُوا أنفسَهُم، ولهذا قال: **﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾**». «تفسير السعدي» ص/ ١٥١.

وأخبَر اللهُ تعالى أنَّ الإمامةَ في الدِّينِ لا تُنالُ إلَّا بالصبرِ واليقينِ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالصبرُ واليقينُ بهما تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ». «مجموع الفتاوى» ٣/ ٣٥٨.

ومَن تأمَّل ما وَقَع لرسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِه رضي الله عنهم في حصارِ الشِّعبِ، وفي غزوةِ الخندقِ، وفي صُلْحِ الحديبيةِ؛ يَتَبيَّنُ لهُ مَدَى الأذى والعَنَتِ الذي لَحِقَ برسولِ اللهِ ﷺ وصحابتِه رضي الله عنهم، ويَتَبيَّنُ لهُ أيضًا أنَّ العاقبةَ للمتقينَ.

ومن رحمةِ اللهِ تعالى بعبادِه أنَّه لم يُكلِّفْهُم هدايةَ الخَلْقِ، وإنَّما كلَّفَهُم البلاغَ، قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

فائدة: الصَّبرُ ثلاثةُ أقسامٍ:

١ - صَبرٌ على طاعةِ اللهِ.

٢ - وصَبرٌ عن معصيةِ اللهِ.

٣ - وصَبرٌ على أقدارِ اللهِ المُؤلِمةِ.

فالأوَّلان: صَبرٌ على ما يَتعلَّقُ بالكَسْبِ، والثالث: صَبرٌ على ما لا كَسْبَ للعبدِ فيهِ. انظر: «مدارج السالكين» ٢/ ٤٥١؛ ط عطاءات العلم.

واعْلَمْ أنَّ الصبرَ المحمودَ الذي يُثابُ عليهِ العبدُ هو الصبرُ للهِ، وباللهِ، ومع اللهِ: **أمَّا الأول:** وهو الصَّبرُ للهِ، فهو أنْ يكونَ الباعثُ على الصَّبرِ محبَّةَ اللهِ، وإرادةَ وَجْهِه، والتَّقرُّبَ إليهِ، لا إظهارَ قوَّةِ النَّفْسِ، والاستحِمادَ إلى الخَلْقِ، وغيرَ ذلكَ من الأغراضِ. **وأمَّا الثاني:** وهو الصَّبرُ باللهِ، وهو الاستعانةُ بِه، ورؤيةُ أنَّه هو

المُصبِّرُ، وأنَّ صبرَ العبدِ بربِّه لا بنفسِه، كما قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ**﴾ [النحل: ١٢٧]، يعني: إنْ لم يُصبِّرْكَ هو لم تَصبِرْ. **وأمَّا الثالث**: وهو الصَّبرُ مع اللهِ، وهو دورانُ العبدِ مع مرادِ اللهِ الدِّينيِّ منهُ، ومع أحكامِه الدِّينيَّةِ، صابرًا نفسَه معها، سائرًا بسَيرِهَا، مُقِيمًا بإقامتَها، يَتوَجَّهُ معهَا أينَ تَوَجَّهَتْ ركائِبُها، ويَنزِلُ معها أينَ استَقَلَّتْ مَضَارِبُهَا. فهذا معنى كونِه صابرًا مع اللهِ، أي: قد جَعَل نفسَه وَقْفًا على أوامرِه ومَحَابِّه. وهو أشدُّ أنواعِ الصبرِ وأصعبُها، وهو صبرُ الصِّدِّيقينَ.

انظر: «مدارج السالكين» ٢/ ٤٥٢؛ ط عطاءات العلم، و«طريق الهجرتين» ٢/ ٥٩٩؛ ط عطاءات العلم.

لكن في بعضِ الأحوالِ يكونُ الصبرُ عن المعصيةِ الكبيرةِ أفضلَ من الصبرِ على الطاعةِ الصغيرةِ، كما وَقَع ليوسفَ عليه السلام مع امرأةِ العزيزِ، فإنَّه كان شابًّا، وداعيةُ الشبابِ إليها قويَّةٌ، وكان عَزَبًا ليس لهُ ما يُعوِّضُه، ويُبرِّدُ شهوتَه، وكان غريبًا، والغريبُ لا يَستحِيي في بلدِ غُربتِه ممَّا يَستحِيي منهُ بينَ أصحابِه ومعارفِه وأهلِه، وكان مملوكًا، والمملوكُ أيضًا ليس وَازِعُه كوازِعِ الحُرِّ، وكانتِ المرأةُ جميلةً، وذاتَ مَنصِبٍ، وهي سيِّدتُه، وقد غاب الرَّقيبُ، وهي الداعيةُ لهُ إلى نفسِهَا، والحريصةُ على ذلكَ أشدَّ الحرصِ، ومع ذلكَ تَوَعَّدته إنْ لم يَفعَلِ بالسِّجنِ والصَّغارِ؛ ومع هذهِ الدَّواعِي كلِّها صَبَر اختيارًا وإيثارًا لِمَا عندَ اللهِ.

وههنا تنبيهان:

التنبيه الأول: ممَّا يُستغرَبُ منهُ أنَّ بعضَ الدُّعاةِ يَبتَدِعُونَ طُرُقًا للدعوةِ؛ لأجلِ جَلْبِ الناسِ إليهم، بل ويَتَنازلُونَ عن أصولٍ عظيمةٍ لأجلِ أنْ يُقبِلَ الناسُ عليهِم، وهذا خطأٌ كبيرٌ، فلا بُدَّ من لزومِ منهجِ السَّلَفِ، وإلَّا فكم من مُرِيدٍ للخيرِ لن يُصِيبَه، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه.

التنبيه الثاني: بعضُ الناسِ يعيشُ ولا يَشعرُ بِه أحدٌ رَغمَ ما معهُ من العلمِ، وربَّما كان صاحبَ شهاداتٍ شرعيةٍ، وصاحبَ إجازاتٍ، لكنَّه خامِلٌ، ليس لهُ هِمَّةٌ ولا نشاطٌ، ولا يَحمِلُ هَمَّ هذا الدِّينِ، فلا يَهتمُّ بتعليمِ الناسِ، ولا يَنصَحُهُم، بل ربَّما هَرَب من إمامةِ المُصلِّينَ، وتَرَك الناسَ يَؤُمُّهُم مَن لا يُحسِنُ الصلاةَ!

ومنهم مَن لهُ عنايةٌ بتعليمِ العلومِ الشرعيةِ، لكنَّه أَغفَلَ بابَ الرَّدِ على أعداءِ الدِّينِ، من مشركينَ، ومُبتَدِعِينَ، وفُسَّاقٍ، فلا تَجِدُ لهُ عنايةً بهذا البابِ العظيمِ من أبوابِ الدِّينِ، الذي بِه حراسةُ الشريعةِ، وحمايتُها من المُبطِلِين، السَّاعِينَ لهَدْمِ دينِ الإسلامِ، «وأيُّ دِيْنٍ!ّ وأيُّ خيرٍ! فيمَن يَرَى مَحَارمَ الله تُنتهَكُ، وحُدُودَه تُضاعُ، ودِينَه يُترَكُ، وسنَّةَ رسولِه يُرغَب عنها؛ وهو باردُ القلبِ، ساكتُ اللسانِ، شيطانٌ أخرسُ؟ كما أنَّ المُتكلِّمَ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ، وهل بَلِيَّةُ الدِّينِ إلَّا مِن هؤلاءِ، الذينَ إذا سَلِمَتْ لهم مآكِلُهُم ورياساتُهُم، فلا مبالاةَ بِمَا جَرَى على الدِّينِ؟»[1].

وبعضُ هؤلاءِ لو تأمَّلتَ حالَهم، لوَجَدتَ أنَّ من أسبابِ ضياعِهِم نظرَهُم إلى الخَلْقِ، فلا يُريدُونَ مُصادَمةَ الآخرينَ من المُخالفينَ، فيُؤثِرُونَ الراحةَ والدَّعَةَ، وربَّما كان بعضُ هؤلاءِ المخالفينَ جيرانًا لهُ، أو أصدقاءَ دراسةٍ، أو لهم عليهِ مِنَّةٌ، فيَعمَلُ لذلكَ حسابًا، فيَضعُفُ لأجلِ هذا عن الرَّدِّ، ويَلتمِسُ لنفسِه المعاذيرَ، ومنهم مَن هو حريصٌ على أنْ يُحافِظَ على مكانتِه بينَ الناسِ، وأنْ يَبقَى نَقِيَّ الثَّوب، لا يَتعرَّضَ لهُ أَحَدُ بسُوءٍ[2]، وهؤلاء إذا ماتُوا ماتُوا، فلا يَبقى

(١) «إعلام الموقعين» ٢/ ٥١٠؛ ط عطاءات العلم.

(٢) وقد سَمِعتُ مقطعًا لأحدِ المشايخ السلفيين يُثنِي على جارٍ لهُ، وكيف كانت هِمَّتُه في طلبِ العلمِ، وسمَّاه باسمِه، وهذا المُثنَى عليهِ معروفٌ بأنَّه سُرُوري، وممَّن بارَكَ ثوراتِ الربيعِ العربيِّ! وأنا لا أدري ما الفائدةُ المرجوةُ من وراءِ هذا الثناءِ؟
وهل فكَّر هذا الفاضلُ في عاقبةِ هذا الثناءِ، وكيف أنَّه سيكون سببًا في الاغترارِ بهذا الرَّجُلِ؛ لأجلِ ما سَمِعُوا من ثنائِه عليهِ.
وقد استَغلَّ الحزبيون هذا الموقفَ، فعَمِلُوا مقطعًا، جاؤوا فيه بصورةِ هذا الشيخِ الفاضلِ، وبصورةَ هذا السروريِّ، ونَشَروا ثناءَهُ عليهِ، فَرَحًا بهذا الثناءِ الذي يَحمِلُ تزكيةً لهُ، وإغاظةً للسلفيينَ!

لهم ذِكرٌ، ولا يُنتَفَعُ بعلمِهِم، فاحْذَرْ أنْ تكونَ من هؤلاءِ، واجْعَلْ قُدْوتَكَ وأُسْوَتَكَ أئمَّةَ السُّنةِ الذين باعُوا نفوسَهُم رخيصةً في ذاتِ اللهِ.

قال المؤلِّف:

والدليل: قولُه تعالى: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

قال الشافعيُّ رحمه الله تعالى: لو ما أَنزَلَ اللهُ حُجَّةً على خَلْقِه إلَّا هذهِ السورةَ؛ لَكَفَتهُم.

وقال البخاريُّ رحمه الله تعالى: بابٌ: العلمُ قبلَ القولِ والعملِ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]**، فبَدَأ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ.**

الشرح

بعدَ أنْ فَرَغ المؤلِّف من ذِكر المسائلِ الأربعِ التي يَجبُ تَعلُّمُهَا، ذَكَر الدليلَ على وجوبِ تَعَلُّمِ هذهِ المسائلِ.

قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ الواو واو القَسَمِ، والمُقسَمُ بِه هو العصرُ، وهو الزمانُ الذي يَقَعُ فيهِ حَرَكاتُ بني آدمَ من خيرٍ وشَرٍّ، أو ما بعدَ الزَّوالِ إلى غُرُوبِ الشمسِ، أو صلاةُ العصرِ.

لذلك لا تَعجَبْ -أيها الفاضلُ- من شِدَّةِ السلفِ في تعامُلِهِم مع أهلِ البدعِ، وكيف أنَّهم كانوا لا يُسلِّمونَ عليهِم، ولا يَشهَدُونَ جنائِزَهُم، فإنَّهم ما فَعَلُوا ذلكَ إلَّا صيانةً للشريعةِ، وحمايةً للعامَّةِ؛ لِئلَّا يُفتَنُوا بهؤلاءِ الضَّالِّينَ، واليومَ تَجِدُ من بعضِ أفاضلِ السلفيينَ مَن يَزورُ هؤلاءِ المخالفينَ، فيَعُودُهُم إذا مَرِضُوا، ويَشهَدُ جنائِزَهُم إذا ماتُوا، ويُعزِّي فيهِم على صفحاتِ التواصلِ الاجتماعيِّ، ويُلقِي الدروسَ في مساجِدِهِم، وإذا سُئِلَ عنهم غَمْغَمَ! ولم يُصرِّحْ بضلالِهِم! والسؤالُ الذي يَطرحُ نفسَه: لمصلحةِ مَن يَصنعُونَ هذا؟!

قوله: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ هذا هو المُقسَمُ عليهِ، وهو أنَّ كُلَّ إنسانٍ في خُسْرانٍ وهلاكٍ، والخَسَارُ مراتبُ مُتعدِّدةٌ متفاوتةٌ: قد يكونُ خَسَارًا مطلقًا كحالِ مَن خَسِرَ الدنيا والآخرةِ، وفاتَهُ النعيمُ، واستَحقَّ الجحيمَ، وقد يكونُ خاسرًا من بعضِ الوجوهِ دونَ بعضٍ، ولهذا عمَّم اللهُ الخسارَ لكُلِّ إنسانٍ، إلَّا مَن اتَّصَف بأربعِ صفاتٍ

قوله: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ استَثنى من جنسِ الخاسرينَ الذين آمنُوا بقلوبِهِم، وعملوا الصالحاتِ بجوارحِهِم، فهؤلاء ليسوا في خُسرانٍ، والإيمانُ يكونُ بِمَا أَمَر اللهُ بالإيمانِ بِه، ولا يكونُ الإيمانُ بدونِ العلمِ، فهو فرعٌ عنهُ لا يَتِمُّ إلَّا به.

قوله: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ العملُ الصالحُ شاملٌ لأفعالِ الخيرِ كلِّها، الظاهرةِ والباطنةِ، المُتعلِّقةِ بحقِّ اللهِ وحقِّ عبادِه الواجبةِ والمُستحبَّةِ.

قوله: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ**﴾ أي: أَوصَى بعضُهم بعضًا بالحقِّ، وهو الإيمانُ والعملُ الصالحُ، وحثَّه عليهِ، ورغَّبه فيهِ

قوله: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ أي: أَوصَى بعضُهم بعضًا بالصبرِ على الطاعةِ، والصبرِ عن المعصيةِ، والصبرِ على أقدارِ اللهِ المُؤلمةِ.

فبالأمرَينِ الأَوَّلينِ يُكمِّلُ الإنسانُ نفسَه، وبالأمرَينِ الأخيرَينِ يُكمِّلُ غيرَه، وبتكميلِ الأمورِ الأربعةِ يكونُ الإنسانُ قد سَلِمَ من الخَسارِ، وفاز بالرِّبحِ. «تفسير السعدي» ص/ ٩٣٤.

فائدة: قولُه تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾: هذا دليلُ العلمِ.

ووجه ذلك: أنَّ الإيمانَ باللهِ تعالى قائمٌ على التصديقِ بالأخبارِ، والتصديقُ بالأخبارِ لا يَتحقَّقُ إلَّا بعدَ العلمِ بهذه الأخبارِ، ومِن هنا صار طلبُ العلمِ واجبًا؛ لأنَّه هو السبيلُ لحصولِ الإيمانِ.

وقولُه تعالى: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ هذا دليلُ العملِ.

وقولُه تعالى: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ**﴾ هذا دليلُ الدعوةِ إلى اللهِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ هذا دليلُ الصبر على الأذى.

وقد رُوي عن بعضِ الصحابةِ رضي الله عنهم أنَّه قال: كان الرَّجُلانِ من أصحابِ النبيِّ ﷺ إذا التَقَيا لم يَتفرَّقا حتَّى يَقرأَ أحدُهُما على الآخرِ هذهِ السُّورةَ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، ثم يُسلِّمُ أحدُهُما على الآخرِ[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤١٧)، وصحَّح إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٦/ ٣٠٧ (٢٦٤٨).

فائدة: قال الإمام ابن القيم تعليقًا على هذهِ السُّورةِ: «المراتبُ أربعةٌ، وباستكمالِها يَحصلُ للشخصِ غايةُ كمالِه:

أحدُها: معرفةُ الحقِّ.

الثانيةُ: عملُه بِه.

الثالثةُ: تعليمُه من لا يُحسِنُه.

الرابعة: صَبرُه على تَعَلُّمِه، والعملِ بِه، وتعليمِه.

فذَكَر تعالى المراتبَ الأربعةَ في هذهِ السُّورةِ:

=فأَقسَمَ سبحانَه بالعصرِ أنَّ كلَّ أحدٍ في خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهم الذينَ عَرَفُوا الحقَّ وصدَّقوا بِه. فهذهِ مرتبةٌ.

=﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهم الذينَ عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا من الحقِّ. فهذه مرتبةٌ أخرى.

=﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وصَّى به بعضُهم بعضًا؛ تعليمًا وإرشادًا. فهذهِ مرتبةٌ ثالثةٌ.

=﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ صَبرُوا على الحقِّ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بالصبرِ عليهِ والثباتِ. فهذه مرتبةٌ رابعةٌ.

وهذا نهايةُ الكمالِ؛ فإنَّ الكمالَ أنْ يكونَ الشخصُ كاملًا في نفسِه، مُكمِّلًا لغيرِه، وكمالُه بإصلاحِ قُوَّتَيهِ العلميةِ والعمليةِ، فصلاحُ القوةِ العلميةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القوةِ العمليةِ بعملِ الصالحاتِ، وتكميلُه غيرَه بتعليمِه إيَّاهُ، وصَبرُه عليهِ، وتوصيتُه بالصبرِ على العلمِ والعملِ.

قوله: (قال الشافعيُّ رحمه الله تعالى: لو ما أَنزَلَ اللهُ حُجَّةً على خَلْقِه إلَّا هذهِ السورةَ؛ لَكَفَتهُم[١]**)** أي: لَكَفَتْهُم في الحَثِّ على تعلُّمِ هذا العلمِ، والعملِ بِه، والدعوةِ إلى اللهِ، والصبرِ على الأذى في اللهِ تعالى[٢].

وقوله: (قال البخاريُّ رحمه الله تعالى: بابٌ: العلمُ قبلَ القولِ والعملِ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فبَدَأ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ[٣]**)** أَورَدَ المؤلِّفُ كلامَ الإمامِ البخاريِّ؛ لِيَستَدِلَّ بِه على وجوبِ البدائةِ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ، واستدلَّ لذلكَ بقولِه تعالى لرسولِه ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾.

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى بَدَأ بالأمرِ بالعلمِ، فدلَّ ذلكَ على وجوبِ البدائةِ بِه قبلَ القولِ والعملِ؛ لأنَّ العلمَ هو المُصحِّح للنيَّةِ، المُصحِّحةِ للعملِ.

وما أَحسَنَ ما قالَهُ الإمامُ ابنُ القيمِ في بيانِ مكانةِ العلمِ وقُبحِ الجهلِ:

٤٢٥١ - وَالجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ *** أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ

٤٢٥٢ - نَصٌّ القُرْآنِ أَوْ مِنْ سُنَّةٍ *** وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي

فهذهِ السُّورةُ -على اختصارِها- هي مِن أَجمَعِ سُوَرِ القرآنِ للخيرِ بحَذَافِيرِه، والحمدُ للهِ الذي جَعَل كتابَه كافيًا من كُلِّ ما سِوَاهُ، شافيًا من كُلِّ داءٍ، هاديًا إلى كُلِّ خيرٍ». «مفتاح دار السعادة» ١/ ١٥٢ - ١٥٤؛ ط عطاءات العلم.

(١) هذه العبارةُ نَقَلَهَا النوويُّ هكذا: «إنَّ الناسَ أو أكثرَهُم في غفلةٍ عن تدبُّرِ هذهِ السُّورةِ»، ونَقَلَهَا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وابنُ القيمِ هكذا: «لو فكَّر الناسُ كلُّهُم في هذهِ السُّورةِ؛ لَكَفَتْهُم»، ونَقَلَهَا ابن كثير هكذا: «لو تَدبَّر الناسُ هذهِ السُّورةَ؛ لَوَسِعَتْهُم». انظر: «رياض الصالحين» ص/ ٩١، باب التعاون على البِرِّ والتقوى، و«مجموع الفتاوى» ٢٨/ ١٥٢، و«إغاثة اللهفان» ١/ ٢٥، و«مفتاح دار السعداة» ١/ ١٥٢؛ ط عطاءات العلم، و«تفسير ابن كثير» ٨/ ٤٧٩.

(٢) «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ عبد الله بن إبراهيم القرعاوي، ص/ ١٤.

(٣) عبارة الإمام البخاري في «صحيحه» ١/ ١٥٩؛ فتح الباري، هكذا: (بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾، فبَدَأ بالعلمِ).

٤٢٥٣ - وَالعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا *** مِنْ رَابِعٍ وَالحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

٤٢٥٤ - عِلْمٌ بأَوْصَافِ الإِلهِ وَفِعْلِهِ *** وَكَذلكَ الأَسْمَاءُ لِلرَّحْمنِ

٤٢٥٥ - وَالأَمْرُ والنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ *** وَجزَاؤهُ يَوْمَ المعَادِ الثَّانِي

٤٢٥٦ - وَالكُلُّ فِي القُرْآنِ والسُّنَنِ الَّتِي *** جَاءَتْ عَنِ المبْعُوثِ بالقرآنِ

٤٢٥٧ - وَاللهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ *** بِسِوَاهُمَا إِلَّا مِنَ الهَذَيَانِ

[المقدمة الثانية]

قال المؤلِّف رحمه الله:

اعْلَمْ -رَحِمكَ اللهُ-: أَنَّه يَجبُ على كُلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ تَعلُّمُ هذهِ الثلاثِ مسائلَ، والعملُ بِهِنَّ:

الأولى: أَنَّ اللهَ خَلَقنَا ورَزَقنَا، ولم يَترُكنَا هَمَلًا، بل أَرسَل إلينا رَسُولًا، فمَن أَطاعَه دَخَل الجنَّةَ، ومَن عَصَاهُ دَخَل النارَ.

والدليل: قولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥- ١٦].

الثانية: أَنَّ اللهَ لا يَرضَى أَنْ يُشرَك معهُ أحدٌ في عبادتِه، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ.

والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ المسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

الثالثة: أَنَّ مَن أَطاعَ الرسولَ، ووحَّد اللهَ، لا يَجوزُ لهُ موالاةُ من حَادَّ اللهَ ورسولَه، ولو كان أقربَ قريبٍ.

والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ...﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

الشرح

هذه هي المقدمةُ الثانيةُ، وقد ذَكَر المؤلِّفُ فيها ثلاثَ مسائلَ:

الأولى: بيانُ توحيدِ الربوبيةِ.

الثانية: بيانُ توحيدِ الألوهيةِ.

الثالثة: بيانُ الولاءِ والبراءِ على التوحيدِ.

وتَعَلُّمُ هذهِ المسائلِ الثلاثِ فَرْضُ عينٍ على كُلِّ مكلَّفٍ.

والمرادُ بتعلُّمِهَا: أي: اعتقادُهَا، والعملُ بِهَا، لا مجرَّدُ العلمِ فقط، فإنَّ هذا لا يُنجِي صاحبَه يومَ القيامةِ، فالمنافقونَ يَشهدُونَ بألسنتِهِم أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، ومع ذلكَ فَهُم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ؛ لِخُلُوِّ قلوبِهِم وجوارحِهِم من الاعتقادِ المطابقِ للقولِ، قال تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [المنافقون: ١]، وقال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا**﴾ [النساء: ٨١].

[توحيد الربوبية ومتابعة الرسول ﷺ]

قوله (الأولى: أنَّ اللهَ خَلَقنَا ورَزَقنَا) والدليلُ على هذا الأصلِ: قولُه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

فائدة: الخَلْقُ الذي اختصَّ اللهُ تعالى بِه هو الإيجادُ من العَدَمِ، ويدلُّ لذلكَ ما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩]، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٤]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٦٩]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٢].

٢ - ما جاء في الحديثِ القُدسِيِّ: أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: «وَمَنْ أَظْلم مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال النووي: «قوله تعالى: (فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً): معناه: فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً فيها رُوْحٌ تَتَصرَّفُ بنفسِهَا، كهذه الذَّرَّةِ التي هي خَلْقُ اللهِ تعالى، وكذلكَ فَلْيَخْلُقُوا حبَّةَ حنطةٍ أو شَعِيرٍ، أي: لِيَخْلُقُوا حبَّةً فيها طَعْمٌ تُؤكَلُ، وتُزرَعُ، وتَنبُتُ، ويُوجَدُ فيها ما يُوجَدُ في حبَّةِ الحِنطةِ والشعيرِ ونحوِهِمَا من الحَبِّ الذي يَخْلُقُهُ اللهُ تعالى. وهذا أمرُ تعجيزٍ»(١).

فإنْ قيل: كيف نَجمَعُ بين إفرادِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- بالخَلْق مع أنَّ الخَلْقَ قد يَثبتُ لغيرِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وقولُ النبيِّ ﷺ في المصوِّرين: «يُقَالُ لهمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»؟ فإنَّ ظاهرَ هذه النصوصِ أنَّ ثَمَّ خالقًا مع اللهِ؟

فالجوابُ: أنَّ الخَلْقَ الذي اختصَّ اللهُ تعالى بهِ هو الإيجادُ من العَدَمِ، ويَتبيَّنُ لكَ هذا في خَلْق آدمَ عليهِ السلامُ، فإنَّ اللهَ تعالى أَوجَدَهُ من العَدَم، وكذلك جميعُ مخلوقاتِ اللهِ تعالى هي إيجادٌ بعدَ عَدَمٍ. هذا هو معنى الخَلْقِ الذي اختصَّ اللهُ تعالى به، **وأمَّا المخلوقُ،** فإنَّه لا يَخلُقُ من العَدَمِ، وإنَّما يُحوِّلُ المادةَ من حالٍ إلى حالٍ، كما يُحوِّلُ الطينَ والحديدَ وغيرَ ذلكَ، وهي في الحقيقةِ من خَلْقِ اللهِ تعالى، فهو الذي أَوجَدَ هذه المادةَ، وليس خَلْقُ الآدميِّ القدرةَ على الإيجادِ من العَدَمِ، **قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين:** «غيرُ اللهِ تعالى لا يَخلُقُ كخَلْقِ اللهِ، فلا يُمكِنُهُ إيجادُ معدومٍ، ولا إحياءُ ميتٍ، وإنَّما خَلْقُ غيرِ اللهِ تعالى يكونُ بالتغييرِ، وتحويلِ الشيءِ من صفةٍ إلى صفةٍ أخرى، وهو مخلوقٌ للهِ عزَّ وجلَّ، فالمصوِّرُ -مثلًا-، إذا صوَّر صورةً، فإنَّه لم يُحدِثْ شيئًا، غايةُ ما هنالك أنَّه حوَّل شيئًا إلى شيء، كما يُحوِّلُ الطينَ إلى صورةِ طيرٍ، أو صورةِ جَمَلٍ، وكما يُحوِّلُ

(١) «شرح صحيح مسلم» ١٤/ ٩١.

بالتلوينِ الرقعةَ البيضاءَ إلى صورةٍ ملونةٍ، فالمِدَادُ من خَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والورقةُ البيضاءُ من خَلْق اللهِ عزَّ وجلَّ، هذا هو الفرقُ بينَ إثباتِ الخَلْقِ بالنسبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وإثباتِ الخَلْق بالنسبةِ إلى المخلوقِ، وعلى هذا يكونُ اللهُ سبحانه وتعالى منفردًا بالخَلْقِ الذي يَختصُّ به»[(١)].

فائدة أخرى: رِزق الله نوعان: عامٌّ وخاصٌّ[(٢)]: **فالعام:** هو رِزقُه سبحانَه لجميعِ عبادِه، البَرِّ، والفاجرِ، والأوَّلينَ والآخرينَ، وهو رِزقُ الأبدانِ، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فجميعُ ما على وجهِ الأرضِ، من آدميٍّ، أو حيوانٍ بريٍّ، أو بحريٍّ، فاللهُ تعالى قد تكفَّل بأرزاقِهم وأقواتِهم. **والخاص:** هو رِزقُ القلوبِ وتغذيتُها بالعلمِ والإيمانِ، وهذا الرِّزق يَمُنُّ اللهُ به على مَن يشاءُ من عبادِه، قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] [آل عمران: ٧٤].

قوله (ولم يَتْرُكنَا هَمَلًا، بل أَرسَل إلينا رَسُولًا) أي: لم يَترُكنَا سُدًى بلا أَمْرٍ ولا نَهْيٍ، قال تعالى: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾** [المؤمنون: ١١٥][(٣)]، وقولُه: **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾** [القيامة: ٣٦][(٤)].

---

(١) «مجموع فتاوى العثيمين» ١/ ١٩.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ٤/ ٤١، و«نونية ابن القيم» (٣٣٤٦ – ٣٣٤٨؛ ط عطاءات العلم)، و«الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهود في توضيح العقيدة» ص/ ١٣٧.

(٣) «أي **﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾** أيُّها الخَلْقُ **﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾**؛ أي: سُدًى وباطلًا، تَأكلُونَ وتَشربُونَ وتَمرَحُونَ، وتَتمتَّعُونَ بلذاتِ الدنيا، ونَترُكُكُم لا نَأمرُكُم، ولا نَنهاكُم، ولا نُثِيبُكُم، ولا نُعاقِبُكُم؟ ولهذا قال: **﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾** لا يَخطُرُ هذا ببالِكُم **﴿فَتَعَالَى اللهُ﴾** أي: تَعاظَمَ وارتَفَع عن هذا الظَّنِّ الباطلِ الذي يَرجِعُ إلى القدحِ في حكمتِه». «تفسير السعدي».

(٤) **قال ابن كثير** في «تفسيره»: «قال السُّدِّي: يعني: لا يُبعث. وقال مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لا يُؤمَر ولا يُنهَى. والظاهرُ أنَّ الآيةَ تَعُمُّ

بل أَرسَلَ إلينا رَسُولًا يُبلِّغُنَا أوامرَ اللهِ ونَوَاهِيهِ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وهذهِ المِنَّةُ التي امتَنَّ اللهُ بِهَا على عبادِه هي أكبرُ النِّعَمِ بل أصلُها، وهي الامتِنانُ عليهِم بهذا الرسولِ الكريمِ، الذي أنقَذَهُمُ اللهُ بِه من الضَّلالةِ، وعَصَمَهُم بِه من الهَلَكَةِ.

قوله: (فمَن أَطاعَه دَخَل الجنَّةَ، ومَن عَصَاهُ دَخَل النارَ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥- ١٦][(١)]) لأنَّ طاعةَ الرسولِ من طاعةِ اللهِ تعالى، وسببٌ في دخولِ الجنةِ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

الحالَين، أي: ليس يُترَكُ في هذه الدنيا مُهملًا لا يُؤمَر ولا يُنهَى، ولا يُترَكُ في قبرِه سُدًى لا يُبعَثُ، بل هو مأمورٌ منهيٌّ في الدنيا، محشورٌ إلى اللهِ في الدارِ الآخرةِ».

(١) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهلَ مكَّةَ ﴿رَسُولًا﴾ هو محمدٌ ﷺ ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يومَ القيامةِ بِمَا يَصدرُ منكُم من العصيانِ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو موسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ﴾ أي: فرعونَ ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ أي: شديدًا، وذلكَ بإغراقِه وجنودِه في اليَمِّ، فلم يَفلِتْ منهم أحدٌ.

فاحمَدُوا ربَّكُم أيُّها المؤمنونَ على إرسالِ هذا النبيِّ الأُمِّيِّ العربيِّ البشيرِ النذيرِ، الشاهدِ على الأمةِ بأعمالِها، واشكُرُوهُ وقومُوا بهذهِ النعمةِ الجليلةِ، وإيَّاكُم أنْ تَكفُرُوهَا، فتَعصُوا رسولَكُم، فتكونوا كفرعونَ حين أَرسَلَ اللهُ إليهِ موسى بنَ عمرانَ، فدَعَاهُ إلى اللهِ، وأَمَرهُ بالتوحيدِ، فلم يُصدِّقهُ، بل عَصَاهُ، فأَخَذهُ اللهُ أَخْذًا شديدًا بليغًا. «تفسير الجلالين»، و«تفسير السعدي».

فإن قيل: لماذا خُصَّ موسى وفرعونُ بالذِّكرِ من بينِ سائرِ الأممِ والرُّسُلِ؟

والجواب: لأنَّ خبرَ موسى وفرعونَ كان منتشرًا بينَ أهلِ مكةَ؛ لأنَّهم كانوا جيرانَ اليهودِ. «تسهيل الوصول إلى الثلاثة الأصول» ص/ ٦٦.

[النور: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، فالهُدى كُلَّ الهُدَى في اتباعِ الرسولِ ﷺ، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، كما أنَّ معصيتَه ﷺ معصيةٌ للهِ تعالى، وسببٌ في دخولِ النارِ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣][(١)].

---

(١) **فائدة:** وَرَد الأمرُ بطاعةِ الرسولِ ﷺ وترغيبِ المؤمنينَ في ذلكَ في أكثرَ من ثلاثينَ موضعًا في كتابِ اللهِ تعالى، وقد تَنوَّعَتْ صيغُ هذا الأمرِ، ويُمكِنُ تقسيمُ هذهِ المواضعِ إلى عدَّةِ أقسامٍ رئيسيةٍ:

القسم الأول: اقترانُ طاعةِ اللهِ بطاعةِ الرسولِ ﷺ مع تكرارِ فعلِ الطاعةِ؛ لبيانِ استقلاليةِ طاعةِ الرسولِ ﷺ فيمَا يَأمرُ بِه ويَنهَى عنهُ:

كما في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

القسم الثاني: عطفُ طاعةِ الرسولِ على طاعةِ اللهِ بدونِ تكرارِ الفعلِ:

كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقولِه تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، وقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

تنبيه: المخالفونَ للرسولِ ﷺ أصناف:

الصِّنف الأول: الذينَ يُقدِّمونَ العقلَ على النَّقْلِ بدعوى أنَّ دلالةَ العقلِ قطعيةٌ، وأنَّ دلالةَ النصوصِ ظنيةٌ! وهؤلاء هم المعتزلةُ، والأشاعرةُ.

الصِّنف الثاني: الذينَ ردُّوا نصوصَ السُّنةِ بدعوى أنَّها أخبارُ آحادٍ لا تُفيدُ اليقينَ في بابِ الاعتقاداتِ! وهؤلاء هم المعتزلةُ، والأشاعرةُ.

الصِّنف الثالث: الصوفيةُ الذينَ أَحدَثُوا البدعَ، وقدَّموا الذَّوقَ والكشفَ والمَنَاماتِ على نصوصِ الشرعِ، حتَّى يقول قائلُهُم: حدَّثني قلبِي عن ربِّي!!

الصِّنف الرابع: العلمانيونَ الذينَ يَزعُمُونَ أنَّ الشريعةَ لا يَصلحُ تطبيقُهَا في هذا العصرِ، وأنَّه لا بُدَّ من السَّيرِ في رِكَابِ الغربِ! ولأجلِ هذا نادَوْا بفَصْلِ الدِّينِ عن الدُّنيا، وعلى أيدي هؤلاءِ ظَهَر مصطلحُ الدولةِ المدنيةِ!

القسم الثالث: بصيغةِ الفعلِ المضارعِ؛ لبيانِ الثوابِ العظيمِ لمَن يَلتزمُ بهذهِ الطاعة: كما في قولِه تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [النساء: ١٣]، وقولِه تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩]، وقولِه تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [النور: ٥٢]، وقولِه تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقولِه تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ [الفتح: ١٧].

القسم الرابع: إفرادُ طاعةِ الرسولِ ﷺ مباشرةً، كما في قولِه تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النور: ٥٦].

القسم الخامس: جَعْلُ طاعةِ الرسولِ ﷺ هي عينُ طاعةِ اللهِ تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾ [النساء: ٨٠].

وهذه المواضعُ تُؤكِّدُ أنَّ امتثالَ أوامرِ النبيِّ ﷺ جزءٌ لا يَتجزأُ من الإيمانِ، وأنَّه لا يَصحُّ إيمانُ المرءِ إلَّا بها.

وقد ذَكَر اللهُ تعالى عقوبتَينِ لمَن يُخالِفُ الرسولَ ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ففي هذه الآية عقوبتانِ لمَن يُخالِفُ الرسولَ ﷺ.

العقوبة الأولى: الزيغ في القلب:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]؛ أي: لمَّا انصَرَفُوا عن الحقِّ بقَصدِهِم ﴿أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عقوبةً لهم على زَيغِهِم الذي اختارُوهُ لأنفسِهِم ورَضَوهُ لها، ولم يُوفِّقهُمُ اللهُ للهُدَى، لأنَّهم لا يَليقُ بِهِم الخيرُ، ولا يَصلحُونَ إلَّا للشَّرِّ ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين لم يَزَلِ الفسقُ وَصْفًا لهم لا لَهُم قَصْدٌ في الهُدَى، وهذهِ الآيةُ الكريمةُ تُفيدُ أنَّ إضلالَ اللهِ لعبادِه ليس ظُلمًا منهُ، ولا حُجَّةً لهم عليهِ، وإنَّما ذلكَ بسببٍ منهم، فإنَّهمُ الذينَ أَغلقُوا على أنفسِهِم بابَ الهُدَى بعدما عَرَفُوهُ، فيُجازِيهِم بعدَ ذلكَ بالإضلالِ، والزيغِ الذي لا حيلةَ لهم في دَفْعِه، وتقليبِ القلوبِ، عقوبةً لهم، وعَدلًا منهُ بِهِم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. «تفسير السعدي» ص/ ٨٥٨.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]؛ يعني: أنَّ المنافقينَ الذين يَحذَرُونَ أنْ تَنزِلَ عليهم سورةٌ تُنبِّئُهُم بِمَا في قلوبِهِم، إذا نَزَلَتْ سورةٌ لِيُؤمنُوا بِهَا، ويَعملُوا بمضمونِهَا ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ جازِمِينَ على تركِ العملِ بِهَا، يَنتظرُونَ الفرصةَ في الاختفاءِ عن أعينِ المؤمنينَ، ويقولونَ: ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ مُتسلِّلِينَ، وانقلبُوا مُعرِضِينَ، فجازاهُمُ اللهُ بعقوبةٍ من جنسِ عملِهِم، فكمَا انصَرفُوا عن العملِ ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: صَدَّها عن الحقِّ وخَذَلَها ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ فِقْهًا يَنفعُهُم، فإنَّهم لو فَقِهُوا، لكانوا إذا نَزَلَتْ سورةٌ آمنُوا بِهَا، وانقادُوا لأمرِها، والمقصودُ من هذا بيانُ شدةِ نُفُورِهِم عن الجهادِ وغيرِهِ من شرائعِ الإيمانِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ

﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾. «تفسير السعدي» ص/ ٣٥٦.

وهذا وعيدٌ شديدٌ، فالذي في قلبِه زَيْغٌ أو نفاقٌ، يُصابُ بالانحرافِ في العقيدةِ، وبالانحرافِ في الدِّينِ، وبالانحرافِ في الأخلاقِ، وفي كلِّ شيءٍ، عقوبةً لهُ من اللهِ سبحانَه وتعالى. انظر: «إعانة المستفيد لشرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان ٢/ ١١٤ - ١١٥.

العقوبة الثانية: الإصابةُ في أبدانِهم بالقَتْلِ في الدُّنيا، بأنْ يُسلِّطَ اللهُ عليهم مَن يستأصِلُ شأفَتَهم ويَقتلُهُم، إمَّا من المؤمنينَ، وإمَّا من غيرِ المؤمنينَ، عقوبةً لهم، وإنْ ماتوا ولم يُقتَلُوا، فإنَّهم يُعذَّبُونَ في الآخرةِ. انظر: «إعانة المستفيد لشرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان ٢/ ١١٤ - ١١٥.

فهل يَعقلُ هذا مَن يخالفون شرعَ الله تعالى، ثم يُعلِّقون الجنايةَ بغيرهم؟!

[توحيد الألوهية]

قوله (الثانية: أنَّ اللهَ لا يَرضَى أنْ يُشرَكَ معهُ أحدٌ في عبادتِه)؛ لأنَّ العبادةَ محضُ حقِّ اللهِ تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال ﷺ: «**حقُّ اللهِ على العبادِ أن يَعبُدُوه، ولا يُشرِكُوا بِه شيئًا**»، لذلكَ لا يجوزُ صَرْفُ شيءٍ منها لغيرِ اللهِ تعالى.

قوله (لا مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ) لأنَّه وحدَه هو المُستحِقُّ للعبادةِ، وإذا كان اللهُ تعالى لا يَرضى أن يُشرَكَ معهُ في عبادتِه صنفانِ من أفضلِ الخَلْقِ على الإطلاقِ، وهما الملائكةُ والنَّبيُّون؛ فغيرُهُما من الأولياءِ والصالحينَ لا يَصحُّ صَرْفُ شيءٍ من العبادةِ لهُ من بابِ أولى.

وقد حَكَى اللهُ تعالى في كتابِه تَبرُّؤَ ملائكتِه وأنبيائِه ورُسُلِه ممَّن عَبَدُوهُم معهُ، فقال تعالى عن الملائكةِ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ

﴿مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١][(١)]، وقال عن أنبيائِه ورُسُلِه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠][(٢)].

قوله (والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ المسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾) معنى الآية: أنَّ المساجدَ بيوتُ اللهِ، فلا يَصحُّ أنْ يُشرَكَ معهُ فيها أحدٌ[(٣)].

---

(١) **قال السعدي** في «تفسيره»: «﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: العابِدِينَ لغيرِ اللهِ والمَعبُودِينَ من دونِه من الملائكةِ، ثم يقول اللهُ للملائكةِ على وجهِ التوبيخِ لمَن عَبَدهُم ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ فتبرَّأوا من عبادتِهم. و﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: تَنزيهًا لكَ وتقديسًا أنْ يكونَ لكَ شريكٌ أو نِدٌّ ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ فنحنُ مُفتقِرُونَ إلى وَلَايتِكَ، مُضطرونَ إليها، فكيف نَدعُو غيرَنا إلى عبادتِنا؟ أم كيف نَصلحُ لأنْ نَتَّخِذَ من دونِكَ أولياءَ وشركاءَ؟ ولكنْ هؤلاءِ المشركونَ ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطينَ، يأمرُونَ بعبادتِنَا أو عبادةِ غيرِنا، فيُطيعُونَهُم بذلكَ».

(٢) **قال السعدي** في «تفسيره»: «أي: يَمتنعُ ويَستحيلُ كُلَّ الاستحالةِ لبَشَرٍ مَنَّ اللهُ عليهِ بالوحيِ والكتابِ والنُّبوَّةِ، وأَعطاهُ الحُكمَ الشرعيَّ أنْ يَأمُرَ الناسَ بعبادتِه، ولا بعبادةِ النبيِّينَ والملائكةِ، واتِّخاذِهِم أربابًا، لأنَّ هذا هو الكفرُ، فكيف، وقد بُعِثَ بالإسلامِ المُنافِي للكفرِ من كُلِّ وجهٍ، فكيف يَأمرُ بضِدِّه؟!! هذا من المُمتنِعُ؛ لأنَّ حالَه وما هو عليهِ، وما مَنَّ اللهُ بِه عليهِ من الفضائلِ والخصائصِ، تقتضي العبوديةَ الكاملةَ، والخضوعَ التامَّ للهِ الواحدِ القهارِ. وهذا جوابٌ لوفدِ نجرانَ حينَ تَمَادَى بِهِمُ الغرورُ، ووَصَلَتْ بِهِمُ الحالُ والكِبرُ أنْ قالوا: أَتَأمُرُنا يا محمدُ أنْ نَعبُدَكَ؟ حينَ أَمَرَهُم بعبادةِ اللهِ وطاعتِه، فبيَّن الباريُ انتفاءَ ما قالوا، وأنَّ كلامَهُم وكلامَ أمثالِهِم في هذا ظاهرُ البُطلانِ».

(٣) واختُلف في المراد بالمساجد على أربعة أقوال:

القول الأول: أنَّ المرادَ بذلكَ المواضعُ التي بُنِيتْ للصلاةِ والعبادةِ، أَمَر اللهُ المؤمنينَ أنْ يُخلِصُوا فيها الدعاءَ للهِ تعالى.

[الولاء والبراء]

قوله (الثالثة: أنَّ مَن أَطاعَ الرسولَ، ووحَّد اللهَ، لا يَجوزُ لهُ موالاةُ من حَادَّ اللهَ ورسولَه، ولو كان أقربَ قريبٍ. والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ...﴾) أي: أنَّ مَن أطاع الرسولَ -بفعلِ ما أَمَر، واجتنابِ ما نَهَى-، ووحَّد اللهَ تعالى -فلم يُشرِكْ بِه شيئًا-؛ لا يجوزُ لهُ موالاةُ الكفارِ، ولو كانوا أقربَ قريبٍ.

ومن الأدلةِ أيضًا على تحريمِ موالاةِ الكافرينَ:

قولُه تعالى: **﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾** [آل عمران: ٢٨].

القول الثاني: أنَّ المرادَ بذلكَ بقاعُ الأرضِ كلِّها؛ لأنَّ الأرضَ كلَّها مَسجِدٌ، كما في الحديث: «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسجدًا وطَهورًا»، وعلى هذا يكونُ المعنى: أن الأرض كلَّها مواضعُ للسجود، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها.

القول الثالث: أنَّ المرادَ بذلكَ أعضاءُ السجودِ التي يَسجدُ عليها الإنسانُ، وعلى هذا يكونُ المعنى: هذهِ الأعضاءُ لا تَسجدُوا عليها لغيرِ خالِقِها.

القول الرابع: أنَّ المرادَ بذلكَ السجودُ، فإنَّه جمع مَسْجَد، يقال: سَجَدت سجودًا ومَسْجَدًا، وعلى هذا يكونُ المعنى: أَخلِصُوا للهِ، ولا تَسجدُوا لغيرِه.

وكُلُّ هذهِ المعاني حقٌّ، وهي مرادةٌ من الآيةِ. انظر: «زاد المسير» ٤/ ٣٤٩.

وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُو مَعَ اللهِ﴾ «أي: لا دعاءَ عبادةٍ ولا دعاءَ مسألةٍ، فإنَّ المساجدَ التي هي أعظمُ مَحَالِّ العبادةِ مبنيةٌ على الإخلاصِ للهِ، والخضوعِ لعظمتِه، والاستكانةِ لعِزَّتِه». «تفسير السعدي» ص/ ٨٩٠.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ جاءَتْ نكرةً في سياقِ النهيِ، فتَعمُّ كلَّ معبودٍ من دونِ اللهِ تعالى، فيكون المعنى: فلا تَدْعُ مع اللهِ أحدًا كائنًا مَن كان، سواءٌ كان المَدعُوُّ مَلَكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو صنمًا، أو شَجَرًا، أو حَجَرًا، أو جِنِّيًّا.

وقولُه تعالى: ﴿بَشِّرِ المنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وقولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وسببُ نَهْيِ الشريعةِ عن موالاةِ المشركينَ؛ أنَّ مَودَّتَهُم تُضعِفُ التوحيدَ في قلبِ المؤمنِ، أو تُذهِبُه بالكليةِ.

مسألة: موالاةَ الكفارِ على قسمين:

القسم الأول: الموالاةُ العامةُ المطلقةُ التامةُ المرتبطةُ بالعقيدةِ والدِّينِ، أو ما يُعبِّر عنُه بعضُ أهلِ العلمِ بالتَّولِّي الذي يكونُ فاعلُه كافرًا مُرتَدًّا خارجًا عن الإسلامِ، وهو محبةُ الكفارِ لأجلِ دينِهِم، أو نُصرتُهُم لأجلِ دينِهِم والرِّضَا بِه، فإنْ وُجِدَتْ نصرةٌ بدونِ هذا الدافعِ، وهو محبةُ دينِهِم، وإنَّما لِحَظٍّ دنيويٍّ؛ فهو مُحرَّمٌ، وليس كُفرًا، **وهذا هو القسم الثاني**: وهو الموالاةُ المقيَّدةِ أو الخاصَّةِ التي لا يَكفرُ مُرتكِبُهَا، وهي موالاةُ الكفارِ لغرضٍ دنيويٍّ، مع سلامةِ الاعتقادِ، وبُغضِ الكفرِ وأهلِه أو إعانتُهُم ويكونُ الحاملُ لهُ على ذلكَ مصلحةً شخصيةً، أو عداوةً دنيويةً بينَهُ وبينَ مَن يُقاتِلُهُ الكفارُ من المسلمينَ، فهذهِ كبيرةٌ من كبائرِ الذنوبِ، لا تُخرِجُ صاحبَها من الإسلامِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ النُّصرةِ العمليةِ للكفارِ على المسلمينَ دونَ عقيدةِ القلبِ لا يُكَفِّرُ بها؛ لاحتمالِ أنْ يكونَ ذلكَ عن ضَعْفِ إيمانٍ، مع بُغضِ الكفرِ وأهلِه.

وسيأتي كلامٌ مُفصَّلٌ في مسألةِ الموالاةِ وما يَتعلَّقُ بها عندَ التعليقِ على كتابِ «نواقض الإسلام – الناقض الثامن» بإذنِ اللهِ تعالى.

[بداية الرسالة]

قال المؤلِّف:

اعْلَمْ -أَرشَدكَ اللهُ لطاعتِه-: أنَّ الحنيفيةَ ملَّةَ إبراهيمَ: أنْ تَعبُدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا لهُ الدينَ، وبذلكَ أَمَر اللهُ جميعَ الناسِ، وخَلَقهُم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، **ومعنى: يَعبُدون: يُوحِّدون.**

وأعظمُ ما أَمَر اللهُ به: التوحيدُ، وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة، وأعظمُ ما نَهَى عنه: الشركُ، وهو: دعوةُ غيرِه معهُ. والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الشرح

قوله: (اعْلَمْ -أَرشَدكَ اللهُ لطاعتِه-) الرُّشْدُ: هو الثباتُ على الدِّينِ. أو: هو الاستقامةُ على الحقِّ مع الصلابةِ فيهِ.

والمؤلِّفِ -رحمه الله- من أجل محبَّتِه الخيرَ لقارئِ هذهِ الرسالةِ، دَعَا اللهَ تعالى أنْ يَرزقَهُ الثباتَ على الحقِّ حتى يَلقَاهُ عليهِ، وهذا دعاءٌ عظيمٌ لمَن تَدبَّرهُ وعَقَلهُ؛ فليس الشأنُ في أنْ تكونَ على الحقِّ، وإنَّما الشأنُ في ثباتِكَ على هذا الحقِّ حتَّى تَلقَى اللهَ تعالى بِه، ولذلكَ كان أكثرُ دعاءِ النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبِي على دينِكَ».

ويقول الحسنُ البصريُّ: ليس العَجَبُ ممَّن هَلَك كيف هَلَك؟ وإنَّما العَجَبُ ممَّن نَجَا كيف نَجَا؟!

قوله: (أنَّ الحنيفيةَ ملَّةَ إبراهيمَ) الحنيفُ لغة: مأخوذٌ من الحَنَفِ، وهو مَيْلٌ وعِوَجٌ في القَدَمِ، ومنهُ قيل للأحنفِ بنِ قيسٍ ذلكَ؛ لأنَّه كان أَحنَفَ القَدَمِ.

وشرعًا: هو المُقبِلُ على اللهِ بالتوحيدِ تَعَلُّمًا وتعليمًا، المُعرِضُ عن الشركِ وأهلِه، ومَن فسَّر الحنيفَ بالمائلِ عن الشركِ إلى التوحيدِ، لم يُفسِّرْهُ بنفسِ موضوعِ اللفظِ، وإنَّما فسَّرهُ بلازمِ المعنى[1].

وعليه؛ فوجهُ تسميةِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ بأنَّه كان حنيفًا: أنَّه تَرَكَ دِينَ قومِه – الذي هو الشرك- إلى التوحيدِ.

والمِلَّة: اسمٌ لِمَا شَرَع اللهُ على لسانِ أنبيائِه ورُسُلِه.

وملَّة إبراهيمَ: هي الطريقةُ التي كان عليها إبراهيمُ عليهِ السلامُ.

فحقيقةُ ملَّةِ إبراهيمَ: هي تحقيقُ كلمةِ التوحيدِ (لا إله إلا الله)[2].

وقد جاء ذِكرُ الحنيفيةِ بأنَّها إفرادُ اللهِ تعالى بالعبادةِ ونَبْذِ الشركِ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابِ اللهِ تعالى:

---

(١) **قال ابن القيم:** «الحنيفُ: المُقبِلُ على اللهِ تعالى، المُعرِضُ عمَّا «سواه، ومَن فسَّرهُ بالمائلِ فلم يُفسِّرْهُ بنفسِ موضوعِ اللفظِ، وإنَّما فسَّره بلازمِ المعنى، فإنَّ الحَنَفَ هو الإقبالُ، ومَن أَقبَلَ على شيءٍ مال عن غيرِه، والحَنَفُ في الرِّجْلَين هو إقبالُ إحداهُما على الأخرى، ويَلزَمُه مَيْلُها عن جهتِهَا». «جِلاء الأفهام» ص/ ٣٠٥-٣٠٦؛ ط عطاءات العلم.

(٢) **قال الطبري** في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾: «والحَنِيفُ عندِي: هو الاستقامةُ على دِينِ إبراهيمَ، واتِّباعُه على مِلَّتِه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «تفسير آيات أشكلت» ص/ ٣٩٤: «والقرآنُ كُلُّه يدلُّ على أنَّ الحنيفيةَ هي مِلَّةُ إبراهيمَ، وأنَّها عبادةُ اللهِ وحدَهُ، والبراءةُ من الشركِ، وعبادتُه سبحانَه إنَّما تكونُ بما أَمَر به وشَرَعَه، وذلكَ يَدخلُ في الحنيفيةِ، ولا يَدخلُ فيها ما ابتُدِعَ من العباداتِ، كما ابتَدَع اليهودُ والنصارى عباداتٍ لم يَأمُرْ بها الأنبياءُ، فإنَّ موسى وعيسى وغيرَهُما من أنبياءِ بني إسرائيلَ، ومَن اتَّبَعَهُم، كانوا حُنَفَاءَ، بخلافِ مَن بدَّل دينَهُم، فإنَّه خارجٌ عن الحنيفيةِ».

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥].

وقال تعالى عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقال تعالى على لسان نبيِّه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج:٣٠ - ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣١].

(وقد فَرَض اللهُ على الناس جميعًا أنْ يكونوا حنفاءَ:

فقال تعالى في حقِّ أهل الكتاب: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥][(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]؛ أي: لا يَرغَبُ عن ملةِ إبراهيمَ التي هي دينُ الإسلامِ، إلَّا عَبْدٌ جَهِلَ قَدْرَ نفسِه، لأنَّه لم يَعرِفْ أنَّ اللهَ خَلَقهَا.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وفَرَضَه على محمدٍ ﷺ وأُمَّتِه، فقال سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾).

ولمَّا زَعَمَتِ اليهودُ والنصارى أنَّ إبراهيمَ عليه السلام منهم، رَدَّ اللهُ تعالى عليهم ذلكَ بقولِه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ثم ذَكَر سبحانَه أنَّ أحَقَّ الناسِ بالانتسابِ لإبراهيمَ عليهِ السلامُ هو محمدٌ ﷺ وأُمَّتُه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وهذهِ الحنيفيةُ هي الإسلامُ الذي أَمَر اللهُ به خليلَه إبراهيمَ في قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١][(٢)].

---

(١) **قال الحافظ ابن كثير** في «تفسيره» عند هذه الآية: «وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقولِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، ولهذا قال: ﴿حُنَفَاء﴾ أي: مُتحَنِّفِينَ عن الشركِ إلى التوحيدِ، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ... ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾؛ أي: المِلَّةُ القائمةُ العادلةُ، أو: الأمةُ المستقيمةُ المعتدلةُ»

(٢) وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادُ لهُ بالطاعةِ، والبراءةُ من الشركِ وأهلِه. والإسلامُ بهذا المعنى يُسمَّى الإسلامُ بالمعنى العامِّ.

وهو الذي دَعَا اللهُ الخَلْقَ إليهِ في قولِه سبحانَه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقولِه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، وقولِه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقولِه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقولِه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤].

وهو الذي وَصَّى به الرُّسُلُ ذُريَّاتِهم: قال اللهُ تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ - ١٣٣].

وهو الدِّينُ الذي دَعَا يوسفُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ربَّه أنْ يَتوفَّاهُ عليهِ، قال تعالى على لسانِ يوسفَ عليهِ السلامُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الملْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وهو المذكور في قول بلقيس مَلِكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالمينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقولِ سَحَرةِ فرعونِ لفرعونَ: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

فإن قيل: لماذا أُضِيفَتِ الحنيفيةُ لإبراهيمَ عليهِ السلامُ دونَ سائرِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ؟

وللإسلام معنى آخر، وهو الذي جاء به محمدٌ ﷺ، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو المذكور في قوله ﷺ: «**الإسلامُ: أنْ تَشهَدَ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتُقيمَ الصلاةَ، وتُؤتيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتَحجَّ البيتَ**». ويُسمَّى: الإسلامُ بالمعنى الخاصِّ.

فيقال: **لأنَّه** أبو الأنبياءِ، فلم يأتِ نبيٌّ بعدَ إبراهيمَ إلَّا من نَسْلِه، **ولأنَّه** قام مقامًا عظيمًا في تحقيقِ التوحيدِ والبراءةِ من الشركِ وأهلِه ولو كان أَبَاهُ، **ولأنَّ** المشركينَ الذينَ بُعِثَ فيهمُ النبيُّ ﷺ كانوا يَعرِفُونَ إبراهيمَ عليهِ السلامُ، وكانوا يَنتَسِبُونَ إليهِ، ويَعتبرُونَهُ جَدًّا لهم، ويَزعمُونَ أنَّهم على دينِه، وكذلكَ اليهودُ كانوا يَزعمُونَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ، فبيَّن سبحانَه لهم أنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**، **ولأنَّ** اللهَ تعالى جَعَلَهُ إمامًا لمَن بعدَه فيمَا بيَّنَهُ من مناسكِ الحجِّ والخِتَانِ وغيرِ ذلكَ من شرائعِ الإسلامِ(١).

---

(١) **وقفة مع دعاة «الديانة الإبراهيمية»، أو «وحدة الأديان»، أو «الديانة العالمية»:**

هذهِ الألقابُ ظَهَر استعمالُهَا في أواخرِ القرنِ الماضي، وكلُّها تَحملُ في طياتِهَا معانِيَ حسنةً مقبولةً، كمصطلحِ التعايشِ، والسلامِ، ومعاملةِ أهلِ الكتابِ بالبِرِّ والقِسط، واستعمال هؤلاءِ المُلبِّسينَ لتلكَ المعانِي الحسنةِ هو في الغالبِ جِسْرٌ للمعاني الباطلةِ الهدامةِ، وستارٌ للخلطِ بينَ الأديانِ، لِتُصبِحَ الفكرةُ الأهمُّ هي الوصولُ إلى اللهِ تعالى، سواءٌ عن طريقِ اليهوديةِ، أو النصرانيةِ، أو الإسلامِ، فلا فرقَ عندَ أصحابِ هذهِ الدعوةِ بينَ تلكَ الأديانِ، فكلُّهَا طُرُقٌ متعدِّدةٌ ومتكافئةٌ، تَدلُّ على اللهِ عزَّ وَجَلَّ، فلا فرق بينَ أنْ تكونَ يهوديًّا، أو نصرانيًّا، أو مسلمًا.

وأصحابُ هذهِ الدعوةِ يهدفون إلى ما يلي:

١ - هَدْمُ جوهرِ العقيدةِ الإسلاميةِ، القائمِ على شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ﷺ، واعتبارُ أديانِهم أديانَ حقٍّ ونجاةٍ في الآخرةِ.

وقد دلَّ على بطلانِ هذهِ الدعوةِ:

أ - قولُ اللهِ تعالى: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [آل عمران: ٨٥].

ب - وما ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يَسمَعُ بِي أحدٌ من هذهِ الأمةِ يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ، ولم يؤمنْ بالذي أُرسلِتُ بهِ، إلَّا كان من أصحابِ النارِ**». خرَّجه مسلم في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولمَّا كانت الحنيفيةُ فَرْضًا لازمًا على كُلِّ أَحَدٍ، بيَّنها المُؤلِّفُ بأنَّها إخلاصُ العبادةِ للهِ سبحانَه، فقال: (**أَنْ تَعبُدَ اللهَ وحدَهُ، مُخلِصًا لهُ الدِّينَ**)، فلا يكفي أنْ تكونَ عابدًا للهِ، بل لا بُدَّ مع ذلكَ من إخلاصِ هذهِ العبادةِ للهِ، فلا يُشرَكُ بِه أحدٌ

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» ١/ ٥٤٠: «قولُ القائلِ: المعبودُ واحدٌ، وإنْ كانتِ الطرقُ مختلفةً، ونحوُ ذلكَ من الأقوالِ والأفعالِ، التي تتضمَّنُ: إمَّا كونَ الشريعةِ النصرانيةِ واليهوديةِ المُبَدَّلَتَينِ المنسوختينِ موصلةً إلى اللهِ، وإمَّا استحسانَ بعضِ ما فيها، ممَّا يُخالِفُ دينَ اللهِ، أو التَّدَيُّنَ بذلكَ، أو غيرَ ذلك، ممَّا هو كُفرٌ باللهِ، وبرسولِهِ، وبالقرآنِ، وبالإسلامِ، بلا خلافَ بينَ الأمةِ الوسطِ في ذلكَ، وأصلُ ذلكَ المشابهةُ والمشاركةُ».

٢ – هدمُ عقيدةِ البراءةِ من المشركينَ، والتي هي أصلٌ أصيلٌ في دعوةِ خليلِ الرحمنِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ، كما حكى اللهُ تعالى ذلكَ عنهُ في قوله تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ**﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٧].

٣ – محاصرةُ المَدِّ الإسلامي واحتواؤه، ممَّا يُسهِّلُ عليهم غزوَ المسلمينَ في ديارِهِم.

وأمَّا محاولة الانتساب لإبراهيم عليه السلام، فقد بيَّن اللهُ تعالى كَذِبَ هذا الانتسابِ في كتابِه، فقال سبحانه: ﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ٦٧ – ٦٨].

وأخيرًا أنَّ هذهِ الدعوةَ موجَّهةٌ لأهلِ الإسلامِ، وهم الذينَ يُطالبون بها، في حينِ أنَّ أصحابَ المِلَلِ الأخرى حريصونَ على نشرِ مذاهبِهِم الباطلةِ، والترويجِ لها بشتَّى الطرقِ، كما في دعواتِ التنصيرِ، بل ويُحاصِرُونَ الإسلامَ في بلادِهِم، ناهيك عن حَرْقِ المصاحفِ في الميادينِ العامَّةِ، وتَعمُّد الإساءةِ إلى نبيِّنا محمدٍ ﷺ بالرسومِ الساخرةِ، ويَعُدُونَ هذا من حريةِ الاعتقادِ، فعن أي تعايشٍ وسلامٍ يَتَحدَّثون؟!

في عبادتِه، لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، كما قال سبحانَه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

قوله: (وبذلكَ أَمَر اللهُ جميعَ الناسِ) أي: بالإخلاصِ والتوحيدِ الذي هو مِلَّةُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ.

قوله: (وخَلَقهُم لها) أي: خَلَقهُم لِيَعبُدوهُ، ولا يُشرِكُوا بِه شيئًا، فلم يَخْلُقْهُم عَبَثًا ولا سُدًى، بل خَلَقَهُم لغايةٍ عظيمةٍ، وهي عبادتُه وحدَه لا شريكَ لهُ، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾؛ أي: لا يُؤمَرُ ولا يُنَهى.

قوله (كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ[1]﴾) أي: أنَّ الحكمةَ من خَلْقِ الجِنِّ والإنسِ أنْ يُعبَدَ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وهذا يدلُّ على عِظَمِ شأنِ التوحيدِ، وأنَّه الأصلُ الأصيلُ، ويَكفي دليلًا لبيانِ عِظَمِ شأنِ التوحيدِ: أنَّ ضدَّه -وهو الشركُ-، سببٌ في حُبُوطِ الأعمالِ، وعدمِ المغفرةِ، والخُلُودِ في النارِ، لمَن مات مُصِرًّا عليهِ من غيرِ توبةٍ.

ومع كونِه سبحانَه وتعالى خلقَهُم لعبادتِه؛ فمنهم مَن قام بالعبادةِ وعَبَد اللهَ، ومنهم مَن لم يَعبُدِ اللهَ، إذْ لا يَلزمُ من كونِه خلقَهُم لعبادتِه أنْ يَعبدُوه كلُّهُم، بل يَعبدُه مَن شاءُ اللهُ سبحانَه وتعالى لهُ الهدايةَ، ويَكفُر بِه مَن شاءَ اللهُ لهُ الضلالةَ،

---

(١) ﴿الْجِنَّ﴾ عالَمٌ من عالَمِ الغيبِ، نُؤمِنُ بِهِم وإنْ كُنَّا لا نَراهُم، ولذلكَ سُمُّوا بالجِنِّ من الاجتنانِ، وهو الاستتارُ، يقال: جَنَّه الليلُ إذا سَتَرهُ، ويقالُ: الجَنِينُ؛ لأنَّه مُستَترٌ، فالجِنُّ سُمُّوا بذلكَ لأنَّهم مُستَترُونَ عن أبصارِنا لا نَراهُم، والإيمانُ بِهِم واجبٌ، ومَن جَحَد وجودَ الجِنِّ فهو كافرٌ؛ لأنَّه مُكذِّبٌ للهِ ورسولِه وإجماعِ الأمةِ على وجودِ الجِنِّ، وهم مُكلَّفونَ مثلَ الإنسِ، لكنْ طريقةُ تكليفِهِم لا نَعلمُها.
و﴿وَالأِنْسَ﴾ هم بنو آدمَ، سُمُّوا بذلكَ من الاستئناسِ؛ لأنَّهم يأنَسُ بعضُهُم ببعضٍ، ويألَفُ بعضُهُم بعضًا. انظر: «إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد» ١/ ٢٤ - ٢٥.

لذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾[1].

قوله: (ومعنى: يَعبُدون: يُوحِّدون) فسَّر المؤلِّفُ العبادةَ في الآية بالتوحيدِ، وهذا تفسيرٌ صحيحٌ، فالعبادةُ والتوحيدُ شيءٌ واحدٌ، فالعبادةُ تُفسَّرُ بالتوحيدِ، والتوحيدُ يُفسَّرُ بالعبادةِ، لذا روي عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: كُلُّ موضعٍ في القرآنِ ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ فمعناه: وحِّدوا اللهَ.

قوله (وأعظمُ ما أَمَر اللهُ به: التوحيدُ) لأنَّه أصلُ الدينِ، وعليهِ تقومُ المِلَّةُ، وفيهِ وَقَعَتِ الخصومةُ بينَ الرُّسُلِ عليهم السلام وبينَ أقوامِهِم.

١ – فالتوحيد هو الذي لأجلِه خُلِقَتِ الخَليقةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

٢ – والتوحيد هو الذي لأَجْله أُرسِلَتِ الرُّسُلُ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِله إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...﴾ الآية [النحل: ٣٦].

وحكى اللهُ تعالى عن كلِّ نبيٍّ أنَّه افتتح دعوتَهُ بالدعوةِ إلى توحيدِهِ تعالى، وإفراده بالعبادة: فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا

---

(١) أي: «﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ﴾ فاتَّبعُوا المرسلينَ عِلْمًا وعَمَلًا ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتَّبَع سبيلَ الغَيِّ».

﴿مِنَ المشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لهمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وفي «صحيح مسلم» (٨٣٢)، من حديثِ عمرِو بنِ عَبَسة رضي الله عنه أنَّه قال: كنتُ وأنا في الجاهليةِ أَظُنُّ أنَّ الناسَ على ضلالةٍ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ، وَهُم يَعبُدُونَ الأوثانَ، فسَمِعتُ بِرجُلٍ بمكةَ يُخبِرُ أخبارًا، فقَعَدتُ على راحِلَتِي، فقَدِمْتُ عليهِ، فإذا رسولُ اللهِ ﷺ مُستَخفِيًا، جُرءَاءُ عليهِ قومُهُ، فتَلَطَّفْتُ، حتَّى دَخَلتُ عليهِ بمكةَ، فقلتُ له: ما أنتَ؟ قال: «**أنا نبيٌّ**»، فقلتُ: وما نَبِيٌّ؟ قال: «**أَرسَلَنِي اللهُ**»، فقلتُ: وبأيِّ شيءٍ أَرسَلَكَ، قال: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأوثانِ، وأنْ يُوحَّدَ اللهُ، لَا يُشرَكُ بِه شيءٌ**».

ولمَّا سأل هِرَقلُ أبا سفيان بنَ حربٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ، وقال لهُ: بماذَا يَأمُرُكُم؟ قال له أبو سفيان: يقولُ: اعبُدُوا اللهُ وحدَهُ، ولا تُشرِكُوا بِه شيئًا، واترُكُوا ما يقولُ آباؤُكُم، ويأمُرُنَا بالصلاةِ، والزكاةِ، والصِّدْقِ، والعَفَافِ، والصِّلَةِ.

٣ – والتوحيد هو الذي لأَجْله أَنزَلَ اللهُ الكتبَ على رُسُلِه وأنبيائِه:

قال تعالى: ﴿الر ۞ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۞ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ – ٣].

٤ – والتوحيد هو الذي لأَجْله سُلَّتْ سيوفُ الجهادِ:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّه للهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، والفتنة: الشِّرك[١].

---

(١) **قال البغوي** في «تفسيره» عند هذه الآية: «﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ يعني المشركينَ، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شِركٌ، يعني: قاتِلوهُم حتى يُسْلِمُوا، فلا يُقبلُ من الوثنيِّ إلَّا الإسلامُ، فإنْ أَبَى قُتِلَ».

وقال ﷺ: «**أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يقولُوا: لا إله إلَّا اللهُ، فمَن قال: لا إله إلَّا اللهُ، فقد عَصَم مِنِّي مالَه ونَفْسَهُ إلَّا بحَقِّهِ، وحسابُهُ على اللهِ**».

٥ – والتوحيد هو أول واجب على العبيد:

ففي «الصحيحين» من حديث معاذ رضي الله عنه أنه قال: كنتُ رِدْفَ رسولِ اللهِ ﷺ على حِمَارٍ، يُقالُ له: عُفَيرٌ، قال: فقال: «**يا معاذُ، تَدرِي ما حقُّ اللهِ على العبادِ؟ وما حقُّ العبادِ على اللهِ؟**» قال: قلتُ: اللهُ ورسوله أَعلمُ، قال: «**فإنَّ حقَّ اللهِ على العِبَادِ أنْ يَعبُدُوا اللهَ، ولا يُشرِكُوا بِه شيئًا ...**» الحديث.

٦ – والتوحيد هو أولُ أَمْرٍ أَمَر اللهُ تعالى به في القرآن:

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١ – ٢٢].

بلِ القرآنُ كلُّه في بيانِ التوحيدِ، وحقوقِه، وجزائِه، وفي بيان الشركِ، وأهلِه، وجزائِهم، **يقول الإمام ابن القيم:** «إنَّ كلَّ آيةٍ في القرآنِ فهي متضمنةٌ للتوحيدِ، شاهدةٌ به، داعيةٌ إليه، فإنَّ القرآنَ:

إمَّا خبرٌ عن اللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعاله؛ فهو التوحيدُ العلميُّ الخبريُّ.

وإمَّا دعوةٌ إلى عبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ له، وخَلْعِ كلِّ ما يُعبَدُ من دونِهِ؛ فهو التوحيدُ الإراديُّ الطلبيُّ.

وإمَّا أمرٌ ونهيٌ، وإلزامٌ بطاعتِه وأمرِه ونهيِه؛ فهي حقوقُ التوحيدِ ومكمِّلاتُهُ.

وإمَّا خبرٌ عن إكرامِهِ لأهل توحيده وطاعته، وما فُعِلَ بهم في الدنيا، وما هو يُكرِمُهُم به في الآخرةِ؛ فهو جزاءُ توحيدِهِ.

وإمَّا خبرٌ عن أهلِ الشركِ، وما فُعِلَ بهم في الدنيا من النَّكالِ، وما يَحِلُّ بهم في العُقبى من العذابِ؛ فهو جزاءُ مَن خرج عن حُكمِ التوحيدِ.

فالقرآنُ كلُّه في التوحيدِ، وحقوقِه، وجزائِه، وفي شأنِ الشركِ، وأهلِه، وجزائِهم.

فـ ﴿الْحَمْدُ لله﴾ توحيدٌ، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ توحيدٌ، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ توحيدٌ، ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ توحيدٌ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيدٌ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيدٌ، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيدٌ متضمِّنٌ لسؤالِ الهدايةِ إلى طريقِ أهلِ التوحيدِ الذين أُنْعِمَ عليهم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيدَ»[1].

٧ – والتوحيد هو الذي يَدخُلُ العبدُ به الجنةَ:

ففي «صحيح مسلم»، من حديث عُبادةَ بنِ الصَّامتِ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن شَهِدَ أنْ لا إلهَ إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، حرَّم اللهُ عليهِ النارَ**»، وفي «صحيح مسلم» أيضًا من حديثِ عثمانَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن مات وهو يَعلَمُ أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ، دَخَل الجنةَ**».

٨ – والتوحيد هو الذي لا تَصحُّ العبادةُ إلَّا به:

كمَا أنَّ الصلاةَ لا تَصحُّ إلَّا مع الطهارةِ، فإذا خالَطَ الشركُ العبادةَ أفسَدَهَا، كما أنَّ الطهارةَ إذا خالَطَها ناقضٌ من نواقض الوضوءِ أفسَدَهَا، ولهذا يَأمرُ اللهُ تعالى في كثيرٍ من الآياتِ بينَ الأمرِ بعبادتِه والنهيِ عن الشركِ.

فـ(لا إلهَ إلَّا اللهُ) لها شروطٌ، كما أنَّ للصلاةِ شروطًا، وأعظمُ شروطِ (لا إلهَ إلَّا اللهُ): إخلاصُ الدينِ للهِ، فمَن عَبَد اللهَ وعَبَد معهُ غيرَه؛ فقد نَقَض توحيدَه، كما أنَّ مَن أَخَلَّ بشرطٍ من شروطِ الصلاةِ، فَسَدَتْ صلاتُه.

ثم اعْلَمْ –أيُّها المُوفَّق– أنَّ شروطَ (لا إلهَ إلَّا اللهُ) أعظمُ من شروطِ الصلاةِ، ووجه ذلك: أنَّ مَن أَخَلَّ بشرطٍ من شروطِ الصلاةِ، فغاية ذلكَ أنْ تَفسُدَ هذهِ الصلاةِ فقط، بخلافِ مَن أَخَلَّ بشروطِ (لا إلهَ إلَّا اللهُ)، فإنَّ هذا الخَلَلَ يَنسحِبُ على جميعِ عبادتِه، فتَبطُلُ، ولا يُثابُ عليها، ولو مات على ذلكَ الشركِ بدونِ توبةٍ؛ فإنَّ مصيرَهُ النارُ.

---

(١) «مدارج السالكين» ٤/ ٤٤٩ – ٤٥٠؛ ط عطاءات العلم.

قوله: (وهو: **إفرادُ اللهِ بالعبادة**) هذا هو التوحيدُ المطلوبُ من العبادِ أنْ يَعبدُوا اللهَ تعالى وحدَه لا شريكَ لهُ، فلا يَصرِفُوا شيئًا من أنواعِ العبادةِ لغيرِه سبحانَه، لا لِمَلَكٍ مُقرَّبٍ، ولا لنبيٍّ مُرسَلٍ، ولا لوَلِيٍّ، ولا لقبرٍ، ولا ضريحٍ[1].

- **وأنواع التوحيد ثلاثة:**

١ - توحيد الربوبية.

٢ - وتوحيد الألوهية.

٣ - وتوحيد الأسماء والصفات:

أمَّا النوع الأول، وهو توحيدُ الربوبيةِ:

فمعناهُ: إفرادُ اللهِ بِمَا يَختصُّ بِه من الأفعالِ، كالخَلْقِ، والرَّزقِ، والإحياءِ والإماتةِ، والنفعِ والضَّرِّ، وإنزالِ المطرِ، والتَّصرُّفِ في الكَونِ، والتحليلِ والتحريمِ، ويَدخلُ في ذلك الإيمانُ بالقدرِ.

---

(١) **فائدة:** من المعلوم أنَّ التعريفَ الشاملَ لمعنى التوحيدِ هو إفرادُ اللهِ تعالى بمَا اختَصَّ بِه. أو: هو العلمُ والاعترافُ بتفرُّدِ الربِّ تعالى بصفاتِ الكمالِ، والإقرارُ بتوحُّدِه بصفاتِ العظمةِ والجلالِ، وإفرادُه وحدَه بالعبادةِ، لكنَّ المؤلِّفَ هنا عرَّفهُ بأنَّه إفرادُ اللهِ بالعبادة، وهذا تعريفٌ صحيحٌ، ولا إشكالَ فيهِ؛ لأمرين:

الأمر الأول: أنَّ توحيدَ الألوهيةِ هو الذي وَقَعَتْ الخصومةُ فيهِ بينَ الرُّسُلِ وأُمَمِهِم.

الأمر الثاني: أنَّ مَن أَخَلَّ بتوحيدِ الألوهيةِ فهو مشركٌ كافرٌ، وإنْ أَقَرَّ بتوحيدِ الربوبيةِ والأسماءِ والصفاتِ، فلو فُرِضَ أنَّ رَجُلًا يُقِرُّ إقرارًا كاملًا بتوحيدِ الربوبيةِ والأسماءِ والصفاتِ، ولكنَّه يَذهبُ إلى القبرِ، فيَعبدُ صاحبَه، أو يَنذِرُ لهُ قُربانًا يَتَقرَّبُ بِه إليهِ، فإنَّه مشركٌ، كافرٌ، خالدٌ في النارِ، قال اللهُ تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾، لكنْ التعريفُ الأولُ (إفرادُ اللهِ تعالى بمَا اختَصَّ بِه) أعمُّ؛ لأنَّه يَشملُ أنواعَ التوحيدِ الثلاثةِ.

وهذا النوعُ من التوحيدِ ليس هو الغايةَ التي جاءت بها الرُّسُلُ، وأُنزِلَتْ من أجلِهَا الكُتُبُ، فإنَّ مشركي العربِ كانوا مُقرِّينَ بِه، ومع ذلكَ لم يُدخِلْهُم في الإسلامِ.

وأَمَّا النوع الثاني، وهو توحيدُ الألوهيةِ(١)**:**

فهو العلمُ والاعترافُ بأنَّ اللهَ ذو الألوهيةِ والعبوديةِ على خَلْقِه أجمعينَ، وإفرادُه وحدَهُ بالعبادةِ كلِّها، وإخلاصُ الدِّينِ للهِ وحدَه.

وهذا النوعُ من التوحيدِ هو الذي كَفَر بِه أكثرُ الخَلْقِ، وهو الذي أنكَرهُ أعداءُ الرُّسُلِ.

وأَمَّا النوع الثالث، وهو: توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ:

فمعناهُ: اعتقادُ اتِّصافِ الربِّ تعالى بالكمالِ المُطلقِ من جميعِ الوجوهِ، فنُثبِتُ للهِ تعالى ما أثبَتَهُ لنفسِه وأثبَتَهُ له رسولُه ﷺ من الأسماءِ والصفاتِ على الوجهِ اللائقِ بِه سبحانَه.

ومذهبُ السَّلَفِ في بابِ الأسماءِ والصفاتِ يَنطلِقُ من قولِ اللهِ تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾:

١ - فيُسمُّونَهُ تعالى بِمَا سَمَّى بِه نفسَهُ، وسَمَّاهُ بِه رسولُه ﷺ.

٢ - ويَصفونَهُ بما وَصَفَ به نفسَهُ، ووصفَهُ بِهِ رسولُه ﷺ، وَصْفًا حقيقيًّا، يَلِيقُ بعظمتِه وجَلَالِه، مع اعتقادِهِم بأنَّ اللهَ: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾(١).

---

(١) ولتوحيد الألوهية أسماء أخرى:

منها: توحيدُ العبادةِ. وسُمِّي بذلكَ باعتبارِ إضافتِه إلى العبدِ، وهو إفرادُ اللهِ عزَّ وجَلَّ بالعبادة، فالمُستحقُّ للعبادةِ هو اللهُ تعالى، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ**﴾ [لقمان: ٣٠].

ومنها: توحيدُ القصدِ والإرادةِ. وسُمِّي بذلكَ؛ لِتَضَمُّنه الإخلاصَ، وسُمِّي بتوحيدِ الإرادةِ؛ لأنَّه مبنيٌّ على إرادةِ وجهِ اللهِ بالأعمالِ.

ومنها: التوحيد الإرادي الطلبي. وسُمِّي بذلكَ؛ لِتَضَمُّنِه الطلبَ والدعاءَ من العبدِ للهِ.

٣ - ويَنفُونَ عنهُ ما نفاهُ عن نفسِه، وما نفَاهُ عنهُ رسولُه ﷺ من صفاتِ النقصِ، مع اعتقادِهِم بأنَّ كلَّ نَفْيٍ يأتي في صفاتِ اللهِ في الكتابِ والسُّنةِ، فإنَّما هو لإثباتِ كمالِ ضِدِّهِ، فإذا قال اللهُ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، فلإثباتِ كمالِ عَدلِه، وإذا قال اللهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، فلإثباتِ كمالِ حياتِه وقيوميتِه، وإذا قال سبحانَه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، فلإثباتِ كمالِ جلالِه وعظمتِه وكبريائِه.

٤ - وما سَكَت عنهُ الشارعُ، فإنَّهم يَتوقَّفونَ فيهِ، فلا يُثبِتُونَهُ ولا يَنفُونَهُ؛ لأنَّ الإثباتَ أو النفيَ قولٌ على اللهِ بغيرِ علمٍ(٢).

٥ - ويَقطعُون الطمعَ عن إدراكِ كيفيةِ الاتِّصافِ، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

- **فائدة:** هذا التقسيمُ لأنواع التوحيدِ مستفادٌ من دلالةِ القرآنِ الكريمِ:

---

(١) **قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ** في «الصفدية» في بيانِ عقيدةِ السَّلَفِ الصالح في ذلك: «يَصِفُونَ اللهَ تعالى بِمَا وَصَفهُ بِه رسولُه من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ».

وقال أيضًا في «منهاج السُّنة»: «طريقةُ سَلَفِ الأمةِ وأئمَّتِهَا أنَّهم يَصِفُونَ اللهَ بِمَا وَصَف بِه نفسَه، وبِمَا وَصَفَهُ بِه رسولُه، من غيرِ تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، إثباتٌ بلا تمثيلٍ، وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ، إثباتُ الصفات ونفيُ مماثلةِ المخلوقاتِ: قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: فهذا ردٌّ على المُمثِّلةِ. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: رَدٌّ على المُعطِّلةِ. فقولُهم في الصفاتِ مبنيٌّ على أصلَين:

أحدُهُما: أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى منزَّهٌ عن صفاتِ النقصِ مطلقًا، كالسِّنَةِ، والنَّومِ، والعجزِ، والجهلِ، وغيرِ ذلكَ.

والثاني: أنَّه مُتَّصِفٌ بصفاتِ الكمالِ التي لا نقصَ فيها على وجهِ الاختصاصِ بِمَا لهُ من الصفاتِ، فلا يُماثِلُهُ شيءٌ من المخلوقاتِ في شيءٍ من الصفاتِ».

(٢) وفي هذا يقولُ الإمامُ أحمدُ: «لا يُوصفُ اللهُ إلَّا بما وَصَف به نفسَه، أو وَصَفه به رسوله، وبما وَصَفه السابقون الأولون، لا نتجاوزُ القرآنَ والحديثَ».

١ – قال اللهُ تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ له سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. فقولُه تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ هذا توحيدُ الربوبيةِ. وقولُه: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾؛ هذا توحيدُ الألوهيةِ. وقولُه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؛ أي: شبيهًا ونظيرًا. وهذا توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ.

٢ – وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ﴾.

فقولُه تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾؛ هذا توحيدُ الربوبيةِ. وقولُه: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾؛ هذا توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ. وقولُه تعالى: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾؛ هذا توحيدُ الألوهيةِ.

فائدة: من المُهمِّ جِدًّا لدارسِ التوحيدِ معرفةُ العلاقةِ بينَ كلمتَي (الرَّبِّ) و(الإلهِ)، فإنَّ عدمَ معرفةِ ذلكَ من أعظمِ الأسبابِ التي أدَّت إلى وقوعِ الكثيرينَ في الشركِ باللهِ تعالى، ولبيان ذلك يقال: إنَّ لكلمةِ (الرَّبِّ) و(الإلهِ) معنًى عند الاجتماعِ يختلفُ عن معناهُما عندَ الافتراقِ:

فعندَ الاجتماعِ يكونُ لكلِّ لفظٍ منهما معنًى يَخصُّهُ، فيكونُ الرَّبُّ بمعنى الخالقِ الرازقِ، ويكونُ الإلهُ بمعنى المعبودِ بحَقٍّ، وعندَ الافتراقِ يَجتَمِعانِ في المعنى، فإذا أُطلِقَ الرَّبُّ صار معناهُ الإلهَ، وإذا أُطلِقَ الإلهُ تَضَمَّن معنى الرَّبِّ.

مثالِ الاجتماعِ: قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١- ٣]، وكما يُقال: (رَبُّ العالمينَ، وإلهُ المُرسَلينَ)، فهنا اجتَمَعَتْ كلمةُ (الربِّ) مع كلمةِ (الإلهِ)، وحينئذٍ يكونُ معنى الرَّبِّ: الخالقُ الرازقُ المُدبِّرُ، ومعنى الإلهِ: المعبودُ بحَقٍّ.

ومثال الافتراقِ: قولُ المَلَكَينِ للميِّتِ في القبر: مَن ربُّك؟ فهنا يكونُ (الربِّ) هو (الإلهِ)، ومَن فسَّر (الربَّ) هنا بالمالكِ المُتصرِّفِ، فقد أَخطَأَ خطأً بيِّنًا؛ لأنَّ المشركينَ إلَّا مَن شَذَّ مُقرُّونَ بالربوبيةِ –كما تقدَّم بيانُ ذلكَ عندَ التعليقِ على «القواعد الأربع»–، فلو فسَّرنا الرَّبَّ هنا بالخالقِ؛ لم يكنْ للسؤالِ فائدةٌ.

ومن أمثلة الاجتماعِ والافتراقِ:

(١) لفظِ الإسلامِ والإيمانِ:

فهما نوعان، كما في قولِه تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ [الحجرات: ١٤]، وكما في حديثِ جبريلَ في بيانِ الإسلامِ والإيمانِ.

وهما نوعٌ واحدٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ [الحجرات: ١٥]، ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ١٣١]، ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ**﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا**﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت: ٣٠]، وكما في حديثِ وَفْدِ عبدِ القيسِ: «**أَتدرُونَ ما الإيمانُ باللهِ وحدَه؟**» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «**شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ...**».

(٢) لفظُ الفقيرِ والمسكينِ:

فهما نوعانِ في قولِه: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ...**﴾ [التوبة: ٦٠].

وهما نوعٌ واحدٌ في قولِه ﷺ: (**فأَعلِمهُم أنَّ اللهَ افترَضَ عليهِم صَدَقةً، تُؤخَذُ من أغنيائِهِم، فتُردُّ فِي فُقرائِهِمْ**).

فالربوبيةُ في هذه المواضعِ هي الألوهيةُ ليست قسيمةً لها، فينبغي التَّفَطنُ لهذهِ المسألةِ[(١)].

قوله (**وأعظمُ ما نَهَى عنهُ: الشركُ**) لعِظَمِ خَطَرِه، فهو أعظمُ المُحرَّماتِ[(٢)]، وأكبرُ الكبائرِ[(١)]، وفيهِ تَنقُّصٌ لربِّ العالمينَ حيثُ سوَّى المخلوقَ العاجزَ الفقيرَ

---

(١) وقد أوضح العلاقةَ بين مدلولي كلمتي (الربِّ)، و(الإلهِ) عند الاجتماعِ والافتراقِ الإمامُ المجدِّد محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ، فانظر: «مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» ٥/ ١٧.

(٢) ففي «الصحيحين»، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: سألتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أيُّ الذَّنْبِ عندَ اللهِ أعظمُ؟ قال: «**أنْ تَجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ**».

الناقصَ بالربِّ الخالقِ العظيمِ[٢]، وهو الذَّنبُ الذي لا يَغفِرُهُ اللهَ لمَن مات عليهِ[٣]، ويُوجِبُ لصاحبِه الخُلُودَ في النارِ لمَن مات عليهِ[٤]، ولأنَّه لا يَصحُّ معهُ عَمَلٌ[١]، ويُوجِبُ البراءةَ من صاحبِه، والعداءَ لهُ[٢].

---

(١) ففي «الصحيحين»، من حديث أبي بَكرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أَلَا أُنبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ؟» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «**الإشراكُ باللهِ ...**»، وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**اجتَنِبُوا السبعَ المُوبقاتِ**»، قالوا: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: «**الشرك بالله ...**».

(٢) وفي «مسند الإمام أحمد»، من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ جلَّ وعَلَا أَمَرَ يحيى بنَ زكريَّا بخمسِ كلماتٍ، يَعمَلُ بِهِنَّ، ويَأمُرُ بني إسرائيلَ، أنْ يَعمَلُوا بِهِنَّ، وإنَّ عيسى، قال لهُ: إنَّ اللهَ قد أَمَرَكَ بخمسِ كلماتٍ، تَعمَلُ بِهِنَّ، وَتَأمُرُ بني إسرائيلَ، أنْ يَعمَلُوا بِهِنَّ، فإمَّا أنْ تَأمُرَهُم، وإمَّا أنْ آمُرَهُم، قال: أَيْ أخي، إنِّي أخافُ إنْ لَمْ آمُرْهُمْ، أنْ أُعَذَّبَ، أو يُخسَفَ بِي. قال: فجَمَعَ الناسَ في بيتِ المقدسِ، حتَّى امتَلأَتْ، وجَلَسُوا على الشُّرُفاتِ، فَوَعَظَهُم، وقال: إنَّ اللهَ جلَّ وعَلَا أَمَرَنِي بخمسِ كلماتٍ، أَعمَلُ بِهِنَّ، وآمُرُكُم أنْ تَعمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ: أنْ تَعبُدُوا اللهَ، ولا تُشرِكُوا بِهِ شيئًا، ومَثَلُ ذلكَ، مَثَلُ رجلٍ، اشتَرَى عَبدًا بخالصِ مالِهِ، بذَهَبٍ أو وَرِقٍ، وقال لهُ: هذِهِ دَارِي، وهذا عَمَلِي، فجَعَلَ العبدُ يَعمَلُ، ويُؤَدِّي إلى غيرِ سيِّدِهِ، فأَيُّكُم يَسُرُّهُ أنْ يكونَ عَبدُهُ هكذا، وإنَّ اللهَ خَلَقَكُم، ورَزَقَكُم، فاعبُدُوهُ، ولا تُشرِكُوا بِهِ شيئًا**» الحديث.

(٣) قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

(٤) قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾.

وأخرج البخاري، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن مات، وهو يَدعُو مِن دونِ اللهِ نِدًّا؛ دَخَل النارَ**».

وأخرج مسلم، من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن لَقِيَ اللهَ يُشرِكُ بِهِ شيئًا؛ دَخَل النارَ**».

وفي «الصحيحين»، من حديث أنسٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «**أنَّ اللهَ تعالى يقولُ لأهونِ أهلِ النارِ عذابًا: لو أنَّ لكَ ما في الأرضِ من شيءٍ، كنتَ تَفتَدِي بِهِ؟ قال: نعم، قال: فقد سألتُكَ ما هو أهونُ من هذا، وأنتَ في صُلْبِ آدمَ، ألَّا تُشرِكَ بِي، فأَبَيتَ إلَّا الشِّركَ**».

وهو نوعانِ: شركٌ أكبرُ، وشركٌ أصغرُ.

أمَّا النوع الأول، وهو الشرك الأكبر:

فمعناه: تسويةُ غيرِ اللهِ باللهِ في شيءٍ من خصائصِ اللهِ تعالى. **أو:** أنْ يتَّخِذَ من دونِ اللهِ نِدًّا، يُحبُّهُ كما يُحبُّ اللهَ، أو يَعبُدُهُ كما يَعبُدُ اللهَ، أو يُعظِّمُهُ كمَا يُعظِّمُ اللهَ، أو يَصرِفُ لهُ شيئًا من خصائصِ الربوبيةِ والإلهيةِ.

وهذا الشركُ إمَّا أنْ يكونَ في الربوبيةِ، أو في الألوهيةِ، أو في الأسماءِ والصفاتِ.

أمَّا الشركُ في الربوبيةِ: فأنْ يَعتَقِدَ العبدُ أنَّ أحدًا دونَ اللهِ تعالى يُنزِلُ المطرَ، أو يُحيِي الموتى، أو يَملِكُ النفعَ والضَّرَّ استقلالًا من دونِ اللهِ، أو يَتَصرَّفُ في

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَوَهَبْنَا له إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالمينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٨].

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقد عزَّ في هذا الزمانِ مَن يَفقَهُ هذا، فترَى بعضَ الدُّعَاةِ الذين تلوَّثوا بأدرانِ الحزبيةِ، يُوالُونَ أهلَ الشركِ والبدعِ -كالروافضِ والصوفيةِ-، مع دَعوَاهم أنَّهم مُتبرِّؤون ممَّا هم عليه! ولو كانوا صادِقِينَ حقًّا؛ لتَبرَّؤوا منهم.

الكَونِ، فمَن اعتَقَد وجودَ مُتصرِّفٍ مع اللهِ فيمَا لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ؛ فقد وَقَع في الشركِ في الربوبيةِ.

وأمَّا الشركُ في الألوهيةِ: فأنْ يَتَّخِذَ العبدُ نِدًّا للهِ تعالى في العبادةِ، يَدعُوهُ فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، أو يَنذِرُ لهُ، أو يَذبَحُ لهُ، أو يسجد له، أو يُحِبُّهُ كما يُحِبُّ اللهَ، أو يخافُه كما يخافُ اللهَ، أو يَرجُوه كما يَرجُو اللهَ، أو يُعظِّمُه كما يُعظِّمُ اللهَ، أو يَتوكَّلُ عليهِ كما يَتوكَّلُ على اللهِ، فمَن صَرَف شيئًا من هذهِ العباداتِ لغيرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ فقد وَقَع في الشركِ في الألوهيةِ، كما هو الحالُ في مشركي العربِ قبلَ البعثةِ، الذين قالوا في آلهتهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وكما هو الحالُ في عُبَّاد القبورِ، الذينَ جَعَلُوا بعضَ المخلوقينَ شريكًا للهِ، ومِثلًا، ونِدًّا، فاستَغاثُوا بِهِم فيما لا يُستغاثُ فيهِ إلَّا باللهِ، وطلبُوا منهم ما لا يُطلَبُ إلَّا من اللهِ.

وأمَّا الشركُ في الأسماءِ والصفاتِ: فكأنْ يُسمَّى غيرُ اللهِ باسمٍ اختَصَّ اللهُ بِه، كـ«الرحمن»، كما فَعَل مشركو العربِ، لمَّا اشتَقُّوا اسمَ (اللَّاتِ) من (الإلهِ)، و(العُزَّى) من (العزيز)، و(مَنَاة) من المَنَّان.

أو يَعتقدُ أنَّ أحدًا من المخلوقينَ يَتَّسِعُ سَمْعُه لسماعِ البعيدِ.

أو يَعتقدُ أنَّ أحدًا من المخلوقينَ يَعلمُ الغيبَ -وهذا الاعتقادُ موجودٌ عندَ غُلاةِ الرافضةِ والصوفيةِ؛ يَستغيثونَ بالأولياء والصَّالحينَ، سواءٌ كانوا أحياءً أو أمواتًا، معتَقِدينَ أنَّهم يَعلمُونَ حالَهم، ويَسمعونَ كلامَهم-، وكما هو الحال في السَّحرةِ والكَهَنةِ والمُنجِّمينَ، الذين يدَّعون علمَ الغيب، ويَدخلُ في ذلكَ قراءةُ الأبراجِ، وحظُّكَ اليومَ، فهو داخلٌ في ادِّعاءِ علمِ الغيبِ.

وأمَّا النوعِ الثاني، وهو الشرك الأصغر:

فهو ما أَتَى في النصوصِ تسميتُهُ شركًا، ولم يَصِلْ إلى حدِّ الشركِ الأكبرِ، وما في معناهُ، كظنِّ الشيءِ سببًا، وهو ليس سببًا، وكالألفاظِ الخاصةِ بالله، مثلِ: الحَلِفِ، والتوكُّلِ.

أمَّا قولهم: ما أَتَى في النصوصِ تسميتُهُ شِركًا، ولم يَصِلْ إلى حدِّ الشركِ الأكبرِ: فكما في قوله ﷺ: «**إنَّ الرُّقَى، والتَّمائِمَ، والتِّولَةَ شِركٌ**»، وقوله ﷺ: «**الطِّيرةُ شِركٌ، الطِّيرةُ شِركٌ**»، وقوله ﷺ: «**أَخوفُ ما أخافُ عليكُم: الشركُ الأصغرُ**»، فسُئِلَ عنهُ، فقال: «**الرِّياءُ**»[1].

وأمَّا قولهم: وما في معناه، كظَنِّ الشيء سببًا وهو ليس سببًا: فلأنَّ هناك أفعالًا بيَّنتِ الشريعةُ أنَّها شركٌ، ولمَّا نَظَرنا في العلةِ التي من أجلها حَكَمَتِ الشريعةُ على هذه الأفعالِ بأنَّها شِركٌ، وَجَدنا أنَّ فاعلَها قد تعلَّق قلبُهُ بشيء ظنَّه سببًا حقيقيًّا في حصولِ ما يرجوُهُ، وعند التأمُّلِ وَجَدنا أنَّ هذا السببَ الذي تعلَّق قلبُهُ بِهِ، ما هو إلا سببٌ وهميٌّ، لا حقيقةَ له.

ومن أمثلةِ ذلكَ: الاستسقاءُ بالأنواءِ: فالذي يَظنُّ أنَّ الأنواءَ، -وهي منازلُ القمرِ- سببٌ في إنزالِ المطرِ، هو في الحقيقة قد تعلَّق قلبُهُ بسببٍ وهميٍّ، فإنَّ إنزالَ المطرِ محضُ فضلِ اللهِ تعالى على عبادِه، ولا علاقةَ له بمنازلِ القمرِ، فلما حَكَمَتِ الشريعةُ على ظَنِّهِ هذا بأنَّه شركٌ، عَرَفنا أنَّ كلَّ مَن تعلَّق قلبُهُ بسببٍ وَهْميٍّ، فهو واقعٌ في الشركِ، وإنْ لم يَرِدْ في النصوصِ الحكمُ على فِعْلِهِ بأنَّه شركٌ.

ومن أمثلةِ ذلكَ أيضًا: تعليقُ جلودِ الذئابِ في البيوتِ؛ لِدَفْعِ أذى الجِنِّ، أو تعليقُ حَدوةِ الفَرَسِ، أو وَضْعُ نعالٍ في مُقَدِّمةِ السيارةِ؛ لِدَفْع أذى العينِ.

فكلُّ ذلكَ نَحكُمُ عليهِ بأنَّه شركٌ أصغرُ؛ لأنَّه تعلَّق قلبُ فاعلِهِ بما يَظنُّهُ سببًا لِدَفْعِ أذى العينِ، والواقعُ أنَّه سببٌ وَهْميٌّ لا حقيقةَ لهُ.

وأمَّا قولهم: كالألفاظِ الخاصةِ باللهِ، مثلِ: الحَلِفِ، والتوكُّلِ: فإنَّ النبيَّ ﷺ

---

(١) **قال الشيخ عبد العزيز ابن باز:** «أمَّا الشركُ الأصغرُ: فهو ما ثَبَت بالنصوصِ من الكتابِ أو السُّنةِ تسميتُهُ شركًا، ولكنَّه ليس من جنسِ الشركِ الأكبرِ، كالرِّياءِ في بعضِ الأعمالِ، والحلفِ بغيرِ اللهِ، وقولِ ما شاءَ اللهُ وشاءَ فلانٌ، ونحوِ ذلكَ». «مجموع فتاواه» ٣/ ٢٨٩.

سَمِعَ رجلًا يَحلِفُ بأبيه، فقال لهُ ﷺ: «**لا تَحلِفُوا بآبائِكُم، ومَن كان حالفًا، فَلْيَحلِفْ باللهِ**»، إذا تأمَّلنا هذا الحديثَ، وَجَدنَا أنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما نَهَاهُ عن الحَلِفِ بغيرِ اللهِ؛ لأجلِ أنَّ الحَلِفَ خاصٌّ باللهِ تعالى، فعَقَلنا بذلكَ: أنَّ كلَّ ما هو خاصٌّ بالله، فإنَّ صَرْفَهُ لغيرِ اللهِ تعالى شركٌ، ولو لم يَرِدْ في الشريعةِ تسميتُهُ شركًا.

وبناءً على ذلكَ؛ فإنَّ قولَ الرَّجُلِ للرَّجُلِ: (توكَّلتُ على اللهِ ثم عليكَ)، نوعٌ من الشركِ الأصغرِ، وإنْ عَطَفَه بحرفِ (ثُمَّ)، وذلكَ؛ لأنَّ التوكُّلَ خاصٌّ باللهِ، فهو عبادةٌ قلبيةٌ محضةٌ، لا يُتصوَّرُ فيها أنْ يقال: (توكلتُ على اللهِ ثم عليكَ).

تنبيه: ضابطُ الحُكمِ على هذه الأفعالِ والأقوالِ بأنَّها شركٌ أصغرُ: أنْ يكونَ الشيءُ مما يختصُّ اللهُ تعالى به، فيُعطَفُ عليهِ غيرَهُ على سبيلِ التسويةِ في اللفظِ فقط، أمَّا إذا قام بقلبِ قائلِه وفاعلِه تعظيمٌ يُماثِلُ تعظيمَ اللهِ تعالى، فإنَّه يكونُ شركًا أكبرَ، وقد أشار إلى هذا الفَرْقِ **الإمامُ ابنُ القيمِ** عند ذكرِه لبعضِ صورِ الشركِ الأصغرِ: «وقد يكونُ هذا شركًا أكبرَ، بحَسَبِ حالِ قائلِه ومَقصِدِه»[(١)].

وقال الشيخ حافظ الحكمي: «هذه الأمورُ المذكورةُ التي يتعلَّقُ بها العامَّةُ، غالبُها من الشركِ الأصغرِ، لكنْ إذا اعتَمَدَ العبدُ عليها بحيثُ يَثِقُ بها، ويُضِيفُ النفعَ والضُّرَّ إليها، كان ذلكَ شركًا أكبرَ، والعياذُ باللهِ؛ لأنَّه حينئذٍ صار مُتوَكِّلًا على سِوَى اللهِ، مُلتَجِئًا إلى غيرِهِ»[(٢)].

وقال الشيخ العثيمين: «ولُبْسُ الحَلْقَةِ ونحوِهَا: إنِ اعتَقَدَ لابِسُهَا أنَّها مُؤثِّرةٌ بنفسِهَا دونَ اللهِ؛ فهو مشركٌ شركًا أكبرَ في توحيدِ الربوبيةِ؛ لأنَّه اعتَقَدَ أنَّ مع اللهِ خالقًا غيرَهُ، وإنِ اعتَقَدَ أنَّها سببٌ، ولكنَّه ليس مُؤثِّرًا بنفسِهِ فهو مشركٌ شركًا أصغرَ؛ لأنَّه لمَّا اعتَقَدَ أنَّ ما ليس بسببٍ سببًا؛ فقد شارَكَ اللهَ تعالى في الحُكمِ

(١) «مدارج السالكين» ١/ ٣٤٤.

(٢) «معارج القبول» ٢/ ٤٩٧.

لهذا الشيءِ بأنَّه سببٌ، والله تعالى لم يَجعَلْهُ سببًا»[1].

والشركُ الأصغرُ أنواعٌ كثيرةٌ، منهُ:

١ – الحَلِفُ بغيرِ اللهِ.

٢ – التَّشريكُ بين اللهِ تعالى وبين أحَدٍ مِن خَلْقِه ب (الواو)، كقول: ما شاءَ اللهُ وشِئتَ، مالِي إلَّا اللهُ وأنتَ، اللهُ لِي في السماءِ، وأنتَ لِي في الأرضِ، وأنا في اللهِ وحَسْبِكَ، وهذا من بَرَكاتِ اللهِ وبَرَكاتِكَ، ونحوِ ذلكَ.

٣ – الاستسقاءُ بالأنواءِ، بأنْ يَظُنَّ أنَّ هذا النجمَ سببٌ في نزولِ المطرِ؛ لأنَّ اللهَ لم يجعَلِ النَّوءَ سببًا لإنزالِ المطرِ فيه، وإنَّما هو فَضلٌ من اللهِ ورحمةٌ، يَحبِسُه إذا شاء، ويُنزِلُه إذا شاءَ، لذا يُستحبُّ للمسلمِ أنْ يقولَ عندَ نزولِ المطرِ: مُطِرنا بفضلِ اللهِ ورحمتِه.

٤ – الرياءُ.

٥ – إرادةُ الإنسانِ بعملِهِ الدُّنيا: كأنْ يَعمَلَ الإنسانُ الأعمالَ الصالحةَ، يُريدُ بها الدُّنيا.

والفرقُ بينهُ وبين الرياءِ: أنَّ المُرَائِي إنَّما يَعمَلُ للهِ، ولطلبِ المدحِ والثناءِ، بخلافِ المُريدِ بعملِه الدنيا، فإنَّه يَعمَلُ لدُنيا يصيبها، كالمالِ والجاهِ.

٦ – التَّطيُّر. إذا لم يَعتَقِدْ القدرةَ في المُتَطيَّرِ به.

٧ – الاستعانةُ بالعرَّافينَ لمعرفةِ مكانِ الضَّالَّة إذا لم يَعتَقِدْ معرفتَهُم لعلمِ الغيبِ.

٨ – تصديقُ المنجِّمينَ والرمَّالينَ إذا لم يَعتَقِدْ معرفتَهُم لعلمِ الغيبِ.

٩ – إتيانُ الكُهَّانِ وتصديقُهُم إذا لم يَعتَقِدْ معرفتَهُم لعلمِ الغيبِ.

١٠ – الرُّقى الشركية إذا اعتقد أنَّها سببٌ من الأسبابِ، وأنَّها لا تستَقِلُّ بالتأثيرِ.

---

(١) «القول المفيد على كتاب التوحيد» ١/ ٢٠٧ – ٢٠٨.

١١ - التمائمُ ونحوُها من الحِلَقِ والخيوطِ لرَفْعِ البلاءِ أو دَفعِه إذا لم يَعتَقِدْ أنَّها تَنفَعُ أو تَضرُّ لذاتِهَا.

ويَترَتَّبُ على الوقوعِ في الشركِ الأصغرِ: حُبُوط العملِ الذي فَعَلهُ المكلَّفُ، فمَن صَلَّى رياءً، أو تَصَدَّق رياءً، أو قَرَأ القرآنَ رياءً، فإنَّ عَمَلَهُ هذا يُردُّ عليهِ، ولا يُؤجَرُ عليه، لأنَّ اللهَ تعالى لا يَقبَلُ من العملِ إلَّا ما كان خالصًا، وابتُغِيَ بِه وجهُهُ، قال اللهُ تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**يقولُ اللهُ تعالى: أنا أغنى الشُّركاءِ عن الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا، أَشرَكَ فيهِ مَعِيَ غيرِي، تَرَكتُهُ وشِرْكَهُ**».

واختَلَف العلماءُ فيمن مات على الشرك الأصغر من غير توبة: هل لا بُدَّ أنْ يُعذَّبَ، أم أنَّ صاحبَهُ تحتَ المشيئةِ، قد يُدرِكُه عفوُ للهِ، كأصحابِ الكبائرِ إذا ماتوا من غيرِ توبةٍ؟ في المسألة قولان، أرجحُهُمَا: أنَّ صاحبَهُ تحتَ مشيئةِ اللهِ تعالى، واستَدلُّوا لذلكَ: بأنَّ أكثرَ ما يُطلقُ الشركُ في القرآنِ يرادُ بهِ الشركُ الأكبرُ، وعليهِ؛ فيكونُ المرادُ بالشركِ في الآية الشركَ الأكبرَ من بابِ الظاهرِ[1].

---

(١) **قال السعدي:** الشيخ «وأمَّا مَن قال: إنَّ الشركَ الأصغرَ لا يَدخلُ في الشركِ المذكورِ في هذهِ الآيةِ وإنَّما هو تحتَ المشيئةِ، فهم يَحتجُّونَ بقولِه تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ**﴾ [المائدة: ٧٢]، فيقولونَ: كما أنَّه بإجماعِ الأئمةِ أنَّ الشركَ الأصغرَ لا يَدخلُ في تلكَ الآيةِ، وكذلكَ لا يَدخلُ في قولِه تعالى: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [الزمر: ٦٥]، لأنَّ العملَ هنا مفردٌ مضافٌ، ويَشملُ الأعمالَ كلَّها، ولا يُحبِطُ الأعمالَ الصالحةَ كلَّها إلَّا الشركُ الأكبرُ، ويؤيِّد قولَهم: أنَّ الموازنةَ واقعةٌ بينَ الحَسَناتِ والسيِّئاتِ التي هي دونَ الشركِ الأكبرِ».

وقال أيضًا: «وأمَّا الشركُ الأصغرُ، فهو بخلافِ ذلكَ في الحُكمَينِ، فإنَّه لا يُحكَمُ على صاحبِه بالكفرِ، ولا بالخروجِ من الإسلامِ، ولا يُخلَّدُ في النارِ إذا لم يَفعَلْ مكفِّرًا آخرَ».

قاعدة نافعة في بيان الفروق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

١ – أنَّ الواقعَ في الشركِ الأكبرِ إذا مات من غيرِ توبةٍ، فإنَّه يُخلَّدُ في النارِ، **بخلافِ الواقعِ في الشركِ الأصغرِ**، فإنَّه لا يُخلَّدُ في النارِ، وإنْ دَخلهَا فيكونُ حُكمُه كحكم مُرتكبي الكبائرِ من المسلمينَ.

٢ – أن الشركَ الأكبرَ إذا مات صاحبُهُ من غيرِ توبةٍ، فإنَّه لا يُغفَرُ لهُ، **بخلافِ الواقعِ في الشركِ الأصغرِ**، فإنَّه تحتَ مشيئةِ اللهِ.

٣ – أنَّ الشركَ الأكبرَ يُحبِطُ جميعَ الأعمالِ، **بخلافِ الشركِ الأصغر**، فإنَّه لا يُحبِطُ إلَّا العملَ الذي وَقَع فيهِ.

٤ – أنَّ الوقوعَ في الشركِ الأكبرِ يُوجِبُ العَدَاءَ والبراءةَ من صاحبِه، **بخلافِ الوقوعِ في الشركِ الأصغرِ**، فإنَّه لا يُوجِبُ العَدَاءَ ولا البراءةَ من صاحبِه، لكنْ يُنكَرُ على صاحبِه.

تنبيه: لمَّا كان الشركُ بهذهِ المثابةِ خَافَهُ ساداتُ الأولياءِ على أنفسِهم وعلى بَنِيهِم، فهذا خليلُ الرحمنِ إبراهيمُ عليه السلام يقولُ في دعائِه: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا**﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦][(١)].

والظاهرُ: أنَّ القولَ الثاني أرجحُ، وأنَّ عمومَ قولِه: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ**﴾، يُرادُ بِه الخصوصُ، وهو الشركُ الأكبرُ، لِمَا سَبَق من أدلةِ القولِ الثاني».

انظر: «الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة»، ص/ ١٨٧ و١٨٨ – ١٨٩.

(١) **قال الطبري** في «تفسيره»: «أَبْعِدْنِي وبَنِيَّ من عبادةِ الأصنامِ».

وذِكرُ الأصنامِ هنا؛ لكثرةِ عبادَتِهَا دونَ غيرِهَا في ذلكَ الزَّمَانِ، وفي زمانِنَا هذا كَثُرَتْ عبادةُ القبورِ والأضرحةِ، فلا مانع من أنْ يقولَ المسلمُ: اللهمَّ، جَنِّبني وبَنِيَّ عبادةَ الأضرحةِ والقبورِ، اللهمَّ، جَنِّبني وبَنِيَّ الذبحَ لغيرِكَ، وهكذا.

وفي قوله ﴿وَاجْنُبْنِي﴾: إشارةٌ إلى قضيةِ التوفيقِ والمَنُّ مِن اللهِ تعالى، فمَن وَفَّقَهُ اللهُ تعالى جَنَّبَهُ الشركَ، ومن خَذَلَهُ اللهُ تعالى، وتَخَلَّى عنهُ، وَقَع في الشركِ، فاحْذَرْ أيُّها

وإذا كان الخليلُ -وهو إمامُ الحُنَفَاءِ، وهو الذي كسَّر الأصنامَ، واشتدَّ نَكيرُهُ على أهلِ الشركِ- يَخافُ من الوقوع في الشركِ، فمَن يَأمَنُ البلاءَ بعدَ إبراهيمَ؟!

- **وممَّا يُوجبُ الخوفَ من الشركِ والحذرَ منهُ:** ما أَخبَر به ﷺ مِن أنَّ الشركَ يَعودُ في آخرِ الزمانِ:

المُوحِّدُ من الاغترارِ بالنَّفْسِ، فليس للفَهْمِ، ولا للذَّكَاءِ، ولا للجَاهِ، ولا للنَّسَبِ، علاقةٌ بهذا، بل هو محضُ توفيقٍ من المولى الكريمِ سبحانَهُ، فإنَّ كثيرًا من الأذكياءِ في هذا العالَمِ، حُرِمُوا نعمةَ التوحيدِ.

وفي قوله ﴿وَبَنِيَّ﴾: تنبيهٌ على أهميةِ رعايةِ الأبناءِ، والمحافظةِ عليهم.

وتأمَّل وصيةَ يعقوبَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لأبنائِهِ عندَ موتِهِ: **﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٣].

مسألة: اختُلف في المراد ببَنيهِ على قولين:

القول الأول: أنَّ المرادَ أبناؤه من صُلبِه. وهو قول مجاهد وجماعة من المفسرين، وإبراهيمُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ليس لهُ من الأولاد، إلَّا إسماعيلَ وإسحاقَ.

القول الثاني: أنَّ المرادَ ذُرِّيتُهُ وما تَوَالدَ من صُلْبِهِ، ويكونُ اللهُ تعالى أَجابَ دُعاءَهُ في بعضٍ دونَ بعضٍ؛ لأنَّهُ وُجِدَ في ذُرِّيتِهِ مَن أَشرَكَ، فهو نظيرُ قولِه تعالى في حقِّ إبراهيمَ عليه السلام: **﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**.

وقال تعالى: **﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾**.

فائدة: قد يقول قائل: قد كان إبراهيمُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ معصومًا من عبادةِ الأصنامِ، فكيف يستقيمُ سؤالُهُ اجتنابَ عبادةِ الأصنامِ؟

والجواب: إنَّ الدُّعاءَ في حقِّ إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لزيادةِ العصمةِ والتثبيتِ، والمعنى: ثَبِّتْنِي على اجتنابِ عبادتِهَا، كما في قولِه: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾** [البقرة: ١٢٨]؛ أي: ثَبِّتنا على الإسلامِ. قاله الزَّجَّاج وجماعة.

١ - فأخرج البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا تَقومُ الساعةُ حتَّى تَضطَرِبَ أَلَيَاتُ نساءِ دَوْسٍ حولَ ذِي الخَلَصةِ**»، وكانت صَنَمًا تَعبُدُها دَوْسٌ في الجاهليةِ بِتَبَالَةَ. وعند البخاري: وذُو الخَلَصَةِ، طاغيةُ دَوْسٍ، التي كانوا يَعبُدُونَ في الجاهليةِ.

وقد بوَّب الإمامُ البخاريُّ على هذا الحديثِ، بقوله: (بابُ تغيُّرِ الزَّمَانِ حتى تُعبَدَ الأوثانُ).

قال النووي: «والمراد: يَضطَرِبْنَ من الطوافِ حولَ ذي الخَلَصَة؛ أي: يَكفُرُونَ، ويَرجِعُونَ إلى عِبَادةِ الأصنامِ، وتعظيمِهَا»[(١)].

وقال ابن حجر: «قال ابن التِّين: فيهِ: الإخبارُ بأنَّ نساءَ دَوْسٍ يَركَبنَ الدَّوابَّ من البلدانِ إلى الصَّنَمِ المذكورِ، فهو المرادُ باضطرابِ أَلَيَاتِهِنَّ. قلت: ويَحتملُ أنْ يكونَ المرادُ: أنَّهنَّ يَتَزَاحَمْنَ، بحيثُ تَضرِبُ عجيزةُ بعضِهِنَّ الأخرى عندَ الطوافِ حولَ الصَّنَمِ المذكورِ. وفي معنى هذا الحديث: ما أخرجه الحاكم، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ قال: (لا تَقومُ الساعةُ حتى تُدَافَعَ مناكبُ نساءِ بني عامرٍ، على ذي الخَلَصَةِ). قال ابنُ بطالٍ: هذا الحديثُ وما أشبَهَهُ، ليس المرادُ به أنَّ الدِّينَ يَنقَطِعُ كلُّهُ في جميعِ أقطارِ الأرضِ، حتى لا يَبقى منهُ شيءٌ؛ لأنَّه ثَبَتَ أنَّ الإسلامَ يَبقى إلى قيامِ الساعةِ، إلَّا أنَّه يَضعُفُ، ويَعودُ غريبًا كما بَدَأَ»[(٢)].

---

(١) «شرح صحيح مسلم» ١٨/ ٣٣.

(٢) «فتح الباري» ١٣/ ٧٦.

وقد وَقَع الافتتانُ بذي الخَلَصةِ، ووَقَع ما أَخبَرَ بهِ النبيُّ ﷺ، حتَّى قام الإمامُ المجدِّدُ محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ رحمه الله بإرسالِ جماعةٍ من الدُّعاةِ، فقاموا بهَدمِهَا وتخريبِهَا، وكان ذلكَ في عهدِ الإمامِ عبدِ العزيزِ بنِ محمدِ بنِ سعودٍ رحمه الله، ولمَّا انتهى حكمُ آلِ سعودٍ على الحجازِ، عاد الجُهَّالُ إلى عبادتِهَا مرَّة أخرى، فلمَّا استولَى الإمامُ عبدُ العزيز بن عبد الرحمن آل سعود على الحجازِ أَمَرَ عُمَّالَهُ بهَدمِهَا، وإزالةِ آثارِهَا.

٢ - وأخرج مسلم (٢٩٠٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**لا يَذهبُ الليلُ والنهارُ حتَّى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى**»، فقلت: يا رسولَ اللهِ، إنْ كنتُ لأظنُّ حين أنزل اللهُ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٣ والصف: ٩] أنَّ ذلك تامًّا، قال: «**إنَّه سيكونُ من ذلكَ ما شاءَ اللهُ، ثم يَبعُثُ اللهُ رِيْحًا طيبةً، فتَوفَّى كلَّ مَن في قلبِهِ مثقالُ حَبَّةِ خَرْدلٍ من إيمانٍ، فيَبقَى مَن لا خيرَ فيهِ، فيَرجِعُونَ إلى دينِ آبائِهِم**».

قال النووي: «(لا يَذهَبُ الليلُ والنهارُ): أي: لا يَنقَطِعُ الزمانُ ولا تأتِي القيامةُ».

٣ - وأخرج أبو داود بسند صحيح من حديث ثوبان رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا تَقومُ الساعةُ حتى تَلحَقَ قبائلُ من أمَّتِي بالمشركينَ، وحتَّى تَعبُدَ قبائلُ من أمَّتِي الأوثانَ**».

«وقد جَرَى ما أخبرَ بهِ ﷺ، وعمَّتْ بهِ البَلوَى في أكثرِ الأقطارِ حتَّى اتَّخَذُوهُ دِينًا، مع ظهورِ الآياتِ المُحكَمَاتِ والأحاديثِ الصحيحةِ في النهيِ عنهُ، والتخويفِ منهُ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ**﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ اللهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾ [الحج: ٣٠ - ٣١].

ثم قال تعالى مُحذِّرًا عبادَهُ من الشركِ: ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١]، ومَن لا تُخوِّفُهُ هذه الآياتُ، وتَزجُرُهُ عن الشركِ في العبادةِ -إذا تدبَّرَهَا-، فلا حيلةَ فيهِ»[(١)].

فتأمَّل -أيها الموفَّقُ- هذه العواقبَ الوخيمةَ، المترتبةَ على الوقوعِ في الشركِ الأكبرِ، وكُنْ منها على حَذَرٍ، وقد وَقَعَ أكثرُ الأمَّةِ بعدَ القُرُونَ المُفضَّلةِ -

---

انظر: «إتحاف الجماعة» للشيخ حمود التويجري ١/ ٥٢٢ - ٥٢٣، و«سُرَاة غامد وزهران» لحمد الجاسر ص/ ٣٣٦ - ٣٤٠.

(١) «قُرَّة عيون المُوحِّدين» ص/ ١٠٦؛ ط دار الخزانة.

إلَّا مَن رَحِمَ اللهُ- فيما خَافَهُ إبراهيم على نفسِهِ وبَنِيهِ، فبُنِيَتِ المساجدُ والقِبَابُ على القبورِ، وصُرِفَتْ لها أنواع العباداتُ، واتُّخِذَ ذلكَ دِينًا، وهي في حقيقة الأمر أوثانٌ وأصنامٌ كأصنامِ قومِ نوحٍ، وكأصنامِ العربِ.

قوله: (**وهو: دعوةُ غيرِهِ معهُ**) أي: دعاءُ غيرِ اللهِ تعالى، وله صورتان:

الصورة الأولى: أنْ يَدعُوَ اللهَ، ويَدعُوَ معهُ غيرَهُ.

الصورة الثانية: أنْ يَدعُوَ غيرَ اللهِ من دونِه.

فمَن فَعَل ذلكَ شيئًا من ذلكَ؛ فقد وَقَع في الشركِ باللهِ، قال ﷺ: «**مَن مات وهو يَدعُو من دونِ اللهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ**».

ودعاءُ غيرِ اللهِ يَشملُ دعاءَ العبادةِ ودعاءَ المسألةِ:

أمَّا دعاء العبادة: فأنْ يَصرِفَ لغيرِ اللهِ عبادةً بأنْ يذبحَ لهُ، أو يَنذِرَ لهُ.

وأمَّا دعاءُ المسألةِ: فأنْ يَتوجَّه لغيرِ اللهِ بالسؤالِ مباشرةً، بأنْ يسألَ المخلوقَ ما لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، كإنزالِ المطرِ، أو شفاءِ المريضِ، أو أن يَكشِفَ كُربتَه، أو يَنصُرَه على عَدُوِّهِ، أو أنْ يَقضِيَ دينَه، أو أنْ يَرزُقَه وَلَدًا، أو غيرَ ذلكَ.

فائدة: تفسيرُ المؤلِّفِ للشركِ بدعوةِ غيرِ اللهِ معهُ هو تفسيرٌ للشركِ ببعضِ أنواعِه، وإلا فالتفسيرُ العامُّ للشركِ، هو: تسويةُ غيرِ اللهِ باللهِ في شيءٍ من خصائصِ اللهِ؛ لكنَّ المؤلِّفَ ذَكَر الدعاء؛ لأنَّ غالبَ شركِ الأولينَ والآخرينِ هو في دعاءِ غيرِ اللهِ تعالى، فهو أبرزُ أنواعِ الشركِ باللهِ.

[الأصول الثلاثة إجمالًا]

قال المؤلّف:

فإذا قيل لكَ: ما الأصولُ الثلاثةُ التي يَجبُ على الإنسانِ معرفتُها؟

فقُل: معرفةُ العبدِ ربَّه، ودينَه، ونبيَّه محمدًا ﷺ.

الشرح

أي: إذا سُئِلتَ عنها، فبماذا تُجِيبُ؟

وخَصَّ المؤلِّفُ هذهِ الأصولَ الثلاثةَ بالذِّكرِ لسببين:

١ – لأنَّ كلَّ عبدٍ يُسألُ عنها في قبرِه، كما تقدَّم في حديثِ أنسٍ، والبراءِ بنِ عازِبٍ، وأبي هريرة رضي الله عنهم.

٢ – لأنَّها تَجمعُ الدِّينَ كلَّه.

[الأصل الأول: معرفة الله]

فإذا قيل لكَ: مَن ربُّك؟ قل: ربِّي اللهُ الذي ربَّاني وربَّى جميعَ العالَمينَ بنِعَمِه، وهو معبودِي، ليس لي معبودٌ سِوَاهُ.

والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالمينَ﴾، وكُلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ، وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ.

الشرح

هذا شُرُوعٌ من المؤلِّفِ في الكلامِ على الأصلِ الأولِ من الأصولِ الثلاثةِ التي من أَجْلِها كَتَب هذهِ الرسالةَ.

وهذه الطريقةُ التي سَلَكهَا المؤلِّفُ، وهي طريقةُ السؤالِ والجوابِ طريقةٌ من طرقِ التعليمِ النافعةِ، ويدلُّ عليها حديثُ جبريلَ عليه السلام في سؤالِ النبيِّ ﷺ عن الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ.

قوله (فإذا قيل لكَ: مَن ربُّك؟)؛ أي: مَن خالِقُك ورازِقُك ومعبودُكَ الذي ليس لكَ معبودٌ سواهُ؟

قوله: (قُل: ربِّي اللهُ، الذي ربَّاني)؛ أي: فقُل: ربِّي هو الله خالقي ومالكي، ومعبودِي الذي أَوجَدَنِي من العَدَمِ، وربَّاني بالنِّعَمِ الظاهرةِ والباطنةِ[1].

قوله (وربَّى جميعَ العالمينَ بنِعَمِهِ) فكل العالمين من مؤمنٍ وكافرٍ، ومَن يَعقِلُ ومَن لا يَعقِلُ، قد ربَّاهم الله بنِعَمِهِ، قال اللهُ تعالى: **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾** [هود: ٦][1].

---

(١) «حاشية ثلاثة الأصول» لابن قاسم، ص/ ٤٠.

• وتربيتُهُ تعالى لخَلْقِه نوعانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ:

فالعامَّةُ: هي خَلْقُهُ للمخلوقينَ، ورَزْقُهُم، وهدايتُهُم لِمَا فيهِ مصالحُهُم، التي فيها بقاؤُهُم في الدُّنيا.

والخاصَّةُ: تربيتُهُ لأوليائِه، فيُربِّيهُم بالإيمانِ، ويُوفِّقُهُم لهُ، ويُكمِّلُهُ لهُم، ويَدفَعُ عنهمُ الصَّوارفَ والعوائقَ الحائلةَ بينهُم وبينَهُ، وحقيقتُهَا: تربيةُ التوفيقِ لكلِّ خيرٍ، والعصمةُ عن كلِّ شرٍّ. ولعلَّ هذا المعنى هو السِّرُّ في كونِ أكثرِ أدعيةِ الأنبياءِ بلفظِ (الربِّ)؛ فإنَّ مطالبَهُم كلَّها داخلةٌ تحتَ ربوبيتِه الخاصةِ[٢].

قلت: ومن ذلكَ: قولُ موسى عليه السلام: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ [القصص: ٢٤]، وقولُ سليمان عليه السلام: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**﴾ [ص: ٣٥]، وقولُ زكريا عليه السلام: ﴿**رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٩]، وقولُ يوسفَ عليه السلام: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ [يوسف: ١٠١].

• ونِعَمُ اللهِ نوعانِ: نعمةٌ مُطلقةٌ، ونعمةٌ مُقيَّدةٌ:

---

(١) ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا**﴾ أي: جميعُ ما دَبَّ على وجهِ الأرضِ؛ من آدميٍّ، أو حيوانٍ بريٍّ، أو بحريٍّ، فاللهُ تعالى قد تَكفَّل بأرزاقِهم وأقواتِهم، فرِزقُهَا على اللهِ ﴿**وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**﴾ أي: يَعلَمُ مُستَقَرَّ هذهِ الدَّوابِّ، وهو: المكانُ الذي تُقِيمُ فيهِ وتَستقِرُّ فيهِ، وتَأوِي إليهِ، ومُستَودَعُها: المكانُ الذي تَنتقلُ إليهِ في ذهابِهَا ومَجيئِهَا، وعوارضِ أحوالِها ﴿**كُلٌّ**﴾ من تفاصيلِ أحوالِها ﴿**فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ أي: في اللوحِ المحفوظِ المُحتَوي على جميعِ الحوادثِ الواقعةِ، والتي تَقَعُ في السماواتِ والأرضِ، الجميعُ قد أحاط بِهَا عِلْمُ اللهِ، وجَرَى بِهَا قَلَمُه، ونَفَذَتْ فيها مشيئتُه، ووَسِعَها رِزقُه، فَلتَطمَئِنَّ القلوبُ إلى كفايةِ مَن تَكفَّل بأرزاقِهَا، وأحاط عِلْمًا بذواتِهَا وصفاتِهَا. «تفسير السعدي» ص/ ٣٧٧.

(٢) «تفسير السعدي» [الفاتحة: ٢].

فالمُطلقةُ: نعمةُ الإسلامِ والسُّنةِ، وهي خاصةٌ لعبادِه المؤمنينَ.

والمُقيَّدةُ: كنعمةِ الصحةِ والغِنَى، وهي مشتَرَكةٌ بين المسلمِ والكافرِ، قال الإمام ابن القيم عندَ قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾: «هؤلاءِ الأصنافُ الأربعةُ هم أهلُ هذهِ النعمةِ المطلقةِ، وأصحابُها أيضًا هم المَعنِيُّونَ بقولِه تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾**[(١)].

قوله (وهو معبودِي، ليس لي معبودٌ سِوَاهُ)؛ أي: هو وحدَه مألوهِي لا غيرُه، كما أنَّه سبحانَه وتعالى المُنفرِدُ بالخَلْقِ والرَّزْقِ والتدبيرِ، فهو وحدَهُ المُستحِقُّ بأنْ يُعبَدَ وحدَه دونَ سِوَاهُ، وهذا مدلولُ كلمةِ الإخلاصِ (لا إلهَ إلَّا اللهُ)[(٢)].

قوله (والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾) الحمدُ هو: الإخبارُ بمحاسنِ المحمودِ مع المحبةِ والتعظيمِ، فلو أَخبَرَ مُخبِرٌ بمحاسنِ غيرِه من غير محبَّةٍ لهُ؛ لم يَكُن حامدًا، ولو أحبَّه ولم يُخبِر بها؛ لم يَكُن حامدًا.

والألفُ واللامُ في الحمدِ لاستغراقِ جميعِ المحامدِ، فجميعُ أنواعِ المحامدِ للهِ سبحانه مُلكًا واستحقاقًا[(٣)].

واستحقاقُ الرَّبِّ تعالى للحمدِ؛ لأمرين[(٤)]:

أحدُهُما: لاتِّصافِه سبحانَه بكمالِ الذاتِ والصفاتِ:

---

(١) «مدارج السالكين» ١/ ١٩.

(٢) «حاشية ثلاثة الأصول» لابن قاسم، ص/ ٤١.

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» ١/ ٨٩: «قال تعالى: **﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، فذَكَر الحَمْدَ بالألفِ واللامِ التي تقتضي الاستغراقَ لجميعِ المحامدِ، فدلَّ على أنَّ الحمدَ كلَّه للهِ».

(٤) «أمراض القلوب وشفاؤها» ص/ ٥٨.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] ، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] ، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] ، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١] ، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

الثاني: لكمالِ إنعامِه على عبادِه:

ويدلُّ عليهِ: قولُ أهلِ الجنةِ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ، وقولُ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ، وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] ، وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

قوله: (وكُلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ، وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ)؛ أي: كُلُّ ما سِوَى اللهِ تعالى فهو من العالَمِينَ، والعوالِمُ كثيرةٌ، فالسماواتُ عالَمٌ، والأَرَضُونَ عالَمٌ، والملائكةُ عالَمٌ، والجِنُّ عالَمٌ، والإنسُ عالَمٌ، والبحارُ عالَمٌ، والمحيطاتُ عالَمٌ، والبهائمُ عالَمٌ، والنباتُ عالَمٌ، والجبالُ عالَمٌ، وغيرُ ذلكَ من العوالِمِ التي لا يَعلَمُهَا إلَّا اللهُ، قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

قوله: (وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ)؛ أي: وأنا واحدٌ من هذهِ المخلوقاتِ.

فائدة: معرفةُ العبدِ لربِّه تَستوجِبُ العملَ الصالحَ والانقيادَ، أمَّا المعرفةُ المُجرَّدةُ عن العملِ لا تَنفعُ صاحبَها، بل تكونُ وَبَالًا عليهِ، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٣١].

ولمَّا سُئِلَ النبيُّ ﷺ: مَن أَسعَدُ الناسِ بشفاعتِكَ يومَ القيامةِ؟ قال: «**أَسعَدُ النَّاسِ بشفاعَتِي مَن قال لا إلهَ إلَّا اللهُ، خالصًا مِن قَلْبِه**».

وفي حديث عِتْبان بنِ مالكٍ رضي الله عنه مرفوعًا: «**إنَّ اللهَ قد حَرَّمَ على النَّارِ مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَبتغِي بذلكَ وجهَ اللهِ**».

وفي حديثِ طارقِ بنِ أَشْيَمَ الأشجعيِّ رضي الله عنه مرفوعًا: «**من قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مَن دونِ اللهِ، حَرُمَ مالُه ودَمُه، وحسابُه على اللهِ**».

فائدة أخرى: معرفةُ اللهِ الواجبةُ على كُلِّ أحدٍ تقومُ على أربعةِ أركانٍ، إذا تَخَلَّف منها ركنٌ، لم يَتَحقَّقِ الإيمانُ:

الركن الأول: الإيمانُ بوجودِهِ تعالى.

الركن الثاني: الإيمانُ بربوبيتِه.

الركن الثالث: الإيمانُ بألوهيتِه.

الركن الرابع: الإيمانُ بأسمائِه وصفاتِه.

[الدليل على وجود الرَّبِّ]

قال المؤلِّف:

فإذا قيل لك: بِمَ عَرَفتَ ربَّك؟ فقُلْ: بآياتِه ومخلوقاتِه.

ومن آياته: الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ.

ومن مخلوقاتِه: السَّماواتُ السَّبعُ، والأَرَضُونَ السَّبعُ، وما فيهِنَّ، وما بينَهما.

والدليل: قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

[فصلت: ٣٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالمينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الشرح

بعد أن ذَكَر المؤلِّفُ الدليلَ الشرعيَّ على أنَّ الرَّبَّ هو اللهُ، ناسَبَ أنْ يَذكُرَ الدليلَ العقليَّ على وجودِ الرَّبِّ تعالى، فقال: (**فإذا قيل لكَ: بِمَ عَرَفتَ ربَّك؟ فقُلْ: بآياتِه ومخلوقاتِه**)؛ أي: لو قال لكَ قائلٌ: بأيِّ شيءٍ عَرَفتَ ربَّك؟ فقُل: عَرَفتُه بآياتِه ومخلوقاتِه.

وآياتُ اللهِ نوعان:

١ – آياتٌ كونيةٌ، كالليلِ والنهارِ، والشمسِ والقمرِ، وسائرِ المخلوقاتِ.

٢ – وآياتٌ شرعيةٌ، وهو الوحيُ المُنزَّلُ على رسولِه ﷺ.

وآياتُ اللهِ الكونيةِ تدلُّ على عظمتِه، وآياتُه الشرعيةُ تدلُّ على عَدلِه وحكمتِه ورحمتِه.

قوله: (ومن آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ)؛ أي: من دلائلِ قُدرتِه وحِكمته الدالةِ على وحدانيتِه الليلُ والنهارُ في تعاقبِهِمَا واختلافِهِمَا، والشمسُ والقمرُ في حركتِهِمَا وسَيرِهِمَا، فهذه آياتٌ عظيمةٌ تدلُّ على وجودِ الخالقِ، وقُدرتِه، وحِكمتِه، قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾** [الفرقان: ٦٢][(١)]، وقال تعالى: **﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ**

---

(١) **قال السعدي** في «تفسيره» ص/ ٥٨٦: «أي: يَذهبُ أحدُهُما فيَخلُفُه الآخرُ، هكذا أبدًا لا يَجتمعانِ ولا يَرتفعانِ، **﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾**؛ أي: لمَن أراد أنْ يتذكَّر بِهِمَا ويَعتبِرَ ويَستدلَّ بِهِمَا على كثيرٍ من المطالبِ الإلهيةِ، ويَشكرُ اللهَ على ذلكَ»

مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠][(١)].

قوله: (ومن مخلوقاتِه: السَّماواتُ السَّبعُ)؛ أي: ومن المخلوقاتِ العظيمةِ السماواتُ السَّبعُ ومَن فيهِنَّ من الملائكةِ، والكواكب، والنجوم، والشمس والقمر، قال تعالى: **﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾**؛ أي: كُلُّ واحدةٍ

---

(١) **قال السعدي** في «تفسيره» ص/ ٥٨٦: «أي: **﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾** على نفوذِ مشيئةِ اللهِ، وكمالِ قدرتِه، وإحيائِه الموتى بعدَ موتِهم **﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾**؛ أي: نُزيلُ الضياءَ العظيمَ الذي طَبَق الأرضَ، فنُبدِّلُه بالظُّلمةِ، ونُحِلُّهَا مَحَلَّهُ **﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾**، وكذلكَ نُزيلُ هذهِ الظُّلمةِ التي عمَّتْهُم وشَمَلَتْهُم، فتَطلُعُ الشمسُ، فتُضِيءُ الأقطارُ، ويَنتشرُ الخَلْقُ لمعاشِهم ومصالحِهم، ولهذا قال: **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾**؛ أي: دائمًا تجري لمُستقَرٍّ لها قدَّرهُ اللهُ لها لا تَتعدَّاهُ، ولا تَقصُرُ عنهُ، وليس لها تَصُرُّفٌ في نفسِهَا، ولا استعصاءَ على قدرةِ اللهِ تعالى **﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾** الذي بعِزَّتِه دبَّرَ هذهِ المخلوقاتِ العظيمةَ بأكملِ تدبيرٍ، وأحسنِ نظامٍ **﴿الْعَلِيمِ﴾** الذي بعِلْمِه جَعَلَهَا مصالحَ لعبادِه، ومنافعَ في دينِهم ودُنياهُم **﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾** يَنزِلُ بِهَا، كُلَّ ليلةٍ يَنزِلُ منها واحدةً **﴿حَتَّى﴾** يَصغُرَ جِدًّا، فيَعودُ **﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾**؛ أي: عُرجُونِ النَّخلةِ، الذي مَن قِدَمِه نَشَّ، وصَغُر حَجمُه، وانْحَنَى، ثم بعدَ ذلكَ ما زال يَزيدُ شيئًا فشيئًا حتَّى يَتِمَّ نُورُه ويَتَّسِقَ ضِيَاؤُه **﴿وَكُلٌّ﴾** من الشمسِ والقمرِ، والليلِ والنهارِ قَدَّرهُ اللهُ تقديرًا لا يَتَعدَّاهُ، وكُلٌّ لهُ سلطانٌ ووقتٌ إذا وُجِدَ عُدِمَ الآخرُ، ولهذا قال: **﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾**؛ أي: في سُلطانِه الذي هو الليلُ، فلا يُمكِنُ أنْ تُوجَدَ الشمسُ في الليلِ **﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾** فيَدخُلُ عليهِ قبلَ انقضاءِ سُلطانِه **﴿وَكُلٌّ﴾** من الشمسِ والقمرِ والنجومِ **﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**؛ أي: يَتردَّدُونَ على الدوامِ، فكُلُّ هذا دليلٌ ظاهرٌ وبرهانٌ باهرٌ على عظمةِ الخالقِ، وعظمةِ أوصافِه، خصوصًا وَصْفَ القدرةِ والحكمةِ والعلمِ في هذا الموضعِ».

فوقَ الأخرى، ولَسْنَ طبقةً واحدةً[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾؛ أي: سبعَ سماواتٍ طِبَاقًا، كُلُّ طبقةٍ فوقَ الأخرى[٢].

وما بينَ كُلِّ سماءٍ والتي تَلِيهَا خمسُمئةِ عامٍ، كما رُوي ذلكَ عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنهما[٣].

قوله: (**والأَرَضُونَ السَّبعُ**)؛ أي: وخَلَق الأَرَضِينَ السَّبعَ، وما فيهِنَّ من الجِنِّ، والإنسِ، والحيوانِ، والنباتِ، والجمادِ، قال تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ [الطلاق: ١٢]؛ أي: سبعَ أَرَضِينَ.

وقد اختُلِفَ في هذه المِثلِيةِ: هل هي مِثليةٌ في العَدَدِ والصفةِ، أم في العددِ دونَ الصفةِ؟ والذي يظهر –والله أعلم– أنَّها مِثليةٌ في العَدَد دونَ الصفةِ، ويدلُّ لذلكَ: ما أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن ظَلَمَ مِن الأرضِ شيئًا، طُوِّقَهُ مِن سبعِ أَرَضِينَ**».

قال ابن حجر في «فتح الباري» ٥/ ١٠٥: «فيهِ: أنَّ الأَرَضِينَ السَّبعَ متراكمةٌ، لم يُفْتَقْ بعضُهَا من بعضٍ؛ لأنَّها لو فُتِقَتْ؛ لاكتُفي في حقِّ هذا الغاصبِ بتطويقِ التي غَصَبَهَا؛ لانفصالِهَا عمَّا تحتَهَا. أشار إلى ذلك الدَّاودِي».

واحتجَّ مَن قال بأنَّها مِثلِيةٌ في العددِ والصفةِ: بِمَا وَرَد في بعضِ الأحاديثِ: أنَّ بينَ كُلِّ أرضٍ وأرضٍ مسيرةَ خمسمِئةِ عامٍ. لكنْ لا يَصحُّ منها شيءٌ.

---

(١) «تفسير السعدي» ص/ ٨٧٥.

(٢) «تفسير السعدي» ص/ ٥٤٩.

(٣) أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» (٨١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٥٩٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٠٣)، ولفظه: ما بينَ السماءِ الدُّنيا والتي تَلِيهَا مسيرةُ خمسِمئةِ عامٍ، وبينَ كُلِّ سماءَينِ مسيرةُ خمسِمئةِ عامٍ، وبينَ السماءِ السابعةِ وبينَ الكُرسِيِّ خمسُمئةِ عامٍ، وبينَ الكُرسيِّ إلى الماءِ خمسُمئةِ عامٍ، والعرشُ على الماءِ، واللهُ تعالى فوقَ العرشِ، وهو يَعلَمُ ما أنتُم عليهِ.
وصحَّح إسنادَه الذهبي في «كتاب العرش».

قوله: (والدليل: قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ... إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ قال السعدي في «تفسيره»: «ذَكَر تعالى أنَّ **﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾** الدَّالةِ على كمالِ قُدرتِه، ونُفُوذِ مشيئتِه، وسَعَةِ سُلطانِه، ورحمتِه بعبادِه، وأنَّه اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ **﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾** هذا بمنفعةِ ضِيَائِه، وتَصَرُّفِ العبادِ فيهِ، وهذا بمنفعةِ ظُلَمِه، وسُكُونِ الخَلْقِ فيهِ **﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾** اللَّذانِ لا تَستقيمُ معايشُ العبادِ ولا أبدانُهُم ولا أبدانُ حيواناتِهم إلَّا بِهِمَا، وبِهِمَا من المصالحِ ما لا يُحصَى عَدَدُه **﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾** فإنَّهما مُدبَّرانِ مُسخَّرانِ مخلوقانِ **﴿وَاسْجُدُوا للهِ الذي خلقهن﴾** أي: اعبُدُوه وحدَه، لأنَّه الخالقُ العظيمُ، ودَعُوا عبادةَ ما سِوَاهُ من المخلوقاتِ، وإنْ كَبُر جُرمُه وكَثُرَتْ مصالحُه، فإنَّ ذلكَ ليس منهُ، وإنَّما هو من خالقِه تبارك وتعالى **﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** فخُصُّوهُ بالعبادةِ وإخلاصِ الدِّينِ لهُ».

قوله: (وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...﴾ أي: ومن دلائلِ ربوبيتِه خَلْقُ السماواتِ والأرضِ.

قال المؤلِّف:

والربُّ: هو المعبودُ. والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]. **قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى: الخالقُ لهذهِ الأشياءِ هو المُستحِقُّ للعبادةِ.**

الشرح

هذا من تقريرِ توحيدِ الإلهيةِ (العبادة) بتقريرِ توحيدِ الربوبيةِ، فالمُقِرُّ بتوحيدِ الربوبيةِ يَلزمُه الإقرارُ بتوحيدِ الألوهيةِ، كما أَلزَمَهُمُ اللهُ في هذهِ الآية، وعلى هذا يدلُّ كلامُ الإمامِ ابنِ كثيرٍ رحمه الله.

وفي هذه الآية جوابٌ لسؤالٍ قد يَرِدُ على الأذهانِ، وهو: إذا كان مشركو العربِ قد أَقرُّوا بالربوبيةِ، فلماذا ذُكِرَتْ في القرآنِ الكريمِ؟

وهنا يأتي الجوابُ، وهو أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر الربوبيةَ لأمرَين:

الأمر الأول: للإلزامِ بتوحيدِ الألوهيةِ:

كما في الآية التي ذَكَرها المؤلِّفُ، وكما في قولِه تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٠].

وجه الدلالة من الآية الأولى: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَّرَهُم بأدلةِ ربوبيتِه، ثم ألزَمَهُم بإفرادِه بالعبادةِ، وخَلْعِ ما يُعبَدُ من دونِه.

ووجه الدلالة من الآيتَينِ الأُخرَيين: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر بعضَ خصائصِ ربوبيتِه، ثم ألزَمَ بإفرادِه بالعبادة، فقال: ﴿**أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ**﴾، أي: أإلهٌ مع اللهِ فَعَل هذه الأفعالَ حتى يُعبدَ معهُ ويُشركَ بِه؟!

الأمر الثاني: لبيانِ عظمةِ اللهِ تعالى:

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الأنعام: ٩١ والزمر: ٦٧]، قال البغوي في «تفسيره»: «أي: ما عظَّموهُ حقَّ عَظَمَتِه».

وقال تعالى: ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾ [نوح: ١٣]، قال السعدي في «تفسيره»: «أي: لا تَخافُونَ للهِ عظمةً، وليس للهِ عندكُم قَدْرٌ».

قوله: (والربُّ: هو المعبودُ) أي: أن الذي يَستحِقُّ العبادةَ هو الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُه.

قال المؤلِّف:

وأنواعُ العبادةِ التي أَمَر اللهُ بها: مثلُ: الإسلام، والإيمانِ، والإحسانِ. ومنه: الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكُّلُ، والرغبةُ، والرَّهبةُ،

والخشوعُ، والخشيةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذبحُ، والنَّذْرُ، وغيرُ ذلك من أنواع العبادة التي أَمَر اللهُ بها، كلُّها للهِ تعالى.

والدليل: قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ المسَاجِدَ لِلهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، **فمن صَرَف منها شيئًا لغير الله؛ فهو مشركٌ كافرٌ، والدليل: قولُه تعالى:** ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

الشرح

لمَّا ذَكَر المؤلِّفُ أنَّ الربَّ هو المعبودُ، ناسَبَ أنْ يَذكر بعضَ أنواعِ العبادةِ التي يُتعبَّدُ بِهَا للهِ تعالى، وقد ذَكَر المؤلِّف سبعةَ عشرَ نوعًا من أنواعِ العبادةِ، أمَّا الثلاثةُ الأولى: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ، فهي مراتبُ الدِّينِ، وسيُفرِدُ المؤلِّفُ الحديثَ عنها عندَ الكلامِ على مراتبِ الدِّينِ.

قوله (التي أَمَر اللهُ) هذه الأوامرُ قد تكونُ على سبيل الإيجابِ وقد تكونُ على سبيلِ الاستحبابِ، والدليلُ على أنَّ المندوبَ مأمورٌ بِه قولُه تعالى: **﴿وَافْعَلُوا الخَيْرَ﴾** [الحج: ٧٧].

قوله (مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ) ظاهرُ كلامِ المؤلِّف أنَّ هذهِ الثلاثةَ من أنواعِ العبادةِ، وهذا فيه إشكالٌ؛ لأنَّ المعروفَ أنَ هذهِ الثلاثةَ هي مراتبُ الدِّينِ، كما في حديثِ عمرَ رضي الله عنه، وفيه: «**فإنَّهُ جبريلُ، أَتَاكُم يُعلِّمُكُم دِينَكُم**»، وما ذَكَرهُ المؤلِّفُ بعدَ ذلكَ من الخوفُ والرجاءُ والتوكُّلُ ... الخ داخلٌ في مُسمَّى الإسلامِ والإيمانِ، فيُحمَلُ كلامُ المؤلِّف على أنَّه أرادَ أنَّ أفرادَ أعمالِ الإسلامِ والإيمانِ وما عُطِفَ عليهما يكونُ للهِ تعالى.

قوله (كلُّها للهِ تعالى) أي: كلُّ أنواعِ العبادةِ يجبُ أنْ تُصرَفَ للهِ وحدَهُ، ولا يَصحُّ صَرْفُ شيءٍ منها لغيرِ اللهِ تعالى.

قوله (والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ المسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً﴾) هذا هو الدليلُ على وجوبِ صَرْفِ العباداتِ للهِ تعالى وحدَهُ، قال الطبري في «تفسيره» ٢٣/ ٦٦٥: «﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا﴾ أيُّها الناسُ ﴿مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾، ولا تُشرِكُوا بِه فيها شيئًا، ولكنْ أَفرِدُوا لهُ التوحيدَ، وأَخلِصُوا لهُ العبادةَ».

قوله (فمَن صَرَف منها شيئًا لغيرِ اللهِ) أي: فمَن توجَّه بشيءٍ من أنواعِ العباداتِ لغيرِ اللهِ، ولو نوعًا واحدًا، مثلُ: أن يدعُو غيرَ اللهِ من الأمواتِ والغائبينَ، أو يسألَهُم قضاءَ الحاجاتِ وتفريجَ الكُرُباتِ، أو يَذبحَ لهُم، أو يَنذِرَ لهُم ... الخ.

قوله (فهو مشركٌ كافرٌ) لأنَّه صَرَفَ عبادةً لغيرِ اللهِ تعالى.

قوله (والدليل: قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾)؛ أي: الدليلُ على كُفر مَن فَعَل ذلكَ قولُه تعالى: **﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ ...﴾** الآية.

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى سمَّاهُم كافرينَ؛ لأنَّهم دَعَوا معهُ غيرَه.

وقوله تعالى **﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾** لا شكَّ أنَّ كُلَّ مَن أشركَ باللهِ لا حُجَّةَ له على شِرْكِه، فليس المرادُ بيانَ أنَّ بعضَ مَن أشركَ باللهِ قد يكونُ لهُ حُجَّةٌ، وإنَّما هي لبيانِ الواقعِ، فإنَّ المشركَ باللهِ لا حُجَّةَ له على شِرْكِه، فهذهِ الآيةُ كقولِه تعالى: **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾** [الحج: ٧١]، وكقولِه تعالى **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [النحل: ٦٤]، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: «فالمشركونَ لا يَفعلونَ ذلكَ عن دليلٍ قادَهُم إلى ما هُم فيهِ من الإفكِ والضلالِ، وإنَّما يفعلونَ ذلك اتِّباعًا لآبائِهم وأسلافِهِم الحَيَارَى الجُهَّالِ، كما قالوا: **﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾** [الزخرف: ٢٣]».

فهذهِ الآيةُ كقولِه تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، وقوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الحج: ٧١].

تنبيه: قول المؤلِّف (فهو مشركٌ كافرٌ) لا شكَّ أنَّ فاعلَ الشركِ الأكبرِ يكونُ كافرًا، لكنْ هذا الوَصْفُ وهو الكفرُ لا يَتنزَّلُ على الشخصِ المُعيَّنِ إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ.

قوله: (وأنواعُ العبادةِ) لمَّا كان مدارُ التوحيدِ على تحقيقِ العبوديةِ للهِ تعالى؛ كان من المناسِبِ ذِكرُ بعضِ المسائلِ المُتعلِّقةِ بمعنى العبادةِ، والكلامُ في معنى العبادةِ يُنتظَمُ في تسعِ مسائلَ:

المسألة الأولى: تعريف العبادة:

العبادة لغة: التذلُّلُ والخضوعُ. تقولُ: بعيرٌ مُعبَّدٌ، أي: مُذلَّلٌ، ويُسمِّيهِ الناسُ الذَّلولَ؛ لكونِه مُذلَّلًا للركوبِ. وتقولُ العربُ: طريقٌ مُعبَّدٌ: إذا كان مُهيئا للسَّيرِ عليهِ، وكذلك الدِّينُ -أيضًا- من الذُّلِّ، يقال: دِنتُهُ فَدَان، أي: ذَلَلتُهُ فذَلَّ.

والعبادةُ شرعًا: لها معنًى من جهةِ حقيقتِها (وهو التَّعبُّد)، ومعنًى من جهةِ مفرداتِها (ما يُتَعَبَّدُ بهِ)[1].

أمَّا معناها من جهةِ حقيقتِها (وهو التَّعبُّد): فهي التَّذَلُّلُ للهِ عزَّ وجَلَّ بفعلِ أوامرِه واجتنابِ نَواهِيهِ؛ محبةً وتعظيمًا، فيكونُ في قلبِ العبدِ خضوعٌ لأوامرِ اللهِ ونَواهِيهِ، مع محبَّةٍ في قلبِه، فمَن فَعَل ذلكَ، فقد تحقَّق بالعبوديةِ

وبمعنى آخر: كمالُ الذُّلِّ مع كمالِ المحبةِ.

فالعابدُ للهِ تعالى يقومُ بأوامرِه محبةً في الوصولِ إلى مرضاتِه، مُتذَلِّلًا لهُ وخاضعًا، ويَنتهِي عندَ محارمِ اللهِ خوفًا منهُ وتعظيمًا.

---

(١) مثال ذلك: الصلاةُ، ففِعلُها عبادةٌ، وهو التعبُّدُ، وهي في نفسِهَا عبادةٌ، وهي التعبَّدُ بِهَا. انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» ١/ ١٤.

وهذا التذلُّل هو تذلُّلٌ اختياريٌّ لا إجباريٌّ؛ لأنَّه يجمعُ بين الخضوعِ والمحبَّةِ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادةُ المأمورُ بها تَتَضمَّنُ معنى الذُّلِّ، ومعنى الحُبِّ، فهي تَتَضمَّنُ غايةَ الذُّلِّ للهِ تعالى بغايةِ المحبَّةِ لهُ».

وقال أيضًا: «العبادةُ المأمورُ بِهَا، تتضمَّنُ معنى الذُّلِّ ومعنى الحُبِّ، **فهي تَتَضمَّنُ غايةَ الذُّلِّ للهِ بغايةِ المحبةِ لهُ** ... ومَن خَضَعَ لإنسانٍ مع بُغضِهِ لهُ، لا يكونُ عابدًا له، ولو أَحَبَّ شيئًا ولم يَخضَعْ لهُ، لم يكن عابدًا لهُ، كما قد يُحِبُّ وَلَدَهُ وصديقَهُ، ولهذا لا يَكفِي أحدُهُما في عبادةِ اللهِ تعالى، بل يجبُ أنْ يكونَ اللهُ أَحَبَّ إلى العبدِ من كلِّ شيءٍ، وأنْ يكونَ اللهُ أعظمَ عندهُ من كُلِّ شيءٍ ... الإلهُ: هو الذي يَأْلَهُهُ القلبُ بكمالِ الحُبِّ والتعظيمِ، والإجلالِ والإكرامِ، والخوفِ والرجاءِ، ونحوِ ذلك.

وهذهِ العبادةُ هي التي يُحبُّهَا اللهُ ويَرضَاهَا، وبِهَا وَصَفَ المُصْطَفينَ من عبادِهِ، وبها بَعَثَ رُسُلَه.

وأمَّا العبدُ، بمعنى المُعبَّدُ، سواءٌ أقرَّ بذلكَ أو أَنكَرَهُ، فتلكَ يَشتركُ فيها المؤمنُ والكافرُ، وبالفرقِ بينَ هذينِ النوعينِ يُعرَفُ الفرقُ بينَ الحقائقِ الدينيةِ، الدَّاخلةِ في عبادةِ اللهِ ودينِهِ وأَمْرِهِ الشرعيِّ، التي يحبُّها ويرضاها، ويُوالِي أهلَها، ويُكرِمُهُم بجنَّتِهِ، وبينَ الحقائقِ الكونيةِ، التي يشتركُ فيها المؤمنُ والكافرُ، والبَرُّ والفاجرُ، التي مَن اكتَفَى بِهَا، ولم يتَّبِعِ الحقائقَ الدينيةَ، كان من أتباعِ إبليسَ اللعينَ، والكافرينَ بربِّ العالمينَ».

وقال الإمام ابن القيم: «مَن أحببتَهُ ولم تَكُن خاضعًا لهُ؛ لم تَكُن عابدًا لهُ، ومَن خَضَعتَ لهُ بلا محبَّة؛ لم تَكُن عابدًا لهُ، حتى تكونَ مُحِبًّا خاضعًا».

وبهذا التفصيل يتبيَّنُ لنا أنَّ ثمَّةَ فرقٌ بين العبادةِ في اللغةِ، وبين العبادةِ في الشرعِ.

وأمَّا معناها من جهةِ مفرداتِهَا (ما يُتَعَبَّدُ بِه): فأَجمَعُ تعريفٍ لها ما قالَهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: «اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويَرضاهُ من الأقوالِ والأعمالِ

الظاهرةِ والباطنةِ، فالصلاةُ، والزكاةُ، والصيامُ، والحجُّ، وصِدقُ الحديثِ، وأداءُ الأمانةِ، وبرُّ الوالدينِ، وصلةُ الأرحامِ، والوفاءُ بالعهودِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُّ عن المنكرِ، والجهادُ للكفارِ والمنافقينَ، والإحسانُ إلى الجارِ، واليتيمِ، والمسكينِ، وابنِ السبيلِ، والمملوكِ من الآدميينَ والبهائمِ، والدعاءِ، والذِّكرِ، والقراءةِ، وأمثالِ ذلكَ من العبادةِ، وكذلك حبُّ اللهِ ورسولِه، وخشيةُ اللهِ، والإنابةُ إليه، وإخلاصُ الدِّينِ لهُ، والصبرُ لحُكمِهِ، والشكرُ لنِعَمِه، والرِّضا بقضائِه؛ والتوكلُ عليه؛ والرجاءُ لرحمتِه، والخوفُ لعذابِه، وأمثالُ ذلكَ هي من العبادةِ للهِ».

فائدة: العبادةُ بهذا المعنى لا تَخرجُ عن كونِها واجبةً أو مستحبةً فِعْلًا أو تَرْكًا؛ فما يُحِبُّه اللهُ تعالى هو ما بين واجبٍ ومستحبٍّ، وما يَكرهُهُ اللهُ تعالى هو ما بينَ محرَّمٍ أو مكروهٍ، **وعليه؛** فالمباحُ لا يُتعبَّدُ به، لا فِعْلًا ولا تَرْكًا، ومَن تعبَّدَ بالمباحِ فِعْلًا أو ترَكا؛ وَقَع في البدعةِ.

مثالُ التعبُّدِ بالفعلِ: التَّعبُّدُ بلُبْسِ الصُّوفِ، وكَشْفِ الرأسِ.

ومثالُ التعبُّدِ بالتَّركِ: التَّقرُّبُ إلى اللهِ بتَرْكِ النكاحِ، أو الامتناعُ عن أَكْلِ الطيِّباتِ.

وقد ذمَّ النَّبيُّ ﷺ صنيعَ النَّفَرِ الثلاثةِ الذين جاؤوا إلى بُيُوتِ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ يَسألونَ عن عبادةِ النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا أُخبِرُوا كأنَّهُم تَقَالُّوهَا، فقالوا: وأينَ نحنُ من النَّبيِّ ﷺ؟ قد غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذَنْبِه وما تأخَّر، قال أحدُهُم: أَمَّا أنا، فإنِّي أُصلِّي الليلَ أبدًا، وقال آخرُ: أنا أَصومُ الدَّهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخرُ: أنا أَعتَزِلُ النِّساءَ فلا أَتزوَّجُ أبدًا، فجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ إليهِم، فقال: **«أَنتُمُ الذينَ قلتُم كذا وكذا، أَمَا واللهِ، إنِّي لَأَخشاكُمْ للهِ، وأتقاكُم لهُ، لكنِّي أَصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأَرقُدُ، وأَتزوَّجُ النِّساءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي، فليسَ مِنِّي»**.

فدلَّ هذا على أنَّ المباحَ لا يُتعبَّدُ بِه إلَّا في حالةٍ واحدةٍ، وهي أن يكونَ المباحُ مُعِينًا على طاعةِ اللهِ تعالى، كما قال معاذ رضي الله عنه: أَمَّا أنا فأنامُ وأَقومُ، وأَرجو في نَوْمَتِي ما أَرجو في قَومَتِي. أخرجه البخاري (٤٣٤٤) ومسلم (١٧٣٣) (١٥).

قال النووي: «قوله (أمَّا أنا فأنامُ وأقومُ، وأرجو في نَومَتِي ما أَرجو في قَومَتِي) معناه: أنِّي أنامُ بنيةِ القوةِ، وإجماعِ النَّفْسِ للعبادةِ، وتنشيطِها للطاعةِ، فأَرجو في ذلكَ الأجرَ، كما أَرجو في قَومَتِي، أي: صَلَواتِي».

وقال ابن حجر: «معناه: أنَّه يَطلبُ الثوابَ في الراحةِ، كما يَطلبُهُ في التَّعَبِ؛ لأنَّ الراحةَ إذا قُصِدَ بها الإعانةُ على العبادةِ حَصَّلَتِ الثوابَ».

المسألة الثانية: العبادة نوعان: عبادةٌ طوعيةٌ وعبادةٌ إكراهيةٌ، أو يقال: عبادةٌ كَونيةٌ وعبادةٌ شرعيةٌ.

وهذهِ المسألةَ قد ضَلَّ فيها كثيرٌ من الناسِ؛ حيثُ إنَّهم لم يُفرِّقوا بينَ العبادةِ الكونيةِ والشرعيةِ، وأصلُ المسألةِ أنَّ العبدَ يُرادُ بِه أمرانِ:

الأول: المُعبَّدُ الذي عبَّدهُ اللهُ، فَذَلَّلَهُ، ودبَّرَهُ، وصَرَّفَهُ.

الثاني: العابدُ، وهو كونُه عابدًا للهِ تعالى لا يَعبدُ إلَّا إيَّاهُ.

فعبادةُ الأولِ تَتعلَّقُ بربوبيتِه، وهذهِ العبادةُ هي العبادةُ الكَونيةُ (الكرهية).

وهذه العبادةُ تَشملُ جميعَ المخلوقاتِ، لا يَخرجُ عنها أحدٌ، فكلُّهم عبيدُهُ، خاضعونَ لهُ، وتحتَ قَهرِهِ وسُلطانِه، تجري عليهِم أقدارُه راغِبينَ أو راغِمِينَ.

والعابدُونَ بهذهِ العبوديةِ الكونيةِ لا يُثابُونَ عليها؛ لأنَّهم خاضعُونَ للهِ تعالى شاؤُوا أم أَبَوا، فالإنسانُ يُصابُ بالمرضِ، وبالفقرِ، وبفَقْدِ محبوبِه، من غيرِ أنْ يكونَ مُرِيدًا لذلكَ، بل هو كارِهٌ لذلكَ، لكنْ قد يَحصلُ منهُ شُكرٌ عندَ الرخاءِ وصبرٌ على البلاءِ، فيُحمَدُ عليهِ[1].

(١) انظر: «مجموع فتاوى ابن عثيمين» ١/ ٨٩، و«شرح ثلاثة الأصول» له ص/ ٣٩.

وهذهِ العبادةُ هي المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٨٨ - ٩٣][1]، «فكُلُّ مَن في السماواتِ والأرضِ فهو خاضِعٌ للهِ سبحانَه وتعالى كَوْنًا، لا يُمكِنُ أبدًا أنْ يُضَادَّ اللهَ أو يُعارِضَهُ فيمَا أراد سبحانَه وتعالى بالإرادةِ الكونيةِ»[2]، وهذهِ العبوديةُ لا مدحَ فيها، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]، فسَمَّاهُم عبادَه مع ضلالِهِم.

وعبادةُ الثاني مُتعلِّقةٌ بألوهيتِه، وهذهِ العبادةُ هي العبادةُ الشرعيةُ (الطوعيةُ)، وهي عبوديةُ الطاعةِ والمحبةِ واتِّباعِ الأوامرِ، وهذه العبادةُ خاصَّةٌ بكُلِّ مَن تعبَّد للهِ بشَرْعِه، وأَخلَصَ في عبادتِه، وانقادَ لأمرِه ونَهْيِهِ.

والعبادةُ بهذا المعنى هي المذكورةُ في قولِه تعالى عن نوحٍ عليه السلامُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وعن داودَ عليه السلامُ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، وعن سليمانَ عليه السلامُ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وعن

---

(١) ﴿وَقَالُوا﴾ أي: اليهودُ والنَّصارى ومَن زَعَم أنَّ الملائكة بَنَاتُ اللهِ ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ قال تعالى لهم ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي: منكرًا عظيمًا، من عظيمِ أمرِه أنَّه ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ على عَظَمتِهَا وصَلابتِهَا ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: من هذا القولِ ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ منهُ، أي: تَتصدَّعُ وتَنفَطِرُ ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي: تَنطبِقُ عليهِم من أَجْلِ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: ما يَلِيقُ بِه ذلكَ؛ لأنَّ اتِّخاذَهُ الوَلَدَ يدلُّ على نقصِه واحتياجِه، وهو الغنيُّ الحميدُ، والوَلَدُ أيضًا من جنسِ والدِه، واللهُ تعالى لا شَبِيهَ لهُ، ولا مِثْلَ، ولا سَمِيَّ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ذليلًا خاضعًا يومَ القيامةِ، منهم: عزيرٌ، وعيسى. انظر: «تفسير الجلالين»، و«تفسير السعدي» ص/ ٥٠١.

(٢) «مجموع فتاوى ابن عثيمين» ١/ ٨٩.

أيوبَ عليه السلامُ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وعن محمدٍ ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وعن عمومِ عبادِه الصالحينَ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وأضافَهُم سبحانَه إلى اسمِه إشارةً إلى أنَّهم ما وَصَلُوا إلى هذهِ الحالِ إلَّا برحمتِه، وهذه الإضافةُ إضافةُ تشريفٍ.

وقد ذَكَر هذينِ النوعَينِ **شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ**، فقال: «وبالفرقِ بينَ هذَينِ النَّوعَينِ يُعرَفُ الفرقُ بينَ (الحقائقِ الدينيةِ) الداخلةِ في عبادةِ اللهِ ودينِه وأمرِه الشرعيِّ، التي يُحبُّهَا ويَرضاهَا ويُوالِي أهلَها ويُكرِمُهُم بجَنَّتِه، وبينَ (الحقائقِ الكونيةِ) التي يَشتركُ فيها المؤمنُ والكافرُ والبَرُّ والفاجرُ، التي مَن اكتَفَى بِهَا، ولم يَتَّبِعِ (الحقائقَ الدينيةَ) كان من أتباعِ إبليسَ اللعينِ والكافرينَ برَبِّ العالمينَ، ومَن اكتَفَى بِهَا في بعضِ الأمورِ دونَ بعضٍ أو في مقامٍ أو حالٍ، نَقَص من إيمانِه ووِلَايتِه للهِ بحَسَبِ ما نَقَص من (الحقائقِ الدينيةِ)، وهذا مقامٌ عظيمٌ فيهِ غَلِطَ الغالطُونَ، وكَثُر فيهِ الاشتباهُ على السَّالكينَ»[1].

والعبوديةُ للهِ من أَجَلِّ أوصافِ الإنسانِ؛ لأنَّ الإنسانَ إمَّا أنْ يَعبُدَ اللهَ أو الشيطانَ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ []، فـ«ما مِن إنسانٍ يَفِرُّ من عبوديةِ اللهِ إلَّا وَقَع في عبوديةِ هَوَاهُ وشيطانِهِ، كما قال اللهُ تعالي: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

هَرَبُوا من الرِّقِّ الذي خُلِقُوا لَهُ *** وبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ والشيطانِ

وقال الشاعر:

لا تَدْعُنِي إلَّا بـ يَا عَبْدَهَا *** فإنَّه أَشْرَفُ أَسْمَائِي

(١) «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١٥٨.

والرِّقُّ الذي خُلِقُوا لهُ: عبادةُ اللهِ عزَّ وجلَّ. وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ والشيطانِ: حيثُ صاروا أَرِقَّاءَ لنفوسِهِم وأَرِقَّاءَ للشيطانِ»[(١)].

ولمَّا كان الوَصفُ بالعبوديةُ للهِ هو أَجَلَّ أوصافِ الإنسانِ، وَصَف اللهُ سبحانَه رسولَه محمدًا ﷺ في أشرفِ المقاماتِ:

ففي مقامِ إنزالِ القرآنِ: قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الآية [الكهف: ١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وفي مقامِ التحدِّي: قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي مقامِ الإسراءِ: قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ الآية [الإسراء: ١].

وفي مقامِ الكفايةِ: قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

المسألة الثالثة: كيف تُعرف العبادة؟

تُعرَف العبادةُ بأمورٍ، منها:

١- أنْ يُطلَبَ من العِبَاد فِعْلُهَا، إمَّا على سبيلِ الوجوبِ أو الاستحبابِ.

٢- أنْ يُطلَبَ من العِبَادِ تَركُهَا، إمَّا على سبيلِ الوجوبِ[(٢)] أو الاستحبابِ[(٣)].

٣- أنْ يُرتَّبَ على فِعْلِهَا ثوابًا أو عقابًا.

٤- أنْ يُخبَرَ أنَّها من الدِّينِ، أو من الإسلامِ، أو من الإيمانِ، أو الإحسانِ.

---

(١) «شرح العقيدة الواسطية» للعثيمين ١/ ٣٦٢.

(٢) كالأمرِ بترك الزنا، أو السرقةِ، أو الغيبةِ، أو النميمةِ.

(٣) كما قولِه ﷺ: «**إنَّ اللهَ كَرِهَ لكم: قيل وقال، وكثرةَ السُّؤالِ**»، وقولِه ﷺ: «**مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فَليَقُلْ خيرًا أو لِيَصمُتْ**».

٥ – أنْ يُخبَر بأنَّ اللهَ تعالى أو رسولَه ﷺ يُحبِّانِه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما معناه: كُلُّ مَن رَجَا أجرًا أو ثوابًا على عملٍ فهو عبادةٌ.

المسألة الرابعة: العبادةُ بحَسَبِ ما تَقومُ بالأعضاءِ منقسمةٌ على القلبِ واللسانِ والجوارحِ، والأحكامُ التي للعبوديةِ خمسةٌ: واجبٌ، ومستحبٌّ، وحرامٌ، ومكروهٌ، ومباحٌ، وهنَّ لكلِّ واحدٍ من القلبِ واللسانِ والجوارحِ:

القسم الأول: عباداتٌ قلبيةٌ:

كالحياءِ، والمحبةِ، والخوفِ، والرجاءِ، والتوبةِ، والإنابةِ، والخشيةِ، والرهبةِ، والتوكلِ، ونحوِ ذلكَ.

القسم الثاني: عباداتٌ قوليةٌ:

كشهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وتلاوةِ القرآنِ، والدعاءِ، والتحميدِ، والتهليلِ، والتسبيحِ، والتكبيرِ، والاستغفارِ، والدعوةِ إلى اللهِ، وصِدْقِ الحديثِ، ونحوِ ذلكَ.

القسم الثالث: عباداتٌ عمليةٌ:

كالصلاةِ، والصيامِ، والزكاةِ، والحَجِّ، والصَّدقةِ، والجهادِ، وإماطةِ الأذى عن الطريقِ، وأداءِ الأمانةِ، وبِرِّ الوالدينِ، وصلةِ الأرحامِ، والوفاءِ بالعهودِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ، والجهادِ للمنافقينَ والكفارِ، والإحسانِ إلى الحيوانِ، والأيتامِ، والمساكينِ، وابنِ السبيلِ، والمملوكِ من الآدميينَ، والذَّبحِ، والنَّذرِ.

ومن العباداتِ المشتركةِ: الصلاةُ –مثلًا–، فإنَّها تَجمعُ ذلكَ كُلَّه.

المسألة الخامسة: العبادةُ خاصَّةٌ باللهِ:

قال اللهُ تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿**فَلا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾

[الفاتحة: ٥].

فائدة: اهتمَّ أئمةُ الدعوةِ النجديةِ السَّلَفيةِ بتعريفِ العبادةِ؛ لأنَّ المخالفينَ يَصرِفونَ العباداتِ لغيرِ اللهِ، ويزعمونَ أنَّ هذهِ المصروفاتِ ليستْ عبادةً، فلأجلِ ذلكَ احتاجُوا إلى بيانِ ضابطِ العبادةِ.

المسألة السادسة: شروطُ قَبولِ العبادةِ؟

قرَّر أهلُ العلمِ أنَّ للعملِ الصالحِ شرطينِ أساسيَينِ لا يُقبَلُ العملُ إلَّا بِهِمَا، وهما: الإخلاصُ للهِ تعالى، والمتابعةُ للرسولِ ﷺ.

وقد جَمَع اللهُ تعالى هذَينِ الشرطَينِ في آياتٍ من كتابِه، منها: قولُه تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠]، وقولُه تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ [النساء: ١٢٥][(١)]، وقولُه تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: ٢][(٢)].

---

(١) وجه الدلالة: أنَّ إسلامَ الوجهِ للهِ هو الإخلاصُ والانقيادُ، وأنَّ الإحسانَ هو المتابعةُ.

قال السعدي في «تفسيره» ص/ ٢٠٦: «أي: لا أَحَد أَحسَنَ مِن دينِ مَن جَمَع بينَ الإخلاصِ للمعبودِ، وهو إسلامُ الوجهِ للهِ، الدالِّ على استسلامِ القلبِ، وتَوَجُّهِه، وإنابتِه، وإخلاصِه، وتَوَجُّهِ الوجهِ وسائرِ الأعضاءِ للهِ ﴿**وَهُوَ**﴾ مع هذا الإخلاصِ والاستسلامِ ﴿**مُحْسِنٌ**﴾؛ أي: مُتَّبِعٌ لشريعةِ اللهِ التي أَرسَلَ بِهَا رُسُلَهُ، وأَنزَلَ كُتُبَهُ، وجَعَلَهَا طريقًا لخواصِّ خَلْقِه وأَتْبَاعِهِم».

(٢) **قال الفضيل بن عياض** في تفسير هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، قال: أَخلَصُه وأَصوَبُه. قيل: يا أبا عليٍّ، وما أَخلَصَه وأَصوَبَه؟ قال: إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولم يَكُن صوابًا لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يَكُن خالصًا لم يُقبَل، حتَّى يكونَ خالصًا صوابًا، والخالصُ: ما كان للهِ، والصوابُ: ما كان على السُّنَّةِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وجماعُ الدِّينِ أصلانِ: أَلَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ، ولا نَعبُدُه إلَّا بِمَا شَرَع لا نَعبُده بالبدعِ، كما قال تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ (الكهف: ١١٠)، وذلكَ تحقيقُ الشهادتَينِ: شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وشهادةَ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ؛ ففي الأولى: أَلَّا نَعبُدَ إلَّا إيَّاهُ، وفي الثانية: أنَّ محمدًا هو رسولُه المُبلِّغُ عنهُ؛ فعلينا أنْ نُصدِّقَ خبرَه، ونُطِيعَ أمرَه»[(١)].

وقال ابن القيم: «لا يكونُ العبدُ مُتحقِّقًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلَّا بأصلَينِ عظيمَينِ: أحدُهُما: متابعةُ الرسولِ. والثاني: الإخلاصُ للمعبودِ. فهذا تحقيقُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾»[(٢)].

الشرط الأول: الإخلاص:

فإنَّ اللهَ سبحانه لا يَقبلُ من العملِ إلَّا ما كان خالصًا لوجهِه، قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿**أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿**قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي**﴾ [الزمر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿**وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [الأعراف: ٢٩]، وفي الحديث القدسي: «**أنا أغنَى الشُّركاءِ عن الشركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فيهِ مَعِيَ غيرِي، تَرَكتُه وشِرْكَه**».

الشرط الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

فاللهُ تعالى لا يَقبلُ من العملِ إلَّا ما كان موافقًا لهدي الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ**﴾ [الشورى: ٢١]، وقال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال مجاهد: السُّبُل: البدعُ والشبهاتُ.

---

(١) انظر: «العبودية» ص/ ١٧٠.

(٢) «مدارج السالكين» ١/ ١٢٨؛ ط عطاءات العلم.

وقال ﷺ: «**مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليهِ أمرُنا، فهو رَدٌّ**»، وفي رواية أخرى للحديث: «**مَن أَحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليس منهُ، فهو رَدٌّ**»؛ أي: مردودٌ عليهِ.

وقال ﷺ: «**كُلُّ بدعةٍ ضلالةٌ**»، وقال ﷺ: «**فإنَّهُ مَن يَعِشْ منكُم بَعْدِي فسيَرَى اختلافًا كثيرًا، فعليكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشِدِينَ المَهدِيِّينَ، تمسَّكُوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحدَثَاتِ الأمورِ، فإنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بدعةٌ**».

و«أَسعَدُ الخَلْقِ وأعظمُهُم نعيمًا وأعلاهُم درجةً أعظمُهُم اتباعًا للرسولِ ﷺ، وموافقةً عِلْمًا وعملًا»[1].

فإذا فُقِدَ هذانِ الشرطانِ أو أحدُهُما بَطَلتِ العبادةُ،

وممَّا يدلُّ على أهميةِ شرط المتابعة:

١ – أنَّ اللهَ تعالى قد أَكمَلَ لنا الدينَ، ورَضِيهُ لنا، فقال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣]، فمَن ابتَدَع في الدينِ، فقد استَدرَكَ على اللهِ تعالى وعلى رسولِه ﷺ، واتَّهَم الدينَ بالنقصِ.

قال الإمام مالك: مَن ابتَدَع في الدينِ بدعةً يَرَاهَا حسنةً؛ فقد زَعَم أنَّ محمدًا ﷺ قد خَانَ الرسالةَ.

٢ – أنَّه لو جاز للناسِ أنْ يَتعبَّدوا بما شاؤوا كيفما شاءوا؛ لأَصبَحَ لكُلِّ إنسانٍ طريقتُه الخاصةُ بالعبادةِ، ممَّا يُؤدِّي إلى الشقاقِ والافتراقِ.

٣ – أنَّه لو جاز للناسِ أن يَعبُدوا اللهَ بما شاؤوا كيفما شاءوا، لتَرتَّبَ على ذلكَ عدمُ حاجةِ الناسِ إلى الرُّسُلِ، ولا يقولُ بهذا عاقلٌ.

المسألة السابعة: الانحراف في مفهوم العبادة:

لمَّا انحرَفَ أهلُ البدعِ في فَهم معنى التوحيدِ والشركِ، أدَّى ذلكَ بهم إلى الانحراف في فَهمِ معنى العبادةِ، فقالوا: إنَّ دُعاءَ الأموات ونداءَهم، والاستغاثةَ بِهِم لا يكونُ شِركًا، إلَّا إذا اقتَرَن بِه اعتقادُ الربوبيةِ لذلكَ المُعظَّمِ، يقولُ أحدُهُم:

(١) «مجموع الفتاوى» ٤/ ٢٦.

«كُلُّ ما يدلُّ على التعظيمِ لا يكونُ من العبادةِ إلَّا إذا اقتَرَن بِه اعتقادُ الربوبيةِ لذلكَ المُعظَّمِ، أو صفةٍ من صفاتِها الخاصةِ بها».

وقال آخر: «العبادةُ شرعًا غايةُ التَّذلُّلِ والخضوعِ لمَن يَعتقِدُ لهُ الخاضعُ بعضَ صفاتِ الربوبيةِ، كما يُنبِئُ عنه مواقعُ استعمالِها في الشرعِ، فغايةُ الخضوعِ لا تكونُ عبادةً بمجرَّدِها ، بل حتَّى تكونَ على وجهٍ خاصٍّ، وهو اعتقادُ الخاضعِ ثبوتُ صفةٍ من صفاتِ الربوبيةِ للمخضوعِ لهُ».

وهذا التقييدُ لم يَرِدْ عليهِ دليلٌ لا من كتابٍ ولا من سُنَّةٍ، ولم يَسبِقْهُم إليهِ أحدٌ، وإنَّما حَمَلهُم عليهِ اعتقادُهُم بأنَّ توحيدَ الربوبيةِ هو الغايةُ المطلوبةُ، وأنَّ الألوهيةَ هي عينُ الربوبيةِ.

وممَّا يدلُّ عَلَى بُطلان هذا التقييد:

١ – مخالفتُه للغةِ، حيثُ لم يَرِدْ في لغةِ العربِ تقييدُ العبادةِ بأنَّها التي تكونُ خاصةً لمَن يُعتَقدُ فيهِ الربوبيةُ، والأصلُ هو أنْ يَبقَى اللفظُ اللغويُّ على مدلولِه، إلَّا إذا ثَبَت تغييرُه في الشرعِ، ثم إنَّ لفظَ العبادةِ لم يَرِدْ في الشرعِ حَصرُهُ فيمَن يَعتقِدُ الربوبيةَ

٢ – أنَّ النصوصِ الشرعيةِ لم تَرِدْ بهذا التقييدِ، بل الواردُ فيها كما تقدَّم أنَّ العبادةَ: اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضَاهُ من الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنةِ. وما ثَبَت كونُه عبادةً للهِ تعالى، فصرفُه لغيرِه شِركٌ.

٣ – أنَّ هذا التعريفَ الذي قالوهُ يلزمُ منهُ أنَّ المشركينَ الأوَّلينَ لم يكونوا مشركينَ؛ لأنَّ هذا التعريف الذي ذكروه في معنى العبادةِ لا يَصدقُ على كونِ عملِهِم عبادةً لآلهتِهِم؛ فإنَّهم لا يُثبتون مع اللهِ مساويًا لهُ في أفعالِه ولا في صفاتِه، ولا يَرَونَ استقلالَ الآلهةِ بالنفعِ والضَّرِّ دونَ اللهِ تعالى، ويُؤيِّدُ ذلكَ: أنَّ اللهَ تعالى أخبَر أنَّهم لم يُريدُوا بعبادتِهِم للصالحينَ إلَّا التَّقرُّبَ بِهِم إلى اللهِ، وشفاعتَهم عندَه، كما قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: ٣].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: «أي: إنَّما يَحمِلُهُم على عبادتِهِم لهم أنَّهم عَمَدُوا إلى أصنامٍ اتَّخَذُوها على صُوَرِ الملائكةِ المُقرَّبينَ في زعمِهِم، فعَبَدُوا تلكَ الصُّوَر؛ تنزيلًا لذلكَ منزلةَ عبادتِهِم الملائكةَ؛ لِيَشفَعُوا لهم عندَ اللهِ في نَصْرِهِم ورَزْقِهِم، وما يَنُوبُهُم من أمرِ الدُّنيا.

ولهذا كانوا يقولونَ في تلبيتِهِم إذا حَجُّوا في جاهليتِهِم: لبيَّك لا شريكَ لكَ، إلَّا شريكًا هو لكَ، تَملِكُه وما مَلَك».

فالمشركونَ ما سَوَّوا آلهتَهُم باللهِ في الخَلْقِ، والمُلكِ، والتدبيرِ، والرِّزقِ، والإحياءِ والإماتةِ، وإنَّما سَوَّوهُم بِه في الدعاءِ، والخوفِ، والرجاءِ، والمحبةِ، والتعظيمِ، والإجلالِ.

٤ – تقدَّمَ فيما مضى أنَّ العبادةَ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاهُ من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ، وهذا التعريف للعبادة شاملٌ لكُلِّ ما أَمَر اللهُ بِه ورسولُه أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استحبابٍ، وممَّا أَمَر اللهُ بِه دعاؤُه وسؤالُه، قال تعالى: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿**وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿**فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ**﴾ [العنكبوت: ١٧]، فإذا امتَثَل العبدُ أمرَ ربِّه، فدَعاهُ مُخلِصًا، صار ذلكَ عبادةً منهُ لربِّه، فإذا دَعَا غيرَه، فقد عَبَد ذلكَ الغيرِ، والنبيُّ ﷺ قال: «**الدُّعاءُ هو العبادةُ**»، فسَمَّى الدعاءَ عبادةً، فالدعاءُ في نفسِه عبادةٌ، فكُلُّ مَدعُوٍّ معبودٌ.

فيقال لهم: دعاءُ العبدِ لربِّه واستغاثتِه بِه، هل هو عبادةٌ أو لا؟

فإنْ قال: ليس بعبادةٍ، فهذا مكابرةٌ، ومخالفةٌ للكتابِ والسُّنةِ والإجماعِ.

وإنْ أقرَّ أنَّه عبادةٌ من العبدِ لربِّه.

قيل له: هل تَجِدُ شيئًا واحدًا يكونُ بالنسبةِ إلى اللهِ عبادةً، وبالنسبةِ إلى غيرِه ليس عبادةً؟

وبهذا يظهرُ بطلانُ هذا التقييدِ الذي ذَكَروهُ.

ومن الانحرافات الواقعة في مفهوم العبادة أيضًا:

١ – ما يقولُه دعاةُ الحريةِ (الليبرالية) والعلمانيون من أنَّ الدِّينَ لا دَخْلَ لهُ في دُنيا الناسِ وتشريعاتِهِم، وأنَّ الناسَ أحرارٌ في أفعالِهِم، وأنَّه لا يَحِقُّ لأحدٍ التَّدخُلَ في شؤونِهِم.

وهذه المقالة مقالة كاذبة؛ لأمرين:

الأمر الأول: منافاتُها لمعنى العبوديةِ التي تَستلزمُ الانقيادَ لشرعِ اللهِ تعالى.

الأمر الثاني: أنَّه لو كان الأمرُ كما يَزعمُ هؤلاءِ، فأيُّ حاجةٍ إذن لبعثةِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ؟!

٢ – ما يقولُه غُلاةُ الصوفيةِ من أنَّ للشريعةِ ظاهرًا وباطنًا، وأنَّ الناسَ يَسَعُهُم الخروجُ عن الأوامرِ الشرعيةِ بدعوى الشريعةِ والحقيقةِ، وقائِلُ هذهِ المقالةِ كاذبٌ على اللهِ تعالى ورسولِه.

٣ – ما يقولُه غُلاةُ الصوفيةِ أيضًا من أنَّ العبادةَ تَسقطُ عن بعضِ المُكلَّفينَ في حالٍ من الأحوال.

وقائِلُ هذهِ المقالةِ كاذبٌ على اللهِ تعالى الذي قال لرسولِه ﷺ: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٩].

وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذهِ المسألةِ عندَ التعليقِ على رسالةِ «نواقض الإسلام – الناقض التاسع».

[الدعاء ودليله]

قال المؤلِّف:

وفي الحديث: «الدعاءُ مخُّ العبادةِ».

والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

الشرح

بعدَ أنْ ذَكَر المؤلِّفُ أنواعَ العباداتِ على وجهِ الإجمالِ، شَرَع في ذِكرِ بعضِ العباداتِ، والقاعدةُ في هذا البابِ: أنَّ كُلَّ ما ثَبَتَ أنَّهُ عبادةٌ فصَرْفُهُ لغيرِ اللهِ تعالى شركٌ، وقد دلَّ على هذه القاعدةِ دليلان:

أحدُهُما: الأدلةُ التي دلَّت على أنَّ العبادةَ خاصَّةٌ باللهِ، وقد تقدَّم ذِكرُها.

الثاني: الآياتُ التي دلَّت على أنَّ صَرْفَ العبادةِ لغيرِ اللهِ شركٌ، ومن ذلك:

= قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

= وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

= وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۝ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

= وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

= وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٥].

وجه الدلالة من هذهِ الآياتِ: أنَّها بيَّنت أنَّ صَرْفَ العبادةِ لغيرِ اللهِ تعالى شِرْكٌ.

فائدة: الأفعالُ التي يُتعبَّدُ بِهَا للهِ تعالى على قسمين:

القسم الأول: أفعالٌ لا تأتِي إلَّا عبادةً، كالتوكُّلِ، والذَّبحِ، والنَّذرِ، فمثلُ هذا يكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

القسم الثاني: أفعالٌ تأتِي عبادةً وتأتي على غيرِ وجهِ العبادةِ، كالدُّعاءِ، والاستعانة، والاستغاثة، فمثلُ هذه الأفعال لا يكونُ صَرْفُها لغيرِ اللهِ شركًا إلَّا إذا فُعِلَت على وجهِ التعبُّدِ.

وسيأتي تفصيلُ ذلكَ بإذنِ اللهِ تعالى عندَ الكلامِ على الأمثلةِ التي ذَكَرهَا المؤلِّفُ.

قوله: (وفي الحديث: الدعاءُ مخُّ العبادةِ) هذا هو المثالُ الأولُ من أمثلةِ العبادةِ، وهو عبادةُ الدعاءِ.

وقوله: (الدعاءُ مخُّ العبادةِ) أي: لُبُّهَا وجَوهرُهَا؛ لِمَا فيهِ من الإخلاصِ، والخضوعِ، والضراعةِ، والرَّجاءِ».

وهذا الحديثُ وإنْ كان ضعيفًا، فمعناهُ صحيحٌ، ويُغني عنه: حديثُ النعمانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: «**الدُّعاءُ هو العبادةُ**»، ثم قَرَأَ: **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**».

قوله: (والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...﴾ وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى سَمَّى الدعاءَ عبادةً بقرينةِ ما بعدَه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾**، وقولُه تعالى: **﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**؛ أي: صاغرينَ.

ومن الآياتِ التي دلَّت على أنَّ الدعاءَ يأتي بمعنى العبادةِ: قولُه تعالى عن إبراهيمَ عليه السلامُ: **﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾** [مريم: ٤٨ - ٤٩].

وجه الدلالة من الآيتين: أنَّ إبراهيمَ عليه السلام ذَكَر في الآيةِ الأولى الدُّعاءَ، فقال: **﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾**، وفي الآيةِ الثانيةِ قال: **﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾**، فأتى بكلمةِ العبادةِ بدلًا من كلمةِ الدُّعاءِ، فتبيَّن بهذا أنَّ كلمةَ الدُّعاءِ والعبادةِ معناهما واحدٌ.

وإذا ثَبَت أنَّ الدعاءَ عبادةٌ؛ فيكون صَرْفُه لغيرِ اللهِ تعالى شركٌ.

ويَتعلَّقُ بالدُّعاءِ عدَّة مسائلَ:

المسألة الأولى: معنى الدعاء لغةً وشرعًا:

الدعاء لغة: هو أنْ تُمِيلَ الشيءَ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ، يقال: دَعَوتُ فلانًا؛ أي: صِحْتُ بِه واستَدعَيتُه.

وشرعًا: استدعاءُ العبدِ ربَّه عزَّ وجَلَّ العنايةَ، واستمدادُه إيَّاهُ المعونةَ، وحقيقتُه إظهارُ الافتقارِ إليهِ، والتَّبرُّؤ من الحَولِ والقوةِ.

المسألة الثانية: أقسام الدُّعاء:

يُطلقُ الدُّعاءُ في الكتابِ والسُّنةِ، ويُرادُ بِه دعاءُ العبادةِ تارةً، ودعاءُ المسألةِ تارةً، وقد يُرادُ منها مجموعُهُما، والنوعانِ متلازمانِ، كما سيأتي.

أمَّا النوعُ الأولُ، وهو دعاءُ العبادةِ: فهو التَّعبُّد للهِ تعالى بسائرِ العباداتِ القلبيةِ، والبدنيةِ، والماليةِ.

وهذا النوعُ من الدُّعاءِ صَرفُه لغيرِ اللهِ شركٌ أكبرُ، وعليهِ يَقَعُ الوعيدُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

ووجهُ تسميةِ الدُّعاءِ عبادةً: أنَّه يَتعبَّدُ بالدُّعاءِ، طلبًا للثوابِ، وخوفًا من العقابِ.

وأمَّا النوعُ الثاني، وهو دعاءُ المسألةِ: فهو طَلَبُ ما يَنفعُ الدَّاعي، وكَشْفُ ما يَضُرُّه (طلب الحاجات).

وهذا النوعُ الثاني، وهو دعاءُ المسألةِ: منهُ ما هو خاصٌّ باللهِ، وهو أنْ يَطلُبَ العبدُ من اللهِ تعالى ما لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا هو سبحانَه، ومنهُ ما ليس خاصًّا باللهِ، وهو أنْ يَطلُبَ العبدُ من غيرِه من المخلوقينَ ما يَقدِرُ عليهِ، كأنْ تقولَ لهُ: يا فلانُ أَطعِمنِي.

العلاقة بين نوعي الدعاء:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «اعلم أنَّ الدُّعاءَ نوعان: دعاءُ عبادةٍ ودعاءُ مسألةٍ، كما حقَّقهُ غيرُ واحدٍ، منهم: شيخُ الاسلامِ وابنُ القيمِ وغيرُهُما، ويُرادُ بِهِ في القرآنِ هذا تارةً، وهذا تارةً، ويُرادُ بِهِ مجموعُهُما، وهما متلازمانِ، فدعاءُ المسألةِ: هو طلبُ ما ينفعُ الداعِي من جَلْبِ نفعٍ أو كَشْفِ ضُرٍّ ... فهو يُدعَى

للنَّفعِ والضُّرِّ دعاءَ المسألة، ويُدعى خوفًا ورجاء دعاءَ العبادة، فعُلِمَ أنَّ النوعين متلازمان، فكُلُّ دعاءِ عبادةٍ مُستلزمٌ لدعاءِ المسألةِ، وكلُّ دعاءُ مسألةٍ مُتضمنٌ لدعاءِ العبادةِ، وبهذا التحقيقِ يَندفعُ عنكَ ما يقولُهُ عبَّادُ القبورِ إذا أُحتُّجَّ عليهم بِمَا ذَكَر اللهُ في القرآنِ من الأمرِ بإخلاصِ الدعاءِ لهُ، قالوا: المرادُ بهِ العبادةُ! فيقولون في مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ المسَاجِدَ للهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]؛ أي: لا تَعبُدُوا مع اللهِ أحدًا. فيقال لهم: وإنْ أُرِيدَ بهِ دعاءُ العبادةِ، فلا يَنفي أنْ يَدخُلَ دعاءُ المسألةِ في العبادةِ، لأنَّ دعاءَ العبادةِ مستلزمٌ لدعاءِ المسألةِ، كما أنَّ دعاءَ المسألةِ متضمِّنٌ لدعاءِ العبادةِ».

المسألة الثالثة: أقسام الدعاء:

يَنقسمُ الدعاءُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسم الأول: الدعاءُ التَّعبُّدي:

وهو أنْ يَطلُبَ العبدُ من اللهِ تعالى ما لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا هو سبحانه، كهدايةِ القلوبِ، أو دخولِ الجنةِ، أو النجاةِ من النارِ، أو رِزْقِ الأولاد، أو إنزالِ المطرِ، أو شِفَاءِ المرضى، أو تفريجِ الكُرُباتِ ... الخ.

القسم الثاني: الدعاء الجائز:

وهو أنْ تَطلُبَ من المخلوقِ الحَيِّ الحاضرِ ما يَقدرُ عليهِ مع التعلُّقِ باللهِ وحدهُ. قال الشيخ العثيمين: «ومَن دَعَا حيًّا بما يَقدِرُ عليه، مثلَ أن يقولَ: يا فلانُ، أَطعِمني، اسْقِني، فلا شيءَ فيه». «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين، ص/ ٥٦.

القسم الثالث: الدُّعاءُ المُحرَّم:

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: شركٌ أكبرُ:

وهو أنْ يَطلبَ العبدُ من غير اللهِ ما لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالى، كأنْ يَطلُبَ من المخلوقِ هدايةَ القلوبِ، أو دخولَ الجنةِ، أو النجاةَ من النارِ، أو رِزْقَ الأولاد، أو إنزالَ المطرِ، أو شِفَاءَ المرضى، أو تفريجَ الكُرُباتِ ... الخ.

وقد دلَّ على أنَّ هذا الطَّلبَ شركٌ ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۝ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤ - ١٩٥].

ففي هذه الآياتِ بيانُ أنَّ دعاءَ الميتِ والغائبِ والحاضرِ فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ شركٌ أكبرُ. انظر: «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ عبد الله بن إبراهيم القرعاوي، ص/ ٤٦.

وهذا الدعاءُ الذي هو شركٌ أكبرُ، لهُ أربعُ صُوَرٍ:

الصورة الأولى: أنْ يكونَ المَدعُو ميِّتًا:

وهذا شركٌ أكبرُ؛ «لأنَّ الميِّتَ أو الغائبَ لا يُمكِنُ أنْ يَقُومَ بمثلِ هذا، فدُعاؤُهُ إيَّاهُ يدلُ على أنَّه يَعتقِدُ أنَّ لهُ تَصَرُّفًا في الكَونِ، فيكونُ بذلكَ مُشرِكًا». «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين، ص/ ٥١.

قال ابن عبد الهادي: «ولو جاء إنسانٌ إلى سريرِ الميتِ يَدعُوهُ من دونِ اللهِ، ويستغيثُ بِه، كان هذا شِركًا مُحرَّمًا بإجماعِ المسلمينَ». «الصارم المُنكي» ص/ ٢٢٥.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأمَّا مَن يأتي إلى قبرِ نبيٍّ أو صالحٍ، أو مَن يَعتَقِدُ فيهِ أنَّهُ قبرُ نبيٍّ، أو رَجُلٍ صالحٍ، وليس كذلكَ، ويسأَلُهُ ويَستنجدُهُ ... مثل أن يسألَهُ أنْ يُزِيلَ مرضَهُ، أو مرضَ دوابِّهِ، أو يَقضِيَ دينَهُ، أو يَنتَقِمَ لهُ من عدوِّهِ، أو يُعافِيَ نفسَهُ وأهلَهُ ودوابَّهُ، ونحوَ ذلكَ ممَّا لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فهذا شركٌ صريحٌ، يجبُ أنْ يُستتابَ صاحبُهُ، فإنْ تاب وإلَّا قُتِلَ». «مجموع الفتاوى» ٢٧/ ٧٢.

وقال أيضًا: «ومن أعظمِ الشركِ: أنْ يَستغِيثَ الرجلُ بميِّتٍ أو غائبٍ». ٢٧/ ٨١.

وقال الشيخ العثيمين: «ومَن دَعَا ميِّتًا أو غائبًا بمثلِ هذا، فإنَّه شِركٌ؛ لأنَّ الميِّتَ أو الغائبَ لا يُمكِنُ أنْ يَقُومَ بمثلِ هذا، فدُعاؤُهُ إيَّاهُ يدلُ على أنَّه يَعتقِدُ أنَّ لهُ تَصَرُّفًا في الكَونِ، فيكونُ بذلكَ مُشرِكًا». «شرح ثلاثة الأصول» ص/ ٥١.

الصورة الثانية: أنْ يكونَ المَدعُو حيًّا قادرًا، لكنَّه غائبٌ:

وهذا شركٌ أكبرُ؛ لأنَّه ما استَغاثَ به في هذهِ الحالِ إلَّا لعِلْمِه بأنَّه يَعلمُ الغيبَ، أو أنَّ سَمْعَهُ يَتَّسِعُ للبعيداتِ، أو أنَّ لهُ تَصَرُّفًا في الكَونِ.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإنْ أَرادَ أنَّه هو يكونُ بحيثُ يَسمعُ أصواتَ الخلائقِ من البُعدِ، فليس هذا إلَّا للهِ ربِّ العالمينَ الذي يَسمعُ أصواتَ العِبَادِ كلِّهِم». «الرد على الأخنائي» ص/ ٢١١.

وقال ابن عبد الهادي: «وإنْ أراد إنَّه هو يكونُ بحيثُ يَسمعُ أصواتَ الخلائقِ من البُعدِ، فليس هذا إلا للهِ ربِّ العالمينَ الذي يَسمعُ أصواتَ العبادِ كلِّهِم، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة ٠٠٧] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة ١٠]، وليس أحدٌ من البشرِ بل ولا من الخَلْقِ يَسمعُ أصواتَ العبادِ كلِّهِم، ومَن قال هذا في بَشَرٍ فقولُهُ من جنسِ قولِ النصارى الذين يقولونَ: إنَّ المسيحَ هو اللهُ، وإنَّه يَعلمُ ما يَفعلُهُ العبادُ، ويَسمعُ أصواتَهُم، ويُجيبُ دعاءَهُم». «الصارم المُنكي» ص/ ١٦١.

وتقدم قول الشيخ العثيمين: «مَن دَعَا ميِّتًا أو غائبًا بمثلِ هذا، فإنَّه شِركٌ؛ لأنَّ الميِّتَ أو الغائبَ لا يُمكِنُ أنْ يَقُومَ بمثلِ هذا، فدُعاؤُهُ إيَّاهُ يدلُ على أنَّه يَعتقِدُ أنَّ لهُ تَصَرُّفًا في الكَونِ، فيكونُ بذلكَ مُشرِكًا».

الصورة الثالثة: أنْ يكونَ المَدعُو حيًّا حاضرًا ويَسألُهُ ما لا يَقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ:

كأنْ يَطلُبَ منهُ إنزالَ الغَيثِ، أو غفرانَ الذنبِ، أو أنْ يَرزُقَهُ وَلَدًا، أو يُعافِيَهُ من المرضِ، أو يَرُدَّ غائبَهُ، أو هدايةَ القلوبِ، أو دخولَ الجنةِ، أو النجاةَ من النارِ، أو أنْ يَدعُوَ غيرَ اللهِ مع اعتقادِ أنَّه يَستقِلُّ في إيجادِ المطلوبِ من دونِ اللهِ؛ فإنَّ إيجادَ الشيءِ استقلالًا خاصٌّ باللهِ عزَّ وجلَّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأمورُ التي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ لا تُطلَبُ إلَّا منهُ، مثلَ غُفرانِ الذنوبِ، وهدايةِ القلوبِ، وإنزالِ المطرِ، وإنباتِ النباتِ». «مجموع الفتاوى» ١/ ١٠٩.

وقال أيضًا: «فكلُّ مَن غَلَا في حَيٍّ؛ أو في رَجُلٍ صالحٍ ... وجَعَلَ فيهِ نوعًا من الإلهيةِ، مثلَ أنْ يقولَ: كُلُّ رِزْقٍ لا يَرزُقُنِيهِ الشيخُ فلانٌ ما أُريدُهُ، أو يقولُ إذا ذَبَحَ شاةً: باسمِ سيِّدي، أو يَعبدُهُ بالسُّجودِ لَهُ أو لغيرِه، أو يَدعُوهُ من دونِ اللهِ تعالى؛ مثلَ أن يقولَ: يا سيِّدي فلانُ، اغفِرْ لي! أو ارْحَمْنِي! أو انْصُرْنِي! أو ارزقني! أو أغثنِي! أو أَجِرْني! أو توكَّلتُ عليكَ! أو أنتَ حَسْبي؛ أو أنا في حَسْبِكَ! أو نحوَ هذه الأقوالِ والأفعالِ التي هي من خصائصِ الربوبيةِ التي لا تَصلحُ إلَّا للهِ تعالى، فكلُّ هذا شركٌ وضلالٌ، يُستتابُ صاحبُهُ، فإنْ تاب وإلَّا قُتِلَ، فإنَّ اللهَ إنَّما أَرسَلَ الرسُّلَ وأَنزَلَ الكتبَ لِنَعبُدَ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ولا نَجعلَ مع اللهِ إلهًا آخرَ». «مجموع الفتاوى» ٣/ ٣٩٥.

وهذا شركٌ أكبرُ، وهو شركٌ في الربوبيةِ والألوهيةِ.

الصورة الرابعة: أنْ يكونَ المَدعُو حيًّا حاضرًا، ويَسألُه ما يَقدِرُ عليهِ المخلوقُ، لكنْ هذا المسؤولُ عاجزًا:

وهذا شركٌ أكبرُ؛ لأنَّه ما سألَهُ وهو على هذهِ الحالِ إلَّا وهو يَعتقِدُ أنَّه يَملِكُ التَّصرُّفَ في الكَونِ.

النوع الثاني: أن يكون شركًا أصغر:

وهو أنْ يَطلُبَ من المخلوقِ ما يَقدِرُ عليهِ مع التعلُّق بِه من دونِ اللهِ تعالى.

قال الشيخ العثيمين: «إذا طلبتَ من أحدٍ الغَوثَ وهو قادرٌ عليه؛ فإنَّه يجبُ عليكَ تصحيحًا لتوحيدِكَ أنْ تعتقدَ أنَّه مجردُ سببٍ، وأنَّه لا تأثيرَ لهُ بذاتِه في إزالةِ الشدةِ؛ لأنَّك ربَّما تعتمدُ عليهِ وتَنسَى خالقَ السَّببِ، وهذا قادحٌ في كمالِ التوحيدِ». «القول المفيد على كتاب التوحيد» ١/ ٣٣٥.

النوع الثالث: بدعي:

وهو السؤالُ (التوسُّل) بذواتِ الأنبياء والصالحينَ وجَاهِهِم، كأنْ يقولَ: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بنبيِّك أنْ تَغفِرَ لي».

أو: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بجَاهِ نبيِّك».

أو: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بجاهِ الأولياءِ والصالحينَ».

أو: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بحقِّ أوليائِكَ الصالحينَ».

«أو: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بمقامِ فلانٍ عندكَ».

أو: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بحقِّ البيتِ الحرامِ».

أو: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بكرامةِ رجالِ اللهِ عندَك، وبجَاهِ مَن نحنُ في حضرتِه، وتحتَ مَدَدِه، فرِّج الهَمَّ عَنَّا وعن المَهمُومِينَ».

أو: «اللهمَّ إنَّا قد بَسَطنَا إليكَ أَكُفَّ الضَّراعةِ، مُتوسِّلينَ إليكَ بصاحبِ الوسيلةِ والشفاعةِ أنْ تَنصُرَ الإسلامَ والمسلمينَ» ... الخ. فهذا التوسُّلُ بدعةً.

والدليلُ على بدعيتِه: أنَّ قائلَ هذهِ العبارةِ قد تَعبَّد للهِ تعالى بعبادةٍ لم يَدُلَّ عليها دليلٌ شرعيٌّ، والعباداتُ مبناهَا على السُّنة والاتباعِ لا على الأهواءِ والابتداعِ، ولهذا لا يُعلَمُ عن أحدٍ من الصحابةِ رضي الله عنهم أنَّه تَوسَّل إلى الله تعالى بهذا[1].

لكن لا يَصحُّ تَسميةُ هذا النوعِ من التوسُّلِ شِركًا؛ لأنَّ الخطأَ هنا في أنَّه تعبَّد بشيءٍ ليس عليهِ دليلٌ.

فائدة: التوسُّلُ المشروعُ أربعةُ أنواعٍ:

النوع الأول: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بأسمائِه وصفاتِه أو بأفعالِه:

---

(١) **قال شيخ الإسلام ابن تيمية:** «وأمَّا القسمُ الثالثُ [أي: من أقسام الدعاء] وهو أنْ يقولَ: اللهمَّ بجَاهِ فلانٍ عندَك، أو ببركةِ فلانٍ، أو بحُرمةِ فلانٍ عندَك: افْعَلْ بِي كذا وكذا. فهذا يَفعلُه كثيرٌ من الناسِ؛ لكن لم يُنقَلْ عن أحدٍ من الصحابةِ والتابعينَ وسَلَفِ الأمةِ أنَّهم كانوا يَدعُونَ بمثلِ هذا الدعاءِ ... والعبادةُ مبناهَا على السُّنة والاتباعِ لا على الأهواءِ والابتداعِ، وإنَّما يُعبَدُ اللهُ بِمَا شَرَع لا يُعبَدُ بالأهواءِ والبدعِ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾». «مجموع الفتاوى» ٢٧/ ٨٣ و٨٦.

والدليلُ على هذا النوعِ عمومًا: قولُه تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠]، «ومن تمامِ كونِهَا حُسنَى أنَّه لا يُدعَى إلَّا بِها، ولذلكَ قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾».

ويَدخلُ في ذلكَ: التوسُّلَ بصفاتِ اللهِ تعالى؛ إذِ هي داخلةٌ في التوسُّلِ بأسمائِه؛ لأنَّ أسماءَه الحُسنى صفاتٌ لهُ، خُصَّت بِه تبارَك وتعالى.

فمِن أمثلةِ التَّوسُّلِ إلى اللهِ تعالى بأسمائِه:

قولُه ﷺ لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «**قُل: اللهمَّ إنِّي ظَلَمتُ نفسِي ظلمًا كثيرًا، ولا يَغفِرُ الذنوبَ إلَّا أنتَ، فاغْفِرْ لِي مغفرةً من عندِكَ، وارْحَمنِي، إنَّكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ**».

وقولُ المسلمِ في دعائِه: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّك أنتَ الرحمنُ الرحيمُ، اللطيفُ الخبيرُ أنْ تُعافِيَنِي»، «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بحُبِّكَ لمحمدٍ ﷺ». فإنَّ الحُبَّ من صفاتِه تعالى.

ومِن أمثلةِ التَّوسُّلِ إلى اللهِ تعالى بصفاتِه:

قولُ سليمانَ عليهِ السلامُ: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾ [النمل: ١٩]، وقولُ موسى عليهِ السلامُ: ﴿**وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [يونس: ٨٦].

وما أخرجه الترمذي، من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه أنَّه قال: كان النبيُّ ﷺ إذا كَرَبَهُ أَمرٌ، قال: «**يا حَيُّ يا قيومُ برحمتِكَ أَستغيثُ**».

وقوله ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بعزتِكَ لا إلهَ إلَّا أنتَ أنْ تُضِلَّنِي**».

وقوله ﷺ: «**اللهمَّ بعِلمِكَ الغيبَ وقُدرتِكَ على الخَلْقِ أَحيِنِي ما عَلِمتَ الحياةَ خيرًا لي، وتوفَّنِي إذا عَلِمتَ الوفاةَ خيرًا لي، واجْعَلْ الحياةَ زيادةً لي في كُلِّ خيرٍ، والموتَ راحةً لي من كُلِّ شَرٍّ**».

وفي دعاء الاستخارة: «**اللهمَّ إنِّي أستَخيرُكَ بعلمِكَ، وأستَقدِرُك بقُدرتِكَ**».

«اللهمَّ إنِّي أسألُكَ برحمتِك التي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ أنْ تَرحَمَنِي وتَغفِرَ لي»

أو يَتوسَّل توسُّلًا عامًّا، فيقولُ: «اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بأسمائِكَ الحُسنَى وصفاتِكَ العُلَى».

ومِن أمثلةِ التَّوسُّلِ إلى اللهِ تعالى بأفعالِه:

قوله: «**اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما بارَكتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ**».

فأنتَ تسألُ اللهَ تعالى الذي مَنَّ بصلاتِه على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ أنْ يَمُنَّ بصلاتِه على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ.

النوع الثاني: التوسُّل إلى الله تعالى بالعمل الصالح:

وهو أنْ يَذكُرَ العبدُ بين يَدَي دُعائِه عملًا صالحًا يكونُ سببًا في حصولِ الإجابةِ.

ومن الأدلة على هذا النوع: قولُ المؤمنينَ: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران: ٥٣]، وقولُهم: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وتوسُّلُ أصحابِ الغارِ بأعمالِهِمُ الصالحةَ.

ومن ذلكَ أنْ تقولَ: اللهمَّ بإيمانِي بِكَ، ومحبَّتِي لكَ، واتِّباعِي لرسولِكَ.

أو: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بحُبِّي لمحمدٍ وإيمانِي بِه.

أو: اللهمَّ إنِّي أتوسَّلُ إليكَ بإيمانِي بِكَ، وبحُبِّي لتوحيدِك.

النوع الثالث: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بدعاءِ الرَّجلِ الصالحِ:

ومن الأدلة على هذا النوع: ما أخرجه البخاري، من حديث أنس رضي الله عنه أنَّه قال: أصابَتِ الناسَ سَنَةٌ على عهدِ النبيِّ ﷺ، فبَينا النبيُّ ﷺ يَخطبُ في يومِ جمعةٍ قام أعرابيٌّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هَلَك المالُ وجاع العيالُ، فادْعُ اللهَ لنا، فرَفَع يَدَيهِ، وما نَرَى في السماءِ قَزَعةً، فو الذي نفسِي بيدِه، ما وَضَعهَا حتى ثَارَ السَّحابُ أمثالَ الجبالِ، ثم لم يَنزِلْ عن مِنبَرِه حتى رأيتُ المطرَ يَتحادَرُ على لحيتِه.

وما أخرجه البخاري، عن عمرَ رضي الله أنَّه قال: اللهُمَّ إنَّا كنَّا نَتَوسَّلُ إليكَ بنبيِّنَا فتَسقِينَا، وإنَّا نَتَوسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نبيِّنَا، فاسْقِنَا. قال: فيُسقَونَ.

وما أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» بسند صحيح، عن سليم بن عامر الخبَائري: أنَّ السماءَ قَحَطَتْ، فخَرَج معاويةُ بنُ أبي سفيانَ وأهلُ دمشقٍ يَستَسقُونَ، فلمَّا قَعَد معاويةُ على المنبر، قال: أين يزيدُ بنُ الأسودَ الجُرَشيُّ؟ فنادَاهُ الناسُ، فأَقبَلَ يَتَخطَّى الناسَ، فأَمَرَهُ معاويةُ، فصَعِدَ على المنبر، فقَعَد عندَ رِجْلَيهِ، فقال معاويةُ: اللهمَّ إنَّا نَستَشفِعُ إليكَ اليومَ بخَيرِنَا وأَفضَلِنَا، اللهمَّ إنَّا نَستَشفِعُ إليكَ اليومَ بيزيدَ بنِ الأسودِ الجُرَشِيِّ، يا يزيدُ ارْفَعْ يَدَيكَ إلى اللهِ، فرَفَع يَدَيهِ، ورَفَع الناسُ أَيدِيَهُم، فما كان أَوشَكَ أنْ ثَارَتْ سحابةٌ في الغربِ كأنَّها تُرْسٌ، وَهَبَّتْ لها رِيْحٌ، فسَقَتنَا حتَّى كاد الناسُ ألَّا يَبلُغُوا منازِلَهُم.

وروى ابنُ عساكرٍ أيضًا بسندٍ صحيحٍ أنَّ الضَّحاكَ بنَ قيسٍ خَرَج يَستَسقِي بالناسِ، فقال ليزيدِ بنِ الأسودِ: قُمْ يا بَكَّاءُ!

زاد في رواية: فمَا دَعَا إلَّا ثلاثًا حتَّى أُمطِرُوا مَطَرًا كادوا يَغرقُونَ منهُ.

النوع الرابع: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بذكر حال الدَّاعي:

وهو أن يَذكُرَ الداعي حالَه وما عليهِ من الحاجةِ.

ومن أدلةِ هذا النوعِ: قولُ موسى عليهِ السلامُ: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ [القصص: ٢٤]، وقولُ نوحٍ عليهِ السلامُ: ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**﴾ [القمر: ١٠].

قال المؤلِّف:

ودليلُ الخوفِ: قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الخوفَ عبادةٌ.

ووجهُ الدلالةِ من الآيةِ: أنَّ اللهَ تعالى أَمَر بِه، وجَعَله من لوازمِ الإيمانِ، والعبادةُ ما أُمِرَ بِه شرعًا، فصَرْفُه لغيرِ اللهِ شركٌ.

قوله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ (لا) ناهية، والهاءُ ضميرٌ يعودُ إلى أولياءِ الشيطانِ؛ أي: لا تخافُوا أولياءَ الشيطانِ من المشركينَ والمنافقينَ؛ لأنَّ نواصِيَهُم بيدِ اللهِ سبحانَه **﴿وَخَافُونِ﴾** أَمَرهُم أنْ يَقصُرُوا خوفَهم عليهِ سبحانَه.

وهذا هو الإخلاصُ الذي أَمَر اللهُ بِه عبادَهُ ورَضِيَهُ منهم، وأخبَر أنَّه شرطٌ في الإيمانِ، فإذا أَخلَصُوا لهُ الخوفَ وجميعَ العبادةِ أعطاهُم ما يَرجُونَ، وأمَّنَهُم من مخاوفِ الدُّنيا والآخرةِ، كما قال تعالى: **﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾** [الزمر: ٣٦].

قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنْ﴾ شرطية، وفعلُ الشرطِ **﴿كُنْتُمْ﴾**، وجوابُه محذوفٌ وتقديرُه: إنْ كنتُم مُصدِّقينَ بوعدي أنِّي مُتكفِّلٌ لكم بالنصرِ والظَّفَرِ، فلا تخافُوهُم. قال الفضيل بن عياض: مَن خاف اللهَ خافَهُ كُلُّ شيءٍ، ومَن لم يَخَفْ من اللهِ خوَّفه من كُلِّ شيءٍ.

ومعنى الآية: إذا سوَّل لكُم الشيطانُ الخوفَ منهم وأَوْهَمَكُم، فتَوَكَّلوا عليَّ والجؤوا إليَّ، فأنا كافِيكُم وناصرُكُم عليهم. «تفسير ابن كثير».

يقول الإمام ابن القيم: «مِن كَيدِ عَدُوِّ اللهِ: أنَّه يُخوِّفُ المؤمنينَ من جُنْدِه وأوليائِه؛ لِئلَّا يُجاهِدُوهُم، ولا يَأمُرُوهُم بمعروفٍ، ولا يَنهَوهُم عن منكرٍ، فأخبَر تعالى أنَّ هذا من كَيْدِه وتخويفِه، ونَهَانَا أنْ نَخافَهُم». «إغاثة اللهفان» ١/ ١١٠.

وفي التنزيل: **﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾** [النساء: ٧٦].

ومن الآيات الدالة على أن الخوف عبادة: قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾** [العنكبوت: ١٠]، وقوله تعالى: **﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾** [الرحمن: ٤٦]، وقوله تعالى: **﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾** [إبراهيم: ١٤].

ويَتعلَّقُ بالخوفِ مسألتان:

المسألة الأولى: معنى الخوف:

الخوفُ: هو تألُّمُ القلبِ وحركتُه بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في المستقبلِ، أو هو الذُّعرُ وهو انفعالٌ يَحصلُ بتَوقُّعِ ما فيهِ هلاكٌ أو ضررٌ أو أذًى.

والخوفُ من اللهِ هو فَزَعُ القلبِ من اللهِ تعالى، ومن عقابِه، والهروبُ إليهِ سبحانه ابتغاءَ مرضاتِه.

وهذا الخوفُ هو الذي يَحمِلُ العبدَ على فعلِ الواجباتِ وتَركِ المُحرَّماتِ، وهو الذي قال اللهُ فيه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦](١)، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤](٢)، وقال سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨](٣)، وقال سبحانه:

---

(١) أي: وللذي خاف ربَّه وقيامَه عليهِ، فتَرَكَ ما نَهَى عنهُ، وفَعَل ما أَمَرهُ بِه، لهُ جنَّتانِ من ذَهَبٍ، آنيتُهُمَا وحِليَتُهُمَا وبُنيانُهُمَا وما فيهِمَا، إحدَى الجنَّتَينِ جزاءٌ على تَرْكِ المنهياتِ، والأخرى على فعلِ الطاعاتِ. «تفسير السعدي».

(٢) أي: ذلكَ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ عليهِ في الدَّنيا، ورَاقَبَ اللهَ مراقبةَ مَن يَعلمُ أنَّه يَرَاهُ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ أي: ما تَوَعَّدتُ بهِ مَن عَصَانِي، فأَوجَبَ لهُ ذلكَ الانكفافَ عمَّا يَكرَهُهُ اللهُ، والمبادرةَ إلى ما يُحبُّهُ اللهُ. «تفسير السعدي».

(٣) أي: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن أمورِ الدُّنيا وأحوالِهَا ﴿قَالُوا﴾ في ذكرِ بيانِ الذي أَوصَلَهُم إلى ما هُم فيهِ من الحَبرةِ والسُّرورِ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾؛ أي: في دارِ الدُّنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائِفين وَجِلِينَ، فتَرَكنَا من خوفِه الذنوبَ، وأَصلَحْنَا لذلكَ العيوبَ ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ بالهدايةِ والتوفيقِ ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾؛ أي: العذابَ الحارَّ الشديدَ حَرُّهُ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أنْ يَقِينَا عذابَ السَّمومِ، ويُوصِلَنَا إلى النعيمِ، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فمِن برِّهِ بِنَا ورحمتِه إيَّانا أَنَالَنَا رِضَاهُ والجنةَ، ووقَانَا سَخَطَهُ والنارَ. «تفسير السعدي».

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧][(١)]، وهو الذي جاء في الحديث: «**ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمَالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ**».

وهذا الخوفُ هو الخوفُ المحمودُ الصادقُ، الذي يَحولُ بينَ صاحبِه وبينَ محارمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإذا تجاوَزَ الخوفُ هذا الحَدَّ خِيْفَ على صاحبِه من اليأسِ والقُنُوطِ، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية:** الخوفُ المحمودُ: ما حَجَزكَ عن محارمِ اللهِ، فما زاد على ذلكَ فهو غيرُ محتَاجٍ إليهِ. انظر: «مدارج السالكين» ٢/ ١٨٤ و٣/ ١٦٥.

وإذا كان هذا هو معنى الخوف، تبيَّن لنا أنَّ «الخوفَ ليس مقصودًا لذاتِه، بل هو مقصودٌ لغيرِه قَصْدَ الوسائلِ، ولهذا يَزولُ بزوالِ المَخُوفِ، فإنَّ أهلَ الجنةِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنُون». «مدارج السالكين» ٢/ ١٨٣؛ ط عطاءات العلم.

المسألة الثانية: أقسام الخوف:

ينقسم الخوف إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الخوف التعبُّدي:

وهو خوفُ العبادةِ والتَّذَلُّلِ والتعظيمِ والخضوعِ للهِ سبحانَه، وهذا الخوفُ لا يَصلحُ إلَّا للهِ سبحانه، فمَن أشرَكَ فيهِ مع اللهِ غيرَهُ؛ فهو مشركٌ شركًا أكبرَ، وذلكَ مثلَ مَن يخافُ من الأصنامِ أو الأمواتِ، أو من يَزعُمونَهُم أولياءَ ويعتقدونَ نَفعَهُم وضُرَّهم؛ كمَا يَفعلُهُ بعضُ عُبَّادِ القبورِ: يَخافُ من صاحبِ القبرِ أكثرَ ممَّا يَخافُ اللهَ.

القسم الثاني: الخوف المحرَّم:

وهو نوعان:

النوع الأول: شركٌ أكبرُ:

---

(١) أي: مُنتَشِرًا فاشِيًا، فخافُوا أنْ يَنالَهُم شَرُّهُ، فتَرَكُوا كلَّ سببٍ مُوجِبٍ لذلكَ. «تفسير السعدي».

وهو أنْ يَخافَ من غيرِ اللهِ فيمَا لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كأنْ يَخافَ من الأمواتِ أو الأحياءِ أنْ يُصيبُوهُ بشيءٍ لا يَقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كأنْ يَخافَ أنْ يَقطعَ نَسْلَهُ، أو أنْ يُصِيبَهُ بالأمراضِ، أو أنْ يَقطعَ رِزْقَه، أو أنْ يُدخِلَهُ النارَ، أو أنْ يَقبِضَ رُوحَه، أو يُمِيتَ وَلَدَهُ، كما يَفعلُ كثيرٌ من الجُهَّالِ يَخافُونَ على حَمْلِ زوجاتِهِم وعلى أولادِهِم من الجِنِّ، فيَعملونَ أعمالًا شركيةً؛ لأجلِ أنْ يَتَخلَّصُوا من هذا الخوفِ. وهو ما يُسمَّى بـ(خوفِ السِّرِّ).

ووجهُ كونِه شركًا أكبر: أنَّه لا أحدَ يُوجِدُ المسبِّباتِ دونَ مباشرةِ الأسبابِ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو الذي يقولُ للشيءِ: كُنْ فيكونُ، قال تعالى: ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾ [الزمر: ٣٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمَن سوَّى بينَ الخالقِ والمخلوقِ في الحُبِّ لهُ، أو الخوفِ منهُ، والرَّجاءِ لهُ؛ فهو مشركٌ». «مجموع الفتاوى» ٢٧/ ٣٣٩.

وخوفُ السِّرِّ هذا هو الذي خوَّف بِه قومُ هودٍ نبيَّهم هودًا عليهِ السلامُ، فقالوا: ﴿**إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ۝ فَكِيدُونِ جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ**﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥].

وهو الذي خوَّف بِه قومُ إبراهيمَ نبيَّهم إبراهيمَ الخليلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، فقال لهم: ﴿**وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨١].

وهو الواقعُ اليومَ من عُبَّادِ القبورِ، فإنَّهم يخافُونَ من أصحابِهَا كما يخافُونَ اللهَ بل أشدُّ، ولهذا إذا توجَّهَتْ على أحدِهِمُ اليمينُ باللهِ أعطاكَ ما شئتَ من الأيمانِ كاذبًا أو صادقًا، فإنْ كان اليمينُ بصاحبِ التُّربةِ لم يُقدِمْ على اليمينِ إن كان كاذبًا، وما ذاكَ إلَّا لأنَّ المدفونَ في الترابِ أخوفُ عندَهُ من اللهِ، ولو أصاب أحدًا منهم ظُلْمٌ لم يَطلُبْ كَشْفَهُ إلَّا من المدفونينَ في الترابِ. وإذا أراد أنْ يَظلِمَ أحدًا فاستَعاذَ باللهِ أو ببيتِهِ لم يُعِذْهُ، وإذا استَعاذَ بصاحبِ التربةِ أو بتربتِه لم يُقدِمْ

عليهِ أحدٌ ولم يَتعرَّضْ لهُ بأذى، حتَّى إنَّ بعضَ الناسِ أَخَذ من التُّجارِ أموالًا عظيمةً أيامَ موسمِ الحاجِّ، ثم بعدَ أيامٍ أظهَرَ الإفلاسَ، فقام عليهِ أهلُ الأموالِ، فالتَجَأَ إلى قبرٍ في جُدَّةَ يقالُ لهُ: المظلومُ، فمَا تَعَرَّضَ لهُ أحدٌ بمكروهٍ خوفًا من سِرِّ المظلومِ!

النوع الثاني: معصية:

وهو أنْ يَخافَ من المخلوقِ خوفًا يَحمِلُه على تَركِ واجب أو فعلِ مُحرَّمٍ، وهذا مُحرَّمٌ ما لم يَصِلْ إلى حَدِّ الإكراهِ، وهو من تَسْويل الشيطان؛ لأنَّ فيهِ تفويتًا لفريضةٍ من فرائضِ اللهِ، وهو الذي نَزَلَتْ فيهِ الآيةُ المُتَرجَمُ لها: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥].

وهو الذي جاء فيهِ الحديثُ: «**لا يَحقِرَنَّ أحدُكُم نفسَه أنْ يَرَى أمرًا للهِ عليهِ فيهِ مقالةٌ، ثم لا يقولُه، فيقولُ اللهُ: ما مَنعَكَ أنْ تقولَ فيهِ؟ فيقولُ: رَبِّ خَشِيتُ الناسَ، فيقول: وأنا أحقُّ أنْ يُخشَى**». أخرجه أحمد (١١٢٧٥)، وابن ماجه (٤٠٠٨).

والذي يَحسِمُ مادَّةَ هذا الخوفِ أمور، منها:

١ - التسليمُ للهِ، فإنَّ مَن سلَّم للهِ واستَسلَمَ لهُ، وعَلِمَ أنَّ ما أصابَهُ لم يَكُن لِيُخطِئَهُ، وما أخطأَهُ لم يَكُن لِيُصِيبَهُ، وعَلِمَ أنَّه لنْ يُصِيبَهُ إلَّا ما كَتَب اللهُ لهُ، لم يَبقَ لخوفِ المخلوقينَ في قلبِهِ موضعٌ. «مدارج السالكين» ٢/ ٣١.

٢ - ذِكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّه يُذهِبُ عن القلبِ مخاوفَهُ كلَّهَا، ولهُ تأثيرٌ عجيبٌ في حصولِ الأمنِ، فليس للخائفِ الذي قد اشتَدَّ خَوفُهُ أنفعَ من ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، إذْ بحَسَبِ ذِكرِهِ يَجِدُ الأمنَ، ويَزولُ خوفُهُ، حتَّى كأنَّ المخاوفَ التي يَجِدُهَا أمانٌ لهُ، والغافلُ خائِفٌ مع أَمْنِهِ، حتَّى كأنَّ ما هو فيهِ من الأمنِ كلِّهِ مخاوفُ، ومَن له أدنى حِسٍّ قد جَرَّبَ هذا وهذا، واللهُ المستعانُ. «الوابل الصيب» ص/ ٧٧.

القسم الثالث: الخوف الطبيعي:

وهو الخوفُ الذي لا يُقارِنُه تعظيمٌ وذُلٌّ ممَّن خِيفَ منهُ، وكان له سببٌ صحيحٌ، كمَن يَخافُ من النارِ، أو من السَّبُعِ، أو العقربِ، أو من السلطانِ الغشومِ، ونحوِ ذلكَ، فهذا لا يُذَمُّ، وقد يُوجدُ في كثيرٍ من المؤمنينَ ولا يُنافِي الإيمانَ، وهو الذي ذَكَرهُ اللهُ عن موسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ في قولِه: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾ [القصص: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**﴾ [القصص: ٣١]، وحكاهُ عن موسى وهارونَ أنَّهما قالا عن فرعونَ: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى**﴾ [طه: ٤٥][(١)].

وهذا النوعُ من الخوفِ لا يُمدحُ ولا يُذمُّ، إلَّا إذا تَرتَّبَ عليهِ تَرْكُ واجبٍ، أو فعلُ مُحرَّمٍ، فيكونُ حرامًا، ودليلُ تحريمِهِ: قولُه تعالى: ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾». «مجموع فتاوى ابن عثيمين» ٦/ ٥٣.

القسم الرابع: الخوفُ الوَهْمي:

وهو الخوفُ الذي ليس له سببٌ أصلًا، أو له سبب ضعيف، كالخوفِ من الظلامِ، فهذا مذمومٌ، ويَدخُلُ صاحبُهُ في وَصْفِ الجُبناءِ، وقد تَعَوَّذَ النبيُّ ﷺ من الجُبنِ. «القول السديد» ص/ ١٣٢.

فائدة١[(٢)]: على العبدِ ألَّا يفعل شيئًا من أنواعِ العباداتِ والقُرَبِ لأجلِ الناسِ، لا رجاءَ مَدحِهِم ولا خوفًا منهم، ولا يَلتمِسُ رِضَا الناسِ بسَخَطِ اللهِ، بل يَرْجُ اللهَ، ويخافُه، ويَلتمِسُ رِضَاهُ سبحانَه، ويَفعلُ ما أُمِرَ بِه وإنْ كَرِهَ الناسُ منهُ ذلكَ.

---

(١) أي: نخافُ أنْ يُعجِّلَ بالعقوبةِ أو أنْ يَتكبَّرَ.

(٢) «معجم التوحيد» ٢/ ١٣٥ – ١٣٦.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والسعادةُ في معاملةِ الخَلْقِ أنْ تُعامِلَهُم للهِ، فتَرجُو اللهَ فيهِم، ولا تَرجُوهُم في اللهِ، وتَخافُ اللهَ فيهِم، ولا تَخافُهُم في اللهِ، وتُحسِنُ إليهِم رجاءَ ثوابِ اللهِ لا لمكافأتِهِم، وتَكُفُّ عن ظُلمِهِم خوفًا من اللهِ لا منهم، كما جاء في الأثر: "ارْجُ اللهَ في الناسِ ولا تَرْجُ الناسَ في اللهِ، وخِفِ اللهَ في الناسِ ولا تَخَفِ الناسَ في اللهِ". أي: لا تَفعلُ شيئًا من أنواعِ العباداتِ والقُرَبِ لأجلِهِم، لا رجاءَ مَدحِهِم ولا خوفًا منهم، بل ارْجُ اللهَ، ولا تَخَفْهُم في اللهِ فيمَا تأتي وتَذَر، بل افْعَلْ ما أُمِرْتَ وإنْ كَرِهُوهُ». «مجموع الفتاوى» ١/ ٥١.

وقال أيضًا: «كلَّما قَوِيَتْ محبةُ العبدِ لمَولاهُ صَغُرَتْ عندَهُ المحبوباتُ وقَلَّتْ، وكلَّما ضَعُفَتْ كَثُرَتْ محبوباتُه، وكذا الخوفُ، والرَّجاءُ، وما أشبَه ذلكَ، فإنْ كَمُلَ خوفُ العبدِ من ربِّه، لم يَخَفْ شيئًا سِوَاهُ، قال اللهُ تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ**﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وإذا نَقَص خوفُه، خاف من المخلوقِ، وعلى قدرِ نقصِ الخوفِ وزيادتِه يكونُ الخوفُ، كما ذَكَرنَا في المحبةِ، وكذا الرَّجاءُ وغيرُه، فهذا هو الشِّركِ الخَفِيِّ الذي لا يَكادُ أحدٌ أن يَسلَمَ منهُ إلَّا مَن عَصَمَهُ اللهُ تعالى». «مجموع الفتاوى» ١٤/ ٢٠٦.

وقال الإمام ابن القيم: «ومَن خافَهُ واتَّقاهُ آمَّنَهُ ممَّا يَخافُ ويَحذرُ، وجَلَب إليهِ كُلَّ ما يَحتاجُ إليهِ من المنافعِ ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، فلا تَستَبطِئْ نَصْرَهُ، ورِزْقَه، وعافيتَه، فإنَّ اللهَ تعالى بالِغُ أَمْرِه، وقد جَعَل اللهُ لكُلِّ شيءٍ قَدْرًا، لا يَتقدَّمُ عنهُ ولا يَتَأَخَّرُ، ومَن لم يَخَفْهُ، أخافَهُ من كُلِّ شيءٍ، وما خافَ أحدًا غيرَ اللهِ، إلَّا لنَقْصِ خَوفِه من اللهِ، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠]، وقال: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ أي: يُخوِّفُكُم بأوليائِه، ويُعظِّمُهُم في صُدُورِكُم، فلا تَخافُوهُم، وأَفرِدُونِي بالمخافةِ، أَكْفِكُم إيَّاهُم». «بدائع الفوائد» ٢/ ٤٦٣.

وقال الشيخ ابن عثيمين: «يَجبُ على المرءِ أنْ يَجعلَ الخوفَ من اللهِ فوقَ كُلِّ خوفٍ، وألَّا يُبالِي بأحدٍ في شريعةِ اللهِ تعالى، وأنْ يَعلَمَ أنَّ مَن التَمَسَ رِضَا اللهِ تعالى وإنْ سَخِطَ الناسُ عليهِ، فالعاقبةُ لهُ، وإنِ التَمَس رِضَا الناسِ وتَعَلَّق بِهِم وأَسخَطَ اللهَ، انقَلَبَتْ عليهِ الأحوالُ، ولم يَنَلْ مقصودَهُ، بل حَصَل لهُ على مقصودِه، وهو أنْ يَسخَط اللهُ عليهِ، ويَسخَطَ عليهِ الناسُ». «مجموع فتاوى ابن عثيمين» ١٠/ ٦٦٥.

فائدة٢: من أعظمِ الأسبابِ المعينة على تحصيلِ الخوفِ من اللهِ تعالى معرفتُه بأسمائِه وصفاتِه، والتَّزَودُ منها عِلْمًا وإدراكًا ويقينًا، وبقدرِ نقصِ هذهِ المعرفةِ والإيمانِ بها يكونُ النقصُ في الخوفِ من اللهِ، ولذلكَ يقول الإمامُ ابنُ القيمِ: «ونقصانُ الخوفِ من اللهِ إنَّما هو لنقصانُ معرفةِ العبدِ به، فأَعرَفُ الناسِ أخشاهُم للهِ، ومَن عَرَف اللهَ اشتدَّ حياؤُهُ منهُ، وخوفُه لهُ، وحبُّه لهُ، وكلَّما ازداد معرفةً ازدادَ حياءً، وخوفًا، وحُبًّا، فالخوفُ من أَجَلِّ منازلِ الطريقِ، وخوفُ الخاصَّةِ أَعظمُ من خوفِ العامَّةِ، وهُمْ إليهِ أحوجُ، وهو بِهِم أَلْيَقُ، ولهم أَلْزَمُ، فإنَّ العبدَ إمَّا أنْ يكونَ مستقيمًا أو مائلًا عن الاستقامةِ، فإنْ كان مائلًا عن الاستقامةِ فخَوفُهُ من العقوبةِ على مَيْلِهِ، ولا يَصحُّ الإيمانُ إلَّا بهذا الخوفِ.

وهو يَنشأُ [يعني: الخوفَ من اللهِ] من ثلاثةِ أمورٍ:

أحدُها: معرفتُه بالجنايةِ وقُبحِهَا.

والثاني: تصديقُ الوعيدِ، وأنَّ اللهَ رتَّب على المعصيةِ عقوبتَهَا.

والثالث: أنَّه لا يَعلمُ لعلَّهُ يُمنعُ من التوبةِ ويُحالُ بينَهُ وبينَها إذا ارتَكَب الذَّنبَ.

فبهذهِ الأمورِ الثلاثةِ يَتِمُّ لهُ الخوفُ، وبحَسَبِ قوتِهَا وضَعْفِهَا تكونُ قوةُ الخوفِ وضَعْفُهُ». «طريق الهجرتين» ٢/ ٦١٥ – ٦١٦.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمَا حُفِظَتْ حدودُ اللهِ ومحارِمُهُ، ووَصَل الواصِلُونَ إليهِ بمِثْلِ خوفِه ورجائِه ومحبَّتِه، فمتَى خَلَا القلبُ من هذهِ الثلاثِ،

فَسَد فسادًا لا يُرجَى صلاحُهُ أبدًا، ومتى ضَعُفَ فيهِ شيءٌ من هذهِ، ضَعُفَ إيمانُهُ بحسبِهِ». «مجموع الفتاوى» ١٥/ ٢١.

فائدة: يقول الإمام ابن القيم: «اعلَمْ أنَّ الإصرارَ على المعصيةِ يُوجِبُ من خوفِ القلبِ من غيرِ اللهِ، ورجائِه لغيرِ اللهِ، وحُبِّهِ لغيرِ اللهِ، وذُلِّهِ لغيرِ اللهِ، وتَوَكُّلِه على غيرِ اللهِ، ما يَصيرُ بِه مُنغَمِسًا في بحارِ الشركِ، والحاكمُ في هذا ما يَعلَمُهُ الإنسانُ من نفسِهِ إنْ كان لهُ عَقْلٌ، فإنَّ ذُلَّ المعصيةِ لا بُدَّ أنْ يَقومَ بالقلبِ، فيُورِثُه خوفًا من غيرِ اللهِ، وذلكَ شركٌ، ويُورِثُه محبةً لغيرِ اللهِ، واستعانةً بغيرِه في الأسبابِ التي تُوصِلُه إلى غَرَضِه، فيكونُ عَمَلُه لا باللهِ ولا للهِ، وهذا حقيقةُ الشركِ».

قال المؤلِّف:

قوله: ودليل الرَّجاء: قولُه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الرَّجاءَ عبادةٌ.

ووجهُ الدلالةِ من الآيةِ: أنَّ اللهَ تعالى حثَّ عبادَه عليه، وجَعَل ثوابَ الرَّاجِينَ رؤيتَه سبحانَه في الآخرةِ، فدلَّ على أنَّه عبادةٌ.

ويَتَعلَّقُ بالرجاءِ عدَّةُ مسائلَ:

المسألة الأولى: معنى الرَّجاء:

الرَّجاء لغة: هو التوقع والأمل. وقيل: ظَنٌّ يقتضي حصولَ ما فيهِ مَسَرَّةٌ.

وشرعًا: حَادٍ يَحدُو القلوبَ إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ، ويُطيِّبُ لها السَّيرَ. وقيل: هو الاستبشارُ بجُودِ وفَضْلِ الرَّبِّ تبارك وتعالى، والارتياحُ لمطالعةِ كَرَمِه سبحانَه. وقيل: هو الثقةُ بجُودِ الرَّبِّ تعالى. «مدارج السالكين» ٢/ ٢٦٠؛ ط عطاءات العلم.

وقيل: هو طَمَعُ الإنسانِ في أمرٍ قريبِ المَنَالِ، وقد يكونُ في بعيدِ المَنَالِ تنزيلًا لهُ منزلةَ القريبِ. «مجموع فتاوى ابن عثيمين» ٦/ ٥٣ و٥٤.

والرَّجاءُ عبادةٌ من العباداتِ التي لها أهميةٌ في استقامةِ العبد في سيره إلى الله تعالى، فهي مع الخوفِ كالجَنَاحَيْنِ للطائرِ لا يَستغنِي بأحدِهِمَا عن الآخرِ، قال اللهُ تعالى: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف : ٥٦]، يقول الإمام ابن القيم: «القلبُ في سَيرِه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بمنزلةِ الطائرِ، فالمحبةُ رأسُه، والخوفُ والرجاءُ جَنَاحَاهُ، فمتى سَلِمَ الرأسُ والجناحانِ، فالطائرُ جيِّدُ الطيرانِ، ومتى قُطِعَ الرأسُ مات الطائرُ، ومتى فَقَد الجَنَاحانِ، فهو عُرضةٌ لكل صائدٍ وكاسِرٍ». «مدارج السالكين» ١/ ٥٥٤.

المسألة الثانية: أقسام الرَّجاء.

ينقسم الرَّجاء إلى عدَّة أقسام:

القسم الأول: الرَّجاء التَّعبُّدي:

وهو أنْ يَتعلَّقَ القلبُ باللهِ تعالى طَمَعًا في رحمتِه ورجاءً لثوابِه.

القسم الثاني: الرَّجاء الشِّركي:

وهو رجاءُ المخلوقِ فيمَا لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كالطَّمَعِ في مغفرةِ الذنوبِ، أو الشِّفاءِ من المرضِ، أو الطَّمَعِ في دخولِ الجنةِ، والنجاةِ من النارِ، كمن يأتي لصاحب قبر، ويقول له: أرجو منك كذا وكذا.

وهذا التَّعلُّقُ دليلُ الخَيبةِ والخُسرانِ، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية:** «وما رَجَا أحدٌ مخلوقًا أو توكَّل عليهِ، إلَّا خابَ ظنُّه فيهِ». «مجموع الفتاوى» ١٠/ ١٥٧.

وقال الإمام ابن القيم: «كلُّ مَن خافَ شيئًا غيرَ اللهِ سُلِّط عليهِ، كما أنَّ مَن أحبَّ مع اللهِ غيرَه عُذِّبَ بِه، ومَن رَجَا مع اللهِ غيرَه خُذِلَ من جهتِه، وهذه أمورٌ تجربتُها تَكفِي عن أدلتِهَا». «مفتاح دار السعادة» ٢/ ٢٥٦.

القسم الثالث: الرَّجاء الجائز:

وهو رجاءُ المخلوقِ فيمَا يَقدِرُ عليهِ، كأنْ تقولَ لشخصٍ: أَرجُوكَ أَحضِرْ لي هذا القَلَمَ.

حكم استعمال كلمة «أرجوك»:

في سؤال للشيخ محمد بن إبراهيم عن استعمال كلمتي أشكرك وأرجوك، أجاب رحمه الله: «أمَّا كلمة (أرجوك) في شيءٍ يَقدِرُ عليهِ ذلكَ المخلوقُ، فليس بشِرْكٍ ولا مُحرَّمٍ، ومن حُسْنِ الأدبِ تركُ استعمالِ هذهِ الكلمةِ مع المخلوقِ». «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» ١/ ١١٧ و ١١٨.

وقال الشيخ ابن عثيمين: «لا بأسَ أنْ تقولَ لفلانٍ (أرجوك) في شيءٍ يَستطيعُ أنْ يُحقِّقَ رجاءَكَ بِه». «مجموع فتاوى ابن عثيمين» ٣/ ٧.

فوائد مُتعلِّقة بالرَّجاء:

الفائدة الأولى: الفرق بين الرَّجاء والتَّمنِّي: أنَّ الرَّجاءَ يكونُ مع بَذلِ الجُهدِ وحُسْنِ التوكُّلِ، والتَّمنِّي يكونُ مع الكَسَلِ، ولا يَسلُكُ بصاحبِه طريقَ الجِدِّ والاجتهاد، والرجاءُ يكونُ مع بَذلِ الجُهدِ وحُسْنِ التوكُّلِ. انظر: «مدارج السالكين» ٢/ ٢٦٠؛ ط عطاءات العلم.

الفائدة الثانية: الناسُ مع الرَّجاءِ «ثلاثةُ أنواعٍ:

نوعانِ محمودانِ، ونوعٌ غَرورٌ مذمومٌ.

فالأولان: رجاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بطاعةِ اللهِ على نورٍ من اللهِ، فهو راجٍ لثوابِه.

ورَجُلٌ أَذنَبَ ذنوبًا، ثم تاب منها، فهو رَاجٍ لمغفرةِ اللهِ تعالى، وعَفْوِه، وإحسانِه، وجُودِه، وحِلْمِه، وكَرَمِه.

والثالث: رَجُلٌ مُتمَادٍ في التفريطِ والخطايا، يَرجُو رحمةَ اللهِ بلا عَمَلٍ، فهذا هو الغُرورُ والتَّمَنِّي والرجاءُ الكاذبُ». «مدارج السالكين» ٢/ ٢٦٠؛ ط عطاءات العلم.

قال تعالى في وَصْفِ عبادِه الرَّاجينَ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾** [فاطر: ٢٩]، فوَصَفَهُم بالحرصِ على العملِ، فهم يَتلُونَ كتابَ اللهِ تعالى، ويُقِيمُونَ الصلاةَ، ويُنفِقُونَ ممَّا رَزَقَهُمُ اللهُ، وقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [البقرة: ٢١٨]، فوَصَفَهُم بأنَّهم آمنُوا، وهاجَرُوا، وجاهدُوا في سبيلِه، وهذا مُنتَهَى الجِدِّ والاجتهادِ في طاعةِ اللهِ تعالى، وهذا هو الرجاءُ

النافعُ لا الأمانيُّ الكاذبةُ، قال الإمام ابن القيم: «كلَّما قَوِيَ الرَّجاءُ جَدَّ في العمل، كما أنَّ الباذِرَ كلَّمَا قَوِيَ طَمَعُه في المُغَلِّ غَلَّقَ أرضَهُ بالبَذْرِ، وإذا ضَعُف رجاؤُه قصَّر في البَذْرِ». «الفوائد» ص/ ١٧٤؛ ط دار ابن خزيمة.

وههنا مسألة: هل الأفضلُ للإنسانِ في حالِ الصحةِ أنْ يُغلِّبَ جانبَ الخوف أو جانبَ الرجاء؟

في المسألة قولان لأهل العلم، أرجحُهُما: أنَّ الأفضلَ أنْ يكونَ خوفُه ورجاؤه واحدًا، فلا يُغلِّبُ أحدَهُما على الآخرِ. وهو قولُ كثيرٍ من السَّلَفِ.

قال مُطرِّف: لو وُزِنَ رجاءُ المؤمنِ وخوفُه، ما رَجَح أحدُهُما على صاحبِه. «شعب الإيمان» (٩٩٣).

وقال أبو علي الرُّوذْبَاري: الخوفُ والرجاءُ هما كجَنَاحَيِ الطيرِ، إذا استَويا استَوى الطيرُ، وتَمَّ طيرانُه، وإذا نَقَص واحدٌ منهما، وَقَع منهُ النقصُ، وإذا ذَهَبا جميعا، صار الطائرُ في حَدِّ الموتِ، لذلكَ قيل: لو وُزِنَ خوفُ المؤمنِ ورجاؤُه لاعتَدَلا. «شعب الإيمان» (٩٩٦).

وقال الإمام أحمد: ينبغي أنْ يكونَ خوفُه ورجاؤُه واحدًا، فأيُّهُما رَجَح هَلَك صاحبُه. «الآداب الشرعية» ٢/ ٣٠.

وبوَّب البخاري في «صحيحه» (٦٤٦٩)، فقال: «باب الرجاء مع الخوف»، ثم ذَكَر حديثَ أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ خَلَق الرحمةَ يومَ خَلَقهَا مئةَ رحمةٍ، فأَمسَك عندَه تسعًا وتسعينَ رحمةً، وأرسَلَ في خَلْقِه كلِّهِم رحمةً واحدةً، فلو يَعلمُ الكافرُ بكُلِّ الذي عندَ اللهِ من الرحمةِ، لم يَيأسْ من الجنةِ، ولو يَعلمُ المسلمُ بكُلِّ الذي عندَ اللهِ من العذابِ، لم يَأمَنْ من النارِ».

وعلَّق ابنُ حجرٍ على هذا، فقال: «(قولُه: بابُ الرجاءِ مع الخوفِ)؛ أي: استحبابُ ذلكَ، فلا يَقطعُ النظرَ في الرجاءِ عن الخوفِ، ولا في الخوفِ عن الرجاءِ؛ لئلَّا يُفضِي في الأولِ إلى المَكرِ، وفي الثاني إلى القنوطِ، وكُلٌّ منهما مذمومٌ، والمقصودُ من الرجاءِ: أنَّ مَن وَقَع منهُ تقصيرٌ، فليُحسِنْ ظَنَّهُ باللهِ،

ويَرجُو أنْ يَمحُوَ عنهُ ذنبَه، وكذا مَن وَقَع منهُ طاعةٌ، يَرجُو قَبولَها، وأمَّا مَن انْهَمَكَ على المعصيةِ، راجيًا عدمَ المؤاخذةِ بغيرِ نَدَمٍ ولا إقلاعٍ، فهذا في غرورٍ، وما أحسنَ قولَ أبي عثمان الجيزي: من علامةِ السعادةِ: أنْ تُطِيعَ وتَخافَ ألَّا تُقبَلَ، ومن علامةِ الشقاءِ: أنْ تَعصِيَ، وتَرجُوَ أنْ تَنجُوَ». «فتح الباري» ١١/ ٣٠١.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وينبغي للمؤمنِ أنْ يكونَ خوفُه ورجاؤُه واحدًا، فأيُّهُما غَلَب هَلَك صاحبُه، ونصَّ عليهِ الإمامُ أحمدُ؛ لأنَّ مَن غَلَب خوفُه، وَقَع في نوعٍ من اليأسِ، ومَن غَلَب رجاؤُه، وَقَع في نوعٍ من الأَمْنِ من مَكرِ اللهِ». «الفتاوى الكبرى» ٥/ ٣٥٩.

وقال ابن رجب: «فأمَّا الخوفُ والرجاءُ: فأكثرُ السَّلَفِ على أنَّهما يستويانِ، لا يُرجَّحُ أحدُهُما على الآخرِ. قالهُ مُطرِّفُ، والحسنُ، وأحمدُ، وغيرُهم». «التخويف من النار» ص/ ٢٥.

وأمَّا عندَ المرضِ ومفارقةِ الدُّنيا، فيُغلِّبُ جانبَ الرجاءِ.

واستدلوا بما يلي:

١ – ما أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يَموتنَّ أحدُكُم إلَّا وهو يُحسِنُ باللهِ الظَّنَّ**».

٢ – أنَّه مرويٌّ عن جماعةٍ من السَّلَفِ، منهم: إبراهيم بن يزيد النَّخَعيّ، وسليمان التَّيمي، وأبو سليمان الدَّاراني.

قال المؤلِّف:

ودليل التوكُّل: قولُه تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهاتينِ الآيتينِ على أنَّ التوكلَ عبادةٌ.

ووجه ذلك: أنَّ في الآيةِ الأولى أَمَر اللهُ تعالى بِه، وجَعَلهُ شرطًا في صحةِ الإيمانِ، والعبادةُ ما أُمِرَ بِه شرعًا، وفي الآية الثانية امتَدَح مَن توكَّل عليهِ، فدلَّ على أنَّه محبوبٌ عندَه، وما كان كذلكَ فهو عبادةٌ، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

ويَتعلَّق بالتوكُّل أربعُ مسائل:

المسألة الأولى: معنى التوكل:

التوكل لغة: هو الاعتمادُ والتفويضُ، «يقالُ: توكَّل بالأمرِ: إذا ضَمِنَ القيامَ بِه، ووَكَلْتُ أمري إلى فلان: إذا اعتَمَدتُ عليهِ فيهِ، ووَكَّل فلانٌ فلانًا: إذا استكفَاهُ أمرَهُ ثقةً بكفايتِهِ، أو عَجَز عن القيامِ بأمر نفسِه».

وشرعًا: هو صِدقُ اعتمادِ القلبِ على اللهِ في جَلْبِ المنافعِ ودفعِ المَضَارِّ، مع الأخذِ بالأسبابِ المأذونِ فيها.

قال الطبري: «الصوابُ في حَدِّ التوكُّلِ: الثقةُ باللهِ تعالى، والاعتمادُ في الأمورِ عليهِ، وتفويضُ كُلِّ ذلكَ إليهِ، بعدَ استفراغِ الوُسْعِ في السَّعيِ فيما بالعبدِ الحاجةُ إليهِ من أمرِ دينِه ودُنياهُ، على ما أَمَر بِه من السَّعي». «شرح صحيح البخاري» لابن بطال ٩/ ٤٠٨.

وقال ابن القيم: «التوكُّلُ مَحَلُّه الأسبابُ، وكمالُه بالتوكُّلِ على اللهِ، وهذا كتوكُّلِ الحرَّاثِ الذي شَقَّ الأرضَ، وألقَى فيها البَذْرَ، فتوكَّل على اللهِ في زَرْعِه وإنباتِه، فهذا قد أعطَى التوكُّلَ حقَّهُ». «زاد المعاد» ٢/ ٣٦٤.

وقال أيضًا: «مَن أَنكَر الأسبابَ، لم يَستقِمْ منهُ التوكُّلُ». «مدارج السالكين» ٢/ ١٢٠.

ومن الأدلة على أن الأخذ بالأسباب من التوكل:

قوله ﷺ: «**لو أنَّكم توكَّلونَ على اللهِ حَقَّ تَوَكِّلِه؛ لرزَقَكُم كمَا يَرزقُ الطَّيرَ، تَغدُو خِمَاصًا، وتَروحُ بطانا**»، وقوله ﷺ: «**وجُعِلَ رِزْقِي تحتَ ظِلِّ رُمْحِي**».

(وقد لَبِسَ ﷺ الدُّرُوعَ يومَ أُحُدٍ، واستَأجَر دليلًا لِيَدُلَّهُ على الطريقِ يومَ الهجرةِ، وكان يَحمِلُ معهُ في سَفَرِه هو وأصحابُه الزادَ، «وآدمُ عليهِ السلامُ كان حَرَّاثًا، ونوحٌ وزكريا نجَّارَينَ، وإدريسُ خياطًا، وإبراهيمُ ولوطُ زرَّاعَين، وصالحُ تاجرًا، وكان سليمانُ يَعمَلُ الخُوصَ، وداودُ يَصنعُ الدُّرُوعَ، ويَأكُلُ من ثَمَنِه،

وكان موسى وشعيبٌ ومحمدٌ رُعَاةً صلواتُ اللهِ عليهِم أجمعينَ». «تلبيس إبليس» ص/ ٢٥٠.

ومن أسماءِ اللهِ تعالى: «الوكيلُ»، وهو القَيِّمُ الكَفيلُ بأرزاقِ العِبَادِ، وحقيقتُه: أنْ يَستَقِلَّ بأَمْرِ الموكولِ إليهِ. «النهاية» ٥/ ٢٢١.

فالتوكُّلُ على اللهِ من مقتضياتِ توحيدِ الربوبيةِ وثمراتِه، ومن أَجَلِّ أعمالِ القلوبِ، ولهذا كان الأمرُ بِه قرينَ الأمرِ بالعبادةِ في قولِه تعالى: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود: ١٢٣]، وقال سبحانه: ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٢ - ٣]، وقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢].

فالتوكل ما جَمَع شيئين:

١ – تفويضَ الأمرِ إلى اللهِ تعالى، لأنَّه هو الذي بيدِه المُلكُ.

٢ – بذلَ الأسبابِ.

وإذا كان هذا هو حقيقةُ التوكُّلِ، فهو إذن من العباداتِ الخاصَّةِ باللهِ، كالذَّبحِ، والنَّذرِ، والحَلِفِ، فلا يجوزُ صَرْفُه لغيرِ اللهِ تعالى.

المسألة الثانية: العلاقة بين المعنى اللغوي والشرعي:

لمَّا كان التوكُّلُ يُطلقُ على التسليمِ والاعتمادِ، أُطلِقَ في الشرعِ بهذا المعنى، إلَّا أنَّ ذلكَ خُصَّ بالتسليمِ للهِ والاعتمادِ عليهِ سبحانَهُ دونَ غيرِه؛ لِتَفَرُّدِه سبحانَه بالخَلْقِ، والتدبيرِ، وقُدرتِه على كُلِّ شيءٍ.

المسألة الثالثة: منزلة التوكُّل بين منازل العبودية:

«التوكُّلُ نصفُ الدِّينِ، والنصفُ الثاني: الإنابةُ، فإنَّ الدينَ استعانةٌ وعبادةٌ، فالتوكُّلُ هو الاستعانةُ، والإنابةُ هي العبادةُ، ومنزلتُه أوسعُ المنازلِ، وأجمعُهَا». «مدارج السالكين» ٢/ ١١٣.

المسألة الرابعة: أقسام التوكل:

يَنقسمُ التَّوكُّلُ إلى قسمين:

القسم الأول: التوكُّلُ على اللهِ تعالى.

وهو «نوعان:

أحدُهُما: تَوَكُّلٌ عليهِ في جَلْبِ حوائجِ العبدِ وحظوظِهِ الدنيويةِ، أو دَفْعِ مكروهاتِهِ ومصائبِهِ الدنيويةِ.

والثاني: التوكُّلُ عليهِ في حصولِ ما يُحِبُّهُ هو ويَرضاهُ من الإيمانِ، واليقينِ، والجهادِ، والدعوةِ إليهِ.

وبينَ النَّوعَينِ من الفَضْلِ ما لا يُحصِيهِ إلَّا اللهُ، فمتى تَوكَّلَ عليهِ العبدُ في النوعِ الثاني حقَّ توكُّلِهِ، كَفَاهُ النوعُ الأولُ تمامَ الكفايةِ، ومتى تَوكَّلَ عليهِ في النوعِ الأولِ دونَ الثاني كَفَاهُ أيضًا، لكن لا يكونُ لهُ عاقبةُ المُتوكِّلِ عليهِ فيما يُحبُّهُ ويَرضاهُ، فأعظمُ التوكُّلِ عليهِ: التوكلُ في الهدايةِ، وتجريدِ التوحيدِ، ومتابعةِ الرسولِ، وجهادِ أهلِ الباطلِ. فهذا توكُّلُ الرُّسُلِ وخاصَّةِ أتباعِهِم». «الفوائد» ص/ ٨٦.

القسم الثاني: التوكُّلُ على غيرِ اللهِ:

وهو التَّوكُّلُ على المخلوقِ من الأمواتِ أو الأحياءِ، في الأمورِ التي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ، كالاعتمادِ عليهِ في النَّصرِ، والحفظِ، والرَّزْقِ، والشفاعةِ، وهذا شركٌ أكبرُ، وهو شركٌ في الربوبيةِ؛ فإنَّ هذهِ الأمورَ ونحوَها لا يَقدرُ عليها إلَّا اللهُ تبارك وتعالى، وما تَوكَّلَ أحدٌ على غيرِ اللهِ تعالى إلَّا عاد بالخيبةِ والخسرانِ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وما رَجَا أحدٌ مخلوقًا ولا توكَّل عليهِ إلَّا خَابَ ظَنُّهُ فيهِ؛ فإنَّه مشركٌ ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١]». «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٢٥٧.

وبعضُ مشايخِ الصوفيةِ يقولُ لمُريديه: إذا أُصِبتَ بمصيبةٍ فاذْكُرنِي، فإنِّي أُخَلِّصُكَ منها.

يقول أحدُهُم:

مُرِيدِي لا تَخْشَ من شيءٍ تَخافُهُ ❊❊❊ إذا قلتَ: يا حَسَنُ آتِيكَ بسرعةٍ

ويقول قائلُهُم:

السيدُ البدويُّ المُهَابُ *** إذا دُعِيَ في البَرِّ والبحرِ أجابَ

ويقول علي جمعة في مقطع فيديو:

«سيدي أبو الحسن مُجرَّب، يعني: لمَّا تروح وتدعي عند قبره هو مِعطاء ما يتأخَّرش، تَقرأُ له الفاتحه، فالفاتحه تطلعله كده في صورة هديه، وهو ميئبلش الهدايا، فيقولك: يا ولد، عايز إيه يا ولد، عايز إيه؟ خُد، ويَدعيلك قُصاد الفاتحة، علشان ما يبئاش في ذمته حاجه ليك، يبئى أخدت اللي طلبته».

ويُذكَرُ عن بعضِهِم أنَّه صلَّى الفجرَ وجَلَس يَذكُرُ اللهَ تعالى إلى طلوعِ الشمسِ، ثم التَفَت إلى جهةِ قبرٍ يُعظِّمُه، وقال: (رِزْقِي عليكَ اليومَ يا صاحبُ طنطا)!

وأمَّا الوكالةُ الجائزةُ: فهي الاعتمادُ على المخلوقِ في فِعْلٍ مقدورٍ عليهِ نيابةً عنهُ، كالبيعِ والشراءِ ونحوِ ذلكَ، وهو ما يُسمَّى عند الفقهاءِ (باب الوكالة)، وتعريفُها عندَهُم: استنابةُ جائزِ التصرفِ مثلَه فيما تَدخلهُ النيابةُ.

والضابطُ في ذلكَ: أنَّ الوكالةَ فيها المعنى الظاهرُ، أمَّا التوكلُ، فهو عملٌ قلبيٌّ، لكنْ ليس لهُ أنْ يَعتَمِدَ عليهِ في حصولِ ما وكَّلَهُ فيهِ، بل يَتوكَّلُ على اللهِ في تيسيرِ أمرِهِ الذي يَطلبُهُ بنفسِهِ أو نائبِهِ، وذلكَ من جملةِ الأسبابِ التي يجوزُ فِعْلُهَا، ولا يَعتمدُ عليها، بل يَعتمدُ على المُسبِّبِ الذي أَوجَدَ السببَ والمُسبَّبَ.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «والوكالةُ الجائزةُ هي توكُّلُ الإنسانِ في فعلٍ مقدورٍ عليهِ، ولكنْ ليس لهُ أنْ يَتوكَّلَ عليهِ وإنْ وَكَّلهُ، بل يَتوكَّلُ على اللهِ، ويَعتمِدُ عليهِ في تيسيرِ ما وَكَّلهُ فيهِ، كمَا قرَّرهُ شيخُ الإسلامِ».

فائدة في الفروق بين التوكيل والتوكُّل:

أنَّ التوكُّلَ فيهِ اعتمادُ القلبِ على اللهِ مع إظهارِ العجزِ، وأمَّا الوكالةُ فاعتمادٌ على الأسبابِ الظاهرةِ (عمل الجوارح)، مع التوكُّلِ على اللهِ، فهي إنابةٌ في مباشرةِ الأسبابِ.

وأمَّا عن ضابطِ الاعتمادِ على الأسبابِ: فيُعرفُ بالآثارِ والعلاماتِ، منها:

الثقةُ بالسببِ، والثقةُ في ترتيبِ المُسبَّبِ؛ أي: حصولِ النتائجِ.

فرع١: لا يجوزُ قولُ: (توكَّلتُ على اللهِ وعليكَ، أو توكَّلتُ عليكَ)؛ لأنَّ التوكُّلَ عملٌ قلبيٌّ، وما كان من عملِ القلبِ، فلا يجوزُ الشِّركةُ فيهِ.

فرع٢: حكم قول: (توكَّلتُ على اللهِ، ثم عليكَ):

تقدَّم أنَّ التوكُّلَ من أعمالِ القلوبِ التي لا تُصرَفُ إلَّا للهِ، فلا يجوزُ التوكُّلُ على أحدٍ إلَّا على اللهِ تعالى، وعليهِ؛ فلا يجوزُ قولُ: (توكَّلتُ على اللهِ ثم عليكَ)، وأجاز بعضُ أهلِ العلمِ قولَ: (توكَّلتُ على اللهِ ثم عليكَ)، وعلَّلوا ذلكَ بأنَّ العامَّة حينما تَستعمِلُهَا لا تَقصدُ بذلكَ المعنى المرادَ من التوكُّلِ، وإنَّما تريدُ معنى التوكيلِ، كقولهم: اعتَمَدتُ عليكَ.

ولا شكَّ أنَّ الأولى سَدُّ هذا البابِ وعدمُ مراعاةِ قصدِ العامةِ، حتَّى لا يأتِيَ مَن يَتلفَّظُ بألفاظٍ شركيةٍ، كالحلفِ بغيرِ اللهِ، ويَتذرَّعُ بأنَّه لا يَقصدُ حقيقةَ الحلفِ.

وقد سُئل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ عن قول: «مُتوكِّلٌ على اللهِ، ثم عليكَ يا فلانُ؟ فأجاب: «شِرْكٌ. يقول: مُوكِّلُكَ، ولا يقول: مُوكِّلٌ اللهَ ثم مُوكِّلُكَ على هذا الشيءِ، هذه عاميَّةٌ، وليست في مَحَلِّهَا». «فتاوى محمد بن إبراهيم» ١/ ١٧٠.

فرع٣: حكم قول: أنا واثِقٌ في نَفْسِي، أو: يجبُ أن تَثِقَ في نفسِكَ:

لها حالتان:

الحالة الأولى: أنْ يكونَ قائلُ ذلكَ قَصَد بذلكَ الاعتمادَ على نفسه، فهذا لا يجوزُ، وهو من الاعتمادِ على الأسبابِ، وهو شركٌ أصغرُ؛ لأنَّ الإنسانَ ضعيفٌ قد يَعجِزُ، والواجبُ على المسلمِ أنْ يَخافَ من نفسِه، وألَّا يَثِقَ بِهَا الثقةَ المطلقةَ، بل يجعلُ ثقتَه ويقينَه باللهِ عزَّ وجلَّ، وفي الحديثِ: **«ولا تَكِلنِي إلى نَفْسِي طَرْفةَ عَيْنٍ»**. أخرجه أبو داود، من حديث أبي بَكرة رضي الله عنه.

وقد سُئل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ عن قولِ القائلِ: تجبُ الثقةُ بالنَّفْسِ؟ فأجاب: لا تجبُ ولا تجوزُ الثقةُ بالنَّفْسِ. في الحديث: (وَلاَ تَكِلْني إلى

نَفْسِيْ طرْفَةَ عَيْن)». «مجموع رسائل وفتاوى محمد بن إبراهيم» ١/ ١٧٠.

وأصحابُ برامجِ التنميةِ البشريةِ يريدونَ هذا المعنى عندما يقولون: يَجبُ عليكَ أنْ يكونَ عندكَ ثقةٌ في نفسِكَ.

الحالة الثانية: أنْ يكونَ قائلُ ذلك قَصَد بذلكَ ما أعطاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ من علم أو قدرة أو ما أشبه ذلك.

وللشيخ العثيمين كلامٌ يستفادُ منهُ جوازُ بذلكَ بهذا المعنى، فقد سُئل عن حكمِ قول "فلانٌ واثِقٌ من نفسِه"، أو "فلانٌ عندَه ثقةٌ بنفسِه"؟ وهل هذا يُعارِضُ الدعاءَ الواردَ (ولا تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفةَ عَيْنٍ)؟

فأجاب: لا حَرَج في هذا؛ لأنَّ مرادَ القائلِ "فلانٌ واثِقٌ من نَفْسِه": التأكيدُ، يعني: أنَّه متأكِّدٌ من هذا الشيءِ، وجازمٌ بِه، ولا ريبَ أنَّ الإنسانَ يكونُ نسبةُ الأشياءِ إليهِ أحيانًا على سبيلِ اليقينِ، وأحيانًا على سبيلِ الظَّنِّ الغالبِ، وأحيانًا على وجهِ الشَّكِّ والتَّردُّدِ، وأحيانًا على وجهِ المرجوح، إذا قال: "أنا واثِقٌ مِن كذا"، أو "أنا واثِقٌ من نَفْسِي"، أو "فلان واثِقٌ من نَفْسِه"، أو "واثِقٌ ممَّا يقولُ" المرادُ بِه أنَّه مُتيقِّنٌ من هذا، ولا حَرَج فيهِ، ولا يُعارِضُ هذا الدعاءَ المشهورَ (ولا تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفةَ عَيْنٍ)؛ لأنَّ الإنسانَ يَثِقُ من نَفْسِه باللهِ، وبِمَا أَعطاهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ من عِلْمٍ، أو قدرةٍ، أو ما أشبَه ذلكَ». «فتاوى إسلامية» ٤/ ٤٨٠.

قال المؤلِّف:

ودليل الرَّغبة والرَّهبة والخشوع: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الرَّغبةَ والرَّهبةَ والخشوعَ عبادةٌ.

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى أَثنَى على الأنبياءِ والمرسلينَ باتِّصافِهِم بهذهِ الصفاتِ العظيمةِ، وما دام أنَّه أَثنى عليهِم بفِعلِهَا، وما كان كذلكَ فهو عبادةٌ، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

أمَّا الرغبةُ: فهي مَيلُ النَّفسِ إلى الشيءِ لاعتقادِ نفعِه.

وقيل: هي طَلَبُ الوصولِ إلى الشيءِ المحبوبِ. «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين، ص/ ٥٩.

وقد أَمَر اللهُ نبيَّه ﷺ أنْ يَرغَبَ إليهِ وحدَهُ، فقال سبحانَه: ﴿**وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**﴾؛ أي: أَعظِمِ الرَّغبةَ في إجابةِ دعائِكَ وقبولِ عباداتِكَ، ولا تَكُن ممَّن إذا فَرَغُوا وتَفَرَّغُوا لَعِبُوا، وأعرَضُوا عن ربِّهِم، وعن ذِكرِه، فتكونَ من الخاسرينَ.

والفرقُ بينَ الرغبةِ والرَّجاءِ: أنَّ الرجاءَ طَمَعٌ، والرَّغبةُ طَلَبٌ، فهي ثمرةُ الرَّجاءِ، فإنَّه إذا رَجَا الشيءَ طَلَبَهُ، والرغبةُ من الرَّجاءِ كالهَرَبِ من الخوفِ. «مدارج السالكين» ٢/ ٥٥.

وأمَّا الرَّهبة: فهي الإمعانُ في الهَرَبِ من المكروهِ [«مدارج السالكين» ١/ ٥١٢]. وقيل: هي الخوفُ والفزعُ المُثمِرُ للهَرَبِ من الخوفِ، فهي خوفٌ مقرونٌ بعَمَلٍ [«شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين، ص/ ٥٩]، قال الله تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ [البقرة: ٤٠].

وأمَّا الخشوع: فهو معنًى يَلتئِمُ من التعظيمِ والمحبةِ والذُّلِّ والانكسارِ. [«مدارج السالكين ١/ ٥٢٢]. وقيل: الذُّلُّ والتَّطامُنُ لعظمةِ اللهِ بحيثُ يَستسلِمُ لقضائِه الكونيِّ والشرعيِّ.

وهو قريبٌ من الخضوعِ إلَّا أنَّ الخضوعَ في البَدَنِ.

ومَحَلُّ الخشوعِ: القلبُ، وتَظهرُ ثَمرتُه على الجوارحِ، قال تعالى: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ**﴾؛ أي: تَقشَعِرُ؛ لِمَا فيهِ من التخويفِ والترهيبِ المُزعِجِ ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾؛ أي: عندَ ذكرِ الرَّجاءِ والترغيبِ، فهو تارةً يُرغِّبُهُم لعملِ الخيرِ، وتارةً يُرهِّبُهُم من عَمَلِ الشَّرِّ. «تفسير السعدي» ص/ ٧٢٢.

والرَّغبةُ والرَّهبةُ والخشوعُ عباداتٌ قلبيةٌ لا يجوزُ صَرفُهَا لغيرِ اللهِ تعالى.

خشوع النفاق:

هو خشوعُ الرِّياءِ والسُّمعةِ، قال الحافظ ابن رجب: «ومتى تَكَلَّفَ الإنسانُ تعاطِي الخشوعَ في جوارحِه وأطرافِه، مع فراغِ قلبِه من الخشوعِ، وخُلُوِّهِ منهُ، كان ذلكَ خشوعَ النفاقِ، وهو الذي كان السَّلَفُ يَستعيذُونَ منهُ، كما قال بعضُهُم: استَعِيذُوا باللهِ من خشوعِ النفاقِ. قالوا: ما خشوعُ النفاقِ؟ قال: أنْ تَرَى الجسدَ خاشعًا، والقلبُ ليس بخاشعٍ.

ونَظَر عمرُ إلى شابٍّ قد نكَّس رأسَه، فقال له: يا هذا ارْفَعْ رأسَكَ، فإنَّ الخشوعَ لا يَزيدُ على ما في القلبِ، فمَن أَظهَر خُشُوعًا غيرَ ما في قلبِه، فإنَّما هو نفاقٌ على نفاقٍ». «الخشوع في الصلاة» لابن رجب، ص ١٣ - ١٤.

قال المؤلِّف:

ودليل الخشية: قولُه تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الخشيةَ عبادةٌ.

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى أَمَر بها، والعبادةُ ما أُمِرَ بِه شرعًا، فيكونُ صَرْفُه لغيرِ اللهِ شركٌ.

قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾: «﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ﴾؛ لأنَّ حُجَّتَهُم باطلةٌ، والباطلُ كاسمِه مخذولٌ، مخذولٌ صاحبُه، وهذا بخلافِ صاحبِ الحَقِّ، فإنَّ للحَقِّ صولةً وعِزًّا، يُوجِبُ خشيةَ مَن هو معهُ، وأَمَر تعالى بخشيتِه، التي هي أصلُ كُلِّ خيرٍ، فمَن لم يَخْشَ اللهَ، لم يَنكَفَّ عن معصيتِه، ولم يَمتثِلْ أَمرَهُ». «تفسير السعدي» ص/ ٧٣.

والخشية: هي خوفٌ من الله تعالى مقرونٌ بمعرفةٍ، قال تعالى: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** [فاطر: ٢٨] ، وقال ﷺ: **«أَمَا إِنِّي أَعلَمُكُم باللهِ، وأشدُّكُم لهُ خشيةً»**.

والخشيةُ من اللهِ من أسبابِ حياةِ القلوبِ، قال تعالى: **﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾** [الأعلى: ١٠] ، وقال: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾** [النازعات: ٢٦].

فإن قيل: ما الفرق بين الخشية والخوف؟

فيقال: من وجوه:

الوجه الأول: أنَّ الخشيةَ أخصُّ من الخوفِ، فالخشيةُ خوفٌ مقرونٌ بالعلمِ بالمَخشِيِّ وحالِه، وأمَّا الخوفُ، فيَقَعُ من الجاهلِ، قال ابن القيم: «الخشيةُ أخصُّ من الخوفِ؛ فإنَّ الخشيةَ للعلماءِ باللهِ، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]، فهي خوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ». «مدارج السالكين» ٢/ ١٨٠.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كُلُّ مَن خَشِيَ اللهَ، فهو عالِمٌ». «مجموع الفتاوى» ٧/ ١٧.

الوجه الثاني: أنَّ الخشيةَ تكونُ بسببِ عظمةِ المَخشِيِّ، بخلافِ الخوفِ؛ فقد يكونُ سببُه ضَعْفَ الخائفِ لا من قوةِ المَخُوفِ.

الوجه الثالث: أنَّ الخشيةَ أكملَ من الخوفِ؛ لأنَّ مادتَها تدلُّ على ذلكَ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**أمَا واللهِ إنِّي لأخشاكُم للهِ، وأتقاكُم له**».

قال ابن القيم: «الخوفُ حركةٌ، والخشيةُ انجماعٌ وانقباضٌ وسكونٌ، فإنَّ الذي يَرَى العَدُوَّ والسَّيلَ ونحوَ ذلكَ لهُ حالتانِ:

إحداهما: حركةٌ للهَرَبِ منهُ، وهي حالةٌ من الخوفِ.

والثانية: سُكُونُه وقَرَارُهُ في مكانٍ لا يَصِلُ إليهِ فيهِ، وهي الخشيةُ». «مدارج السالكين» ٢/ ١٨١.

والخشية الشركية: هو الخشيةُ من المخلوقِ أو من الجِنِّ أنْ يُصِيبَكَ بشيءٍ لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كأنْ تخشَى أنْ يُصِيبَكَ بمَرَضٍ، أو يَقطَعَ نَسْلَكَ، أو يَقتُلَ وَلَدَكَ، وهكذا.

قال المؤلِّف:

ودليل الإنابة: قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤][(١)].

---

(١) **قال الشيخ السعدي** في «تفسيره» ص/ ٧٢٧: «﴿**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ**﴾ بقلوبِكُم ﴿**وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾ بجوارِحِكُم، إذا أُفرِدَتِ الإنابةُ دَخَلَتْ فيها أعمالُ الجوارحِ، وإذا جُمِعَ بينهما -كما في هذا الموضعِ-، كان المعنى ما ذَكَرنَا.

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الإنابةَ عبادةٌ.

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى أَمَر بِهَا، والعبادةُ ما أُمِرَ بِه شرعًا، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

ومعنى الإنابة: رجوعُ القلبِ إلى اللهِ بالتوبةِ وإخلاصِ العملِ، فهو ليس رجوعًا مجرَّدًا، ولكنَّه رجوعٌ للقلبِ مع التَّعلُّقِ والرَّجاءِ، فيَرجِعُ وقد قام بقلبِه أنواعٌ من العبوديةِ، كالرَّجاءِ، والخوفِ، والمحبةِ، ونحوِ ذلكَ.

فإن قيل: ما الفرق بين التوبة والإنابة؟

فيقال: التوبةُ هي الندمُ على الذنبِ والإقلاعُ عنهُ، بينَما الإنابةُ هي دوامُ الإقبالِ على اللهِ، ولزومُ طاعتِه، والمحبةُ الخالصةُ لهُ.

والإنابة الشركية: هي الإنابةُ لغيرِ اللهِ فيمَا لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كمَن يأتي إلى قبرِ وَلِيٍّ صالحٍ، ويقول: التوبة يا شيخ. «شرح ثلاثة الأصول» لعبد الله بن إبراهيم القرعاوي، ص/ ٦٤.

قال المؤلِّف:

وفي قولِه ﴿إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ دليلٌ على الإخلاصِ، وأنَّه من دونِ إخلاصٍ لا تُفيدُ الأعمالُ الظاهرةُ والباطنةُ شيئًا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ مَجِيئًا لا يُدفَعُ ﴿ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾.

فكأنَّه قيل: ما هي الإنابةُ والإسلامُ؟ وما جزئياتُها وأعمالُها؟

فأجاب تعالى بقولِه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ممَّا أَمَركُم من الأعمالِ الباطنةِ، كمحبةِ اللهِ، وخشيتِه، وخوفِه، ورجائِه، والنُّصحِ لعبادِه، ومحبةِ الخيرِ لهم، وتركِ ما يُضَادُّ ذلكَ، ومن الأعمالِ الظاهرةِ، كالصلاةِ، والزكاةِ، والصيامِ، والحجِّ، والصدقةِ، وأنواعِ الإحسانِ، ونحوِ ذلكَ ممَّا أَمَر اللهُ بِه، وهو أَحسَنُ ما أُنزِلَ إلينا من ربِّنا، فالمُتَّبِعُ لأوامرِ ربِّه في هذهِ الأمورِ ونحوِها هو المُنِيبُ المسلمُ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾، وكُلُّ هذا حَثٌّ على المبادرةِ وانتهازِ الفرصةِ».

ودليل الاستعانة: قوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وفي الحديث: «وإذا استَعنتَ فاستَعِنْ باللهِ».

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهذهِ الآيةِ والحديثِ على أنَّ الاستعانةَ عبادةٌ.

وجه الدلالة من الآية والحديث: أنَّ في الآية حَصَر سبحانَه الاستعانةَ فيهِ وحدَه، فدلَّ على أنَّه عبادةٌ، وفي الحديثِ: أَمَر بالاستعانةِ بِه وحدَه، والعبادةُ ما أُمِرَ بِه شرعًا، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

ويَتَعلَّق بالاستعانة ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: معنى الاستعانة:

هي طَلَبُ العَونِ من اللهِ تعالى في جميعِ الأمورِ، يقول الإمامُ ابنُ القيمِ: «لمَّا كان حَرصُ الإنسانِ وفِعلُهُ إنَّما هو بمعونةِ اللهِ ومشيئتِه وتوفيقِه، أَمَرهُ أنْ يَستعينَ باللهِ؛ لِيَجتمِعَ لهُ مقامُ: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**، فإنَّ حِرصَهُ على ما يَنفعُه عبادةٌ للهِ، ولا تَتِمُّ إلَّا بمعونتِه، فأَمَرهُ بأنْ يَعبُدَهُ وأنْ يَستعِينَ بِه». «شفاء العليل» ١/ ٦١؛ ط عطاءات العلم.

وقد كان النبيُّ ﷺ يقولُ في خُطبتِه، ويُعلِّمُ أصحابَه أنْ يقولوا: **«الحمدُ للهِ نَستعينُه ونَستَهدِيهِ»**، ومن دعاء القنوت: **«اللهمَّ، إنَّا نَستَعِينُكَ»**، ومنه أيضًا: **«اللهمَّ أَعِنِّي ولا تُعِنْ عليَّ»**، وأَمَر معاذَ بنَ جَبَلٍ ألَّا يَدَع في دُبُر كُلِّ صلاةٍ أنْ يقولَ: **«اللهمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ»**. «تيسير العزيز الحميد» ٢/ ١٣٣٢ - ١٣٣٣.

المسألة الثانية: الاستعانة الشركية:

هي الاستعانةُ بغيرِ اللهِ تعالى فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كمَن يَستعينُ بميِّتٍ أو غائبٍ أو حَيٍّ حاضرٍ في شيء لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كشفاءِ المريضِ، أو رَدِّ الغائبِ، أو التَّخلُّص من عَدُوٍّ؛ «لأنَّه لا يَقَعُ إلَّا من شخصٍ يَعتقِدُ أنَّ لهؤلاء تَصَرُّفًا خَفِيًّا في الكَونِ». «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين، ص/ ٦٣.

المسألة الثالثة: الاستعانةُ الجائزة:

وهي الاستعانةِ بالحَيِّ الحاضرِ القادرِ على أمرٍ جائزٍ شرعًا، وهذه الاستعانةُ على حَسَبِ المُستعانِ عليهِ:

«فإنْ كانت على بِرٍّ، فهي جائزةٌ للمُستَعينِ، مشروعةٌ للمُعينِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

وإنْ كانت على إثمٍ، فهي حرامٌ على المُستَعينِ والمُعينِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وإنْ كانت على مباحٍ، فهي جائزةٌ للمُستَعينِ والمُعينِ، لكنْ المُعينُ قد يُثابُ على ذلكَ ثوابَ الإحسانِ إلى الغيرِ، ومِن ثَمَّ تكونُ في حقِّه مشروعةٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]». «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين، ص/ ٦٢.

قال المؤلِّف:

ودليل الاستعاذة: قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهاتينِ الآيتينِ على أنَّ الاستعاذةَ عبادةٌ.

وجه الدلالة من الآيتين: أنَّ اللهَ تعالى أَمَر بالاستعاذةِ بِه، والعبادةُ ما أُمِرَ بِه شرعًا، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

ومن الأدلة أيضًا على أنَّ الاستعاذةَ عبادة: قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨]، ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

ففي هذهِ الآياتِ أَمَر الله تعالى بالاستعاذةِ بِه، والعبادةُ ما أُمِرَ بِه شرعًا، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

وذَمَّ اللهُ سبحانَه الإنسَ على استعاذتِهم بالجِنِّ في أمرٍ لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا هو سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦][(١)]، والذمُّ لا يكونُ إلا على تركِ واجبٍ أو فعلِ مُحرَّمٍ، فدلَّ هذا على أنَّ الاستعاذةَ عبادةٌ، وأنَّ طَلَبَهَا من غيرِ اللهِ شركٌ[(٢)].

ويَتَعلَّق بالاستعاذةِ عدَّةُ مسائلَ:

---

(١) **قال الحافظ ابن كثير** في «تفسيره»: «أي: كُنَّا نَرَى أنَّ لنا فَضْلًا على الإنسِ؛ لأنَّهم كانوا يَعُوذُونَ بِنَا، أي: إذا نَزَلُوا واديًا أو مكانًا مُوحِشًا من البراري وغيرِهَا كما كانت عادةُ العربِ في جاهليتِهَا يَعُوذُونَ بعظيمِ ذلكَ المكانِ من الجَانِّ أنْ يُصِيبَهُم بشيءٍ يَسُوؤهُم، كما كان أحدُهُم يَدخُلُ بلادَ أعدائِهِ في جِوَارِ رَجُلٍ كبيرٍ وذِمامِهِ وخِفَارتِهِ، فلمَّا رأتِ الجِنُّ أنَّ الإنسَ يَعُوذُونَ بِهِم من خوفِهِم منهم زَادُوهُم رَهَقًا؛ أي: خَوفًا وإرهابًا وذُعرًا، حتى تبقوا أشدَّ منهم مخافةً وأكثرَ تَعَوُّذًا بِهِم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: إثمًا، وازدَادَتِ الجِنُّ عليهم بذلكَ جُراءَةً. وقال السُّدِّي: كان الرَّجُلُ يَخرُجُ بأهلِهِ، فيأتِي الأرضَ فيَنزِلُهَا، فيقولُ: أعوذُ بسيِّد هذا الوادي من الجِنِّ أنْ أُضَرَّ أنا فيه، أو مالي، أو ولدِي، أو ماشيتِي. قال قتادة: فإذا عَاذَ بِهِم من دونِ اللهِ رَهَقَتْهُمُ الجِنُّ الأذى عندَ ذلكَ».

إذن لقوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ تفسيران:

التفسير الأول: زاد الإنسُ الجِنَّ طغيانًا.

التفسير الثاني: زاد الجِنُّ الإنسَ خوفًا.

(٢) ووجه كون الاستعاذة بالجِنِّ شركًا: أنَّ مؤمني الجِنِّ قالوا: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]، ثم قالوا بعدَ ذلكَ على وجهِ الاستنكارِ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾، والشريعةُ جوَّزت طلبَ الدعاءِ من الأحياءِ فيما يقدرونَ عليهِ بشرطِ أنْ يكونَ حاضرًا قادرا، فإن كان المَدعُو غائبًا؛ فهذا شركٌ؛ لأنَّه ما دَعَاهُ والحالةُ هذهِ إلَّا لاعتقادِهِ أنَّ سَمْعَهُ يتَّسِعُ لسماعِ البعيدِ، واعتقادُ مثلِ هذا شركٌ؛ لأنَّ اتِّساعَ السمعِ للبعيدِ خاصٌّ باللهِ، والاستعاذةُ نوعٌ من الدُّعاءِ، فمَن استَعاذَ بالجِنِّ فقد استَعاذَ بغائبٍ، وهذا وجهُ كونِهِ شركًا.

المسألة الأولى: معنى الاستعاذة:

هي طَلَبُ العَوذِ، تقولُ: أعوذُ باللهِ؛ أي: أَلتَجِئُ وأَعتَصِمُ وأَتَحرَّز باللهِ من شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ.

المسألة الثانية: الاستعاذة الشركية:

هي الاستعاذةُ بغيرِ اللهِ فيمَا لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، كالاستعاذةِ بالأحياءِ، أو الغائبينَ، أو الموتى، أو الجِنِّ، في أمرٍ لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قد نصَّ الأئمةُ كأحمدَ وغيرِه على أنَّه لا يجوزُ الاستعاذةُ بمخلوقٍ، وهذا ممَّا استدلُّوا بِه على أنَّ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ غيرُ مخلوقٍ، قالوا: لأنَّه قد ثَبَت عن النبيِّ ﷺ أنَّه استَعاذ بكلماتِ اللهِ، وأَمَر بذلكَ:

كقولِه ﷺ: (**أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ كلِّهَا من شَرِّ ما خَلَق**)، و(**أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ كلِّها من غَضَبِه وعذابِه، وشَرِّ عبادِه، ومن همزاتِ الشياطينِ، وأنْ يَحضُرُون**)، و: (**أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ التي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ من شَرِّ ما خَلَق وذَرَأَ وبَرَأَ، ومن شَرِّ ما يَنزِلُ من السماءِ، ومن شَرِّ ما يَعرُجُ فيها، ومن شَرِّ ما ذَرَأَ في الأرضِ، ومن شَرِّ ما يَخرُجُ منها، ومن شَرِّ فِتَنِ الليلِ والنهارِ، ومن شَرِّ كُلِّ طارقٍ إلَّا طارقًا يَطرُقُ بخيرٍ يا رحمنُ**).

قالوا: والاستعاذةُ لا تجوزُ بالمخلوقِ، وقولُ القائلِ: (أعوذُ باللهِ): معناهُ: أستَجِيرُ باللهِ، فإذا لم يَجُزْ أنْ يُستَغَاثَ بمخلوقٍ لا نبيٍّ ولا غيرِه، فإنَّه لا يجوزُ أنْ يقالَ لهُ: (أنتَ خيرُ مَعَاذٍ يُستَغَاثُ بِهِ) بطريقِ الأولى والأحرى.

فقولُ القائلِ لمَن مات من الأنبياءِ أو غيرِهم: (بكَ أستَجِيرُ مِن كذا وكذا)، كقولِه: (بِكَ أستعيذُ). وقولُه: (بِكَ أستغيثُ) في معنى ذلكَ، إذْ كان مطلوبُهُ مَنْعَ الشِّدَّةِ أو رَفْعَهَا، والمُستَعيذُ يَطلبُ مَنْعَ المستَعاذِ منهُ أو رَفْعَهُ، فإذا كان مَخوُفًا طَلَبَ مَنْعَهُ، كقولِه: (أعوذُ باللهِ من عذابِ جهنَّمَ، ومن عذابِ القبرِ)، وإنْ كان حاضرًا طَلَبَ رَفْعَهُ، كقولِه في الحديثِ الصحيحِ: (**أعوذُ بعزةِ اللهِ وقدرتِه من شَرِّ ما أَجِدُ وأُحاذِرُ**).

والداعِي يَطلُبُ أحدَ شيئين: إمَّا حصولَ منفعةٍ، وإمَّا دفعَ مضرَّةٍ، فالاستعاذةُ والاستجارةُ والاستغاثةُ كلُّها من نوع الدُّعاءِ والطلبِ، وقولُ القائلِ: (لا يُستَعَاذُ بهِ، ولا يُستَجَارُ بِه، ولا يُستَغَاثُ بهِ)، ألفاظٌ متقاربةٌ.

ولمَّا كانت الكعبةُ بيتَ اللهِ الذي يُدعَى ويُذكَرُ عندهُ، فإنَّه سبحانَهُ يُستَجَارُ بِه ويُستَغَاثُ بهِ هناكَ، ويَتمسَّكَ المُتمَسِّكُ بأستارِ الكعبةِ، كما يَتعلَّقُ المُتَعلِّقُ بأذيالِ مَن يَستَجِيرُ بِه، ومنهُ قولُ عمرو بنِ سعيدٍ لأبي شريحٍ: إنَّ الحَرَمَ لا يُعِيذُ عاصيًا، ولا فارًّا بدَمٍ، ولا فارًّا بخَرْبَةٍ. وفي الحديث الصحيح: يَعوذُ عائِذٌ بهذا البيتِ.

ويُسمَّى ذلكَ المكانُ المُستَجَارةَ، وقد كان من السَّلَفِ مَن يَدخلُ بين الكعبةِ وأستارِهَا، فيَستعيذُ، ويَستجيرُ باللهِ، ويَدعوهُ، ويَتَضَرَّعُ إليه هناكَ». «الرد على البكري» ٢/ ٤٤٩ – ٤٥٤.

وقال الإمام ابن القيم: «مَن ذَبَح للشيطانِ ودعَاهُ، واستَعَاذَ بِه، وتقرَّبَ إليهِ بِمَا يُحِبُّ؛ فقد عَبَدهُ، وإنْ لم يُسمِّ ذلكَ عبادةً ويُسمِّيهِ استخدامًا! وصَدَقَ؛ هو استخدامٌ من الشيطانِ لهُ، فيَصيرَ من خَدَمِ الشيطانِ وعابِدِيهِ، وبذلك يَخْدُمُهُ الشيطانُ، لكنْ خِدمةُ الشيطانِ لهُ ليست خدمةَ عبادةٍ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يَخضَعُ لهُ، ولا يَعبدُهُ، كما يفعلُ هو». «بدائع الفوائد» ٢/ ٢٣٥.

وقال الشيخ مُلَّا علي القاري الحنفي: «ولا تجوزُ الاستعاذةُ بالجِنِّ، فقد ذمَّ اللهُ الكافرينَ على ذلكَ، فقال: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ**﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فاستمتاعُ الإنسيِّ بالجنيِّ في قضاءِ حوائجِهِ، وامتثالِ أوامرِهِ، وإخبارِهِ بشيءٍ من المغيَّباتِ، واستمتاعُ الجنيِّ بالإنسيِّ تعظيمُهُ إيَّاهُ، واستعاذتُهُ بِهِ، واستغاثتُهُ، وخضوعُهُ لَهُ». انظر: «تيسير العزيز الحميد» ١/ ٤٦٣ – ٤٦٤.

المسألة الثالثة: الاستعاذة الجائزة:

وهي الاستعاذةُ بالحَيِّ الحاضرِ القادرِ على أمرٍ جائزٍ شرعًا، كأنْ تقولَ

لشخصٍ: أَعذِنِي من شَرِّ ولدِكَ، أو من شَرِّ جارِكَ، أو أَعذِنِي من شَرِّ هذا الحيوانِ.

وفي «صحيح مسلم» (١٦٨٩)، من حديثِ جابرٍ رضي الله عنه: أنَّ امرأةً من بني مخزومٍ سَرَقَتْ، فأُتي بِهَا النبيُّ ﷺ، فعَاذَتْ بأُمِّ سلمةَ، فقال ﷺ: «**لو سَرَقَتْ فاطمةُ بنتُ محمدٍ لقَطَعتُ يَدَهَا**»، وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ستكونُ فِتَنٌ، القاعدُ فيها خَيرٌ من القائمِ، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعِي، مَن تَشَرَّفَ لَهَا تَستَشرِفْهُ، ومَن وَجَدَ فيها مَلْجَأً؛ فَليَعُذْ بِهِ**»[1]، ولأنَّ الاستعاذةَ بالمخلوقِ فيما يَقدِرُ عليهِ فيها عملٌ ظاهرٌ فقط، وهو طَلَبُ كَفِّ الشرِّ.

ويَنبغي التنبُّهُ إلى أنَّ الاستعاذةَ بالمخلوقِ تكونُ من بابِ فعلِ الأسبابِ، وليس فيها اعتمادٌ على المخلوقِ، ولا تَعَلُّق القلبِ بِه، أمَّا إذا تعلَّقَ قلبُهُ بِه، فإنَّهُ يكونُ فيهِ نوعُ شركٍ؛ لأنَّ الالتفاتَ للأسبابِ شركٌ.

فائدة: ينبغي للمؤمنِ إعاذةُ مَن استَعاذَ باللهِ؛ تعظيمًا للهِ تعالى، وقد أخرج أبو داود بسند صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن استَعاذ باللهِ، فأَعيذُوه**»؛ أي: طلبَ الإعاذةَ مُستعيذًا باللهِ؛ من ضرورةٍ، أو جائحةٍ حَلَّتْ بِه، أو ظُلْمٍ نَالَهُ، أو تَجَاوُزٍ عن جنايةٍ (**فأَعِيذُوهُ**)؛ أي: أَعِينُوهُ وأَجِيبُوهُ، فإنَّ إغاثةَ الملهوفِ فرضٌ. «عون المعبود» ١٤/ ١٢.

قال المؤلِّف:

ودليل الاستغاثة: قولُه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهذهِ الآيةِ على أنَّ الاستغاثةَ عبادةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦).

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى أخبَر أنَّه استَجاب لمَن استَغاث بِه، وهذا يدلُّ على أنَّ الاستغاثةَ بِه سبحانَه محبوبةٌ عندَه، وما كان كذلكَ فهو عبادةٌ، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

ويَتَعلَّقُ بالاستغاثةِ عدَّة مسائلَ:

المسألة الأولى: معنى الاستغاثة:

هي طَلَبُ الغوثِ والمَدَدِ والنُّصرةِ ونحوِ ذلكَ، كما يُنادِي الغريقُ: أغيثُوني أغيثُوني. وهي نوعٌ من الاستعانةِ إلَّا أنَّها تكونُ في الشدَّةِ والكَرْبِ.

المسألة الثانية: الاستغاثة الشركية:

هي الاستغاثةُ بغيرِ اللهِ فيمَا لا يَقدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، «كالاستغاثةِ بالأمواتِ أو بالأحياءِ غيرِ الحاضرينَ القادرينَ على الإغاثةِ؛ لأنَّه لا يَفعلُه إلَّا مَن يَعتقِدُ أنَّ لهؤلاءِ تَصَرُّفا خَفِيًّا في الكَونِ، فيَجعلُ لهم حظًّا من الربوبيةِ، قال الله تعالى: **﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾** [النمل: ٦٢]». «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين، ص/ ٦٦.

المسألة الثالثة: الاستغاثة الجائزة:

وهي الاستعاثةُ بالحَيِّ الحاضرِ القادرِ على أمرٍ جائزٍ شرعًا، ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُم يومَ القيامةِ على رقبتِه شاةٌ لها ثُغَاءٌ، يقولُ: يا رسولَ اللهِ، أَغِثْنِي. فأقولُ: لا أَملِكُ شيئًا قد أَبلَغتُكَ**».

قال المؤلِّف:

ودليل الذَّبح: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالمينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ومن السُّنة: «لَعَن اللهُ مَن ذَبَح لغيرِ اللهِ».

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بالآيةِ والحديث على أنَّ الذبحَ عبادةٌ.

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى أَمَر بالذبحِ لهُ وحدَه، وفي الحديث لَعَن مَن ذَبَح لغيرِه، فدلَّ ذلكَ على أنَّ الذبحَ عبادةٌ محبوبةٌ للهِ، وما كان كذلكَ فهو عبادةٌ، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

وقد ذَكَر الإمام المُجدِّد محمد بن عبد الوهاب الذبحَ لغيرِ اللهِ، وعدَّه من نواقضِ الإسلامِ، فقال: «اعلَمْ أنَّ نواقضَ الإسلامِ عشرةُ نواقضَ: الأولُ: الشركُ في عبادةِ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ... ومنهُ: الذَّبحُ لغيرِ اللهِ كمَن يَذبَحُ للجِنِّ أو للقبرِ».

وقال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم تعليقًا على المؤلِّفِ في «كتاب التوحيد»: «(بابُ ما جاءَ في الذَّبحِ لغيرِ اللهِ)؛ أي: من الوعيدِ على ذلكَ، وبيانُ أنَّه شركٌ أكبرُ ناقِلٌ عن المِلَّةِ؛ لأنَّه عبادةٌ من أَجَلِّ العباداتِ، وقُرْبَةٌ من أفضلِ القُرُباتِ الماليةِ، فصَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ، كمَن يَذبَحُ لقبرٍ، أو شَجَرةٍ، أو حَجَرٍ، أو مَلَكٍ، أو نبيٍّ، أو جِنِّيٍّ، أو لطلعةِ سُلطانٍ، أو للزيرانِ، أو غيرِ ذلكَ». «حاشية كتاب التوحيد» ص/ ٩٦.

وقال الشيخ السعدي: «إذا ثَبَتَ أنَّ الذَّبحَ للهِ من أَجَلِّ العباداتِ وأكبرِ الطاعاتِ، فالذَّبحُ لغيرِ اللهِ شركٌ أكبرُ مُخرِجٌ عن دائرةِ الإسلامِ». «القول السديد» ص/ ٥٤.

قوله تعالى: (﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالمينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾) **قال السعدي** في «تفسيره» ص/ ٢٨٢: «**﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾**؛ أي: ذَبْحِي، وذلكَ لشرفِ هاتَينِ العبادتَينِ وفضلِهِمَا، ودلالتِهِمَا على محبةِ اللهِ تعالى، وإخلاصِ الدِّينِ لهُ، والتَّقَرُّبِ إليهِ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ، وبالذَّبحِ الذي هو بَذْلُ ما تُحِبُّهُ النَّفْسُ من المالِ، لِمَا هو أحبُّ إليها، وهو اللهُ تعالى، ومن أَخلَصَ في صلاتِه ونُسُكِه، استَلزَمَ ذلكَ إخلاصَهُ للهِ في سائرِ أعمالِه **﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾**؛ أي: ما آتيهِ في حياتي وما يُجرِيهِ اللهُ عليَّ، وما يُقدَّرُ عليَّ في مماتِي، الجميعُ **﴿للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لا شَرِيكَ لَهُ﴾** في العبادةِ، كما أنَّه ليس لهُ شريكٌ في المُلْكِ والتدبيرِ، وليس هذا الإخلاصُ للهِ ابتداعًا منِّي، وبِدْعًا أتيتُهُ من تلقاءِ نفسِي، بل **﴿بِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾** أمرًا حَتْمًا، لا أَخرُجُ من التَّبعَةِ إلا بامتثالِه **﴿وَأَنَا أَوَّلُ**

﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذهِ الأمةِ».

- ومن الأدلةِ أيضًا على أنَّ الذبحَ عبادةٌ، وأنَّ صَرْفَه لغيرِ اللهِ شركٌ: قولُه تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وجه الدلالة من الآيةِ من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنَّ اللهَ تعالى قَرَنَ بينَهُ وبينَ الصلاةِ.

الوجه الثاني: أنَّه تعالى أَمَر بِه، والعبادةَ ما أُمِرَ به شرعًا.

الوجه الثالث: أنَّ اللهَ تعالى خَصَّ هذا الأمرَ بِه، فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

ويَتعلَّقُ بالذبحِ عدَّةُ مسائلَ:

المسألة الأولى: معنى الذبح:

الذَّبحُ معروفٌ، وهو إراقةُ الدَّمِ.

والمرادُ بالذبحِ في كُتُبِ التوحيدِ هو: إراقةُ الدمِ على وجهِ التَّقرُّبِ.

والذَّبحُ من حيثُ حكمُهُ الشرعيِّ ينقسمُ إلى قسمين:

١ - ذَّبحٌ تَعبُّديٌّ.

٢ - ذَّبحٌ شِرْكيٌّ.

أمَّا القسم الأول: وهو الذَّبحُ التَّعَبُّدي:

فهو أنْ يَذبَحَ باسمِ اللهِ، مُتقرِّبًا بهِ للهِ، وهذا النوعُ من الذَّبحِ جَمَعَ بينَ عبادتينِ عظيمتينِ: عبادةِ الاستعانةِ، وعبادةِ التقرُّبِ.

أمَّا الاستعانةُ؛ فلأنَّه يَذكُرُ اسمَ اللهِ عليها، فكأنَّه يقولُ: أَذبَحُ مُتَبرِّكًا ومُستعينًا باللهِ تعالى، وهذا عبوديةٌ.

وأمَّا التقرُّبُ؛ فلأنَّه يَقصِدُ بهذا الذَّبحِ التَّقرُّب للهِ تعالى، وهذهِ عبوديةٌ أخرى.

وثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كان إذا نَحَرَ أضحيتَهُ، قال: «**باسمِ اللهِ، واللهُ أكبرُ، اللهمَّ، هذا منكَ ولكَ**»، فانظر كيف جَمَعَ بين الذَّبحِ باسمِ اللهِ وبينَ التَّقرُّب للهِ.

فائدة: الذَّبحُ التَّعبُّدي باستقراءِ الشرعِ أربعةُ أنواعٍ:

[١] الهَدْي.

[٢] والأضاحي.

[٣] والعقيقةُ.

[٤] وما كان على جهةِ القُربَةِ كالنَّذرِ.

النوع الأول: الهَدْي: وهو ما يُهدِيهِ المُحرِمُ في حَجِّهِ أو عُمْرتِه.

وهو نوعان: واجبٌ، ومستحبٌّ.

أمَّا الواجبُ: فستةُ أقسامٍ: **[١]** هَدْي التمتُّعِ والقِرَانِ. **[٢]** فديةٌ على مَن تَرَكَ واجبًا من واجباتِ الحَجِّ. **[٣]** هديُ الإحصارِ. **[٤]** فديةٌ على مَن ارتَكَبَ محظورًا من محظوراتِ الإحرامِ. **[٥]** فديةُ الجنايةِ على الحَرَمِ؛ كالتَّعَرُّضِ لصيدِهِ. **[٦]** ما كان على جهةِ النَّذرِ. وأمَّا المستحبُّ: فما يُهدِيهِ المُفرِدُ أو المُعتمِرُ، أو ما يُرسَلُ هَدْيًا إلى البيتِ.

النوع الثاني: الأضاحي.

وهو ما يُذبَحُ يومَ العيدِ وأيامَ التشريقِ.

النوع الثالث: العقيقة.

وهو ما يُذبَحُ عندَ ولادةِ المولودِ شُكرًا للهِ تعالى.

النوع الرابع:

ما كان على جهةِ القُرْبةِ كالنَّذرِ.

وأمَّا القسم الثاني: وهو الذَّبحُ الشركي:

فهو أنْ يَتقرَّبَ بإراقةِ الدَّمِ لغيرِ اللهِ تعالى.

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أنْ يَذبَحَ باسمِ للهِ، مُتَقرِّبًا بِه لغيرِ اللهِ.

= كمَن يَذبَحُ للكواكبِ، أو يَذبحُ للأولياءِ والصالحينَ، سواءٌ ذَبَح لهم عندَ قبورِهِم وأضرحتِهِم أو في مكانٍ آخرَ.

= أو يَذبحُ للجِنِّ عندَ عَتَبةِ بابِه خوفًا من أذاهُم، أو يَذبحُ عندَ حَفْرِ بئرٍ خوفًا من اعتراضِ الجِنِّ لها بتقليلِ الماءِ أو عَدَمِه، أو يَذبحُ لهم طلبًا للشِّفاء.

وهذا شركٌ في الألوهيةِ، وهو غالبُ شركِ أهلِ زمانِنَا.

وهذا النوع من الذَّبح هو المرادُ بِمَا أُهِلَّ لغير اللهِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقولِه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣].

ومعنى ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾؛ أي: ذُبِحَ على اسمِ غيرِه، والإهلالُ: رفعُ الصوتِ، وكانوا يَرفعونَهُ عندَ الذبحِ لآلهتِهم.

النوع الثاني: أنْ يَذبَحَ باسمِ غيرِ اللهِ، مُتَقِرِّبًا بِه لغيرِ اللهِ.

= كمَن يَذبَحُ للصَّليبِ، أو لموسى أو لعيسى عليهما الصلاةُ والسلامُ.

وهذا شركٌ في الربوبيةِ والألوهيةِ؛ أمَّا كونُه شِركًا في الربوبيةِ؛ فلأنَّه ذَكَر غيرَ اسمِ اللهِ على الذبيحةِ، وأمَّا كونُه شِركًا في الألوهية؛ فلأنَّه تَقرَّبَ لغيرِ اللهِ تعالى.

النوع الثالث: أنْ يَذكُرَ غيرَ اسمِ اللهِ، ويَتَقرَّبَ بها للهِ.

كأنْ يَذبَحَ باسمِ عيسى، أو باسمِ الكوكبِ، أو باسمِ الجِنِّ، ويقصِدُ التَّقرُّبَ إلى اللهِ، وهذا شركٌ في الربوبيةِ؛ لأنَّه ذَكَر غيرَ اسمِ اللهِ على الذبيحةِ.

وهذه الصورةُ ربَّما لا تَقَعُ، لكنْ ذَكَرتُها تتمَّةً للقسمةِ.

فائدة: قال النووي: «وأمَّا الذَّبحُ لغيرِ اللهِ؛ فالمرادُ به: أنْ يَذبَحَ باسمِ غيرِ اللهِ تعالى، كمَن ذَبَحَ للصَّنَمِ، أو الصَّليبِ، أو لموسى أو لعيسى صلى اللهُ عليهما، أو للكعبةِ، ونحوِ ذلكَ، فكُلُّ هذا حرامٌ، ولا تَحِلُّ هذهِ الذبيحةُ، سواءٌ كان الذَّابحُ مسلمًا، أو نصرانيًّا، أو يهوديًّا، نصَّ عليهِ الشافعيُّ، واتَّفق عليهِ أصحابُنَا، فإنْ قَصَدَ مع ذلكَ تعظيمَ المذبوحِ لهُ غيرِ اللهِ تعالى، والعبادةَ لهُ؛ كان ذلكَ كُفرًا، فإنْ كان الذَّابحُ مسلمًا قبلَ ذلكَ، صار بالذَّبحِ مُرتدًّا». «شرح صحيح مسلم» ١٣/ ١٤١.

تنبيه: الذَّبحُ لقدومِ الضَّيفِ لا علاقةَ لهُ بمسألةِ الذبحِ لغيرِ اللهِ، إذِ المقصودُ في مسألة الذبح للضَّيفِ، هو إكرامُ الضيفِ بتقديمِ اللحمِ لهُ، فالمقصودُ هو اللَّحمُ، والذَّبحُ تَبَعٌ، وأمَّا في مسألةِ الذَّبحِ لغيرِ اللهِ تعالى، فالمقصودُ هو إراقةُ الدَّمِ على وجهِ التَّقرُّبِ لغيرِ اللهِ، فإراقةُ الدَّمِ مقصودٌ، واللَّحمُ تَبَعٌ، وبِناءً على

ذلكَ، فلا يَصحُّ إيرادُ مسألةِ الذَّبحِ لقدومِ الضيفِ عندَ الكلامِ على مسألةِ الذَّبحِ لغيرِ اللهِ. وهذهِ المسألةُ تُشكِلُ على كثيرٍ من الناسِ، فلَزِمَ التنبيهُ.

لكن مَن ذَبَح عندَ قدومِ الضيفِ، وقام بقلبِه تعظيمُ هذا الضيفِ، كما هو صنيعُ الصوفيةِ مع طواغيتِهِم، فهذا شركٌ أكبرُ. فتنبَّه.

مسألة: حكم الذبح لقدوم السلطان أو غيره:

الذَّبحُ لقدومِ السلطانِ أو غيرِهِ، لهُ أربعةُ أحوالٍ:

(١) أنْ يكونَ شركًا أكبر.

وذلك إذا ذَبَح تَقَرَّبا للسلطانِ.

(٢) أنْ يكونَ مستحبًّا.

وذلكَ إذا كان من عادةِ القومِ في إكرامِ الضَّيفِ.

(٣) أنْ يكونَ مُحرَّمًا.

وذلكَ إذا كان على وجهِ الإسرافِ.

(٤) أنْ يكونَ بدعةً.

وذلكَ إذا ذَبَحَهُ عندَ مرورِه إذا لم يَكُن ذلكَ من عادتِهِم في إكرام الضيف، فإنَّ في بعضِ القُرَى والبوادِي يَحرِصُونَ على الذَّبحِ أمامَ القادمِ؛ لِيَعلَمَ أنَّ هذا ما ذُبِحَ إلَّا لأجلِهِ.

مسألة أخرى: حكم الذَّبح عند المريض:

الذَّبحُ عندَ المريضِ لهُ حالتان:

الحالة الأولى: أنْ يذبحَ عندَ المريضِ تَقَرُّبًا للجنِّ. وهذا شركٌ أكبرُ.

الحالة الثانية: أنْ يَذبحَ عندَ المريضِ تَقَرُّبًا للهِ بنيَّة التَّصَدُّق بلَحْمِهَا رجاءَ الشِّفاءِ. وهذا جائزٌ، والأولى تَرْكُهُ؛ سدًّا للذريعةِ.

وقد أَوضَحَ هذينِ المعنيينِ **الشيخُ سعدُ بنُ عتيقٍ**، فقال -كما في «الدُّرَر السَّنية» ٥/ ٧٥-: «والذَّبحُ للجِنِّ يَفعلُهُ كثيرٌ من أهلِ الجهلِ والضَّلالِ، إذا مَرِضَ الشخصُ، أو أصابَهُ جنونٌ، أو داءٌ مُزمِنٌ، ذَبَحوا عندَهُ كَبشًا أو غيرَهُ؛ وكثيرٌ

منهم يُصرِّحُونَ بأنَّهم ذَبَحُوهُ للجِنِّ، ويَزعُمُونَ أنَّ الجِنَّ أصابتْهُ بسببِ حَدَثٍ منهُ، فيَذبَحُونَ عندَهُ ذبيحةً للجِنِّ، يَقصِدونَ تخليصَهُ ممَّا أصابَهُ من ذلكَ الدَّاءِ، ولا شكَّ أنَّ الجِنَّ قد تَعرِضُ لبعضِ الإنسِ بأنواعٍ من الأذى، كالصَّرْع وغيرِهِ، لأسبابٍ يَفعَلُهَا الإنسيُّ يَتَأذَونَ بِهَا؛ فإذا ابتُلِيَ الإنسانُ بشيءٍ من ذلكَ، فالواجبُ عليهِ الفَزَعُ إلى اللهِ، والاستعاذةُ بهِ، والالتجاءُ إليهِ، والتوكلُ عليهِ ...، وأمَّا العُدُولُ عن ذلكَ إلى الالتجاءِ إلى الجِنِّ، والذَّبحِ لهم، فهذا هو الشركُ الذي لا يَغفِرُهُ اللهُ».

ثم قال: «وإذا عَرَفتَ أنَّ الذَّبحَ عندَ المريضِ على هذا الوَصْفِ الذي ذَكَرنَا من الشركِ المُحرَّمِ، فاعْلَمْ أنَّ مِن الناسِ مَن يَذبَحُ عندَ المريضِ لغيرِ مَقصِدٍ شركيٍّ، وإنَّما يَقصِدُ بالذَّبحِ التقرُّبَ إلى اللهِ بالذبيحةِ والصَّدقةِ بلَحْمِهَا، ولا يَخفَى أنَّ قاعدةَ سَدِّ الذرائعِ المفضيةِ إلى الشركِ تقتضي المنعَ مِن فِعْلِ ذلكَ والنهيَ عنهُ؛ لأنَّ ذلكَ ذريعةٌ لفعلِ الشركِ».

وفي سؤال وُجِّه إلى «**اللجنة الدائمة للإفتاء**» ٢٤/ ٤٤١ عن حُكم مداواةِ المريضِ بالذَّبحِ لهُ، هل يُشرَعُ ذلكَ أو لا؟ فأجابت: «لا حَرَج في الصدقةِ عن المريضِ تقرُّبًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ورجاءَ أنْ يَشفِيهُ اللهُ بذلكَ؛ لعمومِ الأدلةِ الدالةِ على فضلِ الصدقةِ، وأنَّها تُطفئُ الخطيئةَ، وتَدفعُ مِيتَةَ السُّوءِ».

فائدة: مراتب الصَّدقة ثلاث:

١ - أنْ تكونَ خالصةً لوجهِ اللهِ. وهذا من كمالِ التوحيدِ والإخلاصِ، وهي أعلى مراتبِ الصدقةِ، ومن ثمراتِهَا دَفْعُ البلاءِ.

٢ - أنْ تكونَ خالصةً لوجهِ اللهِ ولدفعِ البلاءِ، وهذه جائزةٌ، لكنَّها تُنقِصُ كمالَ التوحيدِ والإخلاصِ.

٣ - أنْ تكونَ الصَّدقةُ لدفعِ البلاءِ فقط، أو لحفظِ المالِ أو النَّفْسِ، فهذه ليس لهُ عليها جزاءٌ في الأخرةِ، وهي مِن إرادة الإنسانِ بعملِهِ الصالح الدُّنيا.

مسألة أخرى: حكمُ الأكلِ ممَّا ذُبِحَ لغيرِ اللهِ:

جاء في «الدُّرَر السَّنية» ٢/ ٤٧ ما نصُّه: «وصرَّح الشيخُ تقيُ الدِّينِ في "اقتضاء الصراط المستقيم" بأنَّ مَن ذَبَح للجِنِّ، فالذبيحةُ حرامٌ من جهتين:

= من جهة أنَّها ممَّا أُهِلَ لغيرِ اللهِ بِه.

= ومن جهةِ أنَّها ذبيحةُ مُرتَدٍّ.

فهي كخنزيرٍ مات من غيرِ ذَكَاةٍ؛ ويقول: ولو سَمَّى اللهَ عندَ ذَبحِهَا إذا كانت نِيَّتُه ذَبْحَهَا للجِنِّ، وَرَدَّ على مَن قال: إنَّه إنْ ذَكَر اسمَ اللهِ حَلَّ الأكلُ منها مع التحريمِ».

وجاء في «فتاوى اللجنة الدائمة» ١/ ١٣٥: «ما ذُبِحَ في مولدِ نبيٍّ أو وَلِيٍّ تعظيمًا لهُ؛ فهذا ممَّا ذُبِحَ لغيرِ اللهِ، وذلكَ شِركٌ، فلا يَجوزُ الأكلُ منهُ».

قال المؤلِّف:

ودليل النَّذْر: قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

الشرح

استدلَّ المؤلِّفُ بهذهِ الآيةِ على أنَّ النَّذرَ عبادةٌ.

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى أثنَى على المُوفِينَ بِه، وجَعَلَهُ من الأسبابِ التي بِهَا يَدخُلُونَ الجنَّةَ، وقَرَنَهُ بعباداتٍ عظيمةٍ، وهي الخوفُ منهُ سبحانهُ، والإنفاقُ على المسكينِ واليتيمِ والأسيرِ، وكُلُّ ذلكَ طاعاتٌ للهِ تعالى، فدلَّ على أنَّه عبادةٌ، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

ومن الأدلة أيضًا على أنَّ النذرَ عبادةٌ:

١ - قولُه تعالى: **﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾** [البقرة: ٢٧٠].

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى أخبَر عن عِلْمِه بالنذرِ، وهذا دليلٌ على مجازاتِهِم، فدلَّ على أنَّه محبوبٌ عندَه، وما كان كذلكَ فهو عبادةٌ، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

وتعليقُ الشيءِ بعلمِ اللهِ دليلٌ على أنَّه مَحَلُّ جَزَاءٍ، يقول الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: «يُخبِرُ تعالى بأنَّه عالِمٌ بجميعِ ما يَعمَلُهُ العاملونَ من الخيراتِ من النفقاتِ والمنذوراتِ، وتَضَمَّن ذلكَ مجازاتُه على ذلكَ أوفرَ الجزاءِ، للعاملينَ بهِ ابتغاءَ وجهِهِ».

وفي هذهِ الآيةِ وعدٌ ووعيدٌ: أمَّا الوعدُ: فللمُوفِينَ بالنذر، وَعَدَهُم بأنْ يُثيبَهُم على أعمالِهِم، وأمَّا الوعيدُ: فلمَن قصَّر ولم يُخلِصْ، وبَخِلَ ولم يُوفِ، قال الطبري في «تفسيره»: «﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾؛ أي: جميعُ ذلكَ بعلمِ اللهِ، لا يَعزُبُ عنهُ منهُ شيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ منهُ قليلٌ ولا كثيرٌ، ولكنَّه يُحصِيهُ أيَّها الناسُ عليكُم، حتى يُجازِيَكُم جميعَكُم على جميعِ ذلكَ، فمَن كانت نفقتُهُ منكم وصَدَقَتُهُ ونَذرُهُ ابتغاءَ مرضاة الله وتثبيتًا من نفسه، جازَاهُ بالذي وَعَدَهُ من التضعيفِ، ومَن كانت نفقتُهُ وصَدَقَتُهُ رئاءَ الناسِ ونُذُورُهُ للشيطانِ، جازَاهُ بالذي أَوعَدَهُ من العقابِ وأليمِ العذابِ.

ثم أَوعَدَ جَلَّ ثناؤه مَن كانتْ نفقتُهُ رياءً ونُذُورُهُ طاعةً للشيطان، فقال: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾؛ يعني: وما لِمَن أَنفَقَ مالَهُ رئاءَ الناسِ وفي معصيةِ اللهِ، وكانت نُذُورُهُ للشيطانِ وفي طاعتِهِ= من أنصارٍ، يعني: مَن يَنصُرُهُم مِن اللهِ يومَ القيامةِ، فيَدفَع عنهم عقابَهُ.

وإنَّما سمَّى اللهُ المُنفِقَ رياءَ الناسِ والناذرَ في غيرِ طاعتِهِ ظالمًا؛ لِوَضْعِه إنفاقَ مالِه في غيرِ موضعِه، ونذرِه مالَه في غيرِ موضعِه، فكان ذلكَ ظُلْمَهُ.

٢ - قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾ [الحج: ٢٩].

وجه الدلالة من الآية: أنَّ اللهَ تعالى أَمَر بالوفاءِ بالنذرِ، والأمرُ بوفائِه يدلُّ على أنَّه عبادةٌ؛ لأنَّ العبادةَ ما أُمِرَ به شرعًا، فيكونُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

ويَتعلَّق بالنَّذر عدَّة مسائل:

المسألة الأولى: معنى النَّذر:

النَّذر لغةً: هو الإيجابُ على النَّفْسِ، يقال: نَذَرَ مالَهُ للهِ، ونَذَرَ على نفسِه أنْ يَفعَلَ كذا. «المعجم الوسيط» ٢/ ٩١٢.

وفي الشرع: إلزامُ مُكلَّفٍ مختَارٍ نفسَهُ للهِ تعالى بالقولِ شيئًا غيرَ لازمٍ بأصلِ الشرعِ، بقوله: (عليَّ للهِ) أو: (نَذَرتُ للهِ)، ونحوِهِ كـ: (للهِ عليَّ كذا)، ونحوِهِ ممَّا يُؤدِّي معناهُ. «كشاف القناع عن الإقناع» ١٤/ ٤٧٥.

المسألة الثالثة: أقسام النَّذر:

يَنقسمُ النَّذر إلى قسمين[(١)]:

القسم الأول: النَّذر التَّعبُّدي:

وهو نوعان:

النوع الأول: النَّذْر المطلق (نَذْر التَّبرُّر والطاعة):

وهو أنْ يُوجِبَ على نفسِه عبادةً للهِ تعالى دونَ مقابلٍ، كأنْ يقولَ: للهِ عليَّ نَذْرٌ أنْ أُصلِّيَ الليلةَ عشرَ ركعاتٍ.

وهذا النوعُ من النذرِ محمودٌ غيرُ مكروهٍ، قال اللهُ تعالى عن مريمَ عليها السلام: ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا**﴾ [مريم: ٢٦][(٢)]، وقالت امرأةُ عمرانَ عليها السلام: ﴿**رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ [آل عمران: ٣٥][(٣)].

النوع الثاني: النَّذْر المقيَّد (نَذْر المجازاة):

وهو ما كان عن مُقابِلٍ، كأنْ يقولَ: إنْ شَفَى اللهُ مريضي، صُمْتُ يومًا، إنْ نَجَحتُ في الاختبار صلَّيتُ ركعتين.

وهذا النذرُ مكروهٌ، وغالبُ ما يَقَعُ من النذرِ هو من هذا البابِ.

---

(١) هناك أنواع أخرى للنذر مذكورة في كتب الفقه، ليس مجالها هنا.

(٢) أي: أَوجَبتُ على نفسي للهِ صَمْتًا ألَّا أُكلِّمَ أحدًا من بني آدمَ اليومَ.

(٣) أي: جَعَلتُ لكَ نَذرًا أنَّ لكَ الذي في بَطنِي عَتِيقًا خالصًا من شواغلِ الدُّنيا لخدمةِ بيتك المُقدَّسِ.

وهذا النوعُ من النذرِ يَجبُ أيضًا الوفاء به؛ لدخولِه في عمومِ قولِه ﷺ: «**مَن نَذَرَ أنْ يُطِيعَ اللهَ فَليُطِعْهُ**»، لكنْ يكرهُ الدخولُ فيهِ ابتداءً؛ لما يلي:

١ - قولُه ﷺ: «**إنَّ النَّذْرَ لا يأتِي بخيرٍ، إنَّما يُستخرَجُ بِه من البخيلِ**».

١ - قولُه ﷺ: «**إنَّ النَّذرَ لا يُقدِّمُ شيئًا ولا يُؤخِّرُ، وإنَّما يُستخرَجُ بالنَّذرِ من البخيلِ**».

٢ - قولُه ﷺ: «**لا تَنذِرُوا، فإنَّ النَّذرَ لا يُغنِي من القَدَرِ شيئًا**».

٣ - قولُه ﷺ: «**قال اللهُ عزَّ وجلَّ: لا يَأتِ ابنَ آدَمَ النَّذرُ بشيءٍ لم يَكُن قد قَدَّرْتُه، ولكنْ يُلقِيهِ القَدَرُ، وقد قَدَّرْتُه لهُ، أَستَخرِجُ بِه من البخيلِ**».

٤ - أنَّ هذا النَّذرَ قد يُصاحِبُهُ اعتقادُ أنَّ النذرَ سببٌ لجَلْبِ الخيرِ أو دَفْعِ الضُّرِّ، وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّه لا يَرُدُّ شيئًا، وأنَّه لا يأتِي بخيرٍ، وأنَّه لا يُقدِّمُ شيئًا ولا يُؤخِّر.

٥ - أنَّ هذا النَّذرَ فيه شَوْبٌ من سُوءِ الظَّنِّ باللهِ تعالى؛ لأنَّ هذا الناذرَ هو في حقيقةِ الأمرِ اعتَقَدَ أنَّ اللهَ تعالى لا يُعطيهِ ما يَرجُوهُ إلَّا إذا تَطَوَّعَ لهُ سبحانَهُ، مع أنَّ شأنَ اللهِ أعظمُ من ذلكَ، فاللهُ أكرمُ الأكرمينَ يَتَفَضَّلُ على عبادِه ابتداءً، ولا يُعلِّقُ فَضلَهُ على أنْ يَعِدَ العبدُ ربَّهُ أنْ يَفعَلَ لهُ كذا وكذا.

٦ - أنَّ في هذا النَّذر شَوْبًا من سُوءِ الأدبِ مع اللهِ تعالى؛ لأنَّ لسانَ حالِه يقولُ: لنْ أُطِيعَ حتى تُعطِيَنِي يا اللهُ كذا وكذا، ولا شكَّ أنَّ هذا غيرُ لائقٍ في حقِّ اللهِ سبحانَه، والمؤمنُ لا يَعبُدُ اللهَ بالمقايضةِ.

تنبيه: إذا تعذَّر على الناذرِ الوفاءُ بالنذرِ؛ فإنَّه يُكفِّرُ كفَّارةَ يمينٍ؛ لعمومِ قولِه ﷺ: «**كفَّارةُ النَّذرِ كفَّارةُ اليمينِ**»[1].

فإن قيل: كيف يكون نذرُ المجازاةِ مكروهًا ويكونُ عبادةً، والعبادةُ لا تكونُ إلَّا بفعلِ واجبٍ أو مستحبٍّ؟

فيقال: هو عبادةٌ من جهةِ وجوبِ الوفاءِ بهِ؛ أي: أنَّ الكراهةَ لِوَصْفِه لا

(١) أخرجه مسلم (١٦٤٥)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

لأصلِه. انظر: «الشرك في القديم والحديث» ٢/ ١١٣٨.

وذهب بعضُ العلماءِ إلى كراهةِ عَقدُ النذرِ مطلقًا؛ لِمَا فيه من إحراجِ الإنسانِ لنفسِه، وتحميلِهَا شيئًا قد يَشُقُّ عليها، وكان قبلَ أنْ يَنذِرَ في سَعَةٍ من أمرِه؛ إنْ شاء فَعَل هذهِ الطاعةَ المستحبَّةَ، وإنْ شاء لم يَفعَلهَا، فلمَّا نَذَر فِعلَهَا لَزِمَتهُ. انظر: «جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة» ص/ ٣٥١ – ٣٥٦.

القسم الثاني: النَّذر الشِّركي:

وله ثلاث صور:

١ – أنْ يقولَ: (عليَّ نَذرُ كذا للوليِّ الفلانيِّ).

٢ – أنْ يقولَ: (إنْ شَفَى اللهُ مريضي؛ فللوليِّ الفلانيِّ نَذْرُ كذا وكذا).

وهاتانِ الصُّورتانِ شركٌ أكبرُ، وهو شركٌ في الألوهيةِ؛ لأنَّ فيهِ صَرْفَ عبادةٍ لغيرِ اللهِ تعالى.

٣ – أنْ يقولَ للوليِّ مخاطِبًا له: (إنْ رَزَقتَنِي بوَلَدٍ، فلَكَ عليَّ كذا وكذا)، وهذا شركٌ في الربوبيةِ والألوهيةِ، أمَّا كونُه شِركًا في الربوبيةِ؛ فلأنَّه سأل الوَلِيَّ ما لا يَقدِرُ عليهِ إلا اللهُ، وهو رِزْقُ الأولادِ، وأمَّا كونُه شِركًا في الألوهيةِ؛ فلأنَّه تَقرَّب لغيرِ اللهِ بعبادةٍ لا يجوزُ صَرفُها لغيرِ اللهِ[1].

---

(١) وإليكَ شيئًا من أقوال العلماء في هذا النَّذر الشِّركي:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السُّنة النبوية» ٢/ ٤٤٠: «مَن نَذَر لغيرِ اللهِ فهو مشركٌ، كمَن صام لغيرِ اللهِ، وسجد لغيرِ اللهِ».

وقال في «مجموع الفتاوى» ٣٣/ ١٢٣: «فمن نَذَر لغيرِ اللهِ فهو مشركٌ أعظمُ من شِرْكِ الحَلِفِ بغيرِ اللهِ».

وقال أيضًا ١١/ ٥٠٤: «وأمَّا النذرُ للموتى من الأنبياءِ والمشايخِ وغيرِهِم، أو لقبورِهِم، أو المقيمينَ عند قبورِهِم، فهو نَذْرُ شركٍ، ومعصيةٌ للهِ تعالى، سواءٌ كان النذرُ نفقة، أو ذهبًا، أو غيرَ ذلكَ، وهو شبيهٌ بمَن يَنذُرُ للكنائسِ، والرُّهبانِ، وبيوتِ الأصنامِ».

وقال في «نظرية العقد» ١/ ١٠٦ – ١٠٧؛ ط دار الإمام أحمد: «ولهذا لو نَذَرَ لكنيسةٍ، أو قبرٍ، أو وَثَنٍ، لم يكُن عليهِ الوفاءُ بذلكَ، بل ولا يجوزُ الوفاءُ به، فإنَّ هذا نذرُ معصيةٍ، وقد قال النبيُّ ﷺ: **(مَن نَذَرَ أن يُطيعَ اللهَ فليُطِعهُ، ومَن نَذَر أنْ يَعصِيَ اللهَ؛ فلا يَعصِهِ)**، مثلُ مَن يَنذِرُ زيتًا، أو شمعًا، أو ستورًا لبعضِ القبورِ، أو يَنذُرَ لشيخٍ ميتٍ، فيقولُ: عليَّ نَذْرٌ للشيخِ فلانٍ، فإنَّ هذا من جنسِ النَّذرِ لِمَا يُعبَدُ من دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كما لو نَذَرَ للمسيحِ أو العُزيرِ أو غيرِ ذلكَ، وهذا شركٌ، وإذا لم يكن لهُ أنْ يَحلِفَ بغيرِ اللهِ، فكيف يجوزُ لهُ أن يَنذِرَ لغيرِ اللهِ، والنذرُ أبلغُ من اليمينِ، فإنَّ الناذرَ قَصْدُه التَّقرُّبَ إلى المنذورِ لهُ، رجاءَ نفعِه، وخوفَ ضُرِّهِ، وذلك أبلغُ في التعظيمِ من الحلفِ بِهِ».

وقال أيضًا ص/ ١١١: «فمَن يُعظِّمُ كنيسةً، أو وَثَنًا، أو شجرةً، أو جَبَلًا، أو مَغَارةً، أو قبرًا مضافًا إلى نبيٍّ أو غير نبيٍّ، –سواءٌ كان صدقًا أو كذبًا–، إذا نَذَرَ لذلك المكانِ، أو لسُكَّانِ ذلكَ المكانِ، أو للمضافينَ إلى ذلك المكانِ؛ فهو من الشركِ الذي لا يجوزُ فعلُهُ، ولا الوفاءُ بِه».

وقال أيضًا ص/ ١١٢: «وإذا نَذَرَ لشخصٍ حيٍّ، فإنْ كان على سبيلِ الشركِ بِهِ، مثلَ أن يَعتَقِدَ أنَّ نذرَهُ لهُ يُحصِّلُ بِهِ حاجتَهُ؛ إما لبركتِهِ، وإما لغيرِ ذلكَ؛ فهذا شركٌ، وإنْ نَذَرَ للهِ، وجَعَلَ مَصرِفَهُ للهِ، ويُعطي الفقراءَ والمساكينَ من مالِ اللهِ، كما يُعانُ المجاهدونَ والعابدونَ من مالِ اللهِ؛ فهذا نَذْرٌ للهِ، فمَن نَذَرَ أن يُعينَ أهلَ العلمِ والعبادةِ والجهادِ على طاعتِهِم للهِ؛ فهذا نَذْرُ طاعةٍ، ومَن نَذَرَ إشراكًا به؛ كما يُحلَفُ بأحدِهِم، وكما يَدعُوهُ، ويَستغيثُ بِهِ في ظَهرِ الغيبِ، فيقولُ: يا سيِّدي فلان! أغثني؛ فهذا شركٌ».

وقال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» ١/ ٢١٢؛ ط دار المعرفة: «فما أسرعَ أهلَ الشركِ إلى اتِّخاذِ الأوثانِ من دونِ اللهِ ولو كانت ما كانت، ويقولونَ: إنَّ هذا الحَجَرَ، وهذه الشجرةَ، وهذه العينَ تَقبَلُ النذرَ، أي: تَقبَلُ العبادةَ من دونِ اللهِ تعالى، فإنَّ النذرَ عبادةٌ وقربةٌ يَتقرَّب بها الناذرُ إلى المنذورِ لهُ».

وقال الأذرعي الشافعي في «قوت المحتاج شرح المنهاج»، كما في «فتح المجيد» ١/ ٣٨٩ – ٣٩٠؛ تحقيق أسامة عطايا: «وأمَّا النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم مَن حلَّها من الأولياء، أو تردَّد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين، فإنْ قَصَد الناذر بذلك –وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة– تعظيم

البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم مَن دُفن بها، أو نُسبت إليه، أو بُنيت على اسمه؛ فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يُدفع بها البلاء، ويُستجلب بها النعماء، ويُستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم يَنذُرُون لبعض الأحجار لما قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السُّرُج والشموع والزيت، ويقولون: القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب، وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقا، ومن ذلك: نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء؛ فإنَّ الناذرَ لا يقصد بذلكَ الإيقادَ على القبر إلَّا تَبَرُّكًا وتعظيمًا، ظانًّا أن ذلك قُربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم، سواء انتَفَع به هناك منتفعٌ أم لا؟».

وقال الشيخ قاسم الحنفي في «شرح دُرَر البحار»، كما في «فتح المجيد» ١/ ٣٨٩ – ٣٩٠؛ تحقيق أسامة عطايا: «النذر الذي يَنذِرُهُ أكثر العوام على ما هو مُشاهَد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي إلى بعض الصلحاء، ويجعل على رأسه سُترة، ويقول: يا سيدي فلان، إن رد الله غائبي، أو عوفي مريضي، أو قضيت حاجتي؛ فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع، لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر لمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق. ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لا يملك شيئًا.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرَّف في الأمور دون الله عزَّ وجلَّ، واعتقاد ذلك كفر ... إلى أن قال: إذا عَلِمتَ هذا؛ فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ويُنقل إلى ضرائح الأولياء تقرُّبًا إليهم؛ فحرام بإجماع المسلمين. نقله عنه ابن نُجيم في "البحر الرائق" [٢/ ٣٢٠ – ٣٢١]، ونَقَله المرشِدي في "تذكرته"، وغيرهما عنه، وزاد: وقد ابتُلي الناس بهذا، لا سيما في مولد البدوي».

وقال صنع الله الحنفي في كتابه «سيف الله على من كذب على أولياء الله» ص/ ٤٧٩: في الرد على مَن أجاز النذر والذبح للأولياء: «فهذا الذبح والنذر إنْ كان على اسمِ

فلانٍ، فهو لغير الله، فيكون باطلًا، وفي التنزيل: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالمينَ لا شَرِيكَ لَهُ﴾، والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغيره».

وقال الصنعاني في «تطهير الاعتقاد» ص/ ٣٣ مُبيِّنًا حكم هذه النذور والنَّحائر: «فإن قلت: هذه النذور والنحائر ما حكمها؟ قلت: قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها يسعون في جمعها لو بارتكاب كل معصية، ويقطعون الفيافي من أدنى الأرض والقاصي، فلا يبذل أحد من ماله شيئًا إلا لجلب نفعٍ أكثرَ منه أو دفع ضرر، فالناذر للقبر ما أخرج ماله إلا لذلك، وهذا اعتقاد باطل، ولو عرف الناذر بطلان ما أراده ما أخرج درهمًا».

وقال الشوكاني في «أدب الطلب» ص/ ٢٠٣؛ ط مكتبة الساعي: «ومن جملة هذه الوصايا الطاغوتية والنذور الشيطانية: ما يفعله كثير من الناس من النذور والوصايا على قبور الأموات، فإنه لا مقصد لهم بذلك إلا استجلاب الخير واستدفاع الشر من صاحب القبر، الذي يعجز عن نفع نفسه، فضلًا عن نفع غيره، فلا يصح شيء من ذلك، بل يتوجب تعريف الناس بقبح ما يصنعونه من ذلك، وأنه من الأمور التي لا يحل اعتقادها، وأن الضر والنفع واستجلاب الخير واستدفاع الشر بيد الله عزَّ وجلَّ، وليس لغيره فيه حكم، ولا له عليه اقتدار».

وقال في «الدُّر النَّضيد في إخلاص كلمة التوحيد» ص/ ٢٠ - ٢١: «وكذلك النحر للأموات عبادة لهم، والنذر لهم بجزء من المال عبادة لهم، والتعظيم عبادة لهم، كما أن النحر للنسك وإخراج صدقة المال والخضوع والاستكانة عبادة لله عزَّ وجلَّ بلا خلاف، ومَن زعم أن ثمة فرق بين الأمرين فليُهده إلينا، ومَن قال: إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم والنذر لهم عبادتَهم، فقل له: فلأي مقتضى صنعتَ هذا الصنع؟ فإن دعاءك للميت عند نزول أمر بك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبَّر عنه لسانك، فإن كنت تهذي بذكر الأموات عند عرض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم، فأنت مصاب بعقلك، وهكذا إن كنت تنحر لله، وتنذر لله، فلأي معنى جعلت ذلك للميت وحملتَهُ إلى قبره، فإن الفقراء على ظهر البسيطة في كل بقعة من بقاع الأرض، وفِعلك وأنت عاقل لا يكون إلا لمقصد قد قصدته، أو أمر قد أردته».

والنذرُ الشِّركيُّ واقعٌ في هذهِ الأمَّةِ بكثرةٍ، حتى إنَّه يُوجَدُ عندَ القبورِ والأضرحةِ صناديقُ خاصَّةٌ للنذورِ(١).

ويُوضِّح صاحب كتاب «التوضيح عند توحيد الخلاق» ص/ ٣٨٢ – ٣٨٣ وجه كون النذر لغير الله تعالى شركًا، فيقول: «لأن الناذر لم يَنذِرْ هذا النذر الذي لغير الله إلا لاعتقاده في المنذور له أنه يضر وينفع، ويُعطي ويمنع، إما بطبعه، وإما بقوة السببية فيه، ويجلب الخير والبركة، ويدفع الشر والعسرة، والدليل على اعتقاد هؤلاء الناذرين وشركهم: حَكْيهم وقولهم أنهم قد وقعوا في شدائد عظيمة، فنَذَروا نذرًا لفلان وفلان ... فانكشفت شدائدُهم، واستراحت خواطرُهم، فقد قام بنفوسهم أن هذه النذور هي السبب في حصول مطلوبهم ودفع مرهوبهم، ومَن تأمل القرآن وسُنَّة المبعوث به ﷺ، ونظر أحوال السَّلَف الصالح؛ عَلِمَ أن هذا النذر نظيرُ ما جَعَلَته المشركون لآلهتهم في قوله تعالى: ﴿هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾».

وقال الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦ هـ) في المسألة الثانية من مسائل هذا الباب: «إذا ثَبَت كونُه عبادةً للهِ، فصَرْفُهُ إلى غيرِهِ شركٌ».

وجاء في «فتاوى اللجنة الدائمة» برئاسة شيخنا الإمام عبد العزيز ابن باز: «مَن اعتَقَد من المكلَّفينَ المسلمينَ جوازَ النذرِ والذبحِ للمقبورينَ؛ فاعتقادُهُ هذا شركٌ أكبرُ مُخرِجٌ من المِلَّة، يُستتابُ صاحبُهُ ثلاثةَ أيامٍ، ويُضيَّقُ عليهِ، فإنْ تاب وإلَّا قُتِلَ».

(١) وهذا تقرير من الواقع عن حال صناديق النذور:

نشرت جريدة المصريين في عددها الصادر بتاريخ ٢٢/ ٣/ ٢٠١٢ هذا التقرير بعنوان: (صناديق النذور حصيلة الصناديق تصل إلى أكثر من نصف مليار جنيه سنويًا، و٩٠/ ٠ من النذور يدخل خزانة الأوقاف)، كتب محمد لطفي قائلًا:

خليفة السيد البدوي يقول: مَن على الحصان يجمع في ليلة واحدة ٣٠٠ ألف جنيه!

ثم قال: فما معنى أن يوجد صندوقٌ ضخمٌ، يَحجُّ إليه العامةُ، وأنصافُ المتعلِّمين، ويضعون تحويشة عُمرهم بداخله؛ ظنًّا منهم أن هذه الأموالَ ستذهب لصاحبِ الضريحِ الموجود الصندوق إلى جواره! وأنه صاحبُ كراماتٍ، وسوف يقضي له حاجتَه أيًّا كانت، وسيرزقه بالولد، وسينجِّح ابنَه في الامتحان، وسيَشفيه من المرض، وسيزيد من رزقه ...، وهكذا، وكلها دروب من الشرك الأكبر، تَتِمُّ على مرأًى ومسمعٍ

من علماء الدين.

ثم قال: ما هي حقيقة هذه صناديق النذور؟ ومَن هم القائمون عليها؟ وفِيمَ يُصرَفُ عائدُها؟ هل هي فعلًا لله أم أن مال الله يُنهبُ على الأرض؟ وما هو سِرُّ الصراع بين العاملين في وزارة الأوقاف للعمل بالمساجد التي بها صناديق النذور؟ كل هذا ستعرفه -عزيزي القارئ- من خلال هذا التحقيق.

ثم قال: بداية لا بدَّ أن نعرفَ أن معظمَ المساجدِ التي بها صناديقُ النذورِ تَتبَعُ وزارةَ الأوقاف، وأن هناك حوالي ٤٠٠٠ ضريح في مصر، وأغلبها غير مسجَّل بالوزارة، وأوضحت دراسة حديثة أن هناك حوالي ٣٠٠ ألف شخص يعملون في الدَّجَل والشعوذة، من خلال هذه الأضرحة التي يُقام عليها الموالد.

ووفقًا للقرار رقم ٥٢ لسنة ١٩٩٨ تُفتح صناديق النذور التابعة لوزارة الأوقاف كل أسبوع أو شهر أو سنة حسب المسجد عن طريق مديريات الأوقاف، ويتم توزيعها على المشايخ، ومقيمي الشعائر، والعُمَّال، ووفقًا للقرار:

١ - يتم مَنْحُ شيخ المسجد أو الإمام حصة ونصف الحصة بما لا يزيد عن ٣٠٠ جنيه.

٢ - وأمين المكتبة وكاتب النذور ومقيم الشعائر ورئيس العمال حصة واحدة حوالي ١٠٠ جنيه.

مع صرف نصف حصة لقارئ السورة والحِرَفيين بما يعادل ٨٠ جنيه.

ووفقًا للقرار نفسه، يَحصل شيخ مشايخ الطرق الصوفية على ١٥٠ ألف جنيه، سواء كل أسبوع، أو شهر، أو سنة، حسب فتح الصندوق.

ويكون في لجنة فتح الصندوق مندوب من وزارة الداخلية، ويحصل أيضًا على نسبة.

وفي دراسة أجرتها وزارة الأوقاف أوضحت أن دخل مساجد آل البيت من الصناديق يبلغ حوالي ٢٠ مليون جنيه شهريًّا، وأحيانًا يصل إلى ٣٠ مليون جنيه.

ودَخْل المساجد التي بها أضرحة وغير مسجَّلة بالوزارة يصل إلى ملياري جنيه سنويًا.

ويُقسَّم هذا العائد على خمس جهات، وهي:

١ – الأوقاف.

٢ – الأزهر.

٣ - وزارة التنمية المحلية.

٤ – وزارة الثقافة.

٥ – وزارة الداخلية.

إضافة إلى جهة غير حكومية وهي (المجلس الأعلى للطرق الصوفية)، حيث يحصل على ١٠٪ من هذه الأموال.

أما عن المسجد الأحمدي بطنطا، فيحصل خليفة المسجد على نسبة ٣٪ من حصيلة النذور، بما لا يزيد عن ٢٠ ألف جنيه.

أما حامل مِفتاح مقصورة الضريح، فيحصل على ٢٪، وبحد أقصى ١٠ ألاف جنيه.

ثم استطرد قائلًا: ويقول الشيخ أحمد خليل الأمين العام لمشيخة الطرق الصوفية: إن حصيلة صناديق النذور يذهب ٩٠٪ منها لوزارة الأوقاف، و١٠٪ لمشيخة الطرق الصوفية، وأرى أن ١٠٪ هي حصيلة قليلة جدًّا في السيدة نفيسة والسيدة زينب وغيرهما من المساجد.

وأضاف أن الطرق الصوفية ٧٣ طريقة، ولها أنشطة يتم الصرف عليها، ومن ضمن الأنشطة صيانة الأضرحة والموالد؛ ولذلك لو نظرت إلى الـ ١٠٪ من حصيلة النذور، فهي لا تمثِّل شيئًا يُذكر ممَّا يُصرَف على النشاط الصوفي، على أن الطرق الصوفية لها الحق في زيادة هذه النسبة، ولكن ليس على حساب وزارة الأوقاف.

وعن وزارة الأوقاف ونصيبها من هذه الصناديق، أوضح أحمد خليل أن هذه الحصة تُصرَف على شراء السجاد لفرش المساجد، وأيضًا على الدعوة الإسلامية والإنفاق على المساجد الحكومية التابعة للوزارة، وكذلك تقوم الوزارة بتخصيص مبلغ مالي لكل نائب في البرلمان، يقدَّر سنويًّا من ٥ إلى ١٠ آلاف جنيه للصَرْف على المساجد التي بدائرة النائب.

وأكد الشيخ إبراهيم رضا أن إمام المسجد الأحمدي بطنطا يستأثر بنصيب الأسد من أموال النذور، فخلال المولد السنوي للسيد البدوي، وعندما يركب خليفة البدوي على الحِصان، ويسير في الزفَّة، يجمع في هذا اليوم وحدَه ما لا يقل عن ٣٠٠ ألف جنيه في ليلة واحدة.

وقال: إنَّه تَدخَّل لدى وزير الأوقاف السابق محمود زقزوق؛ لكي لا يستأثر خليفة الأحمدي بهذه الأموال، وكان ردُّ فعل الخليفة أن قال: هذا حصاني ولْيركبْ عليه

زقزوق ولْنَرَ ماذا سيحصد من الأموال؟!

وأكد أن المساجد التي بها هذه الصناديق يتم تأجير البلطجية لحراستها، كما في (الحسين)، على كل باب هناك بلطجية لحفظ الأمن!

وأكد أحمد ياسين أن هناك بعض الأئمة، يقومون بدفع مبالغ مالية، ويُحضرون الوسائط؛ لكي يكونوا أئمة في المساجد التي بها أولياء، حتى يحصلوا على أموال النذور.

وقفة عند مسجد الحسين:

ثم استطر الكاتب قائلًا: وفي جولة على بعض مساجد الأولياء والتي بها صناديق نُذُور ذهبنا إلى مسجد (الحسين): فرأينا أمامَ الضريح الأهالِيَ يتمسَّحون بالسُّور الحديدي، وكذلك رَمْيَ الأموال على اختلاف فئاتها باتجاه الضريح؛ تقرُّبًا للولي.

والغريب أن هناك مَن يظن أنه بقدر ما يَرمي في الصندوق، تكون الاستجابة لمطلبه، ويتم هذا على مرأى ومسمع من علماء الأزهر.

ثم قال: سألنا أحدَ الموجودين أمام المقام، ويُدعَى محمود رجب عن وجوده أمام الضريح وتبرُّعه لصندوق النذور، فقال: ده بركه! وبيجلب الرزق والخير! وكَمَان الدعاء هناك مقبول! ويا ريت بإيدي حاجة أكثر كنت رميتها بين يدي سيدي الحسين!

ثم قال: خادم الحسين حَلَف لنا بأغلظ الأيمان بأن الحسين قام من مقامه، وأجرى عملية بواسير لشخص مدَّ يديه، وطاب في الحال!!

كما حَكى لنا عن شخص جاء إلى الحسين، وكان يعاني السُّكَّر، وكان لا بدَّ له من حُقَن (أنسولين)، ورمَى همومَه على الحسين، وجلس أسبوعًا بدون حُقَن، ولم يَحدُث له أي شيء، بل إنه تَمَّ علاجُه وشفاؤه تمامًا من السُّكَّر.

مسجد السيدة رُقية:

قال: وعند مسجد السيدة رُقية أكَّد لنا بعض الأهالي أن خادم المسجد ادَّعى أنه رأى السيدة رُقية بنت علي في هذا المكان في المنام، فأقام ضريحًا، وأنشأ هذا المسجد، وأصبح هو بعد ذلك خادمًا له، وجَلَب لنفسه الثَّراء الفاحش من عائد صناديق النذور.

مسجد أبو الغيط بالقليوبية:

وهناك أيضًا مولد (سيدي أبو الغيط) بالقليوبية، والذي حَكى لنا العديدُ من الأهالي

أن منطقة (أبو الغيط) اشتهرت بالمخدِّرات بسبب هذا المولد، حيث إنه كان يتم عقد أكبر صفقات المخدِّرات أثناء المولد، وكان أكبرَ المتبرِّعين في صندوق نذور أبو الغيط هم تجار المخدِّرات أنفسهم.

مسجد السيدة عائشة:

وفي السيدة عائشة، حَدِّثْ ولا حرج، حيث يوجد الأهالي بداخل المسجد، وكأنهم في رحلة، فنجد جميع أنواع المأكولات والمُسلِّيات، وتجد مَن جاء مِن السفر، ومَن يتبرع بكل ما يملك، هذا إلى جانب مَن يحضر معه من بلدته في الأرياف الماعز والبط والأُوزّ والدجاج، ويهديها لصاحبة الضريح، وبالطبع الذي يأخذها هو خادم الضريح، وتذهب إلى أين؟ الله أعلم.

والتقينا هناك بأحد الصوفيين، رفض ذِكر اسمه، وأكَّد لنا كيف كان شيخُ طريقته يَرجع مُحمَّلًا بالأموال بعد إحياء حفلات المولد النبوي في بلدان عربية مثل ليبيا.

وقال: إنه يمتلك أسطولًا من السيارات الفارهة وعقارات، وهو ما دعا كثيرين للانشقاق عنه إلى جبهة تحمل نفس اسم الطريقة.

ثم قال: وتوضح الدراسة أن أموال نذور (الحسين) فقط تبلغ حوالي ٨ ملايين جنيه سنويًّا، وأن الأضرحة تتفاوت في حصيلة النذور، فمنها ما يجلب ١٥ مليونًا، ومنها ١٠ مليونًا، ومنها ٣ ملايين جنيه!

ثم قال: فلو أخذنا المتوسط، واعتبرناه خمسة ملايين جنيه في السنة، وضربنا هذا الرقم في ١٠٠ ضريح به صناديق نذور في دولة واحدة، لأصبح المجموع ٥٠٠ مليون جنيه حصيلة هذه الصناديق سنويًّا في دولة واحدة، فما بالك بالبلاد الإسلامية الأخرى؟

هذا بخلاف الأموال التي تُنفَق ببذخ على بناء القِبَاب والمساجد التي بها قبور، وعلى سبيل المثال: فمسجد (إبراهيم الدسوقي) تم ترميم سقفِه بمبلغ ٥ ملايين جنيه! هذا بخلاف الوقف المخصَّص للقباب وللسَّدَنة، والذى يُقدَّر سنويًا بالملايين.

سرقة أموال النذور:

ثم استطرد الكاتب قائلًا: كان الشيخ محمد محمود أبو حطب وكيل وزارة الأوقاف بالإسكندرية، قد كشف عن نهب ما يقرب من ٢٠ مليون من صناديق النذور

وهذا النذرُ لا يجوزُ الوفاءُ بِه؛ لأنَّه شركٌ أكبرُ، وليس فيهِ كفارةٌ، وإنَّما يكفي التوبةُ.

والمشركونَ قديمًا كانوا يَنذِرون لأصنامِهم، وكما هو الحالُ في زمانِنَا، فالصوفيةُ القُبورية يَنذِرونَ للأولياءِ والصالحينَ، ويقولونَ: إنَّ الوليَّ الفلانيَّ يَقبلُ النَّذرَ، فإذا كان عندَكَ مريضٌ أو أردتَ قضاءَ دَيْنٍ، فتَوَجَّهْ لصاحبِ القبرِ، وقُل لهُ: يا سيِّدي فلان، نَذْرٌ عليَّ لكَ، إنْ حَصَل كذا وكذا أنْ أُوقِدَ الشُّموعَ حولَ قبرِكَ، أو أَذبَحَ لكَ شاةٌ.

وربَّما جَعَلوهُ كمَا جَعَلهُ المشركونَ الأولونَ سببًا للشفاعةِ والتقريبِ إلى اللهِ، فيقول: يا سيِّدي فلان، إنْ شَفَى اللهُ مريضى، فلكَ عليَّ كذا وكذا، يُريد أن يكونَ بتقرُّبِهِ إليهِ سببًا في أنْ يَشفَعَ لهُ عندَ اللهِ، فيَقضِي اللهُ لهُ الحاجاتِ، كحالِ المشركينَ الأولينَ.

ولربَّما زاد بعضُهُم على ذلكَ، **فاعتقد أن الوليَّ هو الذي يَفعَلُ**، فيقولُ: إنْ قَضَيتَ لِي كذا، فنَذْرٌ لكَ عليَّ أنْ آتِي إلى قبرِكَ مِن مكانٍ بعيدٍ مشيًا على الأقدامِ، ومثلُ هذا الفعلِ لا يَشُكُّ مَن شَمَّ للإسلامِ رائحةً أنَّه شركٌ أكبرُ، وأنَّه صَرْفُ خالصِ حقِّ اللهِ لغيرِه.

بالمحافظة، في الفترة ما بين عامي ٢٠٠٦م إلى ٢٠٠٩م، وأوضح أن هذه الصناديق كانت تُدار بمعرفة مديرية الأوقاف بالمحافظة دون الرجوع للوزارة.

ولله درُّ شاعر النِّيل حافظ إبراهيم حيث يقول:

أَحْيَاؤُنَا لا يُرْزَقُونَ بِدِرْهَمٍ *** وبِأَلْفِ أَلْفٍ تُرْزَقُ الأَمْوَاتُ

مَن لِي بِحَظِّ النَّائِمِينَ بِحُفْرَةٍ *** قَامَتْ على أَعْتَابِهَا الصَّلَوَاتُ

يَسعَى الأَنَامُ لَهَا ويَجرِي حَوْلَهَا *** بَحْرُ النُّذُورِ وتُقْرَأُ الآيَاتُ

وَيُقَالُ هذا البَابُ بَابُ المصْطَفَى *** وَوَسِيْلَةٌ تُقضَى بِهَا الحَاجَاتُ.

انظر: «تطهير الجنان والأركان عن دَرَن الشرك والكُفران» ص/ ٨ – ٩.

فائدة: من خلالِ الكلامِ على أقسامِ النَّذرِ يَتبيَّنُ لكَ أنَّ النَّذْرَ من العباداتِ التي لا تأتي إلَّا على وجه التعبُّد.

تنبيه: قد يَحدُثُ للعبدِ مقصودُهُ من النذرِ، فيَظُنُّ أنَّ هذا لكرامةِ صاحبِ القبرِ، حتى قالوا: (قبرُ فلانٍ التِّرْياقُ المُجرَّب)! وما دَرَى هذا المسكينُ أنَّ هذا من الابتلاءِ الذي يَختَبِرُ اللهُ بِه عبادَهُ، وكم هَلَك بسببِ هذه الشُّبهةِ كثيرٌ من الخَلْقِ، وما أكثرَ القِصصَ والحكاياتِ التي يَنسُجُهَا سَدَنَةُ القبورِ حولَ هؤلاءِ الأولياءِ وما صَنَعُوهُ مع مَن استَجارَ بِهِم!

وفي هذا الصَّدد **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:** «مَن نَذَرَ إشراكًا بِه؛ كمَا يُحلَفُ بأحدِهِم، وكمَا يَدعوهُ، ويَستغيثُ بِه في ظَهْرِ الغيبِ، فيقولُ: يا سيِّدي فلان! أَغِثنِي؛ فهذا شركٌ، ولهذا تُعِينُ الشياطينُ صاحبَ هذا الشركِ، فربَّما قَضَتْ حاجةَ الناذرِ؛ لِتُغوِيَهُ بذلكَ، فإنَّ هذا يَقَعُ في مواضعِ الجاهليةِ إذا كان هناك مَن يُعظَّمُ بغيرِ حقٍّ من شيوخِ المشركينَ وأهلِ الكتابِ، ومَن يَتشبَّهُ بِهِم من المنتسبينَ إلى الإسلامِ، يكونُ بسببِ شِركِهِم وفُجُورِهِم تَتنَزَّلُ عليهمُ الشياطينُ، وتُخبِرُهُم بأمورٍ، وتأتِيهِم بأمورٍ؛ لِيُغوُوا بِهَا مَن يَتَّبِعُهُم، ويَظنُّهُ الجاهلُ منهم من كراماتِ الأولياءِ! وإنَّما هو من أحوالِ السَّحَرةِ والكُهَّان وأهلِ الكذبِ والفجورِ، الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾، وأَعرِفُ من هذا أمورًا متعدِّدةً». «نظرية العقد» ١/ ١١١ – ١١٢؛ ط دار الإمام أحمد

[الأصل الثاني: معرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ]

قال المؤلِّف:

الأصلُ الثاني: معرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ.

وهو: الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادُ له بالطاعةِ، والبراءةُ من الشرك وأهلِه.

الشرح

بعد أنْ فَرَغ المؤلِّفُ من الكلامِ على الأصلِ الأولِ، وهو معرفةُ العبدِ ربَّه، شَرَع في الكلامِ على الأصلِ الثاني، وهو معرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ.

وقوله: (معرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ) في هذه الجملة ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: معنى الدين:

الدِّينُ لغة: يطلقُ، ويرادُ به عدَّةُ معانٍ:

١ - الطاعة والانقياد.

٢ - ما يَتَديَّنُ به الإنسانُ.

قال ابن الأثير: «وفي حديثِ الحجِّ: كانت قريشُ ومَن دَانَ بدينِهم. أي: اتَّبَعهُم في دينِهم، ووافَقهم عليه، واتَّخذ دينَهم له دِينًا وعبادةً».

٣ - الجزاء والحساب. ومنه: قوله تعالى: ﴿**مالِكِ يومِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٣].

٤ - الملَّة. ومنه: قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾ [يوسف: ٧٦].

وشرعًا: هو مِلَّةُ الإسلامِ وعقيدةُ التوحيدِ التي هي دِينُ جميعِ المُرسلين من لدنِ آدمَ ونوحٍ إلى خاتمِ النبيِّينَ محمدٍ ﷺ، **قال الحافظ ابن كثير:** «هو مِلَّةُ الأنبياءِ قاطبةً، وإنْ تنوَّعَتْ شرائعُهُم، واختَلَفت مناهجُهُم، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والآيات في هذا كثيرةٌ والأحاديثُ، فمنها قوله ﷺ: (**نحنُ مَعشرَ الأنبياءِ أولادُ عَلَّات، دِينُنا واحدٌ**)»[(١)].

---

(١) «تفسير ابن كثير» ١/ ٤٤٧ [البقرة: ١٢٣].

قال الحافظ ابن حجر تعليقًا على قوله: ﷺ: «أولادُ عَلَّات»: «العَلَّات -بفتح المهملة- الضَّرائرُ، وأصلُه أنَّ مَن تزوَّج امرأةً ثم تزوَّج أخرى كأنَّه عَلَّ منها، والعَلَل الشُّربُ بعدَ الشُّربِ، وأولادُ العَلَّاتِ: الإخوةُ من الأبِ وأمهاتُهُم شتَّى ... ومعنى الحديثِ: أنَّ أصلَّ دينِهم واحدٌ وهو التوحيدُ، وإنِ اختَلَفتْ فروعُ الشرائعِ». «فتح الباري» ٦/ ٤٨٩.

المسألة الثانية: معنى الإسلام:

الإسلام لغة: هو الاستسلامُ والانقيادُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿**وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ**﴾ [النساء: ٩٠]؛ أي: الانقيادَ بالخضوعِ، وتركِ الممانعةِ.

وشرعًا: عرَّفه المؤلِّف بقولِه: هو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ، والانقيادُ له بالطاعةِ، والبراءةُ من الشرك وأهلِه.

وهذا التعريفُ الذي ذَكَرهُ المؤلِّفُ مُستفادٌ من كلامِ أهلِ العلمِ:

قال قتادة: الإسلامُ: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، والإقرارُ بِمَا جاء بِه من عندِ اللهِ، وهو دينُ اللهِ الذي شَرَع لنفسِه، وبَعَث بِه رُسُلَه، ودلَّ عليهِ أولياءَه، لا يَقبلُ غيرَه، ولا يَجزِي إلَّا بِه.

وقال أبو العالية: الإسلامُ: الإخلاصُ للهِ وحدَه وعبادتُه لا شريكَ لهُ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وسائرُ الفرائضِ لهذا تَبَعٌ. «تفسير الطبري» ٥/ ٢٨١ و٢٨٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإسلامُ الذي هو دينُ اللهِ، الذي أَنزَلَ بِه كُتُبَه، وأَرسَلَ بِه رُسُلَه، وهو أنْ يُسلِمَ العبدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، فيَستَسلِمُ للهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ويكونُ سالمًا لهُ، بحيثُ يكونُ مُتألهًا لهُ، غيرَ مُتألهٍ لِمَا سِوَاهُ». «مجموع الفتاوى» ٧/ ٦٢٣.

وقال أيضًا: «وهو أنْ يَجمَعَ معنيَين: أحدُهُما: الانقيادُ والاستسلامُ، والثاني: إخلاصُ ذلكَ وإفرادُه». «مجموع الفتاوى» ٧/ ٦٣٥.

وقال ابن رجب: «الإسلامُ يقتضي الاستسلامَ، والانقيادَ، والطاعةَ». «تحقيق كلمة الإخلاص» ص ٤٠[1].

---

(١) **فائدة:** الإسلامُ إذا أُطلق يُراد بِه معنيان:

المعنى الأول: الإسلام العام:

وهو التَّعبُّد للهِ بِمَا شَرَع منذُ أنْ أَرسَلَ الرُّسُلَ إلى قيامِ الساعةِ، فهو مِلَّةُ الأنبياءِ قاطبةً. «تفسير ابن كثير» ١/ ٤٤٧ [البقرة: ١٢٣].

وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهو الذي خاطَبَ اللهُ به جميعَ الناسِ من لَدُن آدمَ عليه السلام إلى أنْ يَرِثَ اللهُ تعالى الأرضَ ومَن عليها: فقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ۝ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١ - ٧٢]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٨]، وقال عن يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقال عن يوسفَ عليهِ السلامُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الملْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال سليمان عليه السلام مخاطبًا بلقيسَ وقومَها: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، وقالت بلقيسُ ملكةُ سبأٍ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالمينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال عن حواري المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

المعنى الثاني: الإسلام الخاص.

وهو الإسلامُ الذي بُعث به محمدٌ ﷺ، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، وقوله ﷺ: «**الإسلامُ: أنْ تَشهَدَ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتُقيمَ الصلاةَ، وتُؤتيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتَحجَّ البيتَ**».

وهو الإسلامُ هو الذي لا يَقبلُ اللهُ من أحدٍ دينًا سواهُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ

﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٢].

وفي «صحيح مسلم» (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والَّذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِه، لا يَسمعُ بِي أَحَدٌ من هذهِ الأُمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانِيٌّ، ثُمَّ يَموتُ، ولم يُؤمِنْ بالَّذي أُرسِلْتُ بِه، إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ**».

وقد بيَّن هذين النوعين **شيخ الإسلام ابن تيمية**، فقال: «وعنوانه [يعني: الإسلام]: قولُ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وله معنيان: **أحدُهُما:** الدِّينُ المشتَرَكُ، وهو عبادةُ اللهِ، وحدَه لا شريكَ لهُ، الذي بُعِثَ بِه جميع الأنبياءِ، كما دلَّ على اتِّحادِ دينِهِم نصوصُ الكتابِ والسُّنةِ. **والثاني:** ما اختُصَّ بِه محمدٌ ﷺ من الدِّينِ، والشِّرعةِ، والمنهاجِ، وهو الشريعةُ، والطريقةُ، والحقيقةُ». «مجموع الفتاوى» ٧/ ٦٣٥.

وقال أيضًا ٣/ ٩٤: «وقد تنازع الناسُ فيمَن تقدَّم من أمة موسى وعيسى: هل هم مسلمون أم لا؟ وهو نزاع لفظي، **فإنَّ الإسلامَ الخاصَّ**، الذي بَعَثَ اللهُ به محمدًا ﷺ، المُتضمِّنَ لشريعةِ القرآنِ، ليس عليه إلا أمَّةُ محمدٍ ﷺ، والإسلامُ اليومَ عند الإطلاقِ يتناولُ هذا، **وأمَّا الإسلامُ العامُّ**، المتناوِلُ لكلِّ شريعةٍ بَعَثَ اللهُ بها نبيًّا، فإنَّه يتناولُ إسلامَ كلِّ أمةٍ مُتَّبعةٍ لنبيٍّ من الأنبياءِ».

وقال الشيخ العثيمين: «الإسلام بالمعنى العام: هو التعبد لله بما شرع منذ أن أرسل الله الرسل إلى أن تقوم الساعة، كما ذكر الله عز وجل ذلك في آيات كثيرة، تدل على أن الشرائع السابقة كلها إسلام لله عز وجل. قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾ [البقرة: ١٢٨]، والإسلام بالمعنى الخاص بعد بعثة النبي ﷺ يختص بما بُعث به محمد ﷺ؛ لأن ما بُعث به النبي ﷺ نَسَخ جميع الأديان السابقة، فصار مَن اتبعه مسلمًا، ومن خالفه ليس بمسلم، فأتباع الرسل مسلمون في زمن رسلهم، فاليهود مسلمون في زمن موسى ﷺ، والنصارى مسلمون في زمن عيسى ﷺ، وأما حين بُعث النبي محمد ﷺ، فكفروا به، فليسوا بمسلمين».

تنبيه: حول صحة هذه العبارة: (الأديان السماوية):

سُئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين: كلمة الأديان السماوية، هل يجوز إطلاق هذه الكلمة، علمًا أننا إذا أطلقناها، فقد أقررنا بأن هناك أديان أرضية، وهل تدخل هذه

قوله (وهو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ) أي: الانقيادُ والخضوعُ لهُ سبحانَه بتوحيدِه، وإفرادِه بالعبادةِ، وقد أَمَر اللهُ تعالى عبادَه بالاستسلامِ لهُ وحدَه، فقال

الكلمة في باب البدع؛ لأنها لم تُؤثَر عن المصطفى عليه السلام؟

الجواب: «نعم، نقول الأديان السماوية؛ لأن هناك أديان أرضية، لأن الدين ما دان به العبد ربَّه، سواء كان من شريعة الله سبحانه وتعالى أم من شرائع البشر، ومن المعلوم أن هناك أناس يدينون بغير دين شرعي، يعتقدون ديانة أن يسجدوا للبقر، وأن يسجدوا للصنم، وغير ذلك، والله تعالى لم يَشرع هذا في أي كتاب كان، ولا على لسان أي رسول كان، وعلى هذا فهذه الديانة التي يدينون بها ليست من شريعة الله، فليست سماوية، وأما الأديان السماوية فهي التي شرعها الله عزَّ وجلَّ؛ لأنها نَزَلت من السماء، إلا أنه يجب أن يَعلم السائل وغيره أن جميع الأديان السماوية منسوخة بالدين الإسلامي، وأنها الآن ليست مما يُدان به لله عزَّ وجلَّ، لأن الذي شَرَعها وَوَضَعها دينًا هو الذي نَسَخها بدين محمد ﷺ، وكما أن النصارى مقرُّون بأن دين المسيح قد نَسَخ شيئًا كثيرًا من دين موسى عليه الصلاة والسلام، وأنه يجب على أتباع موسى عليه الصلاة والسلام أن يتَّبعوا عيسى، فإننا كذلك أيضًا نقول: إن الإسلام مُلزِم للنصارى أن يَدينوا به، ولجميع الأمم أن يَدينوا بالإسلام، لأن العبرة للمتأخِّر، فالمتأخِّر من شريعة الله، وقد قال اللهُ تعالى عن عيسى أنه قال لقومه: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾، وهذه البشارة من عيسى عليه الصلاة والسلام لمحمد ﷺ تدل على أنه يجب على بني إسرائيل من النصارى واليهود وغيرهم أن يتَّبعوه، إذ أنه لو لم تكن الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ شاملةً لهم لم يكن لِبُشْراهم بها فائدة، فلولا أنهم ينتفعون من هذه الرسالة باتباعها ما كان لهم فيها فائدة إطلاقًا، والمهم أنني أقول: يجب أن يَعلم السائل وغيره أنَّنا وإن عَبَّرنا بالأديان السماوية، فليس معنى ذلك أننا نُقرُّ بأنها باقية، بل نقول: إنها منسوخة بدين واحد فقط هو دين الإسلام، وأن الدين القائم الذي يُرضي اللهَ تعالى أن يَدين به العبادُ له إنما هو دين الإسلام وحدَه فقط، قال الله تعالى: ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾، والله الموفق». «فتاوى نور على الدرب».

سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ...﴾ [الزمر: ٥٤][(١)]، وقال: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، وقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقال عن خليلِه إبراهيمَ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١][(٢)]، فيَستَسلِمُ للهِ استسلامَ عبادةٍ ومحبَّةٍ، وذُلٍّ وخُضُوعٍ.

وهذا الإسلامُ هو الذي يُحمَدُ عليه العبدُ، ويُثابُ عليه، أمَّا الاستسلامُ القدريِّ فلا ثوابَ فيه؛ لأنَّه لا حِيلةَ للإنسانِ فيه، قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]. انظر: «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ العثيمين، ص ٦٤.

قال الحافظ ابن كثير: «المؤمنُ مُستَسلِمٌ بقلبِه وقالَبِه للهِ، والكافرُ مُستَسلِمٌ للهِ كَرهًا، فإنَّه تحتَ التسخيرِ والقَهرِ والسلطانِ العظيمِ الذي لا يُخالِفُ ولا يُمانِعُ».

قوله (والانقيادُ له بالطاعةِ)؛ أي: الانقيادُ لهُ سبحانَه باطنًا وظاهرًا، بفعلِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه، ابتغاءً لوجهِ الآمرِ الناهي، وهذا هو حقُّ التوحيدِ.

وفي هذه الجملة فيها بيانُ أهميةِ أعمالِ الجوارحِ، وأنَّها من الإيمانِ، فمَن فرَّط في عملِ الجوارحِ، نقصَ إيمانُه وتوحيدُه.

قوله (والبراءةُ من الشركِ وأهلِه) البراءةُ من الشركِ وأهلِه داخلةٌ في معنى الاستسلامِ للهِ بالتوحيدِ، وإنَّما أَفردَهَا المؤلِّفُ هنا؛ لأنَّ عبادةَ اللهِ تعالى لا تَتِمُّ إلَّا بالكفرِ بِمَا يُعبَدُ من دونِه، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ

---

(١) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ بقلوبِكُم ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ بجوارِحِكُم. «تفسير السعدي» ص ٧٢٧.

(٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾؛ أي: انْقَدْ للهِ، وأَخلِصْ لهُ دِينك ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إخلاصًا، وتوحيدًا، ومحبةً، وإنابةً. «تفسير السعدي» ص ٦٦.

فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال ﷺ: «**مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وكَفَر بما يُعبَدُ من دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُه وَدَمُه، وحسابُه على اللهِ**».

ومعنى البراءةِ من الشركِ وأهلِه: أنْ تُبغِضَ بقلبِكَ الشركَ وأهلَه، قال اللهُ تعالى: ﴿**بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ المشْرِكِينَ**﴾ [التوبة: ١]، وقال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ**﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨][(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا كان الرَّجُلُ يُوالِي أعداءَ اللهِ بقلبِه؛ كان ذلكَ دليلًا على أنَّ قلبَهُ ليس فيهِ الإيمانُ الواجبِ. ومثلُه قولُه تعالى في الآيةِ الأخرى: ﴿**تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٨٠ - ٨١]، فذَكَر (جملةً شرطيةً) تقتضي أنَّه إذا وُجِدَ الشرطُ وُجِدَ المشروطُ بحرفِ (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاءَ المشروطِ، فقال: ﴿**وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾، فدلَّ على أن الإيمانَ المذكورَ يَنفي اتِّخاذَهم أولياءَ ويُضادُّهُ، ولا يجتمعُ الإيمانُ واتِّخاذُهم أولياءَ في القلبِ.

ودلَّ ذلك على أنَّ مَن اتَّخذَهم أولياءَ؛ ما فَعَل الإيمانَ الواجبَ من الإيمانِ باللهِ والنبيِّ وما أُنزِلَ إليه.

---

(١) قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾؛ أي: وجَعَل إبراهيمُ كلمةَ التوحيدِ (لا إلهَ إلا اللهُ) باقيةً دائمةً في ذُرِّيتِهِ إذ وصَّاهم بها، كما قال تعالى: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ**﴾ [البقرة: ١٣٢]». «أيسر التفاسير» ٤/ ٦٣٥.

ومثله: قولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، فإنَّه أخبَر في تلك الآياتِ أنَّ مُتولِّيهم لا يكونُ مؤمنًا، وأخبَر هنا أنَّ مُتولِّيهِم هو منهُم». «مجموع الفتاوى» ٧/ ١٧ – ١٨.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «لا يستقيمُ للإنسانِ إسلامٌ ولو وحَّد اللهَ وتركَ الشركَ إلا بعداوةِ المشركينَ، والتصريحِ لهم بالعداوةِ والبغضاءِ». «الدُّرر السَّنية» ٨/ ٣٣١.

فالبراءةُ تَشملُ أمرَين:

١ – البراءةُ من العملِ.

وأشار إليها بقوله: «البراءةُ من الشركِ».

٢ – البراءةُ من العاملِ.

وأشار إليها بقوله: «وأَهلِه».

تنبيه: الناظرُ في حالِ كثيرٍ من المسلمينَ تجاهَ هذهِ العقيدةِ يَجِدُ أنَّهم ما بينَ جافٍ وغالٍ:

فمن صُور الجفاءِ: ألَّا يَعتقِدَ عداوَتَهُم وبُغضَهُم البغضَ الدينيّ؛ فتَجِدهُ يُؤاكِلُهُم، ويُجالِسُهُم، ويَرفَعُ من شأنِهِم؛ اغترارًا بما عندَهُم من الدنيا، بل بَلَغ الحالُ ببعضِهِم أنْ يقولَ: إنَّ النصرانيَّ خيرٌ من المسلمِ!

وبعضَ المنتسبينَ للعلمِ صار يَدعُو لِمَا يُسمَّى بـ «الإنسانية»!

وبعضُهُم يَدعُو لِمَا يُسمَّى بالدِّيانةِ الإبراهيميةِ!

وبعضُهُم يَزعمُ أنَّ الجنَّةَ ليست حِكْرًا على المسلمين، فتَسمعُ أحدَهُم يقولُ: الطبيبُ النصراني الفلاني الذي فَعَل كذا وكذا، أفيُعقلُ أنْ يَدخُلَ النارَ! وفلانٌ الذي اخترَع التكييفَ، أفيُعقلُ أنْ يَدخُلَ النار!

وكأنَّ هؤلاءِ ما سَمِعُوا بقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ولا سَمِعُوا بقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهذا أبو طالبٍ عمُّ النبيِّ ﷺ كان يَحوطُ النبيَّ ﷺ ويَنصرُهُ، ولم يَنفَعْهُ ذلكَ، ومات كافرًا، ولمَّا أراد النبيُّ ﷺ أنْ يَستغفِرَ لهُ نَزَل قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وأَنزَلَ اللهُ في أبي طالبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمهْتَدِينَ﴾ [].

وهذا عبدُ اللهِ بنُ جُدعانٍ كان يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المسكينَ، ولمَّا سألَتْ عائشةُ رضي الله عنها رسولَ اللهِ عنهُ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، ابنُ جُدعَانَ، كان في الجاهلية، يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المسكينَ، فَهَلْ ذاك نافعُهُ؟ قال: «**لا يَنفَعُهُ، إنَّهُ لم يَقُلْ يومًا: ربِّ اغْفِرْ لي خطيئتي يومَ الدِّينِ**».

وقد أخرج هذا الحديثَ الحافظُ ابنُ حبانَ في «صحيحه» (٣٣١)، وبوَّب عليه بقوله: «ذِكرُ الإخبارِ بأنَّ الكافرَ، وإنْ كَثُرت أعمالُ الخيرِ منهُ في الدنيا، لم ينفعْهُ منها شيءٌ في العُقبَى»، وبوَّب عليه النووي بقوله: «بابُ الدليلِ على أنَّ مَن مات على الكفرِ، لا يَنفعُهُ عملٌ».

ومن خبيثِ القولِ: ما ادَّعاهُ بعضُهُم مُحتجًّا به على دخولِ الكافرِ الجنةَ أنَّه احتجَّ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

يقول الشيخ العثيمين: «الذي يَرَى أنَّ اليهود أو النَّصارى على دينٍ مَرْضِيٍّ ومقبولٍ عندَ اللهِ بعدَ بعثةِ النبيِّ ﷺ، فهو خارجٌ عن الإسلامِ، مُكذِّبٌ بقولِ اللهِ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولكثرةِ اليهودِ والنصارى والوثنيينَ صار في هذهِ المسألةِ خَطَرٌ على المجتمعِ، وأصبَح كثيرٌ من الناسِ الآنَ لا يُفرِّقُ بين مسلمٍ وكافرٍ، ولا يَدري أنَّ غيرَ المسلمِ عَدُوٌّ للهِ، بل هو عَدُوٌّ لهُ أيضًا؛ لقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا

﴿تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فهم أعداءٌ لنا ولو تَظَاهرُوا بالصداقةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]». «القول المفيد على كتاب التوحيد» ٢/ ٥٧ – ٥٨.

وشكَّك بعضُهم في وجوبِ البراءةِ من المشركينَ، واحتجَّ على ذلكَ بأنَّ الشريعةَ أجازَتْ الزواجَ من الكتابيةِ، فقالوا: فكيف يَتَّفقُ القولُ بالبراءةِ من المشركينَ مع محبةِ الزوجةِ؟

ويقال جوابًا على هذا: لا إشكال، فإنَّ محبَّةَ الزوجةِ محبَّةٌ فطريةٌ، وأمَّا بُغضُهَا لأجلِ دِينِهَا فهو بغضٌ شرعيٌّ، ولا مانع من اجتماعِ الاثنينِ في القلبِ، فهذا الرسولُ ﷺ كان يُحِبُّ عمَّه أبا طالبٍ محبَّةً طبعيةً، وكان يُبغِضُهُ لِمَا عليهِ من الشِّركِ.

ومن صُور الغلو:

١ – اعتقادُ جوازِ ظُلمِهِم أو قَتْلِهِم من غيرِ تفريقٍ بينَ مَن بينَنا وبينَهم عهودٌ ومواثيقُ وبينَ غيرِهِم.

٢ – اعتقادُ جوازِ جهادِهِم من غيرِ تفريقٍ بين حالةِ ضعفِ المسلمينَ وحالةِ قوتِهِم، ودونَ مراعاةٍ للمصالحِ العامةِ للمسلمينَ.

٣ – اعتقادُ عدمِ جوازِ دخولِ الكافرِ جزيرةِ العربِ مطلقًا.

٤ – اعتقادُ عدمِ جوازِ إعطاءِ الكافرِ المال مطلقًا.

٥ – الجزمُ والإنكارُ والتضليلُ في مسائلَ فقهيةٍ يَسوغُ الخلافُ فيها، كمثلِ تعزيةِ الكافرِ في قريبِه المسلمِ، فإنَّ كثيرًا من الفقهاءِ جوَّزها بما ليس فيهِ دعاءٌ للكافرِ بالرحمةِ والمغفرةِ.

٦ – اعتقادُ كُفرِ حُكَّامِ المسلمينَ بسببِ ما بينَهُم وبينَ الكفارِ من عهودٍ ومواثيقَ وعقدِ صلحٍ، فالغلاةُ يُكفِّرونَ بكُلِّ معاهدةٍ أو تعاونٍ بينَ المسلمينَ والكفارِ، ويَجعلونَ ذلكَ من الموالاةِ المُخرجةِ من الإسلامِ، وهذا معتقدٌ فاسدٌ؛

إذ ليس كُلُّ معاهدةٍ أو تعاونٍ موالاةٌ، وليس كُلُّ موالاةٍ للكفارِ كُفرًا أكبرَ مُخرِجًا من المِلَّةِ إلَّا عندَ الخوارجِ.

وأمَّا أهلُ السُّنةِ والجماعةِ فمُعتقدُهُم في هذا البابِ قائمٌ على أنَّ التكفيرَ في بابِ الولاءِ والبراءِ يَعتمِدُ على اعتقادِ الباطنِ لا على آثارِهِ وثمراتِه؛ فإذا اجتَمَعا حُكِمَ بِه، وإنِ اختَلَفا فالحُكمُ لعملِ القلبِ دونَ عملِ الجوارحِ؛ لأنَّه قد يَظهرُ من المسلمِ نوعُ ولاءٍ ظاهرٍ للكافرينَ، فيكونُ بذلكَ عاصيًا لا كافرًا، إذا لم يَكُن فِعْلُهُ صادرًا عن وَلَاءٍ قلبيٍّ.

وبِناءً على هذا؛ فقد قسَّم أهلُ السُّنةِ موالاةَ الكفارِ إلى قسمين:

القسم الأول: الموالاةُ العامةُ المطلقةُ التامةُ المرتبطةُ بالعقيدةِ والدِّينِ، أو ما يُعبِّر عنُه بعضُ أهلِ العلمِ بالتَّولِّي الذي يكونُ فاعلُه كافرًا مُرتَدًّا خارجًا عن الإسلامِ.

القسم الثاني: الموالاةُ المقيدةِ أو الخاصَّةِ التي لا يَكفرُ مُرتكِبُهَا، وهي موالاةُ الكفارِ لغرضٍ دنيويٍّ، مع سلامةِ الاعتقادِ، وبُغضِ الكفرِ وأهلِه أو إعانتُهُم ويكونُ الحاملُ لهُ على ذلكَ مصلحةً شخصيةً، أو عداوةً دنيويةً بينَهُ وبينَ مَن يُقاتِلُهُ الكفارُ من المسلمينَ، فهذهِ كبيرةٌ من كبائرِ الذنوبِ، لا تُخرِجُ صاحبَها من الإسلامِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ النُّصرةِ العمليةِ للكفارِ على المسلمينَ دونَ عقيدةِ القلبِ لا يُكَفِّرُ بها؛ لاحتمالِ أنْ يكونَ ذلكَ عن ضَعْفِ إيمانٍ، مع بُغضِ الكفرِ وأهلِه.

وضابطُ الوَلَاءِ الكفريِّ (التَّوَلِّي): محبةُ الكفارِ لأجلِ دينِهِم، أو نُصرتُهُم لأجلِ دينِهِم والرِّضَا بِه، فإنْ وُجِدَتْ نصرةٌ بدونِ هذا الدافعِ، وهو محبةُ دينِهِم، وإنَّما لِحَظٍّ دنيويٍّ؛ فهو مُحرَّمٌ، وليس كُفرًا.

والدليلُ على هذا الضابط: ما في «الصحيحين»، من حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ في قصةِ حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعةَ، إذْ أَرسَلَ رسالةً إلى قريشٍ يُخبِرُهُم بقُدُومِ رسولِ اللهِ، فقال لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا حاطِبُ ما هذا؟!**»، قال: لا تَعجَلْ عليَّ، إنِّي كنتُ امْرَأً مُلصَقًا في قريشٍ ولم أَكُنْ من أنفسِهِم، وكان مَن مَعَكَ مِن المهاجرينَ

لهم قَرَاباتٌ يُحمُونَ أَهْلِيهِم بمكةَ؛ فأَحبَبتُ إذْ فاتنِي ذلكَ من النَّسَبِ فيهِم أنْ اتَّخِذَ فيهم يَدًا يَحمُونَ بها قَرَابتِي، وما فَعَلتُ ذلكَ كُفرًا ولا ارتِدادًا عن دِينٍ، ولا رضًا بالكفرِ بعدَ الإسلامِ. فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّه صَدَقَكُم**»، قال عمرُ: يا رسولَ اللهِ، دَعنِي أَضرِبُ عُنُقَ هذا المنافقِ، قال: «إنَّه قد شَهِدَ بدرًا، وما يُدرِيكَ لعلَّ اللهَ أن يكونَ قد اطَّلَع على أهلِ بدرٍ، فقال: اعمَلُوا ما شئتُم، فقد غَفَرتُ لكُم».

وجه الدلالة من هذه القصة: أنَّ في كلامِ حاطِبِ بنِ أبي بَلْتعةَ رضي الله عنه إبانةً للضابطِ الكفريِّ، إذْ قال: «وما فَعَلتُ ذلكَ كُفرًا ولا ارتِدادًا عن دِينٍ، ولا رضًا بالكفرِ بعدَ الإسلامِ»، وفي إقرارِ رسولِ اللهِ ﷺ لهُ على ذلكَ، دلالةٌ صريحةٌ على أنَّ بعضَ صُورِ الموالاةِ للكفارِ لا تكونُ كُفرًا، وإنَّما هي ذنبٌ من الذنوبِ.

قال الشيخ عبد العزيز ابن باز: «وممَّا يَجبُ التنبيهُ عليهِ أنَّ بعضَ الناسِ قد يَظُنُّ أنَّ الاستعانةَ بأهلِ الشركِ تُعتبرُ موالاةً لهم، وليس الأمرُ كذلكَ، فالاستعانةُ شيءٌ والموالاةُ شيءٌ آخرُ، فلم يَكُنِ النبيُّ ﷺ حينَ استعان بالمُطعِم بنِ عَدِيٍّ، أو بعبدِ اللهِ بنِ أُرَيقطٍ، أو بيهودِ خيبرَ مواليًا لأهلِ الشركِ، ولا مُتَّخِذًا لهم بِطانةً، وإنَّما فَعَل ذلكَ للحاجةِ إليهِم، واستخدامِهِم في أمورِ تَنفعُ المسلمينَ ولا تَضرُّهُم، وهكذا بَعْثُه المهاجرينَ من مكةَ إلى بلادِ الحبشةِ ليس ذلكَ موالاةً للنصارى، وإنَّما فَعَل ذلكَ لمصلحةِ المسلمينَ، وتخفيفِ الشَّرِّ عنهم، فيَجبُ على المسلمِ أنْ يُفرِّق ما فرَّق اللهُ بينَه، وأنْ يُنزِّلَ الأدلة مَنازِلَها، واللهُ سبحانَه هو المُوفِّقُ والهادي، لا إلهَ غيرُه، ولا رَبَّ سِوَاهُ». «مجموع فتاوى ومقالات» ٧/ ٣٦٤.

وسيأتي كلامٌ مُفصَّلٌ في مسألةِ الموالاةِ وما يَتعلَّقُ بها عندَ التعليقِ على رسالةِ «نواقض الإسلام – الناقض الثامن» بإذنِ اللهِ تعالى.

فائدة: البراءة براءتان:

١ – براءة من العمل.

٢ – براءة من العامل.

أمَّا النوع الأول: وهو البراءةُ من العملِ، فيَجبُ على كُلِّ مؤمنٍ أنْ يَتبرَّأَ من

كُلِّ عمل مخالفٍ للشرعِ، سواءٌ كان كُفرًا أم فِسقًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

ومعنى البراءةِ من العملِ: كراهتُه، وعدمُ فِعْلِه، وعدمُ الرِّضا بِه.

وأمَّا النوع الثاني: وهو البراءةُ من العاملِ، فهذا فيه تفصيل:

١ - أنْ يكون عَمَلُه كُفرًا.

فهذا يجبُ البراءةُ منهُ بكُلِّ حالٍ؛ لأنَّه لا موالاةَ بينَ المسلمِ والكافرِ، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا كان الرجلُ يوالِي أعداءَ اللهِ بقلبِه؛ كان ذلك دليلًا على أنَّ قلبَهُ ليس فيه الإيمانُ الواجبِ. ومثلُه قولُه تعالى في الآيةِ الأخرى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠ - ٨١]، فذَكَر (جملةً شرطيةً) تقتضي أنَّه إذا وُجِدَ الشرطُ وُجِدَ المشروطُ بحرفِ (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاءَ المشروطِ، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فدلَّ على أنَّ الإيمانَ المذكورَ يَنفي اتِّخاذَهُم أولياءَ ويُضادُّهُ، ولا يجتمعُ الإيمانُ واتِّخاذُهُم أولياءَ في القلبِ.

ودلَّ ذلكَ على أنَّ مَن اتَّخذَهُم أولياءَ؛ ما فَعَل الإيمانَ الواجبَ من الإيمانِ باللهِ والنبيِّ وما أُنزِلَ إليه.

ومثلُه: قولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، فإنَّه أخبرَ في تلك الآياتِ أنَّ مُتولِّيهم لا يكونُ مؤمنًا، وأخبَر هنا أنَّ مُتولِّيهِم هو منهُم». «مجموع الفتاوى» ٧/ ١٧ - ١٨.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «لا يَستقيمُ للإنسانِ إسلامٌ ولو وَحَّد اللهَ وتركَ الشركَ، إلَّا بعداوةِ المشركينَ، والتصريحِ لهم بالعداوةِ والبغضاءِ». «الدُّرر السَّنية» ٨/ ٣٣١.

أَتُحِبُّ أعداءَ الحبيبِ وتَدَّعِي ❊❊❊ حُبًّا لهُ ما ذاكَ في إمكانِ

٢ – أنْ يكونَ عَمَلُه دونَ الكفرِ:

وهذا له حالتانِ:

الحالة الأولى: أنْ يكونَ من أهلِ البدعِ.

فيجبُ البراءةُ منهُ؛ لأنَّ الأصلَ في أهلِ البدعِ هو الهجرُ، ولا يُنتقَلُ عن هذا الأصلِ إلَّا لمصلحةٍ راجحةٍ، وكلامُ السَّلَفِ في هذا كثيرٌ، وتقدَّم حكاياتُ الإجماعاتِ عنهم في ذلك.

ويُردِّدُ البعضُ مقولةً خاطئةً، فيقول: خُذُوا ما عندَهُم من الخيرَ، ودَعُوا الشَّرَّ!

ويقالُ جوابًا على هذا:

١ – الخيرُ الذي عندَهُم موجودٌ عندَ غيرِهِم، ولمَّا حذَّر الشيخ العثيمين من سَفَر الحوالي وسلمان العودة، وقال له البعض: عندَهُم خَير، فرَدَّ عليه الشيخُ قائلًا: الخيرُ الذي عندَهُم موجودٌ عند غيرِهِم.

٢ – أنَّ الشريعةَ أَمَرَتْ بهَجْرِ أهلِ البدعِ، فما تقولَه مخالِفٌ لمنهجِ السَّلَفِ، ونحنُ تَبَعٌ للسَّلَفِ، ولا مجالَ للعواطفِ في هذهِ الأمورِ.

وقد رأيتُ أنَّ غالبَ مَن يقولُ هذا الكلامَ هو في الغالبِ على نَفْسِ منهجِهِم.

٣ – أنَّ غالبَ مَن يَستمعُ لهؤلاءِ بدعوى ما عندَهُم من الخيرِ أنَّه يَتَأَثَّرُ بِهِم، فينقلونَه من كونِه عاصيًا إلى كونِه خارجيًّا، فتَجِدُ الشابَّ بمجردِ ما يَلتصِقُ بهؤلاءِ يَصيرُ خارجيًّا تكفيريًّا، يَطعنُ في حُكَّامِ المسلمينَ وفي العلماءِ.

الحالة الثانية: أنْ يكونَ من أهلِ المعاصي.

فهذا تَجبُ موالاتُه في حالٍ دونَ حالٍ، فيُوالَى لِمَا معهُ من الإيمانِ، ويُبغضُ

لِمَا عندَهُ من الفسقِ والمعصيةِ.

والأصلُ في أصحابِ المعاصي عدمُ هَجْرِهِم، وأنَّهم لا يُهجَرونَ إلَّا إذا اقتَضَتِ المصلحةُ ذلكَ، فهَجرُهُم كالدواءِ للداءِ، متى ما نَفَع أُخِذَ وإلَّا تُرِكَ.

أمَّا أنَّ الأصلَ أنَّهم لا يُهجَرون؛ فلأنَّه كان في زمنِ النبيِّ ﷺ رَجُلٌ يَشربُ الخَمرَ، ولمَّا أُتِيَ بِه للنبيِّ ﷺ، أَمَر بِه فجُلِدَ، فقال رجلٌ من القومِ: اللهمَّ الْعَنْهُ، ما أكثرَ ما يُؤتَى بِه؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**لا تَلعَنُوهُ، فواللهِ ما عَلِمْتُ إنَّه يُحِبُّ اللهَ ورسولَه**».

أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

وأمَّا أنَّهم يُهجَرونَ إذا اقتضتِ المصلحةُ ذلكَ؛ فلأنَّ النبيَّ ﷺ أَمَر بهَجْرِ الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوكٍ.

ويَخلِطُ في هذا كثيرونَ، فلا يُفرِّقون بينَ معاملةِ المبتدِع ومعاملةِ فُسَّاقِ أهلِ السُّنةِ في بابِ الهَجْرِ.

قال المؤلِّف:

وهو ثلاثُ مراتبٍ: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ.

وكلُّ مرتبةٍ لها أركانٌ.

فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ:

شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامةُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُ بيتِ اللهِ الحرامِ.

الشرح

قوله (وهو ثلاثُ مراتبٍ) أي: أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ الذي جاء بِه الرسولُ ﷺ ثلاثُ مراتبَ[1]، فالإسلامُ مرتبةٌ، والإيمانُ مرتبةٌ، والإحسانُ مرتبةٌ.

وهذه المراتبُ الثلاثِ هي المذكورةُ في حديثِ جبريلَ: «**فإنَّهُ جبريلُ، أتاكُم يُعلِّمُكُم دِينكُم**».

(١) المرتبةُ: المنزلةُ العاليةِ. انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» ٢/ ١٩٣.

قوله: (وكلُّ مرتبةٍ لها أركانٌ) الرُّكن لغة: الجانِبُ الأقوى من كلِّ شيءٍ. «تاج العروس» ٣٥/ ١٠٩.

واصطلاحًا: عبارةٌ عن جزءِ الماهيةِ.

قوله (فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ...) دليلُ أركانِ الإسلامِ: ما في «الصحيحين»، من حديثِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البيتِ، وصومِ رمضانَ**».

وهذه الأركانُ الخمسةُ تَنقسمُ إلى قسمين:

القسم الأول: أركانُ أساسٍ، لا يقومُ البناءُ إلَّا بِهَا.

وهذا القسمُ لو تَخَلَّف يَكفرُ تاركُه، وهي:

١ - الشهادتان.

٢ - الصلاة -على أصح القولين-.

القسم الثاني: أركانُ تمامٍ، لا يَتِمُّ البناءُ إلَّا بِهَا.

وهذا القسمُ لو تَخَلَّف لا يَكفرُ تاركُه تَهَاونًا على الراجحِ، وهو الزكاةُ، والصيامُ، والحجُّ، لكن لو كان المُمتنِعُ من الفعلِ طائفةٌ لها مَنَعَةٌ وشَوكةٌ؛ فإنَّها تُقاتَل على تَركِها، كما قاتَلَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه مانعي الزكاةَ.

قال المؤلِّف:

فدليلُ الشهادةِ: قولُه تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالملائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ.

(لا إلهَ): نافيًا جميعَ ما يُعبَدُ من دونِ اللهِ.

(إلَّا اللهُ): مُثبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ في عبادتِه، كما أنَّه لا شريكَ لهُ في مُلْكِه.

وتفسيرُها الذي يُوضِّحُهَا: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً

بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]، **وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**

[آل عمران: ٦٤].

الشرح

هذا شُرُوعٌ من المؤلِّف في بيانِ أدلةِ أركانِ الإسلام، وبدأ بالكلام على الشهادتين، فقال: (**فدليلُ الشهادةِ**)؛ أي: فدليلَ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ: قولُه تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ... ﴾ الآية.

وجهُ الدلالةِ من الآية على وحدانيةِ اللهِ تعالى: شهادتُه سبحانَه بذلكَ - وكَفَى به شهيدًا- بأنَّه المتفرِّدُ بالإلهيةِ، وأنَّ الجميعَ عبيدُه وخَلْقُه، ثم ثَنَّى بشهادةِ الملائكةِ بذلكَ، ثم ثلَّث بشهادةِ أهلِ العلم.

قوله (ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ. (لا إلهَ): نافيًا جميعَ ما يُعبَدُ من دونِ اللهِ، (إلَّا اللهُ): مُثبِتًا العبادةَ للهِ وحدَهُ) أي: لا مألوهَ بحقٍّ إلَّا اللهُ وحدَهُ دونَ مَن سِوَاهُ؛ لأنَّ هناكَ آلهةً تُعبَدُ بالباطلِ، قال تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [الحج: ٦٢]؛ أي: هو الإلهُ الحقُّ الذي تَجِبُ عبادتُه دونَ سِوَاهُ. وقال تعالى: **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾** [هود: ١٠١]، أي: لم تُغنِ عنهُم أصنامُهم التي اتَّخذوها آلهةً فعَبَدُوهَا، وقال تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾** [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لهمْ عِزًّا﴾** [مريم:٨١]، وقال تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾** [يس: ٧٤]، وحَكَى عن مُشركي العربِ أنَّهم قالوا: **﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾** [ص: ٥]، وقالوا: **﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾** [الفرقان: ٤٢]، وقالوا: **﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾** [الصافات: ٣٦]، وقال يوسفُ عليه السلام: **﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**

﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، وفي زمانِنَا هذا لا يُسمُّونَ معبوداتِهِم آلهةً، وإنَّما يُسمَّونَها الأولياءَ، والسَّادةَ، والأقطابَ، وأهلَ اللهِ!

قوله (لا شريكَ لهُ في عبادتِه، كما أنَّه لا شريكَ لهُ في مُلْكِه) أي: كما أنَّه لا شريكَ للهِ تعالى في مُلْكِه، فكذلكَ لا شريكَ لهُ في عبادتِه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

قوله: (وتفسيرُها الذي يُوضِّحُها: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ...﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]، **وقولُه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ...﴾** [آل عمران: ٦٤])؛ أي: تفسيرُ (لا إلهَ إلَّا اللهُ) الذي يُوضِّحُها ويُبيِّنُها بيانًا شافيًا هاتانِ الآيتانِ.

ووجهُ الاستدلالِ بهاتَينِ الآيتَينِ على بيانِ معنى لا إلهَ إلا اللهُ: أنَّهما اشتَمَلتَا على نفيٍّ وإثباتٍ، فنَفَتا الإلهيةَ عمَّا سِوَى اللهِ، وأَثبَتَتها للهِ تعالى، وحدَهُ لا شريكَ لهُ.

أمَّا الآيةُ الأولى، وهي قولُه تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ...﴾**، ووجهُ الدلالةِ منها: قولُ إبراهيمَ: **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾** ففيها نفيٌ الإلهيةِ عن غيرِ اللهِ تعالى، فهي بمعنى (لا إلهَ)، وقولُه: **﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾** فيها إثباتُ الإلهيةِ للهِ وحدَهُ، فهي بمعنى (إلَّا الله).

وأمَّا الآيةُ الثانيةُ، وهي قولُه تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ... ﴾**، فوجهُ الدلالةِ منها: قولُه تعالى: **﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾** فهي بمعنى (لا إلهَ إلَّا اللهُ)؛ لأنَّها اشتَمَلَتْ على نفيٍّ وإثباتٍ، إذْ نَفَتِ الإلهيةَ عمَّا سِوَى اللهِ، وأَثبتَتهَا للهِ تعالى وحدَه.

وبهذا البيانِ يتَّضِحُ جَلِيًّا أنَّ النُّطقَ بشهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ يَستلزمُ العملَ بِهَا، واعتقادَ ما دلَّتْ عليهِ من إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ، وخَلْعِ ما يُعبَدُ من دونِه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «مَن اعتَقَد أنَّه بمجرَّد تَلَفُّظِ الإنسانِ بهذهِ الكلمةِ يَدخلُ الجنةَ، ولا يَدخلُ النارَ بحالٍ؛ فهو ضَالٌّ مُخالِفٌ للكتابِ والسُّنةِ وإجماعِ المؤمنينَ؛ فإنَّه قد تلفَّظ بِهَا المنافقونَ، الذينَ هُمْ في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ، وهُم كثيرونَ». «مجموع الفتاوى» ٣٥/ ٢٠٢.

وقال الشيخ صالح الفوزان تعليقًا على قولِه ﷺ: (مَن شَهِدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ): «يعني: نَطَق بالشهادةِ، عارفًا لمعناها، عاملًا بمُقتضاهَا، مُوقِنًا بِهَا، لأنَّه لا يَكفِي التلفُّظُ بالشهادةِ من غيرِ معرفةٍ لمعناها، كذلكَ النُّطقُ بالشهادةِ مع معرفةٍ بمعناها، لكنْ لا يَعملُ بمقتضاها، هذا -أيضًا- لا يَكفِي، بل لا بُدَّ من النُّطقِ والعلمِ والعملِ بمقتضى هذه الكلمةِ العظيمةِ، فليست هي مجرَّدَ لفظٍ يُردَّدُ على اللسانِ من غيرِ فَهْمٍ لمعناها، ولا يَكفِي العلمُ بمعناها، بل لا بُدَّ من العملِ بمقتضاها، بأنْ يُفرِدَ اللهَ بالعبادةِ، ويَترُكَ عبادةُ ما سِوَاهُ، هذا معنى (أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ).

فإذا لم يَنطِقْ بِهَا، فإنَّه لا يُحكَمُ بإسلامِه، ولو كان يَعرِفُها بقلبِه، ولو كان يَعبُدُ اللهَ في أعمالِه، لكنَّه أَبَى أنْ يَنطِقَ بالشهادةِ، فهذا لا يُعتبَرُ مسلمًا حتَّى يَنطِقَ بالشهادةِ، لقوله ﷺ: "أُمِرتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ".

وكذلكَ مَن نَطَق بِهَا بلسانِه، ولكنَّه لا يَعتقِدُها في قلبِه، هذا -أيضًا- ليس بمسلمٍ، بل هو منافقٌ، فالمنافقون يقولونَ: لا إلهَ إلَّا الله، وهم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ، لماذا؟ لأنَّهم لا يَعتقِدُونَ معناها.

وعُبَّاد القبورِ اليومَ يقولونَ (لا إلهَ إلَّا اللهُ) بألسنتِهِم، لكنَّهم لا يَعملُونَ بمُقتضاهَا، بل يَعبُدُونَ القبورَ والأضرحةَ، ويَدعُونَ الأولياءَ والصالحينَ، فهم أَقَرُّوا بِهَا لفظًا، وخالفُوهَا معنىً.

فالمشركونَ جَحَدُوا لفظَها ومعناها، والقبوريُّون أَقَرُّوا بلفظِهَا وجَحَدُوا معناها، هُمْ سواءٌ لا فرقَ بينهم أبدًا.

كذلكَ المنافقونَ تلفَّظُوا بِهَا، لكنَّهم لا يؤمنونَ بِهَا في قلوبِهِم -أيضًا-، هُمْ سواءٌ، بل هم شَرٌّ من الكفارِ، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا**﴾ [النساء: ١٤٥]، وهم يَنطِقُونَ، ويقولونَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويُصلُّونَ، ويَصُومُونَ، لكنْ لمَّا كانوا مُنكرِينَ بقلوبِهِم، غيرَ مُعتَرِفِينَ بِهَا في قلوبِهِم، وإنَّما قالوها لأجلِ المصالحِ الدنيويةِ فقط، صاروا -والعياذُ باللهِ- في الدَّرْكِ الأسفلِ، من النارِ.

فالحاصلُ أنَّها كلمةٌ عظيمةٌ، لكنْ لا بُدَّ أنْ يَتوفَّر.

أولًا: النَّطقُ بِهَا.

وثانيًا: العلمُ بمعناهَا.

وثالثًا: العملُ بمُقتضاهَا». «إعانة المستفيد» ١/ ٦٠ - ٦١.

قال المؤلِّف:

ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ: قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالمؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومعنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ: طاعتُه فيما أَمَر، وتصديقُهُ فيما أَخبَر، واجتنابُ ما عنهُ نَهَى وزَجَر، وألَّا يُعبدَ اللهُ إلَّا بِمَا شَرَع.

الشرح

الشهادةِ لنبيِّنا محمدٍ ﷺ بالرسالةِ لها جانبان: جانبٌ اعتقاديٌّ، وجانبٌ عمليٌّ.

فالجانبُ الاعتقاديُّ: هو الإيمانُ بالقلبِ، والإقرارُ باللسانِ بأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ إلى جميعِ الخَلقِ من الجنِّ والإنسِ، قال القاضي عياض: «والإيمانُ بِه ﷺ هو تصديقُ نُبُوَّتِه، ورسالةُ اللهِ لهُ، وتصديقُه في جميعِ ما جاء بِه، وما قالَهُ،

ومطابقةُ تصديقِ القلبِ بذلكَ شهادةُ اللسانِ بأنَّه رسولُ اللهِ ﷺ، فإذا اجتَمَع التصديقُ بِه بالقلبِ، والنُّطقُ بالشهادةِ بذلكَ اللسانِ، ثم الإيمانُ بِه، والتَّصديقُ لهُ».

والجانبُ العمليُّ: فكما قال المؤلِّف: هو طاعتُه فيمَا أَمَر، وتصديقُه فيمَا أَخبَر، واجتنابُ ما عنهُ نَهَى وزَجَر، وألَّا يُعبدَ اللهُ إلَّا بِمَا شَرَع.

إذن قولُ المؤلِّفِ: ومعنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ: طاعتُه فيمَا أَمَر ... الخ: هذهِ الأربعُ هي مقتضياتِ الشهادةِ لنبيِّنا محمدٍ ﷺ بالرسالةِ، وليست هي معنى الشهادةِ لنبيِّنا ﷺ بالرسالةِ، وإنَّما معناها ما سَبَق تقريرُه.

قوله: (طاعتُه فيما أَمَر) كما قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾.

وقد ذَكَر سبحانَه طاعةَ الرسولِ ﷺ في كتابِه في ثلاثةٍ وثلاثينَ موضعًا من كتابه، قال الفضلُ بنُ زيادٍ: سَمِعتُ أبا عبد الله أحمدَ بنَ حنبلٍ يقولُ: نَظَرتُ في المُصحفِ، فوَجَدتُ فيهِ طاعةَ رسولِ اللهِ في ثلاثةٍ وثلاثينَ موضعًا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد أَمَر اللهُ بطاعةِ رسولِه ﷺ في أكثرَ من ثلاثينَ موضِعًا من القرآنِ، وقَرَن طاعتَه بطاعتِه، وقَرَن بينَ مخالفتِه ومخالفتِه، كما قَرَن بينَ اسمِه واسمِه، فلا يُذكَرُ اللهُ إلَّا ذُكِرَ معه».

قوله: (وتصديقُه فيما أَخبَر) أي: تَصديقُه فيما أخبَر بِه عن الحوادثِ الماضيةِ، والحاضرةِ، والمستقبلةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: ٣ - ٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإنَّما تعظيمُ الرُّسُلِ بتصديقِهم فيما أخبَروا بِه عن اللهِ، وطاعتُهم فيما أَمَرُوا بِه، ومتابعتُهُم، ومحبَّتُهُم، وموالاتُهُم». «الرد على الأخنائي» ص/ ٢٤ - ٢٥.

قوله: (وألَّا يُعبدَ اللهُ إلَّا بِمَا شَرَع)؛ أي: لا يُعبَدُ اللهُ تعالى بالبدعِ والأهواءِ والمحدَثاتِ، وإنَّما يُعبَدُ بالطريقةِ التي بيَّنها الرسولُ ﷺ، كما قال ﷺ:

«**مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليهِ أمرُنا، فهو رَدٌّ**»، وفي رواية أخرى للحديث: «**مَن أَحدَثَ في أَمرِنَا هذا ما ليس منهُ، فهو رَدٌّ**»؛ أي: مردودٌ عليهِ. وقال ﷺ: «**كُلُّ بدعةٍ ضلالةٌ**»، وقال ﷺ: «**فإنَّهُ مَن يَعِشْ منكُم بَعْدِي فسيرَى اختلافًا كثيرًا، فعليكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشِدِينَ المَهدِيِّينَ، تمسَّكُوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ، وإيَّاكُم ومُحدَثَاتِ الأمورِ، فإنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بدعةٌ**».

«فالذينَ يَعملُونَ بالسُّنَّةِ، ويَتركُونَ البدعَ، فهذا دليلٌ على محبَّتِهم للرسولِ ﷺ، أمَّا الذينَ يدَّعُونَ أنَّهم يُحبُّونَ الرسولَ ﷺ، ولكنَّهم يُخالِفونَه، فيَرتكبُونَ ما نَهَى عنهُ، ويَترُكُونَ ما أَمَر بِه طاعةً لأنفسِهم، أو طاعةً لغيرِهم، فإنَّ هذا دليلٌ على عدمِ صِدْقِهِم في محبَّتِهم للرسولِ ﷺ.

فإذا أراد أَحَدٌ مِنَّا أنْ يَختبِرَ إيمانَه، فَليَنظُرْ إلى موقعِ هذا الحديثِ منهُ، ويُطبِّقُه على نفسِه، هل هو حُبُّ الرسولِ أحبَّ إليهِ من نفسِه، هل حُبُّ الرسولِ أحبَّ إليهِ من وَالِدِه، ووَلَدِه، والناسِ أجمعينَ؟ فإنْ كان كذلكَ، فهو يُحِبُّ الرسولَ ﷺ.

والدليلُ على ذلكَ -كما ذَكَرنَا-: الموافقةُ للرسولِ ﷺ بتنفيذِ أوامرِه، وتَركِ نَواهِيهِ، واجتنابِ البدعِ والمُحدَثَاتِ التي نَهَى عنها رسولُ اللهِ ﷺ، ولو كان عليها أقربُ الناسِ إليهِ، أو أَحَبُّ الناسِ إليهِ، يَترُكُهَا طاعةً للهِ، وطاعةً لرسولِه، ومحبَّةً للهِ، ومحبَّةً لرسولِه ﷺ». «إعانة المستفيد» ٢/ ٤٢ - ٤٣.

ومن مقتضيات هذه الشهادة أيضًا: أنْ تعتقدَ بقلبكَ أن ليس لرسولِ اللهِ ﷺ حقٌّ في الربوبية أو الألوهية، خلافًا لِمَا عليهِ عُبَّادُ القبورِ، الذينَ يَعتقِدُونَ في رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه يَعلمُ الغيبَ، وأنَّه يَملِكُ التَّصرُّفَ في الكَونِ، قال اللهُ تعالى على لسانِ رسولِه ﷺ: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال: ﴿**قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا**﴾ [الجن: ٢١ - ٢٢].

قال المؤلِّف:

ودليلُ الصلاةِ والزكاةِ وتفسيرِ التوحيدِ: قولُه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ودليلُ الصيامِ: قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ودليلُ الحَجّ: قولُه تعالى: ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٧].

الشرح

هذهِ الآياتُ فيها الدليلُ على أركانِ الإسلامِ الخمسة.

[المرتبة الثانية: الإيمان]

قال المؤلِّف:

المرتبة الثانية: الإيمانُ، وهو بِضعٌ وسبعونَ شُعبةً، فأعلاها: قولُ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناها: إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ.

الشرح

بعدَ أنِ انتَهَى المؤلِّف من الكلامِ على المرتبةِ الأولى وهي الإسلامُ، شَرَع في الكلامِ على المرتبةِ الثانيةِ، وهي الإيمانُ.

ويَتَعلَّق بالإيمانِ عدَّة مسائل:

المسألة الأولى: الإيمانُ لهُ جانبانِ: جانبٌ اعتقاديٌّ، وجانبٌ عمليٌّ.

أمَّا الجانبُ الاعتقاديُّ: فهو التَّصديقُ الباطنِ، وهو المذكورُ في حديثِ جبريلَ عليهِ السلامُ: «**أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، والقَدَرِ خَيرِه وشَرِّهِ**».

وأمَّا الجانبُ العمليُّ، فهو شُعَبُ الإيمانِ، وهو المذكورُ في حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه: «**الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ شُعبةً: أعلَاها: قولُ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناها**

إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ».

المسألة الثانية: العلاقة بين الإسلام والإيمان:

بينَ الإسلامِ والإيمانِ عمومٌ وخصوصٌ:

=فإذا ذُكِرَ الإسلامُ والإيمانُ معًا، فيُرادُ بالإسلامِ: الانقيادُ والخضوعُ بالأعمالِ الظاهرةِ، وهي أركانُ الإسلامِ الخمسةِ، ويُراد بالإيمانِ: الانقيادُ والخضوعُ بالأعمالِ الباطنةِ، وهي: أركانُ الإيمانِ السِّتةِ.

= وإذا أُفرد أحدُهُما دَخَل فيه الآخرُ، ويكونُ معناهُ: الانقيادُ والخضوعُ لشرعِ اللهِ تعالى باطنًا وظاهرًا.

المسألة الثالثة: أركانُ الإيمانِ كلُّها أركانُ أساسٍ لا بُدَّ منها، وبدونِهَا لا يُسمَّى مؤمنًا.

المسألة الرابعة: معنى الإيمان لغة وشرعًا:

الإيمان لغة: مصدر آمَن يُؤمِنُ إيمانًا، فهو مؤمِنٌ، وهو مُشتَقٌّ من الأَمْنِ، وهو ضِدُّ الخوفِ، وهو في اللغةِ بمعنى التصديقِ. وعلى هذا إجماعُ أهلِ اللغةِ[1].

---

(١) **قال الأزهري:** «واتَّفق أهلُ العلمِ من اللُّغويينَ وغيرِهِم: أنَّ الإيمانَ معناهُ: التصديقُ؛ وقال اللهُ تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]». «تهذيب اللغة» ١٥/ ٣٦٨.

وقال الزَّبيدي: «والإيمانُ: التصديقُ، وهو الذي جَزَم بِه الزمخشري في (الأساس)، واتَّفق عليهِ أهلُ العلمِ من اللُّغويينَ وغيرِهِم». «تاج العروس» ٣٤/ ١٨٦.

وحكاه أيضًا جمع من أهل السُّنة:

١ - **فقال الطبري:** «ومعنى الإيمانِ عندَ العربِ: التصديقُ، فيُدعَى المُصدِّقُ بالشيءِ قولًا مؤمنًا بِه، ويُدعَى المُصدِّقُ قولَه بفِعْلِه مؤمنًا، ومن ذلكَ: قولُ اللهِ جلَّ ثناؤُه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾». «تفسير الطبري» ١/ ٢٤١؛ ط دار هجر.

وقال أيضًا: «والصوابُ من القول في ذلك عندنا: أن الإيمانَ اسمٌ للتصديقِ، كما قالته العربِ، وجاء به كتابِ اللهِ -تعالى ذِكره- خبرًا عن إخوةِ يوسفَ من قِيْلِهم لأبيهم

يعقوبَ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، بمعنى: ما أنتَ بمُصدِّقٍ لنا على قِيلِنَا». «التبصير في معالم الدين» ص ١٩٠.

٢ - **وقال أبو عبد الله ابن بطَّة:** «ذِكرُ ما افترَض اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادِه، وبَعَث به رسولَه ﷺ، وأَنزَل فيهِ كتابَه، وهو الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ، ومعناه: التَّصديقُ بمَا قالَه، وأَمَر به، وافترضَهُ، ونَهَى عنهُ، مِن كلِّ ما جاءَتْ به الرُّسُلُ مِن عندِه، ونَزَلَت فيهِ الكُتُبُ». «الإبانة الصغرى» ص ١٧٦.

٣ - **وقال الحافظ ابن كثير:** «الإيمانُ في اللغة: يُطلق على التَّصديقِ المَحْضِ، وقد يُستعملُ في القرآنِ، والمرادُ به ذلكَ، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوةُ يوسفَ لأبيهِم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، وكذلكَ إذا استُعمِلَ مقرونًا مع الأعمالِ؛ كقولِه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الانشقاق: ٢٥، والتين: ٦]». «تفسير ابن كثير» ١/ ١٦٥.

تنبيه: أهل السُّنة والجماعة عندما يقولون: إنَّ الإيمانَ هو التصديقُ على ظاهرِ اللغةِ، لا يُريدونَ بذلكَ مجرَّدَ العلمِ والمعرفةِ باللهِ تعالى، وإنَّما يُريدونَ التصديقَ الإذعانيَّ، المستلزمَ للانقيادِ ظاهرًا وباطنًا بلا شَكٍّ.

والدليلُ على أنَّ مجرَّدِ التصديقِ والمعرفةِ لا تَنفعُ ما لم يَصحَبهَا الانقيادُ والخضوعُ:

١ - أنَّ إبليسَ كان يَعرِفُ ربَّه، ولم تَنفَعْه هذهِ المعرفةُ، فهو القائلُ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فقد أَقَرَّ أنَّ اللهَ تعالى خالقُه، لكنَّه أَبَى عن الانقياد كفرًا واستكبارًا.

٢ – وكذلكَ اليهودُ كانوا يَعتقِدُونَ صِدقَ الرسولِ ﷺ ولم يَتَّبِعُوهُ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

٣ – وكذلكَ فرعونُ كان يَعتقِدُ صِدقَ موسى ولم يُؤمِنْ به، بل جَحَد آياتِ اللهِ ظُلْمًا وعُلُوًّا.

فأين هؤلاء مِن تصديقِ مَن قال الله تعالى فيه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]؟ وتصديقِ مَن قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. انظر: «معارج القبول» ٢/ ٥٩٤ – ٥٩٥.

والإيمان شرعًا: فهو التَّصديقُ المُستلزمُ للقبولِ والانقيادِ.

وهو قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، أو: قولٌ بالقلبِ واللسانِ، وعملٌ بالقلبِ

قال الإمام محمد بن نصر المروزي: «أصلُ الإيمانِ: التصديقُ باللهِ، وبما جاء من عنده، وعنه يكونُ الخضوعُ للهِ؛ لأنه إذا صدَّق باللهِ خَضَع لهُ، وإذا خَضَع أطاع ... ومعنى التصديق: هو المعرفةُ باللهِ، والاعترافُ له بالربوبيةِ، بوعدِهِ ووعيدِهِ، وواجبِ حقِّهِ، وتحقيقِ ما صدَّق به من القولِ والعملِ ... ومِن التصديقِ باللهِ يكونُ الخضوعُ لله، وعن الخضوعِ تكونُ الطاعاتُ، فأولُ ما يكونُ عن خضوعِ القلبِ للهِ الذي أوجبَهُ التصديقُ من عملِ الجوارحِ، والإقرارِ باللسانِ». «تعظيم قدر الصلاة» ٢/ ٦٩٥ – ٦٩٦.

وقال أيضًا: «وإنَّما المعرفةُ التي هي إيمانٌ، هي معرفةُ تعظيمِ اللهِ، وجلالِه، وهيبتِه، فإذا كان كذلك، فهو المصدِّقُ الذي لا يجدُ محيصًا عن الإجلالِ والخضوعِ للهِ بالربوبيةِ، فبذلكَ ثَبَت أنَّ الإيمانَ يُوجِبُ الإجلالَ للهِ، والتعظيمَ له، والخوفَ منه، والتَّسارعَ إليهِ بالطاعةِ على قدرِ ما وَجَب في القلبِ من عظيمِ المعرفةِ». الموضع السابق ٢/ ٧٧٥ – ٧٧٦.

وقال أيضًا: «أصلُ الإيمانِ هو التصديقُ، وعنهُ يكونُ الخضوعُ، فلا يكونُ مُصدِّقًا إلَّا خاضعًا، ولا خاضعًا إلَّا مُصدِّقًا، وعنهما تكونُ الأعمالُ». الموضع السابق ٢/ ٧١٥ – ٧١٦.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإيمانُ وإنْ كان يَتَضمَّنُ التَّصديقَ، فليس هو مجرَّدَ التصديقِ، وإنَّما هو الإقرارُ والطمأنينةُ، وذلكَ لأنَّ التصديقَ إنَّما يَعرِضُ للخبرِ فقط، فأمَّا الأمرُ فليس فيهِ تصديقٌ مِن حيثُ هو أَمْرٌ، وكلامُ اللهِ خبرٌ وأمرٌ، فالخبرُ يَستوجِبُ تصديقَ المُخبِرِ، والأمرُ يَستوجِبُ الانقيادَ لهُ والاستسلامَ، وهو عملٌ في القلبِ، جِمَاعُهُ الخضوعُ والانقيادُ للأمرِ وإنْ لم يَفعَلِ المأمورَ بِه، فإذا قُوبِلَ الخبرُ بالتَّصديقِ والأمرُ بالانقيادِ، فقد حَصَل أصلُ الإيمانِ في القلبِ، وهو الطمأنينةُ والإقرارُ». «الصارم المسلول» ٣/ ٩٦٦ – ٩٦٧.

وقال ابن القيم: «ونحنُ نقولُ: الإيمانُ هو التَّصديقُ، ولكنْ ليس التَّصديقُ مجرَّدَ اعتقادِ صدقِ المُخبِرِ دونَ الانقيادِ لهُ، ولو كان مُجرَّدُ اعتقادِ التَّصديقِ إيمانًا؛ لكان إبليسُ، وفرعونُ وقومُه، وقومُ صالحٍ، واليهودُ الذين عَرَفُوا أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ﷺ كمَا يَعرِفُونَ أبناءَهُم مؤمنينَ صادِقِينَ». «كتاب الصلاة وحكم تاركها» ص ٤٤ – ٤٥.

والجوارحِ، يَزيدُ بالطاعةِ، ويَنقصُ بالمعصيةِ.

فقولُ القلبِ: التصديقُ.

يعني: أصلَ التصديقِ، فأيُّ خبرٍ يُخبِرُ اللهُ بِه، فنحنُ نُصدِّقُه.

وقولُ اللسانِ: النُّطقُ بالشهادتَينِ.

وعملُ القلبِ: مثل: النيَّةِ، والإخلاصِ، والمحبَّةِ، والانقيادِ، والإقبالِ على اللهِ عزَّ وجلَّ، والتَّوكُّلِ عليهِ، ولوازم ذلكَ، وتوابعِه.

وعملُ اللسانِ: مثلُ: تلاوةِ القرآنِ، وسائرِ الأذكارِ من التسبيحِ، والتحميدِ، والتهليلِ، والتكبيرِ، والدعاءِ، والاستغفارِ، وغيرِ ذلكَ.

وعملُ الجوارحِ: مثلُ: الصلاةِ، والصيامِ، والحَجِّ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، وصِلَةِ الرَّحِمِ، وبِرِّ الوالدينِ، ونحوِ ذلكَ[1].

---

(١) وقد فصَّل هذه الأركان الحافظ ابن منده، فقال: «ذِكرُ الأبوابِ والشُّعَبِ التي قالها النبي ﷺ إنها الإيمانُ وإنها: قولٌ باللسانِ، ومعرفةٌ بالقلبِ، وعملٌ بالأركانِ ... **فمن أفعالِ القلوبِ:** النيَّاتُ، والإراداتُ، والعلمُ، والمعرفةُ باللهِ، وبِمَا أَمَرَ بِه، والاعترافُ لهُ، والتَّصديقُ بِه، وبما جاء من عنده، والخضوعُ له، ولأَمْرِهِ، والإجلالُ، والرغبةُ إليه، والرهبةُ منه، والخوفُ، والرجاءُ، والحُبُّ لهُ، ولِمَا جاء من عندِه، والحُبُّ والبغضُ فيهِ، والتَّوكُّلُ، والصبرُ، والرِّضا، والرحمةُ، والحياءُ، والنصيحةُ للهِ، ولرسولِه، ولكتابِه، وإخلاصُ الأعمالِ كلِّها، مع سائرِ أعمالِ القلبِ.

ومن أفعالِ اللسانِ: الإقرارُ باللهِ، وبما جاء من عنده، والشهادةُ لله بالتوحيد، ولرسولِه بالرسالةِ، ولجميعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، ثم التَّسبيحُ، والتكبيرُ، والتحميدُ، والتهليلُ، والثناءُ على اللهِ، والصلاةُ على رسولِه، والدعاءُ، وسائرُ الذِّكرِ.

ثم أفعالُ سائرِ الجوارحِ: من الطاعاتِ والواجباتِ التي بُنِيَ عليها الإسلامُ، أوَّلُها: إتمامُ الطهاراتِ كمَا أَمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ، ثم الصلواتُ الخمسُ، وصومُ شهرِ رمضانَ، والزكاةُ على ما بيَّنه الرسولُ ﷺ، ثم حجُّ البيتِ مَن استطاع إليهِ سبيلًا، وتَركُ الصلاةِ كفرٌ، وكذلكَ جحودُ الصومِ والزكاةِ والحجِ، والجهادُ فرضٍ على كفايةٍ مع البَرِّ

والفاجرِ، وسائرُ أعمالِ التطوعِ التي يَستحِقُّ بفعلِهَا اسمَ زيادةِ الإيمانِ، والأفعالُ المَنهيُّ عنها التي بفعلِهَا يَستحقُّ نقصانَ الإيمانِ». «كتاب الإيمان» ١/ ٣٦٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**فأمَّا قولُ القلبِ**: فهو التَّصديقُ الجازمُ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ.

ويَدخلُ فيه: الإيمانُ بكلِّ ما جاء بِه الرسولُ ﷺ.

ثم الناسُ في هذا على أقسامٍ:

منهم مَن صدَّق بِه جملةً، ولم يَعرف التفصيلَ.

ومنهم مَن صدَّق جملةً وتفصيلًا.

ثم منهم مَن يَدومُ استحضارُه وذِكرُه لهذا التصديقِ.

ومنهم مَن يَغفلُ عنهُ ويَذهَلُ.

ومنهم مَن استبصَرَ فيهِ بِمَا قَذَفَ اللهُ في قلبِه من النورِ والإيمانِ.

ومنهم مَن جَزَم بِه لدليلٍ قد تَعترِضُ فيه شُبهةٌ أو تقليدٌ جازمٌ.

وهذا التصديقُ يَتبعُهُ عملُ القلبِ، وهو حبُّ اللهِ ورسولِه، وتعظيمُ اللهِ ورسولِه، وتعزيرُ الرسولِ، وتوقيرُهُ، وخشيةُ اللهِ، والإنابةُ إليه، والإخلاصُ لهُ، والتوكلُ عليه، إلى غيرِ ذلكَ من الأحوالِ.

فهذه الأعمالُ القلبيةُ كلُّها من الإيمانِ، وهي ممَّا يُوجِبُها التَّصديقُ والاعتقادُ إيجابَ العلةِ للمعلولِ.

ويَتبعُ الاعتقادَ: قولُ اللسانِ. ويَتبعُ عملَ القلبِ: الجوارحُ، من الصلاةِ، والزكاةِ، والصومِ، والحجِّ، ونحوِ ذلك». «مجموع الفتاوى» ٧/ ٦٧٢.

وقال ابن القيم: «وبَنَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربعِ قواعدَ: التحققُ بما يحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ ويَرضاهُ من قولِ اللسانِ، والقلبِ، وعملِ القلبِ، والجوارحِ. فالعبوديةُ: اسمٌ جامعٌ لهذه المراتبِ الأربعِ، فأصحابُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابُها:

فقولُ القلبِ: هو اعتقادُ ما أخبر اللهُ سبحانه به عن نفسِهِ، وعن أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وملائكتِهِ ولقائِهِ على لسانِ رُسلِهِ.

وقولُ اللسانِ: الإخبارُ عنه بذلك، والدعوةُ إليه، والذبُّ عنه، وتبيينُ بطلانِ البدعِ المخالفةِ له، والقيامُ بذكرِهِ، وتبليغُ أوامرِهِ.

أمَّا تصديقُ القلبِ: فدليلُه: ما أخرجه مسلم (٨)، من حديث عمر رضي الله عنه، وفيه: «فأَخبِرنِي عن الإيمانِ، قال: «**أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّهِ**».

وأمَّا قولُ اللسانِ وعملُ القلبِ والجوارحِ: فدليلُه: ما أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) (٥٨) -واللفظ له-، من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ شُعبةً، أعلاها: قولُ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ**».

فقولُه ﷺ: «**الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ شُعبةً**» يدلُّ على أنَّ الإيمانَ يَتَجزَّأُ؛ أي: يزيدُ ويَنقصُ؛ لأنَّه جَعَلَهُ شُعُبًا.

وقوله: «**أعلَاها: قولُ لا إلهَ إلَّا اللهُ**»: دليلٌ على أنَّ قولَ اللسانِ من الإيمانِ.

وقوله: «**وأدنَاها إماطةُ الأذى عن الطريقِ**»: دليلٌ على أنَّ عملَ الجوارحِ من الإيمانِ.

وقوله : «**والحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ**»: دليلٌ على أنَّ عملَ القلبِ من الإيمانِ.

فإن قيل: ما الفرقُ بينَ قولِ القلبِ وعملِ القلبِ؟

فيقال: التصديقُ والإقرارُ بِمَا أخبَر بِه الشرعُ، يُسمَّى قولَ القلبِ.

وامتثالُ أوامرِ الشرعِ فيمَا يَتعلَّقُ بالقلوبِ، كخوفِ اللهِ، ورجائِه، ومحبَّتِه،

وعملُ القلبِ: كالمحبةِ لهُ، والتوكلِ عليهِ، والإنابةِ إليهِ، والخوفِ منهُ، والرجاءِ لهُ، وإخلاصِ الدِّينِ لهُ، والصبرِ على أوامرِهِ، وعن نواهِيهِ، وعلى أقدارِه، والرِّضى بِه، وعنهُ، والموالاةِ فيهِ، والمعاداةِ فيهِ، والذلِّ لهُ والخضوعِ، والإخباتِ إليهِ، والطمأنينةِ به، وغيرِ ذلك من أعمالِ القلوبِ التي فَرْضُها أفرضُ من أعمالِ الجوارحِ، ومُستحبُّها أحبُّ إلى اللهِ من مُستحبِّها، وعملُ الجوارح بدونِهَا إمَّا عديمُ المنفعةِ، أو قليلُ المنفعةِ.

وأعمالُ الجوارحِ: كالصلاةِ، والجهادِ، ونَقْلِ الأقدامِ إلى الجمعةِ والجماعاتِ، ومساعدةِ العاجزِ، والإحسانِ إلى الخلقِ، ونحوِ ذلك».

يُسمَّى عملَ القلبِ.

وبعبارة أخرى: الشريعةُ من حيثُ العمومُ تَنقسمُ إلى قسمَينِ:

القسم الأول: طَلَبٌ. وهو إرادةُ فِعْلٍ أو تَرْكٍ.

القسم الثاني: إخبارٌ.

وقد جَمَع اللهُ تعالى بينَ الخبرِ والطَّلبِ في قولِه تعالى: ﴿**فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى**﴾ [القيامة: ٣١]، ووجهُ الدلالةِ من الآيةِ: أنَّ التَّصديقَ يَتعلَّقُ بالأخبارِ، والصلاةَ تَتعلَّقُ بالقلبِ والأوامرِ.

وممَّن أَوضَحَ الفرقَ بينَ قولِ القلبِ وعملِ القلبِ: **الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي**، فقال: «والفرقُ بينَ أقوالِ القلبِ وبينَ أعمالِه: أنَّ أقوالَه هي العقائدُ التي يَعترفُ بِهَا القلبُ، ويَعملُها، ويَعتقِدُها، وأمَّا أعمالُ القلبِ فهي حركتُه التي يُحِبُّهَا اللهُ ورسولُه، وضابطُها: محبةُ الخيرِ وإرادتُه الجازمةِ، وكراهيةُ الشَّرِّ، والعزمُ على تَركِه للهِ، وهذهِ الأعمالُ القلبيةُ تَنشأُ عنها أعمالُ الجوارحِ».

«التنبيهات اللطيفة على العقيدة الواسطية» ص ٦١٩ ؛ مجموع مؤلفاته.

وقال الشيخ العثيمين: «وأمَّا عَمَلُه [يعني: القلب]؛ فهو عبارةٌ عن تحرُّكِه وإرادتِه، مثلُ: الإخلاصِ في العملِ، فهذا عملُ قَلْبٍ، وكذلكَ التوكُّلُ والرجاءُ والخوفُ، فالعملُ ليس مجرَّدَ الطمأنينةِ في القلبِ، بل هناك حركةٌ في القلبِ».

«شرح العقيدة الواسطية» ٢/ ٢٣١.

قال المؤلِّف:

وأركانُه ستةٌ:

أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، وتُؤمِنُ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه.

والدليلُ على هذهِ الأركانِ السِّتةِ: قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة : ١٧٧].

ودليل القَدَر: قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

الشرح

الإيمانُ بأركانِ الإيمانِ السِّتةِ على درجتَينِ:

الدرجة الأولى: الإيمانُ المجملُ. وهذا واجبٌ، ولا يَصحُّ إيمانُ أحدٍ إلَّا بِهَا، فمَن أَنكَر واحدةً من هذهِ الأركانِ صار كافرًا. انظر: «مجموع الفتاوى» ١٤/ ١٣٤.

الدرجة الثانية: الإيمان التفصيلي. وهذا مستحبٌّ.

وقد بيَّن هذين النوعين شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد سُئل عمَّا يجبُ على المكلَّفِ اعتقادُهُ؟ فقال: «الذي يجبُ على المكلَّفِ اعتقادُهُ: فهذا فيه إجمالٌ وتفصيلٌ: **أمَّا الإجمالُ،** فإنَّه يجبُ على المكلَّفِ أن يؤمنَ باللهِ ورسولِهِ، ويُقرَّ بجميعِ ما جاء به الرسولُ من أمرِ الإيمانِ باللهِ، وملائكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وما أَمر به الرسولُ ونَهَى؛ بحيثُ يُقِرُّ بجميعِ ما أخبرَ به وما أَمَر به، فلا بدَّ من تصديقِهِ فيما أَخبرَ؛ والانقيادِ لهُ فيما أَمَر. **وأمَّا التفصيلُ،** فعلى كلِّ مُكلَّفٍ أنْ يُقِرَّ بما ثَبَت عندهُ؛ من أنَّ الرسولَ أَخبرَ بِه وأَمَر بِه، وأمَّا ما أَخبرَ بِه الرسولُ، ولم يَبْلُغْهُ أنَّه أَخبرَ بِه؛ ولم يُمكِنْه العلمُ بذلكَ؛ فهو لا يُعاقَبُ على تركِ الإقرارِ بِه مُفصَّلًا، وهو داخلٌ في إقرارِه بالمجملِ العامِّ». «مجموع الفتاوى» ٣/ ٣٢٧ – ٣٢٨.

وقال أيضًا: «يَصحُّ الإيمانُ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، والنارِ، والجنةِ، ومعلومٌ أنَّا لا نُحِيطُ علمًا بكلِّ شيءٍ من ذلكَ على جهةِ التفصيلِ، وإنَّما كُلِّفنا الإيمانَ بذلكَ في الجملةِ، أَلَا تَرَى أنَّا لا نَعرِفُ عدَّةً من الأنبياءِ، وكثيرًا من الملائكةِ، ولا نُحِيطُ بصفاتِهم، ثم لا يَقدحُ ذلكَ في إيمانِنا بهم». «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٤٠٩ – ٤١٠.

وقال أيضًا: «لا يُشترطُ في الإيمانِ المُجملِ العلمُ بمعنى كلِّ ما أَخبرَ بِه». «مجموع الفتاوى» ١٦/ ٤١٠.

وقال أيضًا: «مَن لَقِيَ اللهَ بالإيمانِ بجميعِ ما جاء به الرسولُ مجملًا، مُقِرًّا بما بَلَغه من تفصيلِ الجملةِ، غيرَ جاحدٍ لشيءٍ من تفاصيلِها، فإنَّه يكونُ بذلكَ من

المؤمنينَ، إذ الإيمانُ بكلِّ فردٍ من تفصيلِ ما أَخبرَ به الرسولُ وأَمَر به غيرُ مقدورٍ للعبادِ، إذ لا يوجدُ أحدٌ إلا وقد خَفِيَ عليه بعضُ ما قاله الرسولُ». «التسعينية» ١/ ٢١٠.

قوله: (أَنْ تُؤمِنَ باللهِ) الإيمانُ باللهِ: معناهُ: الاعتقادُ الجازمُ والتصديقُ بأربعةِ أمورٍ، وهي:

١ – الإيمانُ بوجودِه.

٢ – الإيمانُ بربوبيتِه.

٣ – الإيمانُ بألوهيتِه.

٤ – الإيمانُ بما لهُ من الأسماءِ والصفاتِ.

وتقدَّم الكلام على هذه الأمور الأربع.

قوله: (وملائكتِه) هذا هو الرُّكنُ الثاني من أركانِ الإيمانِ، وهو الإيمانُ بالملائكةِ.

ويَتعلَّق بالإيمان بالملائكة سبع عشرة مسألة:

المسألة الأولى: تعريف الملائكة:

الملائكةُ لغة: جمع مَلَك، مشتَقٌّ من الألوكِ، وهي الرسالةُ، ويقال لها: الألوكةُ، ومعلومٌ أنَّ مِن الملائكة مَن هُم رُسُلُ اللهِ إلى خَلْقِه، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**﴾ [هود: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿**قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرْسَلُونَ**﴾ [الذاريات: ٣١ والحجر: ٥٧].

وشرعًا: هم خَلْقٌ من مخلوقاتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ العظيمة، خَلَقَهُم مَجبُولِينَ على طاعتِه وعبادتِه، ليس لهم من خصائصِ الربوبيةِ والألوهيةِ شيءٌ.

المسألة الثانية: معنى الإيمان بالملائكة:

الإيمانُ بالملائكةِ يَتَضمَّنُ أربعةَ أمورٍ:

١ – الإيمانُ بوجودِهِم.

٢ – الإيمانُ بِمَا عَلِمنَا من أسمائِهِم -كجبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ-، وما لم نَعلَم من أسمائِهِم، فنُؤمِنُ بِهِم إجمالًا.

٣ – الإيمانُ بِمَا عَلِمنَا من صفاتهم.

٤ – الإيمانُ بِمَا عَلِمنَا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله.

المسألة الثالثة: حكم الإيمان بالملائكة:

الإيمانُ بالملائكةِ هو الرُّكنُ الثاني من أركانِ الإيمانِ، وقد دلَّ على وجوبِ الإيمانِ بِهِم القرآنُ والسُّنةُ والإجماعُ.

أمَّا الكتاب: فقولُه تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقولُه تعالى: ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾ [النساء: ١٣٦]، فأَطلَقَ الكفرَ على مَن أَنكَر هذهِ الأركانَ.

وقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأمَّا السُّنة: فحديثُ جبريلَ عليهِ السلامُ، وفيه: فأَخبِرنِي عن الإيمانِ، قال: «**أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّهِ**».

وأمَّا الإجماع: فالإيمانُ بالملائكةِ من الأمورِ المعلومةِ من الدِّينِ بالضرورةِ.

المسألة الرابعة: حكم إنكار الملائكة:

بيَّن سبحانَه أنَّ عدمَ الإيمانِ بالملائكةِ كفرٌ، فقال سبحانَه: ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا**﴾ [النساء: ١٣٦].

وجه الدلالة: أنَّ اللهَ تعالى أَطلَقَ الكفرَ على مَن أَنكَر رُكنًا من أركانِ الإيمانِ، وذَكَر منها الملائكةَ.

المسألة الخامسة: مادة خَلْق الملائكة:

خَلَق اللهُ سبحانَه الملائكةَ من نور، ففي «صحيح مسلم» (٢٩٩٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ، وخُلِقَ الجَانُّ من مارِجٍ من نَارٍ، وخُلِقَ آدَمُ ممَّا وُصِفَ لكُم**»(١).

المسألة السادسة: الحكمة من خَلْق الملائكة:

خَلَق اللهُ عزَّ وجَلَّ الملائكةَ لعبادتِه سبحانَه كمَا خَلَق سائرَ الخَلْقِ، قال تعالى: قال تعالى: ﴿**وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠](٢)، وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ**

---

(١) **(خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ)** هذا النورُ مخلوقٌ ولا شكَّ، خَلَقهُ اللهُ أولًا، ثم خَلَق منهُ الملائكةَ، فالملائكة أجسام نورانية.

(وخُلِقَ الجَانُّ من مارِجٍ مِن نَارٍ) أي: خَلَق اللهُ عزَّ وجلَّ النارَ، ثم خَلَق منها الجِنَّ.

والمَارِجُ هو: اللَّهَبُ المُختلِطُ بسَوَادِ النارِ.

(وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ) أي: ممَّا ذَكَر اللهُ لنا في القرآنِ الكريمِ، كقوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [ص: ٧١ - ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا**﴾ [فاطر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩].

(٢) «﴿**وَمَنْ عِنْدَهُ**﴾؛ أي: من الملائكة ﴿**لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ**﴾؛ أي: لا يَمَلُّونَ ولا يَسأمُونَها، لشدَّةِ رغبتِهم، وكمال محبَّتِهم، وقوةِ أبدانِهم ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾؛ أي: مُستَغرِقِينَ في العبادةِ والتسبيحِ في جميعِ أوقاتِهم، فليس في أوقاتِهم وقتُ فارغٍ، ولا خالٍ منها، وهم على كثرتِهم بهذهِ الصفةِ، وفي هذا من بيانِ عظمتِه وجلالةِ سُلطانِه وكمالِ عِلْمِه وحِكمتِه، ما يُوجِبُ ألَّا يُعبَد إلَّا هو، ولا تُصرَفُ العبادةُ لغيرِه». «تفسير السعدي» ص ٥٢٠.

﴿مُشْفِقُونَ ۝ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩][(١)].

المسألة السابعة: أعداد الملائكة:

(١) «يُخبِرُ تعالى عن سفاهةِ المشركينَ المُكذِّبينَ للرسولِ، وأنَّهم زَعَمُوا -قبَّحَهُمُ اللهُ- أنَّ اللهَ اتَّخَذ وَلَدًا، فقالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، تعالى اللهُ عن قولِهِم، وأخبَر عن وَصْفِ الملائكةِ، بأنَّهم عبيدٌ مَربُوبُونَ مُدبَّرونَ، ليس لهم من الأمرِ شيءٌ، وإنَّما هم مُكرَمُونَ عندَ اللهِ، قد أَكرَمَهُمُ اللهُ، وصَيَّرهُم من عَبيدِ كرامتِه ورحمتِه، وذلكَ لِمَا خصَّهُم بِه من الفضائلِ والتطهيرِ عن الرذائلِ، وأنَّهم في غايةِ الأدبِ مع اللهِ، والامتثالِ لأوامرِه، فـ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي: لا يقولون قولا مما يتعلق بتدبير المملكة حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: مهما أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فالله قد أحاط بهم علمه، فعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: أمورهم الماضية والمستقبلة، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئياتِ وَصْفِهِم بأنَّهم لا يَسبِقُونَه بالقولِ: أنَّهم لا يَشفَعُونَ لأحدٍ بدونِ إذنِه ورِضَاهُ، فإذا أَذِنَ لهم، وارتَضَى مَن يَشفعُونَ فيهِ، شَفَعُوا فيهِ، ولكنَّه تعالى لا يَرضَى من القولِ والعملِ إلَّا ما كان خالصًا لوجهِه، مُتَّبَعًا فيهِ الرسولُ، وهذهِ الآيةُ من أدلةِ إثباتِ الشفاعةِ، وأنَّ الملائكةَ يَشفعُونَ ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون وَجِلونَ، قد خَضَعُوا لجلالِه، وعَنَتْ وجوهُهُم لعزِّهِ وجَمَالِه.

فلمَّا بيَّن أنَّه لا حقَّ لهم في الألوهيةِ، ولا يَستحقُّونَ شيئًا من العبوديةِ بِمَا وَصَفَهُم بِه من الصفاتِ المقتضيةِ لذلكَ، ذَكَر أيضا أنَّه لا حَظَّ لهم، ولا بمجرَّدِ الدَّعوى، وأنَّ مَن قال منهم: ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ على سبيلِ الفرضِ والتَّنزُّلِ ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ وأيُّ ظُلمٍ أعظمُ من ادِّعاءِ المخلوقِ الناقصِ، الفقيرِ إلى اللهِ من جميعِ الوجوهِ مشاركةَ اللهِ في خصائصِ الإلهيةِ والربوبيةِ؟». «تفسير السعدي» ص ٥٢٢.

دلَّت النصوصُ من الكتابِ والسُّنةِ على أنَّ الملائكةَ خَلْقٌ لا يُحصِيهِم إلَّا اللهُ كثرةً، قال تعالى عن خَزَنةِ جهنَّمَ من الملائكةِ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

قال البغوي في «تفسيره»: «﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، يعني: مِن الملائكةِ الذين خَلَقَهُم لتعذيبِ أهلِ النارِ، لا يَعلمُ عدَّتَهُم إلَّا اللهُ، والمعنى: إنَّ تسعةَ عشرَ هم خَزَنةُ النارِ، ولهم من الأعوانِ والجنودِ من الملائكةِ ما لا يَعلَمُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ»، وإذا كان عددُ خَزَنةِ جهنمَ بهذه المثابةِ، فكم يَبلُغُ عددُ الملائكةِ إذا أَضَفنَا إليهِم خزنةَ الجنةِ، وملائكةَ السمواتِ، وملائكةَ الأرضِ، على اختلافِ أصنافِهم وأعمالِهم.

وممَّا يدلُّ على كثرةِ عددِ الملائكةِ:

١ - ما في «الصحيحين»، من حديث مالك بن صَعْصَعة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ في قصةِ الإسراءِ والمعراج: «**ثُمَّ رُفِعَ لِي البيتُ المَعمورُ، فقلتُ: يا جبريلُ مَا هَذَا؟ قال: هذا البيتُ المَعمورُ، يَدخُلُهُ كُلَّ يومٍ سبعونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إذا خَرَجُوا منهُ لم يَعُودُوا فيهِ آخرُ ما عليهِم**». أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (١٦٢).

٢ - وما أخرجه مسلم (٢٨٤٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**يُؤتَى بجهنَّمَ يومئِذٍ، لها سبعونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مع كُلِّ زِمَامٍ سبعونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»؛ يعني: أنَّ عدَدَهُم أربعةُ آلافٍ وتسعُمئةِ مليونَ مَلَكٍ.

٣ - وما أخرجه الترمذي، من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنِّي أَرَى ما لا تَرَونَ، وأَسمَعُ ما لا تَسمعُونَ، أَطَّتِ السَّماءُ، وحُقَّ لهَا أنْ تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلَّا ومَلَكٌ وَاضِعٌ جَبهتَهُ ساجدًا للهِ ...**» الحديث.

والأَطِيطُ: صَوتُ الرَّحْلِ، والمعنى: أنَّ كثرةَ ما في السماءِ من الملائكةِ قد أَثقَلَها حتى أطَّتْ.

المسألة الثامنة: أسماء الملائكة:

قد وَرَد تسميةُ الملائكةِ في الكتابِ والسُّنةِ بعدَّةِ أسماءَ عامَّةٍ وخاصَّةٍ.

فمن أسمائِهم العامَّةِ:

١- الرُّسُل:

قال الله تعالى: ﴿**اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملَائِكَةِ رُسُلًا**﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الملَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [فاطر: ١]، وقال تعالى على لسانِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ أنَّه قال للملائكةِ: ﴿**فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المُرْسَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ**﴾ [الذاريات: ٣١ - ٣٣].

٢- السَّفَرة:

قال تعالى: ﴿**فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ**﴾ [عبس: ١٣ - ١٦]، **قال البخاري:** سَفَرةُ الملائكةِ: واحدُهم سافرٌ، سَفَرتُ: أصلحتُ بينهم، وجُعِلَتِ الملائكةُ إذا نَزَلَتْ بوحيِ اللهِ وتأديتِه كالسَّفيرِ الذي يُصلحُ بين القومِ، ثم روى (٤٩٣٧) بسندِه إلى عائشةَ رضي الله عنها مرفوعًا: «**مَثَلُ الذي يَقرأُ القرآنَ، وهو حافظٌ لهُ مع السَّفَرةِ الكِرَامِ البَرَرةِ ...**».

وقال النووي: «السَّفَرة: جمع سَافِر، ككاتِب وكَتَبة، والسَّافرُ: الرسولُ، والسَّفَرةُ: الرُّسُلُ؛ لأنَّهم يُسفِرُونَ إلى الناسِ برسالاتِ اللهِ. وقيل: السَّفَرةُ: الكَتَبةُ». «شرح صحيح مسلم» ٦/ ٨٤.

٣- الجنود:

قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا**﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ**

﴿تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩][(١)]، وقال عن خزنةِ جهنَّمَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وفي «مسند الإمام أحمد» بسند صحيح، من حديث حذيفة رضي الله عنه في غزوة الخندق: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لهُ: «**يا حذيفةُ، فاذهَبْ، فادخُلْ في القومِ، فانظُرْ ما يَفعلُونَ، ولا تُحدِثَنَّ شيئًا حتَّى تَأتِينا**»، قال: **فذَهَبتُ، فدَخَلتُ في القومِ، والرِّيحُ وجُنُودُ اللهِ تَفعَلُ ما تَفعَلُ، لا تَقِرُّ لهُم قِدْرًا، ولا نارًا، ولا بِنَاءً ...**» الحديث.

٤- الملأ الأعلى:

قال تعالى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨][(٢)]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩][(٣)].

٥- الأشهاد:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقد اختُلف في المرادِ بالأشهادِ في هذهِ الآيةِ، فروي عن مجاهد أنَّه قال: هم الملائكةَ الذينَ كانوا يَحفظُونَ أعمالَهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّهم الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهِم الصلاةُ والسلامُ. وعن قتادة: الخلائقُ كلُّهُم».

---

(١) والمفسِّرون على أن المراد بالجنود هنا: الملائكة. انظر: «تفسير ابن كثير» ٢/ ٣٤٦.

(٢) **قال البغوي** في «تفسيره»: «والمَلَأ الأعلى، هم: الملائكةُ؛ لأنَّهم في السماءِ».

(٣) **قال البغوي** في «تفسيره»: «﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾ يعني: الملائكةَ، ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني: في شأنِ آدمَ عليه السلام حينَ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]».

ورجَّح ابنُ كثيرٍ أنَّها عامَّة، فقال: «يُبيِّنُ تعالى حالَ المفترينَ عليهِ وفضيحتَهُم في الدارِ الآخرةِ على رؤوسِ الخلائقِ؛ من الملائكةِ، والرُّسُلِ، والأنبياءِ، وسائرِ البشرِ، والجَانِّ». «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٦٨ و٣١٣.

ب – وأمَّا الأسماء الخاصَّة، فمنها:

(١) جبريل:

وقد وَرَد هذا الاسمُ في عدَّةِ مواضعَ من كتابِ اللهِ تعالى: قال اللهُ تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المؤْمِنِينَ**﴾ [التحريم: ٤].

ووَرَد كذلكَ في أحاديثَ كثيرةٍ، منها: قولُه ﷺ في الحديثِ المشهورِ: «**هذا جبريلُ، جاءَ لِيُعلِّمَ الناسَ دِينَهُم**»(١)، وقولُه ﷺ: «**فُرِجَ سَقفُ بَيتِي وأنا بمكَّةَ، فنَزَلَ جبريلُ ﷺ**»(٢)، وقولُه ﷺ: «**يا عائشُ، هذا جبريلُ، يَقرأُ عليكِ السَّلامَ**»(٣).

وأمَّا عن معنى اسم (جبريل)، فقال ابن عباس وعكرمة: معناه: عبد الله، وأنَّ كلَّ اسمٍ فيه (إيل)، فهو الله. «تفسير الطبري» [البقرة: ٩٧].

ولجبريل أسماء أخرى:

منها: الرُّوح:

قال تعالى: ﴿**تَعْرُجُ الملَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالملَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾ [النبأ: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿**تَنَزَّلُ الملَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا**﴾ [القدر: ٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٨)، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢١٧)، ومسلم (٢٤٤٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال القرطبي: «والرُّوحُ جبريلُ عليهِ السلامُ. قالَه ابنُ عباسٍ». «تفسير القرطبي» ٢٨١/١٨

وممَّا يدلُّ على أنَّ المرادَ بالرُّوحِ هنا جبريلُ: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أضافَهُ إلى نفسِه في قولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ومن المعلومِ أنَّ المُرسَل إلى مريمَ هو جبريلُ عليهِ السلامُ.

وفي «صحيح مسلم» (٢٢٣)، من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقولُ في ركوعِه وسُجُودِه: «**سُبُّوحٌ، قُدُّوسٌ، رَبُّ الملَائِكَةِ وَالرُّوحِ**»(١).

فالرُّوح هنا –والله أعلم– جبريلُ، وهو من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ.

ومنها: الرُّوح الأمين:

قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، قال ابن كثير: «هو جبريلُ عليهِ السلامُ، قالَه غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ: ابنُ عباسٍ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، وقتادةُ، وغيرُهُم، وهذا ممَّا لا نزاعَ فيه».

وقد وَرَد هذا الاسمُ في «مسند الإمام أحمد»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال لعائشةَ رضي الله عنها: «**وأَنزَلَ اللهُ بَرَاءتَكِ مِن فوقِ سبعِ سماواتٍ، جَاء بِه الرُّوحُ الأمينُ**».

ومنها: رُوح القُدُس:

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

---

(١) **قال النووي:** «قال ابن فارس والزَّبيدي وغيرهما: سُبُّوح، هو: اللهُ عزَّ وجلَّ، فالمرادُ بالسُّبُّوحِ القُدُّوسِ: المُسبَّحُ المُقدَّسُ، فكأنَّه قال: مُسبَّحٌ مُقدَّسٌ، ربُّ الملائكةِ والرُّوحِ. ومعنى سُبُّوح: المُبرَّأُ من النقائصِ والشريكِ، وكلِّ ما لا يليقُ بالإلهيةِ. وقُدُّوسٌ: المُطهَّرُ من كلِّ ما لا يليقُ بالخالقِ». «شرح صحيح مسلم» ٤/ ٢٠٤ – ٢٠٥.

وفي «صحيح البخاري» (٤٥٣) ومسلم (٢٤٨٥) (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا: «**يا حسَّانُ، أَجِبْ عن رسولِ اللهِ ﷺ، اللهُم أَيِّدهُ بِرُوحِ القُدُسِ**»، ومعنى القُدُس: أي: الطاهر[١].

(٢) ميكائيل:

وقد وَرَد هذا الاسمُ في قولِه تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٩٨].

وأخرج البخاري (٣٢٣٦) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، قَالاَ الَّذِي يُوقِدُ النَّارَ: مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ**».

وأمَّا عن عَمَلِه: فهو مُوكَّلٌ بالقَطْر والنباتِ[٢].

قال الحافظ ابن كثير: «وميكائيلُ مُوكَّلٌ بالقَطْرِ والنباتِ اللَّذَينِ يُخلَقُ منهما الأرزاقُ في هذهِ الدارِ، ولهُ أعوانٌ يَفعلُونَ ما يَأمرُهُم بِه بأمرِ ربِّه، يُصرِّفُونَ الرِّياحَ والسَّحابَ كمَا يَشاءُ الرَّبُ جَلَّ جَلَالُه، وقد رُوِّينا أنَّه ما من قَطْرَةٍ تَنزِلُ من السماءِ إلَّا ومعهَا مَلَكٌ يُقدِّرُهَا في موضعِهَا من الأرضِ». «البداية والنهاية» ١/ ١٠٥؛ ط دار هجر.

(٣) إسرافيل:

وقد وَرَد هذا الاسمُ فيمَا أخرجه مسلم (٧٧٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا قام من الليلِ يُصلِّي يقولُ: «**اللهُمَّ رَبَّ جبرائيلَ**

---

(١) «النهاية في غريب الحديث الأثر» ٤/ ٢٤.

قال الراغب الأصفهاني في «المفردات» ص ٦٦٠: «وقولُه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾، يعني به: جبريلَ، من حيثُ إنَّه يَنزِلُ بالقُدُسِ من اللهِ، أي: ممَّا يُطهِّرُ بِه نُفُوسَنَا من القرآنِ، والحكمةِ، والفيضِ الإلهيِّ».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (٧٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه سأل جبريلَ عليه السلام: «وعلى أي شيءٍ ميكائيلُ؟»، قال: على النَّباتِ والقَطْرِ.

وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ، أنتَ تَحكمُ بينَ عبادِكَ فيمَا كانوا فيهِ يَختلِفُونَ، اهدِنِي لِمَا اختُلِفَ فيهِ من الحقِّ بإذنِكَ، إنَّكَ تَهدِي مَن تَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ».

وأمَّا عن عَمَلِه: فهو المُوكَّلُ بالنَّفخِ في الصُّوْر. قال القرطبي: «الأُممُ مُجمِعةٌ على أنَّ الذي يَنفخُ في الصُّوْرِ إسرافيلُ عليهِ السلامُ». «تفسير القرطبي» [الأنعام: ٧٣].

(٤) مالك خازن النار:

وقد وَرَد هذا الاسمُ في قولِه تعالى: ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٧][1]، ولا تَعارُضَ بينَ هذهِ النصوصِ وبينَ قولِه تعالى: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ [المدثر: ٣٠]، فمالكٌ هو خازنُ النارِ، وله أعوانٌ.

وقد رآهُ النبيُّ ﷺ ليلةَ الإسراءِ، ففي «الصحيحين»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**رأيتُ ليلةَ أُسرِيَ بِي موسى رَجُلًا آدمَ طُوالًا جَعْدًا، كأنَّهُ من رجالِ شَنُوءةَ، ورأيتُ عيسَى رَجُلًا مَربُوعًا، مَربُوعَ الخَلْقِ إلى الحُمْرةِ والبَيَاضِ، سَبِطَ الرَّأسِ، ورأيتُ مالكًا خازِنَ النَّارِ**». أخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥).

(٥) مَلَك الموت:

هكذا جاء وَصْفُه في الكتابِ والسُّنةِ، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الموْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الموْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ**﴾ [الأنعام: ٦١].

تنبيه: اشتَهَر عندَ كثيرٍ من الناسِ تسميةُ مَلَكِ الموتِ (عَزرائيل)، ولم تَرِدْ هذهِ التسميةُ في شيءٍ من الأحاديثِ الصحيحةِ، لكن قال القاضي عياض: «قال القاضي أبو الفضل: وهذا كلُّه فيمَن تُكلِّم فيهم بِمَا قُلناهُ على جملةِ الملائكةِ والنبيِّينَ، أو على مُعيَّنٍ ممَّن حقَّقنَا كونَه من الملائكةِ والنبيِّينَ، ممَّن نصَّ اللهُ

---

(١) **قال الطبري** في «تفسيره» عند هذه الآية: «يقول تعالى ذِكره: ونادَى هؤلاءِ المُجرمونَ بعدَما أدخلَهُمُ اللهُ جهنَّمَ، فنالَهُم فيها من البَلاءِ ما نالَهُم، مالكًا خازنَ جهنَّمَ».

عليهِ في كتابِه، أو حقَّقنَا عليهِ بالخبرِ المتواترِ، والمُشتَهرِ، المُتَّفقِ عليهِ بالإجماعِ القاطعِ كجبريلَ، وميكائيلَ، ومالكٍ، وخَزَنةِ الجنةِ، وجهنَّمَ، والزَّبانيةِ، وحَمَلةِ العرشِ، المذكورينَ في القرآنِ من الملائكةِ، ومَن سُمِّيَ فيهِ من الأنبياءِ، وكعزرائيلَ، وإسرافيلَ، ورِضْوانٍ، والحَفَظةِ، ومُنكَرٍ ونَكِيرٍ، من الملائكةِ المُتَّفقِ على قَبولِ الخبرِ بِهِمَا».

(٦) مُنكَر ونَكِير:

وَرَد هذانِ الاسمانِ في أحاديثِ فتنةِ القبرِ، وقد دلَّ على ثبوتِهِمَا السُّنَّةُ والإجماعُ.

أمَّا السُّنَّة:

١ – فما أخرجه الترمذي بسند حسن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا قُبِرَ الميِّتُ –أو قال: أحدُكُم– أَتاهُ مَلَكانِ أَسْودَانِ أَزْرقَانِ، يقالُ لأحدِهِما: المُنكرُ، وللآخرِ: النَّكيرُ، فيَقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرَّجُل؟ فيقولُ: ما كان يقولُ: هو عبدُ اللهِ ورسولُه، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا عَبدُهُ ورسولُه، فيَقولانِ: قد كُنَّا نَعلَمُ أنَّكَ تقولُ هذا، ثُمَّ يُفسَحُ لهُ في قَبرِه سَبعُونَ ذِرَاعًا في سبعينَ، ثُمَّ يُنوَّرُ لهُ فيهِ، ثُمَّ يُقالُ لهُ: نَمْ، فيَقولُ: أَرجِعُ إلى أَهْلي فأُخبِرُهُم، فيَقولانِ: نَمْ، كنَوْمَةِ العَروسِ، الذي لا يُوقِظُهُ إلَّا أَحَبُّ أَهْلِه إليهِ، حتَّى يَبعَثَهُ اللهُ مِن مَضجَعِه ذلكَ، وإنْ كان منافقًا قال: سَمِعتُ النَّاسَ يَقولونَ، فقلتُ مِثلَهُ، لا أدري، فيَقولانِ: قَد كُنَّا نَعلَمُ أَنَّكَ تَقولُ ذلكَ، فيُقالُ للأرضِ: التَئِمِي عليهِ، فتَلْتَئِمُ عليهِ، فتَختَلِفُ فيها أضلاعُه، فلا يزالُ فيها مُعَذَّبًا حتَّى يَبعَثَهُ اللهُ مِن مَضجَعِه ذلكَ**».

٢ – وما أخرجه أبو بكر ابن أبي داود في «البعث» بسند صحيح، من حديث عمر رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «**كيف أنتَ إذا كنتَ في أربعةِ أذرعٍ في ذراعين، فرأيتَ مُنكَرًا ونكيرًا؟!**». قال: قلت: يا رسولَ الله، وما مُنكَرٌ ونَكيرٌ؟ قال: «**فتَّانا القبرِ، يَبحثانِ الأرضَ بأنيابِهما، ويَطَآن في أَشعارِهما، أصواتُهما كالرَّعدِ القاصفِ، وأبصارُهما كالبرقِ الخاطفِ، معهما مِرْزبَّةٌ، لو اجتَمَعَ عليها أهلُ الأرضِ لم يُطيقوا رَفعَها،**

هي أيسرُ عليهما مِن عَصَاي هذهِ». قال: قلت: يا رسولَ الله، وأنا على حالتي هذه؟ قال: **نعم**». قلت: فإذًا أَكفيكهما.

وقد صحَّح الأحاديثَ الواردةَ في تسميةِ الملَكينِ بـ(مُنكَرٍ ونكيرٍ) الإمامُ أحمد، وأبو بكر الإسماعيلي، وابن أبي عاصم(١).

وأمَّا الإجماع؛ فحكاه أبو منصور معمر بن أحمد الأصبهاني والطحاوي(٢).

---

(١) **فقد سأل أبو عبيد القاسم بن سلام الإمام أحمد،** فقال: «هذه اللفظة (مُنكَر ونكير) تقول هذا أو تقول مَلَكين؟ قال: نقول: مُنكَر ونكير، وهما مَلَكان». «طبقات الحنابلة» ١/ ٥٥.

وقال أحمد بن القاسم: قلت: يا أبا عبد الله، تُقِرُّ بمُنكَر ونكير، وما يروى من عذاب القبر؟ فقال: «نعم. سبحان الله! نُقِرُّ بذلك، ونقول». قلت: هذه اللفظ (مُنكَر ونَكير) تقول هذا، أو تقول مَلَكين؟ قال: «نقول: مُنكَر ونكير، وهما مَلَكان». «طبقات الحنابلة» ١/ ١٣٥.

وقال أبو بكر ابن أبي عاصم: «وفي المساءلة أخبار ثابتة، والأخبار التي في المساءلة في القبر مُنكَر ونكير أخبار ثابتة توجب العلم، فنرغب إلى الله أن يثبتنا في قبورنا عند مسألة مُنكَر ونكير». «السُّنة» ١/ ٣٧٦.

وقال أبو بكر الاسماعيلي وهو يسوق جُمَلًا من اعتقاد أهل الحديث: «ويؤمنون بمسألة مُنكَر ونكير على ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ». «اعتقاد أئمة الحديث» (٤٢).

(٢) **قال أبو منصور معمر بن أحمد الأصبهاني:** «ولمَّا رأيتُ غُربةَ السُّنةِ، وكثرةَ الحوادثِ واتباعَ الأهواءِ؛ أَحبَبتُ أنْ أُوصِي أصحابِي وسائرَ المسلمين بوصيةٍ من السُّنةِ، وموعظةٍ من الحكمةِ، وأَجمَعُ ما كان عليهِ أهلُ الحديثِ والأثرِ، وأهلُ المعرفةِ والتَّصوفِ من السَّلَفِ المُتقدِّمينَ، والبقيةِ من المتأخرينَ، فأقولُ -وبالله التوفيق- (فذكر جُمَلًا)، ثم قال: «وأنَّ عذابَ القبرِ حَقٌّ، وضغطةَ القبرِ حقٌّ، وأنَّ مُنكَرًا ونكيرًا هما مَلَكان، يَأتيانِ الناسَ في قبورِهِم، يَسألانِ عن ربِّهِم، وعن دينِهِم، ونبيِّهِم ...». «الحُجَّة في بيان المحَجَّة» ١/ ٢٣٣.

وقد تَوارَدَ على ذِكرِ ذلكَ في كُتُبِ الاعتقادِ جَمْعٌ من أهلِ العلمِ، منهم: الطبريُّ، أبو محمد الحسنُ بنُ عليٍّ البربهاريُّ، وأبو حفصِ ابنِ شاهينٍ، وابنُ بَطةَ، وابنُ قدامةَ، وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ، وابنُ القيمِ، والسفارينيُّ، وصديقُ حسن خان، وابنُ العربيِّ المالكيِّ(١).

وقال الطحاوي في «العقيدة الطحاوية»، وهو يذكر جُمَلًا من عقائد أهل السُّنة والجماعة وما يؤمنون به: «وبعذابِ القبرِ لمَن كان لهُ أَهْلًا، وسؤالُ مُنكَرٍ ونكيرٍ في قبرِه عن ربِّه ودينِه ونبيِّه، على ما جاءَتْ بِه الأخبارُ عن رسولِ اللهِ ﷺ، وعن الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهِم». ص ٣٩٦؛ شرح ابن أبي العز.

(١) **قال الطبري:** «والمسألةُ على مَن أَنكَر مُنكَرًا ونَكِيرًا». «التبصير في معالم الدين» ص ٢١٢.

وقال أبو محمد الحسن بن علي البربهاري: «والإيمانُ بعذابِ القبرِ، ومُنكَرٍ ونكيرٍ». «شرح السُّنة» (١٦).

وقال أبو حفص ابن شاهين: «وأَشهَدُ أنَّ مُنكرًا ونكيرًا حقٌّ، وهما عَبْدانِ من ملائكتِه، ويأتونَ إلى عبادِه في قبورِهِم، فيَسألونَهم». «شرح مذاهب أهل السُّنة» ص ٣٢٠.

وقال ابن بطة: «ثم الإيمانُ بعذابِ القبرِ، ومُنكَرٍ ونكيرٍ». «الإبانة الصغرى» (٢٤٠).

وقال ابن قدامة: «وفتنةُ القبرِ حقٌّ، وسؤالُ مُنكَرٍ ونكيرٍ حقٌّ». «لمعة الاعتقاد» ص ١١١؛ شرح العثيمين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا ثَبَتَتِ الرسالةُ ثَبَتَ ما أَخبَرَ بِه الرسولُ ممَّا يُنكِرُهُ بعضُ أهلِ البدعِ؛ كعذابِ القبرِ، وسؤالِ مُنكَرٍ ونكيرٍ». «شرح العقيدة الأصفهانية» ص ٦٦٨.

وقال ابن القيم بعد أنْ ذَكَر حديثَ البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه الطويلِ في إثباتِ عذابِ القبرِ: «هذا حديثٌ ثابتٌ مشهورٌ مستفيضٌ، صحَّحهُ جماعةٌ من الحفاظِ، ولا نَعلمُ أحدًا من أئمةِ الحديثِ طَعَن فيهِ، بل رَوَوهُ في كتبِهِم، وتَلقَّوهُ بالقَبولِ، وجَعَلوهُ أصلًا من أصولِ الدِّينِ في عذابِ القبرِ ونعيمِه، ومساءلةِ مُنكَرٍ ونكيرٍ، وقَبْضِ الأرواحِ، وصعودِهَا إلى بينَ يَدَي اللهِ، ثم رُجُوعِهَا إلى القبرِ». «كتاب الروح» ١/ ١٣٦.

وقال السفَّاريني: «المَلَكانِ اسمُهما: مُنكَرٌ ونَكيرٌ، نصَّ على ذلكَ الإمامُ أحمدُ». «لوامع الأنوار البهية» ٢/ ٨.

وقال صديق حسن خان: «وسؤالُ مُنكَرٍ ونكيرٍ حقٌّ». «قَطْف الثَّمَر في بيانِ عقيدةِ أهلِ الأثرِ» ص ١٢٤.

(٧) هاروت وماروت:

وقد وَرَد هذَانِ الاسمَانِ في قولِه تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الملَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقد اختَلَف أهلُ التفسيرِ في تفسيرِ هذهِ الآيةِ، وفي هاروتَ وماروتَ على أقوال، ورجَّح الطبريُّ قول مَن قال: إنَّهما مَلَكانِ، نَزَلا فتنةً للناسِ، فقال: «إنْ قال لنا قائِلٌ: وهل يَجوزُ أنْ يُنزِلَ اللهُ السِّحرَ، أم هل يجوزُ لملائكتِه أنْ تُعلِّمَهُ الناسَ؟ قلنا له: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أَنزَلَ الخيرَ والشَّرَّ كلَّه، وبيَّن جميعَ ذلكَ لعبادِه، فأوحَاهُ إلى رُسُلِه، وأَمَرهُم بتعليمِ خَلْقِه وتعريفِهِم ما يَحِلُّ لهم ممَّا يَحرُم عليهِم؛ وذلكَ كالزِّنا والسرقةِ وسائرِ المعاصي التي عَرَّفَهُمُوهَا، ونَهَاهُم عن رُكُوبِهَا، فالسِّحرُ أحدُ تلكَ المعاصي التي أخبَرهُم بِهَا، ونَهَاهُم عن العملِ بِهَا.

قالوا: ليس في العلمِ بالسِّحرِ إِثْمٌ، كما لا إثمَ في العلمِ بصنعةِ الخَمْرِ، ونَحْتِ الأصنامِ، والطنابيرِ، والملاعبِ، وإنَّما الإثمُ في عَمَلِه وتَسوِيَتِه. قالوا: وكذلكَ لا إثمَ في العلمِ بالسِّحرِ، وإنَّما الإثمُ في العملِ بِه، وأنْ يَضُرَّ بِه مَن لا يَحِلُّ ضَرُّهُ بِه.

وقال ابن العربي المالكي: «وإنَّما سُمِّي مُنكَرٌ بمعنى عامٍّ يَعمُّ كلَّ مسؤولٍ مؤمنًا وكافرًا؛ لأنَّ كلَّ مَن يراهُمَا يُنكِرُهُما؛ لِمَا هُما عليهِ من وحشةِ المنظرِ، وقبيحِ الصُّورةِ، وغِلَظِ الكلمةِ، وما في المقامعِ التي في أيدِهِما من الهَيبةِ والمخافةِ، وهي فتنةٌ يَلقَاهَا المؤمنُ في أولِ مِحَنِ الآخرةِ، والكافرُ في أولِ نِقَمِهَا، فيُثبِتُ اللهُ المؤمنَ بفضلِه ووعدِه، ويُلقِّنهُ حُجَّتهُ، لا يُبالِي بِهِمَا، ويَخذلُ الكافرَ، فيَتَلجْلَجْ قولُه، ويَبهَتُ قولُه، فيُلِحُّ عليهِ غضبُ اللهِ ونِقَمُهُ». «عارضة الأحوذي» ٤/ ٢٩٢.

قالوا: فليس في إنزالِ اللهِ إيَّاهُ على المَلَكَينِ، ولا في تعليمِ المَلَكَينِ مَن عَلَّمَاهُ من الناسِ إثمٌ، إذا كان تعليمُهُمَا مَن عَلَّمَاهُ ذلكَ بإذنِ اللهِ لهما بتعليمِه، بعدَ أنْ يُخبِرَاهُ بأنَّهما فتنةٌ، ويَنهَاهُ عن السِّحرِ، والعملِ بِه، والكفرِ؛ وإنَّما الإثمُ على مَن يَتعلَّمُه منهما، ويَعملُ بِه، إذ كان اللهُ تعالى ذِكرُه قد نَهَاهُ عن تَعَلُّمِه، والعملِ بِه.

قالوا: ولو كان اللهُ أباح لبني آدمَ أنْ يَتعلَّمُوا ذلكَ، لم يَكُن مَن تَعَلَّمَهُ حَرِجًا، كما لم يَكُونا حَرِجَينِ لِعْلمِهِمَا بِه، إذ كان عِلْمُهُمَا بذلكَ عن تنزيلِ اللهِ إليهِمَا».

ثم قال: «فإنْ التَبَس على ذِي غَبَاءٍ ما قلنا، فقال: وكيفَ يَجوزُ لملائكةِ اللهِ أنْ تُعلِّمَ الناسَ التفريقَ بينَ المَرْءِ وزوجِه؟ أم كيف يَجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ تبارَك وتعالى إنزالُ ذلكَ على الملائكةِ؟

قيل له: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه عرَّف عبادَهُ جميعَ ما أَمَرَهُم بِه، وجميعَ ما نَهَاهُم عنهُ، ثم أَمَرَهُم ونَهَاهُم بعدَ العلمِ منهم بِمَا يُؤمَرُونَ بِه ويُنهَونَ عنهُ، ولو كان الأمرُ على غيرِ ذلكَ، لمَا كان للأمرِ والنهيِ معنًى مفهومٍ؛ فالسِّحرُ ممَّا قد نَهَى عبادَهُ من بني آدمَ عنهُ، فغيرُ مُنكَرٍ أنْ يكونَ جَلَّ ثناؤُه عَلَّمَهُ المَلَكَينِ اللَّذين سمَّاهُمَا في تَنزيلِه، وجَعَلَهُمَا فتنةً لعبادِه من بني آدمَ، كمَا أخبَر عنهما أنَّهما يَقُولانِ لمَن يَتعلَّمُ ذلكَ منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، لِيَختبرَ بِهِمَا عبادَهُ الذينَ نَهَاهُم عن التفريقِ بينَ المَرْءِ وزَوجِه، وعن السِّحرِ، فَيُمَحِّصَ المؤمنَ بتَرْكِه التَّعلُّمَ منهما، ويُخزِيَ الكافرَ بتَعَلُّمِه السِّحرَ والكفرَ منهما، ويكونُ المَلَكانِ في تعليمِهِمَا مَن عَلَّمَا ذلكَ للهِ مُطِيعِينَ، إذْ كانا عن إذنِ اللهِ لهما بتعليمِ ذلكِ مَن عَلَّمَاه يُعَلِّمَانِ.

وقد عُبِدَ من دونِ اللهِ جماعةٌ من أولياءِ اللهِ، فلم يَكُن ذلكَ لهم ضَائِرًا، إذْ لم يَكُن ذلكَ بأمرِهِم إيَّاهُم بِه، بل عُبِدَ بعضُهُم، والمعبودُ عنه نَاهٍ، فكذلكَ المَلَكانِ غيرُ ضائِرِهِمَا سِحْرُ مَن سَحَر ممَّن تَعلَّمَ ذلكَ منهما، بعدَ نَهيِهِمَا إيَّاهُ عنهُ،

وَعِظَتِهِمَا لهُ بقولِهِمَا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، إذْ كانا قد أَدَّيا ما أُمِرَ به بقِيلِهِمَا ذلكَ»[1].

تنبيه: هل (رَقِيبٌ وعَتِيدٌ) المذكورانِ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] من أسماءِ الملائكةِ؟

الصوابُ: أنَّهما وَصْفانِ للكِرَامِ الكاتِبِينَ عليهِمُ السلامُ.

تنبيه آخر: هل كان إبليس من الملائكة أم من الجِنِّ؟

في المسألة قولان لأهل العلم:

القول الأول: أنَّ إبليسَ كان من الملائكةِ. وهو اختيار الطبري.

واستدلوا: بالآياتِ التي فيها الأمرُ بسجودِ الملائكةِ لآدمَ عليهِ السلامُ، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وجه الدلالة: أنَّه لو لم يَكُن إبليسُ من الملائكةِ لمَا كان مأمورًا بالسُّجُودِ لآدمَ عليهِ السلامُ.

قالوا: والأصلُ في الاستثناءِ أنْ يكونَ مُتَّصِلًا، بأنْ يكونَ المُستَثنَى من جنسِ المُستَثنَى منهُ.

القول الثاني: أنَّ إبليسَ كان من الجِنِّ.

واستدلوا بما يلي:

---

(١) «تفسير ابن جرير» ٢/ ٤٢٦-٤٢٧؛ تحقيق محمود شاكر.

وقد استنكر ابن كثير رحمه الله هذا القول من ابن جرير وقال: (وهذا الذي سلكه غريب جداً). وقال الشيخ محمود شاكر رحمه الله محقق «تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٢٢): (ولست أستنكر ما قاله أبو جعفر كما استنكره ابن كثير، ولو أنتَ أنصفتَ وتتبعت كلام أبي جعفر؛ لرأيت فيه حجة بينة ساطعة على صواب مذهبه الذي ذهب إليه، ولرأيت دقة ولطفًا في تناول المعاني وتدبير الألفاظ، لا تكاد تجدها في غير هذا التفسير الجليل القدر).

١ – أنَّ اللهَ تعالى أخبَر أنَّ إبليسَ خُلِقَ من مارِجٍ من نار، بينَما خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ.

٢ – أنَّ اللهَ تعالى أخبَر أنَّ إبليسَ من الجِنِّ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

٣ – أنَّ طبيعةَ الملائكةِ كما أخبَر اللهُ عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وأنَّهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، بخلافِ إبليسَ، فإنَّه كان على العكسِ من ذلكَ، فإنَّ اللهَ قال عنه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وأجابوا عن الآياتِ التي فيها توجيهُ الخطابِ بالأمرِ بالسُّجُودِ لآدمَ عليهِ السلامُ، وأنَّ إبليسَ ذُكِرَ معهم، فقالوا: إنَّه ذُكِرَ معهُم؛ لأنَّه كان مُشارِكًا لهُم في العبادةِ في السماءِ قبلَ أنْ يَهبِطَ منها.

قالوا: وأمَّا الاستثناءُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، فهو استثناءٌ منقطعٌ، كما يقولُ النَّحويونَ: جاء القومُ إلَّا حِمَارًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والتحقيقُ: أنَّه كان منهم باعتبارِ صُورَتِه، وليس منهُم باعتبارِ أصلِه». «مجموع الفتاوى» ٤/ ٣٤٦.

والراجح: القول الثاني؛ لصحة ما استدلوا به.

المسألة التاسعة: في حكم التَّسمِّي بأسماءِ الملائكةِ:

اختلف العلماء في حكم التَّسمِّي بأسماء الملائكة على قولين:

القول الأول: كراهةُ التَّسمِّي بأسماءِ الملائكةِ. وهو قول مالك، والبغوي، وابن القيم، واختيار الشيخ العثيمين.

قال ابن القيم: «من الأسماءِ المكروهةِ: أسماءُ الملائكةِ، كجبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، فإنَّه يُكرَهُ تسميةِ الآدمِيِّينَ بها. قال: وقال أشهب: سُئِلَ مالكٌ عن التَّسمِّي بجبريلَ، فكَرِهَ ذلكَ، ولم يُعجِبْهُ». «تحفة المودود» ص ٩٤.

وقال البغوي: «ويُكرهُ التَّسمِّي بأسماءِ الملائكةِ، مثل: جبريلَ، وميكائيلَ؛ لأنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه قد كَرِهَ ذلكَ، ولم يَأتِنَا عن أحدٍ من الصحابةِ ولا التابعينَ أنَّه سمَّى ولدًا لهُ باسمِ أحدٍ منهم». «شرح السُّنة» ١٢/ ٣٣٦.

وقال الشيخ العثيمين: «والأقربُ: الكراهيةُ، مثلُ جبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، فلا نُسمِّي بهذهِ الأسماءِ؛ لأنَّها أسماءُ ملائكةٍ». «الشرح الممتع على زاد المستقنع» ٧/ ٤٩٨.

وروي في ذلك حديث، لكنْ لا يَصحُّ[1].

القول الثاني: جوازُ التَّسمِّي بأسماءِ الملائكةِ. وهو قول الشافعية، والحنابلة، وهو مروي عن حماد بن أبي سليمان.

قال النووي: «مذهبُنا ومذهبُ الجمهورِ: جوازُ التَّسميةِ بأسماءِ الأنبياءِ والملائكةِ ... لأنَّه لم يَثبُت عن النبيِّ ﷺ النهيُ، فلم تُكرَه». «المجموع» ٨/ ٤٣٦.

وأخرج عبد الرزاق، عن معمر أنَّه قال: قلتُ لحمادِ بن أبي سليمانَ: كيف تقولُ في رَجُلٍ تَسمَّى بجبريلَ وميكائيلَ؟ فقال: لا بأسَ بِه.

والراجح: القول الثاني؛ لعدمِ ورودِ ما يَدلُّ على المنعِ.

تنبيه: اعتاد كثيرٌ من الناسِ إطلاقُ اسمِ ملائكةِ الرحمةِ على النساءِ العاملاتِ في المستشفياتِ، وهذا لا يجوزُ؛ لأنَّ الملائكةَ ليسوا إناثًا.

ومن الأمورِ المنكرةِ أيضًا: تسميةُ البنتِ: (مَلَك) أو (مَلَاك)، فهذا حرامٌ لا يجوز؛ لأنَّ فيه تشبُّهًا بالكفارِ الذينَ يُسمُّونَ الملائكةَ: بنات الله!

المسألة العاشرة: صفاتُ الملائكةِ الخَلْقيةِ:

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير»، من حديث رجل من الصحابة رضي الله عنهم أنَّه قال: يا رسولَ اللهِ، وُلِدَ لِي مولودٌ، فمَا أَخيرُ الأسماءِ؟ قال: «إنَّ خَيرَ أسمائكُم: الحارثُ وهمَّامٌ، ونِعْمَ الاسمُ عبدُ اللهِ وعبدُ الرَّحمنِ، وسَمُّوا بأسماءِ الأنبياءِ، ولا تُسمُّوا بأسماءِ الملائكةِ».

قال الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٢٨٣): «ضعيف جدًّا».

لقد وَصَف اللهُ تعالى الملائكةَ بأوصافٍ عظيمةٍ، فمِن ذلكَ:

(١) فمن صفاتِ الملائكةِ: عِظَمُ خَلْقِهِم، وضَخَامةُ أجسامِهِم، وقُوَّتُهُم:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

قال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: «قوله: ﴿**عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ**﴾؛ أي: طباعُهُم غليظةٌ، قد نُزِعَتْ من قلوبِهِمُ الرحمةُ بالكافرينَ باللهِ ﴿**شِدَادٌ**﴾؛ أي: تركيبُهُم في غايةِ الشدَّةِ، والكثافةِ، والمَنظَرِ المُزعِجِ».

وقال تعالى في وَصْفِ جبريلَ عليهِ السلامُ: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى**﴾ [النجم: ٥ - ٦].

قال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: «﴿**ذُو مِرَّةٍ**﴾؛ أي: ذُو قُوَّةٍ. قالَهُ مجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ذُو منظَرٍ حَسَنٍ. وقال قتادة: ذُو خَلْقٍ طويلٍ حَسَنٍ. ولا منافاةَ بينَ القولينِ؛ فإنَّه عليهِ السلامُ ذُو منظَرٍ حَسَنٍ، وقوةٍ شديدةٍ».

وقال في وَصْفِه أيضًا: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

وفي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها: أنَّها قالت لرسولِ اللهِ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، هل أتى عليكَ يومٌ كان أشَدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ فقال: «**لَقد لَقِيتُ من قومِكِ، وكان أشَدَّ ما لَقِيتُ منهُم يومَ العقبةِ، إذْ عَرَضتُ نَفْسِي على ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فلم يُجِبْنِي إلى ما أَرَدتُ، فانْطَلَقتُ وأنا مَهمُومٌ على وَجْهِي، فلم أَستَفِقْ إلَّا بقَرْنِ الثَّعالِبِ، فرَفَعْتُ رأسي، فإذا أنا بسَحَابةٍ قَد أظَلَّتْنِي، فنَظَرْتُ، فإذا فيها جبريلُ، فنادانِي، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد سَمِعَ قولَ قومِكَ لكَ، وما رُدُّوا عليكَ، وقد بَعَث إليكَ مَلَكَ الجبالِ لِتَأمُرَهُ بما شئتَ فيهِم**»، قال: «**فنادانِي مَلَكُ الجبالِ، وسَلَّمَ عليَّ، ثم قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سَمِعَ قولَ قومِكَ لكَ، وأنا مَلَكُ الجبالِ، وقد بَعَثَنِي رَبُّكَ إليكَ لِتَأمُرنِي بأَمْرِكَ، فمَا شِئْتَ، إنْ**

شِئْتَ أنْ أُطبِقَ عليهِمُ الأَخشَبَينِ»، فقال لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «بَل أَرجُو أنْ يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهِم مَن يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ، لا يُشرِكُ بهِ شيئًا».

وفي «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها: أنَّها سَأَلَتْ النبيَّ ﷺ عن معنى قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ المبِينِ﴾، فقال: «إنَّما هو جبريلُ، لم أَرَهُ على صُورَتِه التي خُلِقَ عليهَا غيرَ هاتَينِ المرَّتَينِ، رَأَيتُهُ مُنهَبِطًا من السَّماءِ، سَادًّا عِظَمُ خَلْقِه ما بينَ السَّماءِ إلى الأرضِ».

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أُذِنَ لِي أنْ أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكةِ الله من حَمَلةِ العرشِ: إنَّ ما بينَ شَحمَةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سبعِمئةِ عامٍ».

قال الذهبي في «مختصر العلو» (ص ٧٥): «إسناده صحيح».

(٢) ومن صفاتِ الملائكةِ: أنَّهم ذُو أجنحة:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الملَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

قال ابن كثير في «تفسيره» عندَ هذهِ الآيةِ: «وقولُه: ﴿جَاعِلِ الملَائِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: بينَه وبينَ أنبيائِه ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾، أي: يَطِيرُونَ بِهَا لِيُبلِّغُوا ما أُمِرُوا بِه سريعًا ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾؛ أي: منهم مَن لهُ جناحانِ، ومنهُم مَن لهُ ثلاثةٌ، ومنهُم مَن لهُ أربعةٌ، ومنهُم مَن لهُ أكثرُ من ذلكَ».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: رأى رسولُ اللهِ ﷺ جبريلَ في صُورَتِه، ولهُ سِتُّمِئَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ منها قد سَدَّ الأُفُقَ، يَسقُطُ من جَنَاحِه من التَّهاوِيلِ والدُّرِّ والياقُوتِ ما اللهُ بِه عليمٌ».

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» [النجم: ١٣]: «إسناده جيد قوي».

وفي «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ للهِ ملائكةً يَطوفُونَ في الطُّرُقِ، يَلتَمِسُونَ أهلَ الذِّكْرِ، فإذا وَجَدُوا قومًا يَذكُرُونَ اللهَ، تَنَادَوا: هلُمُّوا إلى حاجتِكُم»، قال: «فيَحُفُّونَهُم بأجنحتِهِم إلى السَّماءِ الدُّنيا».

(٣) ومن صفاتِ الملائكةِ: عدمُ حاجتِهِم للأكلِ والشُّربِ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٠].

قال القرطبي في «تفسيره»: «قال علماؤُنا: ولم يَأكُلُوا؛ لأنَّ الملائكةَ لا تأكلُ».

وقال السَّفاريني: «وقد حَكَى غيرُ واحدٍ من مُحقِّقي العلماءِ الاتِّفاقَ على أنَّ الملائكةَ لا يأكُلُونَ ولا يَشربُونَ ولا يَنكِحُونَ».

(٤) ومن صفاتِ الملائكةِ: الكلام:

فمن ذلك: تكليمُهُم للرَّبِّ تعالى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ومن ذلك: تكليمُهُم لآدمَ عليهِ السلامُ:

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ، قَالَ: اذْهَبْ، فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الملَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُجِيبُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، قَالَ: فَذَهَبَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، قَالَ فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، قَالَ: فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الْآنَ».

ومن ذلك: تكليمُهُم لزكريا عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الملَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: ٣٩].

ومن ذلك: تكليمُهُم لمريمَ عليها السلام:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الملَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

ومن ذلك: تكليمُ الملائكةِ بعضِهم بعضًا:

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

ومن ذلك: تكليمُهُم لأهلِ الجنةِ:

قال تعالى: ﴿وَالملَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

ومن ذلك: تكليمُهُم لأهلِ النارِ:

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا الم يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ...﴾ [الملك: ٨ - ٩].

(٥) ومن صفاتِ الملائكةِ: قُدرتُهُم على التَّمَثُّل والتَّشَكُّل:

لقد أَعطَى اللهُ تعالى الملائكةَ القدرةَ على التَّشَكُّلِ:

فمن ذلك: مجيئُهُم لنبيِّ اللهِ لوطٍ عليه السلام في صورة شُبَّان، حِسَان الوجوه:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٧ - ٧٨].

قال ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: «يُخبِرُ تعالى عن قُدُومِ رُسُلِه من الملائكةِ بعدَما أَعلَمُوا إبراهيمَ بهلاكِهِم، وفَارَقُوه، وأَخبَرُوهُ بإهلاكِ اللهِ قومِ لوطٍ هذهِ الليلةَ، فانطَلَقوا من عندِه، فأَتَوا لوطًا عليهِ السلامُ، وهو -على ما قيل- في أرضٍ لهُ يَعمُرُهَا. وقيل: بل كان في منزلِه، ووَرَدُوا عليهِ، وَهُمْ في أجملِ صُورةٍ تكونُ، على هيئةِ شُبَّانٍ، حِسَانِ الوجوهِ، ابتلاءً من اللهِ واختبارًا، ولهُ الحكمةُ والحُجَّةُ البالغةُ».

ومن ذلك: تَمَثُّلُ جبريلَ لمريمَ عليها السلام:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ١٩].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾؛ أي: في صُورَةِ إنسانٍ تامٍّ كاملٍ، وهذا المُرسَلُ في هذهِ الآيةِ هو جبريلُ عليهُ السلامُ

ومن ذلك: تَمَثُّلُ جبريلَ عليهِ السلامُ للنبيِّ ﷺ:

فقد تَمَثَّل لهُ في صورةِ رَجُلٍ، شديدِ بياضِ الثيابِ، شديدِ سَوَادِ الشَّعرِ، وسألَهُ عن الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ.

وكان جبريلُ عليهِ السلامُ يأتي النبيَّ ﷺ في صورةِ دِحيَةَ الكَلْبي[1].

ومن ذلك: تَمَثُّلُهُم لآحادِ المؤمنينَ:

ففي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «**أنَّ رَجُلًا زَارَ أخًا لهُ في قريةٍ أخرى، فأَرصَدَ اللهُ لهُ على مَدرَجَتِه مَلَكًا، فلمَّا أَتَى عليهِ، قال: أينَ تُريدُ؟ قال: أُرِيدُ أخًا لي في هذهِ القريةِ، قال: هل لكَ عليهِ من نعمةٍ تَرُبُّهَا؟ قال: لا، غيرَ أنِّي أَحبَبتُهُ في اللهِ عزَّ وجَلَّ، قال: فإنِّي رسولُ اللهِ إليكَ، بأنَّ اللهَ قد أَحبَّكَ كمَا أحبَبتَهُ فيهِ**».

ومن ذلك: ما وقع في قصة الأَبرَصَ والأَقرَعَ والأَعمَى:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ ثلاثةً من بني إسرائيلَ: أَبرَصَ، وأَقرَعَ، وأَعمَى؛ فأراد اللهُ أنْ يَبتَلِيَهُم، فبَعَثَ إليهم مَلَكًا، فأتى الأَبرَصَ، فقال: أيُّ شيءٍ أَحَبُّ إليكَ؟ قال: لَوْنٌ حَسَن، وجِلْدٌ حَسَنٌ، ويَذهَبُ عنِّي الذي قد قَذِرني الناسُ بِه. قال: فمَسَحهُ، فذَهَب عنهُ قَذَرُهُ، وأُعطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وجِلْدًا حَسَنًا. قال: فأيُّ المالِ أَحَبُّ إليكَ؟ قال: الإبلُ أو البقرُ -شك إسحاق-. فأُعطِيَ ناقةً عُشَراءَ، وقال: بارَكَ اللهُ لكَ فيها.**

قال: فأَتَى الأَقرَعَ، فقال: أيُّ شيءٍ أَحَبُّ إليكَ؟ قال: شَعْرٌ حَسَنٌ، ويَذهَبُ عنِّي الذي قد قَذَرني الناسُ بِه. فمَسَحهُ، فذَهَب عنهُ، وأُعطِيَ شَعْرًا حَسَنًا، فقال: أيُّ المال أَحَبُّ إليك؟ قال: البقرُ أو الإبلُ. فأُعطِيَ بقرةً حاملًا، قال: بارَكَ اللهُ لكَ فيها.

---

(١) أخرجه أحمد بسند صحيح، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فأَتَى الأَعمَى، فقال: أيُّ شيءٍ أَحَبُّ إليك؟ قال: أنْ يَرُدَّ اللهُ عليَّ بَصَرِي؛ فأُبْصِرُ بِه الناسَ. فمَسَحهُ، فَرَدَّ اللهُ إليهِ بَصَرَهُ، قال: فأيُّ المالِ أحبُّ إليك؟ قال: الغَنَمُ. فأُعطِيَ شاةً وَالِدًا. فأُنْتَجَ هذانِ وَوَلَّدَ هذا، فكان لهذا وَادٍ من الإبلِ، ولهذا وَادٍ من البقرِ، ولهذا وَادٍ من الغَنَمِ.

قال: ثم إنَّه أَتَى الأَبرَصَ في صُورتِه وهَيْئَتِه، فقال: رَجُلٌ مِسكينٌ وابنُ سبيلٍ، قد انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ في سَفَري، فلا بَلَاغَ لِيَ اليومَ إلَّا باللهِ ثم بِكَ، أَسألُكَ بالذي أَعطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ والجِلْدَ الحَسَنَ والمالَ بَعِيرًا أَتَبلَّغُ بِه في سَفَرِي. فقال لهُ: الحقوقُ كثيرةٌ! فقال لهُ: كأنِّي أَعرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبرَصَ يَقذَرُكَ الناسُ، فقيرًا، فأَعطَاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ المالَ؟ فقال: إنَّما وَرِثْتُ هذا المالَ كابِرًا عن كابِرٍ، فقال: إنْ كنتَ كاذبًا؛ فَصَيَّرك اللهُ إلى ما كُنتَ.

قال: وأَتَى الأَقرَعَ في صُورتِه وهَيْئَتِه، فقال لهُ مثلَ ما قال لهذا، وَرَدَّ عليهِ مثلَ ما رَدَّ عليهِ هذا، فقال لهُ: إنْ كنتَ كاذبًا؛ فَصَيَّرك اللهُ إلى ما كُنتَ.

قال: فأَتَى الأَعمَى في صُورتِه وهَيْئَتِه، فقال: رَجُلٌ مِسكينٌ وابنُ سبيلٍ، قد انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ في سَفَري، فلا بَلَاغ لِيَ اليومَ إلَّا باللهِ ثم بِكَ، أسألُكَ بالذي رَدَّ عليكَ بَصَرَكَ شاةً أَتَبلَّغُ بِهَا في سَفَري، فقال: قد كنتُ أَعمى فَرَدَّ اللهُ عليَّ بَصَري، فَخُذْ ما شِئتَ، وَدَعْ ما شِئتَ، فواللهِ لا أَجْهَدُكَ اليومَ بشيءٍ أَخَذْتَهُ للهِ. فقال: أَمْسِكْ عليكَ مالَكَ، فإنَّما ابْتُلِيتُم؛ فقد رَضِيَ اللهُ عنكَ، وسَخِطَ على صَاحِبَيكَ».

(٦) ومن صفاتِ الملائكةِ: إمكانُ رؤيتِهم:

سَبَق مَعنا رؤيةُ النبيِّ ﷺ لجبريلَ، كما في حديث جبريلِ المشهورِ، لكنْ لم تَكُن رؤيتُهُم للملائكةِ على صُورَتِهم الحقيقيةِ، ولم يَرَ النبيُّ ﷺ جبريلَ عليهِ السلامُ على صُورَتِه الحقيقةِ إلَّا مرتَين، كما تقدَّم معنا.

- **وكذلكَ وَقَعَتْ رؤيةُ الصحابةِ للملائكةِ:**

ومن ذلك: ما وَقَع لأُسَيدِ بنِ حُضَيرٍ رضي الله عنه:

ففي «الصحيحين»، عن أُسيد بن حضير رضي الله عنه أنَّه قال: بَينَمَا هو يَقرأُ من الليلِ سورةَ البقرةِ، وفَرَسُهُ مربوطةٌ عندَهُ، إذْ جَالَتِ الفَرَسُ، فسَكَتَ، فسَكَتَتْ، فقَرَأَ، فجَالَتِ الفَرَسُ، فسَكَتَ، وسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ، فجَالَتِ

الفَرَسُ، فانصَرَفَ، وكان ابنُه يَحيى قريبًا منها، فأَشفَقَ أنْ تُصِيبَهُ، فلمَّا اجتَرَّهُ رَفَع رأسَهُ إلى السَّماءِ، حتَّى ما يَرَاهَا، فلمَّا أَصبَحَ حَدَّثَ النبيَّ ﷺ، فقال: «**اقْرَأْ يا ابنَ حُضَيرٍ، اقْرَأْ يا ابنَ حُضَيرٍ**»، قال: فأَشفَقْتُ يا رسولَ اللهِ أنْ تَطَأَ يَحيى وكان منها قريبًا، فرَفَعتُ رأسِي، فانْصَرَفْتُ إليهِ، فرَفَعْتُ رأسي إلى السَّماءِ، فإذا مِثْلُ الظُّلَّةِ، فيها أَمثالُ المصابيحِ، فخَرَجَتْ حتَّى لا أَرَاهَا، قال: «وتدري ما ذاكَ؟»، قال: لا، قال: «**تلكَ الملائكةُ دَنَتْ لصوتِكَ، ولو قَرَأْتَ لأَصبَحَتْ يَنظُرُ النَّاسُ إليهَا، لا تَتَوارى منهُم**».

قال النووي: «وفي هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة الملائكة»(١).

- **وقد تَقَع رؤيةُ الملائكةِ لغيرِ بني آدمَ:**

ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا سَمِعتُم صِيَاحَ الدِّيكةِ، فاسأَلُوا اللهَ من فَضلِه، فإنَّها رَأَت مَلَكًا، وإذا سَمِعتُم نَهِيقَ الحِمَارِ، فتَعوَّذُوا بِاللهِ من الشَّيطانِ، فإنَّها رَأَتْ شيطانًا**».

*** وقد تَقَع رؤيةُ الملائكةِ في المنامِ:**

كما وَقَع للنبيِّ ﷺ:

ففي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ أنَّه قال لها: «**أُرِيتُكِ في المنَامِ ثلاثَ لَيَالٍ، جاءنِي بِكِ المَلَكُ في سَرَقَةٍ من حريرٍ، فيقولُ: هذهِ امرأتُكَ، فأَكشِفُ عن وَجْهِكِ، فإذا أنتِ هِيَ، فأقولُ: إنْ يَكُ هذا من عندِ اللهِ يُمْضِهِ**».

المسألة الحادية عشرة: صفاتُهُم الخُلُقيَّة:

أَكرَمَ اللهُ ملائكتَه عليهِمُ السلامَ بأنْ فَطَرَهُم وجَبَلَهُم على الأخلاقِ الفاضلةِ الشريفةِ، وهذه من أعظمِ نِعَمِ اللهِ على عبادِه، وقد وَصَف اللهُ نبيَّنا محمدًا بمكارمِ الأخلاقِ، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾

---

(١) «شرح صحيح مسلم» ٦/ ٨٢.

[القلم: ٤][(١)]، فالخُلُق الحَسَنُ نعمةٌ عظيمةٌ، وثوابُه عندَ اللهِ عظيمٌ، ولا يَنالُهُ إلَّا ذُو حظٍّ عظيمٍ، ولمَّا كان الملائكةُ عليهِمُ السلامُ ذُو حظوظٍ عظيمةٍ، فقد آتَاهُمُ اللهُ أخلاقًا عظيمةً، فمن هذهِ الأخلاقِ العظيمةِ:

١ و٢ – فمن أخلاقِهِم: الكَرَمُ والبِرُّ:

وقد ذَكَر اللهَ تعالى هذَين الوصفَين في قولِه: ﴿**بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾ [عبس: ١٥- ١٦]، وقال تعالى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧]، **أمَّا معنى الكَرَم:** فهو اسمٌ للأخلاقِ والفِعالِ المحمودةِ التي تَظهَرُ من الإنسان، ولا يقالُ إلَّا في المَحَاسنِ الكبيرةِ، كمَن يُنفِقُ مالًا في تجهيزِ جيشٍ في سبيلِ اللهِ، وتَحَمُّل حَمَالةٍ تُرقَئ بِهَا دماءُ قومٍ.

وقولُه تعالى: ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦]؛ أي: جَعَلهم كِرامًا.

وأمَّا معنى البِرِّ: فالبِرُّ يُطلقُ على معنَيين:

أحدُهُمَا: معاملةُ الخَلْقِ والإحسانِ إليهِم.

الثاني: يُرادُ به فِعلُ جميعِ الطاعاتِ الظاهرةِ والباطنةِ.

وكلا المعنَيينِ موجودانِ في الملائكةِ، فهم مُحسِنُونَ في عبادتِهِم، مُطِيعُونَ للهِ، قال تعالى: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، فما يَأمُرُهُم بِه تعالى يُبادِرُون إليه، لا يَتَأَخَّرُونَ عنهَ طَرْفةَ عَينٍ، وهم قَادِرُون على فِعلِه، ليس بِهِم عَجْزٌ عنهُ.

---

(١) **قال البغوي** في «تفسيره» عند هذه الآية: «قال ابن عباس ومجاهد: دِينٌ عظيمٌ، لا دِينَ أحبَّ إليَّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام. وقال الحسن: هو آداب القرآن. سُئلت عائشةُ رضي الله عنها عن خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالت: كان خُلُقُهُ القرآنَ. وقال قتادة: هو ما كان يأتمرُ بِهِ من أمرِ اللهِ وينتهي عنهُ من نهي اللهِ، والمعنى: إنَّك على الخُلُقِ الذي أَمَرَكَ اللهُ به في القرآنِ. وقيل: سَمَّى اللهُ خُلُقَهُ عظيمًا؛ لأنَّه امتَثَلَ تأديبَ اللهِ إيَّاهُ بقولِهِ: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ**﴾».

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧]؛ أي: لا يَتَقدَّمُونَ بينَ يَدَيهِ بأمرٍ، ولا يُخالِفُونَهُ فيمَا أَمَر بِه، بل يُبادِرُونَ إلى فعلِه، وهو تعالى وعِلْمُهُ سبحانَه محيطٌ بِهِم، لا يَخفَى عليه منهُم خافيةٌ.

- **كمَا أَنَّهم مُحسِنُونَ إلى الخَلْقِ، مُحبُّونَ للمؤمنينَ، ومن صُوَر إحسانِهِم: دعاؤُهم واستغفارُهُم لهم:**

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

٣- ومن أخلاقِهِم: الحياء:

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ مُضطَجِعًا في بَيتِي، كَاشِفًا عن فَخِذَيهِ، أو سَاقَيهِ، فاستَأذَنَ أبو بكرٍ فأَذِنَ لهُ، وهو على تلكَ الحالِ، فتَحَدَّثَ، ثُمَّ استَأذَنَ عمرُ، فأَذِنَ لهُ، وهو كذلكَ، فتَحَدَّثَ، ثُمَّ استَأذَنَ عثمانُ، فجَلَس رسولُ اللهِ ﷺ، وسَوَّى ثِيَابَهُ، فدَخَلَ، فتَحَدَّثَ، فلمَّا خَرَج قالت عائشةُ: دَخَل أبو بكرٍ، فلم تَهتَشَّ لهُ، وَلَمْ تُبَالِه، ثُمَّ دَخَل عمرُ، فَلَمْ تَهتَشَّ لهُ، وَلَمْ تُبَالِه، ثُمَّ دَخَل عثمانُ، فجَلَسْتَ، وسَوَّيتَ ثيابَكَ، فقال: «**أَلَا أَستَحِي من رَجُلٍ تَستَحِي منهُ الملائكةُ**». أخرجه مسلم (٢٤٠١).

المسألة الثانية عشرة: عبادة الملائكة:

أَكرَمَ اللهُ الملائكةَ عليهم السلام بعباداتٍ كثيرةٍ متنوعةٍ:

(١) فمن عباداتِهِم: الذِّكر والتَّسبيح:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]،

وقال تعالى: ﴿وَالملَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، ومن ذلك: قول الملائكة في خطابِها للهِ تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

(٢) ومن عباداتِهم: الدُّعاءُ للمؤمنينَ:

وهذا الدُّعاء نوعان:

النوع الأول: دعاءٌ عامٌّ للمؤمنينَ:

كما في قولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣][(١)].

النوع الثاني: دعاءٌ خاصٌّ للمؤمنينَ:

ومن ذلك:

(أ) دعاؤُهُم لطالب العلم ومُعلِّمِه:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الملَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالم لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي الماءِ ...**» الحديث.

---

(١) **قال الحافظ ابن كثير:** «والصلاةُ من اللهِ: ثناؤُه على العبدِ عندَ الملائكةِ، والصلاةُ من الملائكةِ للمؤمنينَ فبمعنى الدُّعاءِ للناسِ والاستغفارِ، كقولِه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ [غافر: ٧-٩]». «تفسير ابن كثير» ٦/ ٤٣٦.

وعن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السَّماواتِ والأَرَضِينَ حتَّى النَّمْلةَ في جُحْرِهَا، وحتَّى الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ النَّاسِ الخيرَ**».

(ب) دعاؤُهُم لمُنتَظِرِ الصلاة، ولمَن جَلَس في المسجدِ بعدَ الصلاة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي مُصَلَّاهُ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، وَتَقُولُ الملَائِكَةُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ ارْحَمْهُ، حَتَّى يَنْصَرِفَ، أَوْ يُحْدِثَ**».

(ج) دعاؤُهُم لأهل الصُّفُوف المُتقدِّمة في الصلاة:

فعن النعمان بن بَشير رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ وملائكتَهُ يُصَلُّونَ على الصَّفِّ الأَوَّلِ، أو الصُّفُوفِ الأُولَى**».

(د) دعاؤُهُم للذين يَصِلُونَ الصُّفُوف:

فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ وملائكتَهُ عليهِمُ السَّلامُ يُصَلُّونَ على الذينَ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ**».

(هـ) دعاؤُهُم لمَن صلَّى على النبيِّ ﷺ:

فعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما صلَّى عليَّ أَحَدٌ صلاةً، إلَّا صَلَّتْ عليهِ الملائكةُ، ما دام يُصلِّي عليَّ، فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ من ذلكَ، أو لِيُكثِرْ**».

(و) دعاؤُهُم للمُنفِقِ مالَه في سبيلِ اللهِ:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ، أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللهُمَّ، أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**».

قال النووي: «قال العلماء: هذا الإنفاقُ في الطاعاتِ، ومكارمِ الأخلاقِ، وعلى العيالِ، والضيفانِ، والصدقاتِ، ونحوِ ذلك، بحيثُ لا يُذمُّ ولا يُسمَّى سَرَفًا، والإمساكُ المذمومُ هو الإمساكُ عن هذا».

وقال ابن حجر: «قال القرطبي: وهو يَعمُّ الواجباتِ والمندوباتِ، لكنْ المُمسِكُ عن المندوباتِ لا يَستحِقُّ هذا الدعاءَ، إلَّا أنْ يَغلِبَ عليهِ البُخلُ المذمومُ، بحيثُ لا تَطِيبُ نفسُهُ بإخراجِ الحقِّ الذي عليهِ ولو أَخرَجَهُ».

(ز) دعاؤُهُم للمُتَسحِّرِينَ:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصَلُّونَ على المُتَسحِّرِينَ**».

(ح) دعاؤُهُم للصائمِ إذا أُكِلَ عندَهُ:

فعن أُم عمارة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ دَخَل عليها، فقَدَّمَتْ إليهِ طعامًا، فقال: «كُلِي»، فقالت: إنِّي صائمةٌ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الصَّائِمَ تُصَلِّي عليهِ الملائكةُ إذا أُكِلَ عندَهُ حتَّى يَفرُغُوا**»[1].

(ط) دعاؤُهُم لمَن عاد مريضًا:

فعن عليٍّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا عاد الرَّجُلُ أخاهُ المسلمَ، مَشَى في خِرَافةِ الجَنَّةِ حتَّى يَجلِسَ، فإذا جَلَس غَمَرَتهُ الرَّحمةُ، فإنْ كان غُدوَةً صَلَّى عليهِ سبعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حتَّى يُمسِيَ، وإنْ كان مَسَاءً صَلَّى عليهِ سبعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حتَّى يُصبِحَ**».

(ك) تأمينُهُم على دعاءِ مَن حَضَر عندَ المريضِ أو الميِّت:

فعن أم سلمة رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا حَضَرتُمُ المريضَ أو الميِّتَ، فقولُوا خيرًا، فإنَّ الملائكةَ يُؤَمِّنُونَ على ما تقولُونَ**».

(ل) تأمينُهُم على دعاءِ المسلمِ لأخيهِ بظَهْرِ الغيبِ:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما من عَبْدٍ مسلمٍ يَدعُو لأخيهِ بظَهْرِ الغيبِ، إلَّا قال المَلَكُ: ولكَ بمِثْلٍ**».

(م) دعاؤُهُم لأرواحِ المؤمنينَ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٧٨٢) وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا خَرَجَتْ رُوحُ المؤمنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصعِدَانِهَا، ويقولُ أهلُ السَّماءِ: رُوْحٌ طَيِّبَةٌ، جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأرضِ، صلَّى الله عليكِ، وعلى جَسَدٍ كنتِ تَعْمُرِينَهُ، فيُنطَلَقُ بِه إلى ربِّهِ عزَّ وجَلَّ، ثُمَّ يقولُ: انْطَلِقُوا بِه إلى آخرِ الأَجَلِ، وإنَّ الكافرَ إذا خَرَجَتْ رُوْحُهُ**» -قال حماد: وذَكَر مِنْ نَتْنِهَا، وذَكَر لَعْنًا-، «**ويقولُ أهلُ السَّماءِ: رُوْحٌ خبيثةٌ، جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأرضِ. قال: فيُقالُ: انْطَلِقُوا بِه إلى آخرِ الأَجَلِ**»، قال أبو هريرةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كانت عليهِ على أَنْفِهِ، هكذا[1].

(ن) دعاؤُهُم بالسلامِ على جَنبَتَي الصِّراط:

فعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أنَّه قال: ذَكَر رسولُ اللهِ ﷺ الشفاعةَ، فقال: «**إنَّ النَّاسَ يُعرَضُونَ على جِسْرِ جهنَّمَ، وعليهِ حَسَكٌ وكَلَالِيبُ تَخطَفُ النَّاسَ، وبِجَنْبَتَيْهِ الملائكةُ، يقولونَ: اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**».

- **وكمَا تَدعُو الملائكةُ للمؤمنينَ، وتُصلِّي عليهِم، فإنَّها تَدعُو على الكفارِ، وتَلعَنُهُم، وتَنزِلُ من السماءِ لعقابِهِم:**

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالملَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [البقرة: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ ۝ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالملَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٧]، وقال تعالى: ﴿**وَنَادَى**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٢).

قال النووي: «قوله في روح المؤمن (ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل، ثم قال في روح الكافر: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل) قال القاضي: المراد بالأول انطلقوا بروح المؤمن إلى سدرة المنتهى، والمراد بالثاني انطلقوا بروح الكافر إلى سجين، فهي منتهى الأجل. ويحتمل أن المراد إلى انقضاء أجل الدنيا. قوله (فردَّ رسولُ اللهِ ﷺ رَيْطةً كانت عليه على أنفِهِ) الرَّيطَة -بفتح الراء وإسكان الياء- وهو ثوبٌ رقيقٌ. وقيل: هي المُلاءةِ. وكان سببُ ردِّها على الأنف بسبب ما ذَكَر من نَتْن ريحِ روحِ الكافرِ». «شرح صحيح مسلم» ١٧/ ٢٠٥.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالمينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

قال القرطبي في «تفسيره»: «﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: نادى وصوَّت، يعني: من الملائكةِ».

*** وتَدعُو كذلكَ على أصحابَ الكبائرِ، وتَلعَنُهم:**

فمن ذلك:

(أ) دعاؤُهُم على المُحْدِثِ في المدينة:

فعن علي رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**المدينةُ حَرَمٌ ما بينَ عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ، فمَن أَحدَثَ فيها حدَثًا، أو آوَى مُحدِثًا، فعليهِ لعنةُ اللهِ، والملائكةِ، والناسِ أجمعينَ، لا يَقبَلُ اللهُ منهُ يومَ القيامةِ صَرْفًا ولا عَدْلًا**».

قوله (فمَن أَحدَثَ فيها حَدَثًا، أو آوَى مُحدِثًا): «قال النووي: قال القاضي: معناه: مَن أتى فيها إثمًا، أو آوى مَن أتاهُ وضمَّهُ إليه وحَمَاهُ».

(ب) لَعنُهُم لمَن سَبَّ الصحابةَ رضي الله عنهم:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن سَبَّ أصحابي، فعليهِ لعنةُ اللهِ، والملائكةِ، والناسِ أجمعينَ**».

(ج) لَعنُهُم لمَن أشار بالسلاحِ على مسلم:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن أشار إلى أخيه بحديدةٍ، فإنَّ الملائكةَ تَلعَنُهُ، حتَّى يَدَعَهُ، وإنْ كان أخاهُ لأبيهِ وأُمِّهِ**».

قال النووي: «فيه تأكيدُ حُرمةِ المسلمِ، والنهيُ الشديدُ عن ترويعِه، وتخويفِه، والتَّعرُّضِ لهُ بِمَا قد يُؤذِيه».

(د) لَعنُهُم لمَن انتَسَب إلى غيرِ أبيه، أو تَولَّى غيرَ مَوَالِيه:

فعن علي رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنِ ادَّعى إلى غيرِ أبيهِ، أو انتَمَى إلى غيرِ مَوَالِيه، فعليهِ لعنةُ اللهِ، والملائكةِ، والناسِ أَجْمَعِينَ**».

(هـ) لَعنُهُم مَن حال بينَ وَلِيِّ المقتول وبينَ القتلِ أو الدِّية:

ففي «سنن النسائي» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**مَن قُتِلَ في عِمِّيَّةٍ أو رِمِّيَّةٍ بِحَجَرٍ، أو سَوطٍ، أو عَصًا، فعَقْلُهُ عَقْلُ الخَطَإِ، وَمَن قُتِلَ عَمدًا فهو قَوَدٌ، ومَن حال بينَهُ وبَينَهُ فعليهِ لَعنةُ اللهِ، والملائكةِ، والناسِ أجمعينَ، لا يَقبَلُ اللهُ منهُ صَرْفًا ولا عَدْلًا**».

(و) لَعْنُهُم المرأةَ التي تَهجُرُ فراشَ زوجِها:

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا دَعَا الرَّجُلُ امرأتَه إلى فراشِه، فلم تَأتِهِ، فبَاتَ غضبانَ عليهَا، لَعَنَتْهَا الملائكةُ حتَّى تُصبِحَ**».

(ز) تَركُهُم الصلاةَ على النائحةِ:

ففي «مسند الإمام أحمد» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا تُصلِّي الملائكةُ على نائحةٍ، ولا على مُرِنَّةٍ**».

(٣) ومن عباداتِهِم: حضورُ مجالسِ الذِّكر:

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ للهِ تبارك وتعالى ملائكةً سيَّارةً فُضُلًا، يَتَتبَّعُونَ مجالسَ الذِّكرِ، فإذا وَجَدُوا مجلسًا فيهِ ذِكْرٌ، قَعَدُوا معهُم، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بعضًا بأجنحتِهِم حتَّى يَملَؤُوا ما بينهُم وبينَ السَّماءِ الدُّنيا ...**».

(٤) ومن عباداتِهِم: حضورُ الخُطبةِ يومَ الجمعةِ:

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا كان يومُ الجُمُعةِ، كان على كُلِّ بابٍ من أبوابِ المسجدِ ملائكةٌ، يَكتُبُونَ الأوَّلَ فالأوَّلَ، فإذا جَلَس الإمامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وجاءُوا يَستَمِعُونَ الذِّكْرَ ...**».

(٥) ومن عباداتِهِم: حضورُ الصلواتِ في المساجدِ:

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَتَعاقبُونَ فيكُم ملائكةٌ بالليلِ، وملائكةٌ بالنَّهارِ، ويَجتمِعُونَ في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ**

العصرِ، ثُمَّ يَعرُجُ الذينَ باتُوا فِيكُم، فيَسأَلُهُم رَبُّهم، وهو أَعلَمُ بِهِم: كيفَ تَرَكتُم عبادِي؟ فيقولونَ: تَرَكنَاهُمْ وهُم يُصلُّونَ، وأَتَينَاهُم وهُم يُصلُّونَ».

(٦) ومن عباداتِهِم: تأمينُهُم على تأمينِ الإمامِ، وقول: ربَّنا ولكَ الحمدُ:

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا أَمَّنَ الإمامُ فأَمِّنُوا، فإنَّهُ مَن وَافَق تأمينُهُ تأمينَ الملائكةِ، غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِه**».

(٧) ومن عباداتِهِم: قول: ربَّنا ولك الحمد:

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا قال الإمامُ سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَهُ، فقولُوا: اللهُمَّ، ربَّنَا لكَ الحمدُ، فإنَّهُ مَن وَافَقَ قولُه قولَ الملائكةِ، غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه**».

وقد يَسمَعُ الملائكةُ دعاءً فاضلًا من أَحَدِ المُصلِّينَ، فيَتَسارَعُونَ إلى كتابتِه:

ففي «صحيح مسلم»، من حديث أنس رضي الله عنه: أنَّ رَجُلًا جاء فدَخَل الصَّفَّ، وقد حَفَزَهُ النَّفَسُ، فقال: الحمدُ للهِ، حَمْدًا كثيرًا، طَيِّبًا، مُبارَكًا فيهِ، فلمَّا قَضَى رسولُ اللهِ ﷺ صلاتَه قال: «**أَيُّكُم المُتكلِّمُ بالكلماتِ؟**»، فأَرَمَّ القومُ، فقال: «**أَيُّكُم المُتكلِّمُ بِهَا؟ فإنَّهُ لم يَقُل بأسًا**»، فقال رَجُلٌ: جِئتُ وقد حَفَزَنِي النَّفَسُ، فقُلتُها، فقال: «**لَقَد رأيتُ اثْنَيْ عَشَر مَلَكًا يَبتَدِرُونَها، أَيُّهُم يَرفَعُهَا**».

وأخرج البخاري»، من حديث رِفَاعة بن رافع الزُّرَقي رضي الله عنه أنَّه قال: كُنَّا يومًا نُصَلِّي وراءَ النبي ﷺ، فلمَّا رَفَع رأسَهُ من الركعةِ، قال: «سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَهُ»، قال رَجُلٌ وراءَهُ: ربَّنا ولكَ الحمدُ، حَمْدًا كثيرًا، طَيِّبًا، مُبارَكًا فيهِ، فلمَّا انصَرَف، قال: «**مَن المُتكلِّمُ؟**» قال: أنا، قال: «**رأيتُ بِضعةً وثلاثينَ مَلَكًا يَبتَدِرُونَهَا، أَيُّهُم يَكتُبُهَا أَوَّلُ**».

(٨) ومن عباداتِهِم: الصلاة:

ففي «الصحيحين»، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في حديث الإسراء الطويل: «**ثُمَّ رُفِعَ لِي البيتُ المَعمُورُ، فقلتُ: يا جبريلُ ما هذا؟**

قال: هذا البيتُ المَعمُورُ، يَدخُلُهُ كُلَّ يومٍ سبعُونَ ألفَ مَلَكٍ، إذا خَرَجُوا منهُ، لم يَعُودُوا فيهِ آخرَ ما عليهِم».

فائدة: عباداتُ الملائكةِ كثيرةٌ، وقد وَرَد في النصوصِ أنَّ للملائكةِ عباداتٍ تُشبِهُ بعضَ أجزاءِ صلاتِنَا المشروعةِ لنا.

ومن هذه الهيئات:

أ – القيام والاصطفاف:

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٥].

أي: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ أي: وما مِنَّا إلَّا لهُ مقامٌ معلومٌ في السَّماواتِ يَعبُد اللهَ فيهِ لا يَتَجاوزُه ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾؛ أي: أقدامَنا في الصلاةِ.

وفي «صحيح مسلم»، من حديث حذيفة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**فُضِّلنَا على الناسِ بثلاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كصُفُوفِ الملائكةِ ...**». الحديث.

وفي «صحيح مسلم» أيضًا، عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه قال: خَرَج علينا رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**أَلَا تَصُفُّونَ كمَا تَصُفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟**»، فقلنا: يا رسولَ اللهِ، وكيف تَصُفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟ قال: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ، ويَتَراصُّونَ في الصَّفِّ**».

ب – الركوع والسجود:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

وفي «جامع الترمذي»، من حديثِ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنِّي أَرَى ما لا تَرَونَ، وأَسمَعُ ما لا تَسمعُونَ، أَطَّتِ السَّماءُ، وحُقَّ لهَا أنْ تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلَّا ومَلَكٌ وَاضِعٌ جَبهتَهُ ساجدًا للهِ ...**» الحديث.

الأَطِيطُ: صَوتُ الرَّحْلِ، والمعنى: أنَّ كثرةَ مَن في السماءِ من الملائكةِ قد أَثقَلَهَا، حتَّى سُمِعَ صوتٌ يُشبِهُ صَوْتَ الرَّحْلِ إذا حُمِلَ عليهِ الحِمْلُ الثقيلُ.

وعن العلاءِ بن سعدٍ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال يومًا لجُلسائِه: «هل تَسمعُونَ ما أَسمَعُ؟»، قالوا: وما تَسمعُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ، إنَّه ليس فيها موضِعُ قَدَمٍ إلَّا وعليهِ مَلَكٌ قائمٌ، أو راكعٌ، أو ساجدٌ، وقالتِ الملائكةُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾** [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦]».

(٩) ومن عباداتِهِم: التسليم:

وَرَد في النصوصِ تسليمُ الملائكةِ على آدمَ عليهِ السلامُ:

ففي «صحيح البخاري»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ على صُورتِه، طولُه سِتُّونَ ذراعًا، فلمَّا خَلَقَهُ، قال: اذْهَبْ فسَلِّمْ على أولئِكَ النَّفَرِ، وهم نَفَرٌ من الملائكةِ جلوسٌ، فاستَمِعْ ما يُجِيبونَكَ، فإنَّها تحيتُكَ وتحيةُ ذُرِّيتُكَ، قال: فذَهَب، فقال: السلامُ عليكُم، فقالوا: السلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ، قال: فزَادُوهَ: ورحمةُ اللهِ ...**». الحديث.

كمَا وَرَد تسليمُ الملائكةِ على إبراهيمَ عليه السلام:

قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾** [هود: ٦٩].

كمَا وَرَد تسليمُهُم على خديجةَ وعائشةَ رضي الله عنهما:

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: «**أَتَى جبريلُ النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هذهِ خديجةُ، قد أَتَتْ معهَا إناءٌ فيهِ إدامٌ، أو طعامٌ أو شرابٌ، فإذا هي أَتَتْكَ، فاقْرَأْ عليها السلامَ من ربِّها ومِنِّي، وبَشِّرهَا ببيتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيهِ ولا نَصَبَ**.

وفي «الصحيحين»، من حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: «**يا عائشةُ، هذا جبريلُ يَقرأُ عليكِ السلامَ**»، فقالت: وعليهِ السلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

كمَا وَرَد تسليمُهُم على المؤمنينَ في سَكَراتِ الموتِ:

كما قال تعالى: **﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [النحل: ٣٢].

كمَا وَرَد تسليمُهُم على أهلِ الجنةِ:

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

(١٠) ومن عباداتِهم: الخوف والخشية:

قال الله تعالى عن الملائكة: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨][1]، وقال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** [النحل: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۞ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [سبأ: ٢٢ - ٢٣].

وجاء في تفسير هذه الآية: ما أخرجه البخاري (٤٧٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا قَضَى اللهُ الأمرَ في السماءِ، ضَرَبَتِ الملائكةُ بأجنحتِهَا خَضَعانًا لقولِه، كالسِّلْسِلَةِ على صفوانٍ، يَنفُذُهُم ذلكَ، فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهِم، قالوا: ماذا قال ربُّكُم، قالوا للذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ**».

قال الشيخ العثيمين: «في الآية فوائد:

١ - أنَّ الملائكةَ يَخافُون اللهَ؛ كما قال تعالى: **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾**.

٢ - إثباتُ القلوبِ للملائكةِ؛ لقولِه: **﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾**.

٣ - إثباتُ أنَّهم أجسامٌ وليسوا أرواحًا مجرَّدةً من الجسميةِ، وهو أمرٌ معلومٌ بالضرورةِ، قال تعالى: **﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾**، وقد رأى النبيُّ ﷺ

---

(١) «**﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾**؛ أي: خائفون وَجِلونَ، قد خَضَعُوا لجلالِه، وعَنَتْ وجوهُهُم لعزِّهِ وجَمَالِه». «تفسير السعدي» ص ٥٢٢.

جبريلَ لهُ سِتَّمِئةِ جَنَاحٍ، قد سَدَّ الأُفُقَ، فالقولُ بأنَّهم أرواحٌ فقط، إنكارٌ لهُم في الواقعِ، وهو قولٌ باطلٌ، لكنَّهم لا يَأكُلُونَ، ولا يَشربُونَ، وإنَّما أَكْلُهُم وشُرْبُهُم التسبيحُ، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾، ففي هذا دليلٌ على أنَّ ليلَهُم ونهارَهُم مَمْلُوآنِ بذلكَ، ولهذا جاء: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ﴾، ولم يَقُل: يُسبِّحُونَ في الليلِ؛ أي: أنَّ تسبيحَهُم دائمٌ، والتسبيحُ تنزيهُ اللهِ عمَّا لا يَلِيقُ بِه.

٤- أنَّ لهم عُقُولًا؛ إذْ إنَّ القلوبَ هي مَحَلُّ العُقُولِ -خلافًا لمَن قال: إنَّهم لا يَعقِلُونَ-، ولأنَّهم يُسبِّحُونَ الله، ويَطُوفُونَ بالبيتِ المَعمُورِ».

المسألة الثالثة عشرة: أعمال الملائكة في الكَون:

لقد خَصَّ اللهُ تعالى الملائكةَ بأعمالٍ عظيمةٍ:

١ - حَمَلة العرش:

قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

وقد وَرَد في صفة حَمَلةِ العرشِ: ما أخرجه أبو داود، من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أُذِنَ لِي أنْ أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكةِ اللهِ، من حَمَلةِ العرشِ، إنَّ ما بينَ شَحمَةِ أُذُنِه إلى عَاتِقِه مَسيرَةُ سَبعِمئةِ عامٍ**».

وإذا كان هذا هو صفةُ واحدٍ من حَمَلةِ العرشِ، فكيف ببقيتِهِم؟!

٢ - خَزَنة الجنة:

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: «وتَدخُلُ عليهِمُ الملائكةُ من ههنا وههنا للتهنئةِ بدخولِ الجنةِ، فعندَ دُخُولِهِم إيَّاها تَفِدُ عليهِمُ الملائكةُ مُسلِّمِينَ، مُهنِّئِينَ لهم، بِمَا حَصَل لهُم من اللهِ من التقريبِ، والإنعامِ، والإقامةِ في دارِ السلام، في جِوَارِ الصِّدِّيقينَ، والأنبياءِ، والرُّسُلِ الكِرَامِ».

تنبيه: اشتَهَر عندَ كثيرٍ من الناسِ أنَّ اسمَ خازنِ الجنةِ: رِضْوان. وقد روي في ذلكَ عدَّةُ أحاديثَ، لكنْ لا يَصحُّ منها شيء.

٣ - خَزَنة النار:

وهم الزَّبانيةُ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وفي «الصحيحين»، من حديث سَمُرة بن جُندُب رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**رأيتُ الليلةَ رَجُلَينِ أَتَيانِي، فقالا: الذي يُوقِدُ النارَ مالكٌ خازنُ النارِ، وأنا جبريلُ، وهذا ميكائيلُ**».

ورؤساؤُهُم تسعةَ عَشَر، ولهم أعوانٌ، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٠-٣١].

٤ - المُوكَّلون بالسَّحاب والقَطْر:

قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣]، وقد وَرَد في تفسيرِ هذهِ الآياتِ الكريماتِ أنَّ هذهِ الصفاتِ من صفاتِ الملائكةِ عليهِمُ السلامُ، وأنَّ اللهَ أَقسَمَ بالملائكةِ الصافَّاتِ بينَ يَدَيهِ سبحانَه وتعالى، وبالملائكةِ التي تَزجُرُ السَّحابَ وتَسُوقُه إلى حيثُ أَمَرهَا اللهُ، وبالملائكةِ التي تَنزِلُ بالقرآنِ والكُتُبِ من عندِ اللهِ سبحانَه وتعالى. وقد رُوي نحوُ ذلكَ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرِهِم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: أَقبَلَتْ يهودُ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا أبا القاسمِ أخبِرناَ عن الرَّعدِ ما هو؟ قال: «**مَلَكٌ من الملائكةِ، مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، معهُ**

مَخَارِيقٌ من نارٍ، يَسُوقُ بِهَا السَّحابَ حيثُ شاءَ اللهُ»، فقالوا: فمَا هذا الصَّوتُ الذي نَسمَعُ؟ قال: «**زَجْرُه السَّحابَ إذا زَجَرَهُ حيثُ ينتهي إلى حيثُ أُمِرَ**»، قالوا: صَدَقتَ.

والشاهدُ فيهِ أنَّ اللهَ وكَّل بالسحابِ ملائكةً يَسوقونَه إلى حيثُ أَمَرَهُم اللهُ.

وعنه رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ سأل جبريلَ: «على أيِّ شيءٍ ميكائيلُ؟ فقال: «**على النباتِ والقَطْرِ**»[1]، فمِيكائيلُ عليهِ السلامُ هو المُوكَّلُ بذلكَ، ومعهُ أعوانٌ من الملائكةِ يُنفِّذُونَ أَمْرَه.

٥ - مَلَك الجبال:

تقدَّم أنَّ اللهَ سبحانه أَرسَلَ مَلَكَ الجبالِ؛ لِيُطبِقَ على أهلِ مكةَ الأخشبَينِ إذا أَمَرهُ النبيُّ ﷺ بذلكَ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ للجبالِ ملائكةً مُوكَّلونَ بِهَا.

وفيه كذلكَ دليلٌ على ضخامةِ خَلْقِ هؤلاءِ المُوكَّلِينَ بالجبالِ، فكونُ مَلَكٍ واحدٍ يَستطيعُ أنْ يُطبِقَ جَبَلَينِ على أهلِ مكةَ، يعني: أنَّه من الضخامةِ والقوةِ بحيثُ أصبَح إطباقُ الجَبَلَينِ عندَهُ أَمْرٌ هَيِّنٌ، يُنفِّذُهُ فورَ موافقةِ النبيِّ ﷺ بذلكَ.

٦ - المُوكَّل بالنَّفخ في الصُّور:

وهو إسرافيلُ عليهِ السلامُ، ولم يَرِدْ في حديثٍ صحيحٍ النصُّ على أنَّ الذي يَنفخُ في الصُّورِ هو إسرافيلُ، لكنَّ العلماءَ مُجمِعُونَ على ذلكَ.

المسألة الرابعة عشرة: أعمالُ الملائكةِ المُتعلِّقةِ ببني آدمَ:

١ - السِّفارة بينَ اللهِ وبينَ عبادِه من بني آدمَ:

وهو جبريلُ عليهِ السلامُ، قال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

٢ - كتابةُ الحسناتِ والسيئاتِ:

قال تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي**

(١) تقديم تخريجه.

﴿آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧- ١٨]، قال مجاهد: مع كُلِّ إنسانٍ مَلَكانِ، مَلَكٌ عن يمينِه، وآخرُ عن يسارِه، فأمَّا الذي عن يمينِه، فيَكتبُ الخيرَ، وأمَّا الذي عن شمالِه، فيَكتبُ الشَّرَّ.

فهذهِ النصوصُ وغيرُها تدلُّ على أنَّ الكِرَامَ الكاتِبينَ من الملائكةِ مُلازِمُونَ للإنسانِ ليلَه ونهارَه، وأنَّهم يَكتُبونَ أقوالَه وأعمالَه القلبيةَ والظاهرةَ.

والحكمةُ من كتابةِ الأعمالِ مع عِلْمِ اللهِ سبحانَه بِهَا إظهارُ عَدْلِ اللهِ، وإقامةٌ للحُجَّةِ القاطعةِ لكُلِّ شُبهةٍ يَعتذِرُ بها العاصي يومَ القيامةِ، ولذلكَ يُؤمَرُ الإنسانُ بقراءةِ كتابِه يومَ القيامةِ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥][(١)].

٣ – تدبيرُ أمرِ النُّطْفةِ في الرَّحِم:

كما في الحديث الذي خرجه البخاري ومسلم، من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إن اللهَ عزَّ وجلَّ وكَّل مَلَكًا يقول: يا رب! نطفة. يا رب! علقة. يا رب مضغة. فإذا أراد أن يَقضي خَلْقَهُ، قال : أَذَكَرٌ أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ فيُكتب في بطن أمه**».

٤ – قَبْضُ أرواحِ بني آدمَ عندَ الموتِ:

---

(١) «﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ بأن نجعلهم خرسا فلا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء». «تفسير السعدي» (ص ٦٩٨).

وهو ملك الموت. قال تعالى: ﴿**قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون**﴾ [السجدة: ١١].

ولملك الموت أعوان من الملائكة، يأتون العبدَ بحسب عمله، إن كان محسنًا ففي أحسن هيئة، وإن كان مسيئًا ففي أشنع هيئة. قال تعالى: ﴿**حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون**﴾ [الأنعام: ٦١].

٥ – سؤالُ الناسِ في قبورِهِم:

وهما مُنكَر ونَكير.

ففي «الصحيحين»، من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إن العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِه وتولَّى عنهُ أصحابُه، وإنَّه ليَسمَعُ قَرْعَ نعالِهِم، أَتَاهُ مَلَكانِ، فيُقعدانِه، فيقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ -لمحمدٍ ﷺ-؟ فأمَّا المؤمنُ فيقولُ: أشهدُ أنَّه عبدُ اللهِ ورسولُه**».

وخرَّج الترمذي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا قُبِرَ الميتُ، أو قال أحدُكُم، أتاهُ مَلَكانِ أسودانِ أزرقانِ، يقالُ لأحدِهِما: المُنكَرُ، والآخرِ: النكيرُ، فيقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ ...**» الحديث.

٦ – تبليغُ النبيِّ ﷺ سلامَ أُمَّتِه عليهِ:

ففي «مسند الإمام أحمد» بسند صحيح، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملائكةً سياحينَ في الأرضِ يُبلِّغونِي من أمتي السلامَ».

المسألة الخامسة عشرة: ثمراتُ الإيمانِ بالملائكةِ:

للإيمان بالملائكة ثمراته العظيمة على المؤمن، فمن ذلك:

١ – العلم بعظمة خالقهم عزَّ وجلَّ، وكمال قدرته وسلطانه.

٢ – شكر الله تعالى على لطفه وعنايته بعباده حيث وكَّل بهم من هؤلاء الملائكة مَن يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم وغير ذلك مما تتحقق به مصالحهم في الدنيا والآخرة.

٣ – محبة الملائكة على ما هداهم الله إليه من تحقيق عبادة الله على الوجه الأكمل ونصرتهم للمؤمنين واستغفارهم لهم.

قوله: (**وكُتُبه**) هذا هو الرُّكنُ الثالث من أركانِ الإيمانِ، وهو الإيمانُ بالكُتُب.

ويَتعلَّق بالإيمان بالكُتُب خمسُ مسائلَ:

المسألة الأولى: تعريف الكُتُب:

الكُتُب لغة: جمعُ كتابٍ، والكتابُ مصدر كَتَب يَكتب كتابَا، ثم سُمِّي به المكتوبُ، والكتابُ في الأصل اسمٌ للصحيفةِ مع المكتوبِ فيها، كما في قولِه تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ**﴾ [النساء: ١٥٣] يعني: صحيفةً مكتوبًا فيها.

وشرعًا: الكُتُبُ والصُّحُفُ التي حَوَت كلامَ اللهِ تعالى الذي أَوحَاهُ إلى رُسُلِه عليهِمُ السلامُ، سواءٌ ما أَلقَاهُ مكتوبًا كالتوراةِ، أو أَنزَلَهُ عن طريقِ المَلَكِ مشافهةً فكُتِبَ بعد ذلكَ كسائرِ الكُتُبِ.

المسألة الثانية: معنى الإيمان بالكُتُب:

١ – التَّصديقُ الجازمُ بأنَّ اللهَ تعالى أَنزَلَ كُتُبًا على أنبيائِه ورُسُلِه، وأنَّها كلامُ اللهِ تعالى لا كلامُ غيرِه، وأنَّه تكلَّم بِهَا حقيقةً.

٢ – الإيمانُ بِمَا عَلِمنَا من أسمائِهَا، وهي: التوراةُ، والإنجيلُ، والقرآنُ، والزَّبورُ، وصُحُفُ إبراهيمَ وموسى، وما لم نَعلَمْ اسمَه، فنُؤمِنُ بِه إجمالًا.

٣ – الإيمانُ بأنَّ جميعَ الكُتُبِ السابقةِ منسوخةٌ بالقرآنِ العظيمِ، قال تعالى: قال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨]؛ أي مُؤتَمنًا وشاهدًا وحاكمًا على ما قبلَه من الكُتُبِ.

وعلى هذا؛ فلا يجوزُ العملُ بأيِّ حُكمٍ من أحكامِ الكُتُبِ السابقةِ إلَّا ما صَحَّ منها، وأقرَّه القرآنُ.

٤ - الإيمانُ بأنَّها دَعَت كلَّها إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، وأنَّها جاءَتْ بالخيرِ والهُدَى والنورِ والضِّياءِ:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٧٩)]، وذلكَ لأنَّ كُتُبَ اللهِ إنَّما جاءَتْ بإخلاصِ العبادةِ للهِ وحدَهُ.

وقال تعالى مُبيِّنًا أنَّ كُتُبَهُ جاءَتْ بالحقِّ والهُدَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ - ٤]، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النبيينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، إلى غيرِ ذلكَ من الآياتِ المُتضمِّنةِ أنَّ كُتُبَ اللهِ تعالى قد جاءَتْ بالهُدَى والنورِ من اللهِ تعالى.

٥ - وجوبُ العملِ بأحكامِ القرآنِ الكريمِ، والرِّضا والتسليمُ بِه، سواءٌ فَهِمنَا حِكمتَه أم لم نَفْهَمْهَا.

المسألة الثالثة: حكم الإيمان بالكُتُب:

الإيمانُ بكُتُبِ اللهِ التي أَنزَلَها على رُسُلِه أحدُ أركانِ الإيمانِ الذي لا يَتحقَّقُ الإيمانُ إلَّا بِه.

وقد دلَّ على وجوبِ الإيمانِ بذلكَ الكتابُ والسُّنةُ:

أمَّا الكتاب:

١ - فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشْرِقِ وَالمغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالملائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنبيينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال الحافظ ابن كثير: «هو اسمُ جنسٍ يَشملُ الكُتُبَ المنزَّلةَ من السماءِ على الأنبياءِ، حتَّى خُتِمَت بأشرفِهَا، وهو القرآنُ المُهيمِنُ على ما قبلَهُ من الكُتُبِ».

وأمَّا السُّنة؛ فحديثُ جبريلَ عليهِ السلام في سؤالِه للنبيِّ ﷺ عن أركانِ الإيمانِ، وفيه: «أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، **وكُتُبِه** ...» الحديث.

المسألة الرابعة: الكُتُب المُنزَّلة التي وَرَدتْ أسماؤُها في الشرع:

نصَّ اللهُ تعالى في كتابِه على نزولِ عددٍ من الكُتُبِ على بعضِ رُسُلِه عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ، وهي خمسةُ كُتُبٍ: صُحُفُ إبراهيمَ، والتوراةُ، والزَّبورُ، والإنجيلُ، والقرآنُ العظيمُ.

(أ) صُحُف إبراهيم:

وهي الكُتُبُ التي أَنزَلهَا اللهُ على نبيِّه وخليلِه إبراهيمَ عليهِ السلامُ، وقد وَرَد ذِكرُها في موضعين من كتاب الله تعالى:

١ – الموضع الأول: في قولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۝ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٩].

٢ – والموضع الثاني في قولِه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩].

(ب) التوراة:

وهي اسمٌ للكتابِ الذي أَنزَلهُ الله على موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**ولكنْ ائتُوا موسى، عبدًا آتاهُ اللهُ التوراةَ، وكلَّمَه تكليمًا**».

وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في احتجاجِ آدمَ وموسى: «**قال له آدمُ: يا موسى، اصطَفَاكَ اللهُ بكلامِه، وخطَّ لكَ التوراةَ بيدِه**».

- **وهل صُحُف موسى هي التوراةُ أو غيرُها؟**

أكثرُ المُفسِّرينَ على أنَّها التوراةُ، وفي «شرح العقيدة الواسطية» للعثيمين: «صُحُفُ موسى بعضُهُم يقولُ: هي التوراةُ، وبعضُهُم يقولُ: غيرُها، فإنْ كانتِ التوراةَ، فهي خمسةٌ، وإن كانت غيرَها، فهي ستةٌ».

(ج) الزَّبور:

وهو الكتابُ الذي أَنزَلَه على داودَ عليهِ السلام.

وقد وَرَد ذِكرُه في موضعَينِ من كتابِ اللهِ تعالى: قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣ والإسراء: ٥٥].

فائدة: الزَّبور غيرُ موجودٍ بهذا الاسمِ ضمنُ كُتُبِ اليهودِ والنَّصارى، وإنَّما لَدَيهِم ما يُسمُّونَه «المزامير»، وهو مجموعةٌ كبيرةٌ من المزاميرِ، يَبلغُ عددُها (١٥١) مزمورًا، وهي عبارةٌ عن تسبيحاتٍ وابتهالاتٍ وأدعيةٍ، بعضُها لداودَ عليهِ السلامُ، وبعضُها منسوبٌ لآخرينَ.

وقد روي عن قتادة أنَّه قال: كُنَّا نُحدَّث أنَّه دعاءٌ علَّمه اللهُ داودَ وتحميدٌ وتمجيدٌ للهِ عزَّ وجلَّ، ليس فيه حلالٌ ولا حرامٌ، ولا فرائضُ ولا حدودٌ[1].

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فالمرادُ بالزَّبُورِ: جميعُ الكُتُبِ المُنزَّلةِ من السماءِ، لا تَختصُّ

(١) «العقيدة الإسلامية» ٣/ ٦٢؛ الجمعية العلمية السعودية.

بزَبُورِ داودَ، قال الإمام ابن القيم: «فالزَّبُور هنا: جميعُ الكُتُبِ المُنزَّلةِ من السماءِ، لا تَختصُّ بزَبُورِ داودَ، والذِّكرُ أُمُّ الكتابِ الذي عندَ اللهِ، والأرضُ الدُّنيا، وعبادُه الصالحونَ أمةُ محمدٍ ﷺ. هذا أصحُّ الأقوالِ في هذهِ الآيةِ.

وهي عَلَمٌ من أعلامِ نبوةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّه أخبَر بذلكَ بمكةَ، وأهلُ الأرضِ كلُّهُم كفارٌ، أعداءٌ لهُ ولأصحابِه، والمشركونَ قد أَخرَجُوهُم من ديارِهِم ومساكنِهِم، وشَتَّتُوهُم في أطرافِ الأرضِ، فأخبَرَهُم ربُّهُم تبارك وتعالى أنَّه كَتَب في الذِّكرِ الأوَّلِ أنَّهم يَرِثُونَ الأرضَ من الكفارِ، ثم كَتَب ذلكَ في الكُتُبِ التي أَنزَلَهَا على رُسُلِه».

(د) الإنجيل:

وهو الكتابُ الذي أَنزلَهُ على عيسى ابنِ مريمَ عليهما السلام.

وقد وَرَد ذِكرُه في مواضعَ من كتابِ اللهِ تعالى، منها: قولُه تعالى: ﴿**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ**﴾ [المائدة: ٤٧].

كما وَرَد ذِكرُه في السُّنة، كما في دعاءِ النومِ: «**اللهمَّ رَبَّ السماواتِ، ورَبَّ الأرضِ، ورَبَّ العرشِ العظيمِ، ربَّنا ورَبَّ كُلِّ شيءٍ، فالقَ الحَبِّ والنَّوَى، ومُنزِلَ التوراةِ والإنجيلِ والفرقانِ، أعوذُ بِكَ من شَرِّ كُلِّ شيءٍ أنتَ آخِذٌ بناصيتِه ...**»[1].

وقد أَنزَلَهُ اللهُ تعالى مُتمِّمًا للتوراةِ، ومؤيدًا لها، وموافقًا لها في أكثرِ الأمورِ الشرعيةِ، قال تعالى: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٤٦]، فالإنجيلُ نَزَل مُصدِّقًا للتوراةِ، وموافقًا لها، كما في هذهِ الآيةِ.

ولم يُخالِفِ الإنجيلُ التوراةَ إلَّا في قليلٍ من الأحكامِ ممَّا كانوا يَختلفُونَ فيهِ، كما أخبَر اللهُ عن المسيحِ أنَّه قال لبني إسرائيل: ﴿**وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾ [آل عمران: ٥٠]، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»، تعليقًا على قولِ الجِنِّ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾: «ولم يَذكُروا عيسى؛ لأنَّ عيسى عليهِ السلامُ أُنزِلَ عليهِ الإنجيلُ فيهِ مواعظُ، وترقيقاتٌ، وقليلٌ من التحليلِ والتحريم، وهو في الحقيقةِ كالمُتمِّمِ لشريعةِ التوراةِ، فالعمدةُ هو التوراةُ؛ فلهذا قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾».

وقد أخبَر اللهُ تعالى في كتابِه الكريمِ أنَّ التوراةَ والإنجيلَ نصَّا على البشارةِ بنبيِّنا محمدٍ ﷺ. قال تعالى **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبي الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾** [الأعراف: ١٥٧].

(هـ) القرآن العظيم:

=وهو الكتاب الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: **﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾** [آل عمران : ٢- ٤]، وقال تعالى مخاطبًا رسولَه ﷺ: **﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾** [النمل: ٦].

فائدة في بيانِ أنَّ التوراةَ والإنجيلَ دَخَلهُما التحريفُ:

أخبَر اللهُ تعالى عن وجودِ التحريفِ في التوراةِ والإنجيلِ، فقال تعالى في حقِّ اليهودِ: **﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾** [النساء: ٤٦]، وقال تعالى: **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٧٥].

قال السُّدي: هي التوراةُ حرَّفوها. وقال ابن زيد: التوراةُ التي أَنزَلَها عليهم يُحرِّفونَها، يَجعلُونَ الحلالَ فيها حرامًا، والحرامَ فيها حلالًا، والحقَّ فيها باطلًا، والباطلَ فيها حقًّا.

وقال تعالى في حقِّ النَّصارى: **﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا**

كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٤ - ١٥].

وقد كان هذا التحريفُ بالزيادةِ تارةً وبالنقصِ تارةً أخرى:

فدليل الزيادة: قولُه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

ودليل النقص: قولُه تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥]، وقولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

ومن الأدلة على وجود التحريف في التوراة:

١ - اشتمالُها على تنقُّصِ الرَّبِّ جلَّ وعَلَا وتشبيهُه بالمخلوقينَ، ومن ذلكَ قولُهم: إنَّ اللهَ تَصارَعَ مع يعقوبَ ليلةً كاملةً، فصَرَعَه يعقوبُ.

ومن ذلك قولُهم: إنَّ اللهَ نَدِمَ على خلقِ البَشَرِ لِمَا رأى من معاصِيهِم، وأنَّه بَكَى حتى رَمِدَ، فعَادَتْه الملائكةُ. تعالى اللهُ عمَّا يقولُ الظالمونَ عُلُوًّا كبيرًا.

٢ - اشتمالُها على سَبِّ الأنبياءِ والطعنِ فيهم، ومن ذلك قولُهم: إنَّ نبيَّ اللهِ هارونَ صَنَع عِجْلًا، وعَبَدهُ مع بني إسرائيلَ.

وقولُهم: إنَّ لوطًا شَرِبَ خَمْرًا حتَّى سَكِرَ، ثم قام على ابنتَيهِ، فزَنَى بِهِمَا الواحدةَ تلو الأخرى.

وقولُهم: إنَّ سليمانَ عليه السلام ارتدَّ في آخرِ عُمُرِه، وعَبَدَ الأصنامَ، وبَنَى لها المعابدَ.

تنبيه: الأناجيلُ التي بأيدي النَّصارى لم يُمْلِهَا عيسى عليه السلام، ولكنَّها كُتِبَت بعدَهُ.

المسألة الخامسة: ثمرات الإيمان بالكُتُب:

للإيمان بالكتب آثاره العظيمة على المؤمن، فمن ذلك:

١ - شُكرُ اللهِ تعالى على لُطفِه بخَلْقِه وعنايتِه بِهِم، حيثُ أَنزَلَ إليهِم الكُتُبَ المُتضمِّنةَ إرشادَهُم لِمَا فيهِ خيرُهُم وصلاحُهُم في الدُّنيا والآخرةِ.

٢ - ظهورُ حكمةِ اللهِ تعالى حيثُ شَرَع في هذهِ الكُتُبِ لكُلِّ أُمَّةٍ ما يُناسِبُها، وكان خاتمُ الكُتُبِ القرآنُ العظيمُ مناسبًا لجميعِ الخَلْقِ في كُلِّ عصرٍ ومِصْرٍ إلى قيامِ الساعةِ.

٣ - عنايةِ اللهِ بخَلْقِه؛ حيثُ أَنزَلَ لكُلِّ قومٍ كتابًا يَهدِيهِم بِه.

٤ - السَّيرُ على طريقٍ مستقيمٍ واضحٍ، لا اضطرابَ فيها، ولا اعوِجَاجَ.

٥ - الفَرَحُ بذلكَ الخيرِ العظيمِ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

٦ - التَّحرُّر من التَّخبُّطِ الفكريِّ والعَقَديِّ.

قوله: (**ورُسُله**) هذا هو الرُّكنُ الرابع من أركانِ الإيمانِ، وهو الإيمانُ بالرُّسُلِ.

ويَتعلَّق بالإيمانِ بالرُّسُل تسعُ مسائلَ:

المسألة الأولى: تعريفُ النبيِّ والرسولِ:

النبيُّ لغةً: مُشتَقٌّ من النَّبأِ، وهو الخبرُ ذو الفائدةِ العظيمةِ، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ - ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]، وسُمِّي النبيُّ نبيًّا؛ لأنَّه مُخبِرٌ من الله.

وقيل: مشتَقٌّ من النَّباوة، وهي الشيءُ المرتفعُ، وسُمِّي النبيُّ نَبِيًّا على هذا المعنى؛ لِرِفْعَةِ مَحَلِّهِ على سائرِ الناسِ. قال تعالى عن نبيِّهِ إدريسَ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

والرسولُ لغةً: مُشتَقٌّ من الإرسالِ، وهو التوجيهُ، تقول: أرسلت فلانا برسالة؛ أي: بَعَثتُه، فهو مُرسَل، ومنهُ قولُه تعالى مخبِرًا عن مَلِكَةِ سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

هذا هو تعريفُ النبيِّ والرسولِ من جهةِ اللغةِ، وأمَّا من جهةِ الشرعِ: فقد اختَلَف العلماءُ في ذلكَ على أقوالٍ، أرجحُهَا: **أنَّ النبيَّ** فهو مَن أَوحَى اللهُ إليهِ بِمَا يَفعلُه، ويَأمرُ بِه المؤمنينَ، **وأمَّا الرسولُ** فهو مَن أَوحَى اللهُ إليهِ، وأَرسَلَهُ إلى مَن خالَفَ أمرَه؛ لِيُبلِّغَ رسالةَ اللهِ.

والفرق بينهما:

=أنَّ النبيَّ: هو مَن نبَّأه اللهُ بأمرِه ونَهْيِهِ؛ لِيُخاطِبَ المؤمنينَ، ويَأمُرَهُم بذلكَ، ولا يُخاطِبُ الكفارَ، ولا يُرسَلُ إليهِم.

=وأمَّا الرسولُ؛ فهو من أُرسِلَ إلى الكفارِ والمؤمنينَ لِيُبلِّغِهُم رسالةَ اللهِ، ويَدعُوَهُم إلى عبادتِه.

وليس من شرطِ الرسولِ أنْ يأتِيَ بشريعةٍ جديدةٍ، فقد كان يوسفُ على مِلَّةِ إبراهيمَ، وداودُ وسليمانُ كانا على شريعةِ التوراةِ، وكلُّهُم رُسُلٌ. قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾** [غافر: ٣٤]، وقال تعالى: **﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنبيينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾** [النساء: ١٦٣- ١٦٤].

المسألة الثالثة: معنى الإيمان بالرُّسُل:

١ - هو التَّصديقُ الجازمُ بأنَّ اللهَ تعالى بَعَث في كُلِّ أمةٍ رسولًا يَدعُوهُم إلى عبادةِ اللهِ، وحدَه لا شريكَ لهُ، والكفرُ بما يُعبَدُ من دونِه، أوَّلُهُم نوحٌ، وآخرُهُم محمدٌ ﷺ، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾** [النحل: ٣٦].

٢ - الإيمانُ بِمَا عَلِمنَا من أسمائِهِم، وما لم نَعلَم من أسمائِهِم، فنُؤمِنُ بِهِم إجمالًا، قال تعالى: **﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾** [النساء: ١٦٤].

٣ - تصديقُ ما صحَّ عنهم من أخبارِهِم.

٤ - العملُ بشريعةِ من أُرسِلَ إلينا منهم، وهو محمدٌ ﷺ، وهو خاتَمُ المُرسَلِينَ.

٥ - الإيمانُ بأنَّ خاتمَهُم محمدٌ، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

المسألة الرابعة: حكم الإيمان بالرُّسُل:

قد دلَّ على وجوبِ الإيمانِ بالرُّسُلِ الكتابُ والسُّنةُ.

أمَّا الكتاب؛ فقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فبيَّن الله تعالى أنَّ المؤمنينَ يؤمنون بجميعِ الرُّسُلِ، وأنَّهم لا يُفرِّقونَ بينَهم، فلا يؤمنون ببعضِهِم دون بعض، بل يصدِّقونَ بِهِم جميعًا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥].

فأَطلَقَ الكفرَ على مَن كذَّبَ بالرَّسُلِ، أو فرَّق بينَهم بالإيمانِ ببعضِهِم والكفرِ ببعضِهِم.

وأمَّا السُّنة؛ فحديثُ جبريلَ عليه السلام المشهورُ، وفيهِ: «**أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ**».

المسألة الخامسة: عدد الأنبياء والرُّسُل:

المذكورونَ في القرآنِ من الأنبياءِ والرُّسُلِ خمسةٌ وعشرونَ:

وَرَدَ ذِكرُ ثمانيةَ عشرَ منهم في قولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ

وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ – ٨٦].

ووَرَد ذِكرُ الباقينَ في مواضعَ أخرى من القرآنِ، قال تعالى: **﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾** [الأعراف: ٦٥]، وقال: **﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾** [الأعراف: ٧٣]، وقال: **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾** [الأعراف: ٨٥]، وقال: **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾** [آل عمران: ٣٣]، وقال: **﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٥]، **وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾** [الفتح: ٢٩].

- ومن الأنبياءِ الذينَ وَرَد ذِكرُهُم في السُّنَّة: **يُوشَع بن نُون** ﷺ:

ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**غَزَا نَبِيٌّ من الأنبياءِ، فقال لقومِه: لا يَتبَعْنِي رَجُلٌ قد مَلَك بُضْعَ امرأةٍ، وهو يُرِيدُ أنْ يَبنِيَ بِهَا، ولمَّا يَبْنِ، ولا آخرُ قد بَنَى بُنيانًا، ولمَّا يَرفَعْ سُقُفَهَا، ولا آخرُ قد اشتَرَى غَنَمًا أو خَلِفَاتٍ، وهو مُنتَظِرٌ وِلَادَهَا.**

قال: فَغَزا فأَدْنَى للقريةِ حينَ صلاةِ العصرِ أو قريبًا من ذلكَ، فقال للشَّمسِ: أنتِ مأمورةٌ، وأنا مأمورٌ، اللهُمَّ، احْبِسْهَا عليَّ شيئًا، فحُبِسَتْ عليهِ حتَّى فَتَح اللهُ عليهِ.

قال: فجَمَعُوا ما غَنِمُوا، فأَقْبَلَتِ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ، فأَبَتْ أنْ تَطعَمَهُ، فقال: فِيكُم غُلُولٌ، فَلْيُبَايِعْنِي من كُلِّ قبيلةٍ رَجُلٌ، فبَايَعُوهُ، فلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بيدِهِ، فقال: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قبيلتُكَ، فبَايَعَتْهُ.

قال: فلَصِقَتْ بيدِ رَجُلَينِ أو ثلاثةٍ، فقال: فِيكُمُ الغُلُولُ، أنتُم غَلَلتُمْ، قال: فأَخرَجُوا لهُ مِثْلَ رأسِ بَقَرَةٍ من ذَهَبٍ، قال: فوَضَعُوهُ في المالِ وهو بالصَّعيدِ، فأَقْبَلَتِ النَّارُ فأَكَلَتْهُ.

فَلَم تَحِلَّ الغنائمُ لأَحَدٍ مِن قَبلِنَا، ذلكَ بأنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالى رأى ضَعْفَنَا وعَجْزَنَا، فطَيَّبَهَا لنَا».

والدليل على أنَّ هذا النبيَّ هو يُوشَعُ: ما أخرجه أحمد، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**إنَّ الشَّمسَ لَم تُحبَسْ على بَشَرٍ إلَّا ليُوشَعَ، ليالِيَ سار إلى بيتِ المَقدِسِ**».

قال الحافظ ابن كثير: «وقد ذَكَرهُ اللهُ تعالى في القرآنِ غيرَ مُصرَّحٍ باسمِه في قصةِ الخَضِرِ كما تقدَّم من قولِه: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾** [الكهف: ٦٠]، **﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ**

﴿لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٢]، وقدَّمنا ما ثَبَت في "الصحيح" من روايةِ أُبَيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ من أنَّه يُوشَعُ بنُ نُونٍ، وهو متَّفق على نُبُوَّتِه عندَ أهلِ الكتاب».

المسألة السادسة: مَن هم أولُو العَزْم من الرُّسُل؟

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ومعنى أولُي العَزْمِ؛ أي: ذَوي الحزمِ والصبرِ.

وهم نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى، ومحمدٌ صلى اللهُ عليهم وسلَّم. وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعطاء الخراساني، وهو قول ابن كثير.

المسألة السابعة: ما يجب علينا نحو الرُّسُل:

يَجبُ على الأُمَّةِ تجاهَ الرُّسُلِ حقوقٌ عظيمةٌ بحَسَبِ ما أَنزَلَهُمُ اللهُ من المنازلِ الرفيعةِ في الدِّينِ، وما رَفَعَهُمُ اللهُ إليهِ من الدرجاتِ.

ومن هذه الحقوق:

١ - موالاتُهُم جميعًا:

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة:].

٢ - الحذر من بُغضِهِم وعداوتِهِم:

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣ - اعتقادُ فضلِهِم على غيرِهِم من الناس:

قال تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما ينبغِي لعَبْدٍ أنْ يقولَ: أنا خَيرٌ من يُونُسَ بنِ متَّى**».

وفي رواية للبخاري: «**مَن قال: أنا خَيرٌ من يُونُسَ بنِ متَّى؛ فَقَد كَذَب**».

قال النووي: «أي: لا يَقولُ ذلكَ بعضُ الجاهِلِينَ من المُجتهِدِينَ في عبادةٍ أو عِلْمٍ أو غيرِ ذلكَ من الفضائلِ، فإنَّه لو بَلَغ من الفضائلِ ما بَلَغ لم يَبلُغْ درجةَ النُّبُوَّةِ».

وقد أَجمَعَتِ الأمةُ على أنَّ الأنبياءَ أفضلُ من جميعِ الخَلْقِ، حكى الإجماعَ ابنُ حزم، فقال: «ولا خلافَ بين المسلمينَ في أنَّ الأنبياءَ عليهِمُ السلامُ أَرفَعُ قَدْرًا ودرجةً، وأتمُّ فضيلةً عندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأعلى كرامةً مِن كُلِّ مَن دُونَهُم، ومَن خالَفَ في هذا، فليس مُسلِمًا».

٤ - اعتقادُ تفاضُلِهِم فيما بينَهُم:

قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»، تعليقًا على قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ...﴾: «يُخبِرُ تعالى أنَّه فضَّل بعضَ الرُّسُلِ على بعضٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥]، وقال ههنا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾ يعني: موسى ومحمدًا صلى اللهُ عليهما وسلَّم، وكذلكَ آدمُ، كما وَرَد بِه الحديثُ المرويُّ في "صحيح ابن حبان"، عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثَبَت في حديثِ الإسراءِ حينَ رأى النبيَّ ﷺ الأنبياءَ في السمواتِ بحَسَبِ تَفاوُتِ منازلِهِم عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ».

وأَجمَعَتِ الأمةُ على أنَّ الرُّسُلَ أفضلُ من الأنبياءِ، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: «ولا خلافَ أنَّ الرُّسُلَ أفضلُ من بقيةِ الأنبياءِ، وأنَّ أُوْلِي العَزْمِ منهم أفضلُهُم»(١).

وأَجمَعَتْ أيضًا على أنَّ أفضلَهُم محمدٌ، ثم إبراهيمُ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ، قال الحافظ ابن كثير: «ولا خلافَ أنَّ محمدًا ﷺ أَفضلُهُم، ثم بعدَه إبراهيمُ، ثم موسى على المشهورِ».

ومن صُوَرِ تفضيلِ الأنبياءِ بعضِهِم على بعضٍ:

أنَّه فضَّل إبراهيمَ ﷺ بأنِ اتَّخَذَهُ خليلًا: ﴿**وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾ [النساء: ١٢٥]، وجَعَلَهُ للناسِ إمامًا: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ [البقرة: ١٢٤] .

وفضَّل داودَ ﷺ بإعطائِه الزَّبُورَ: ﴿**وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**﴾ [الإسراء: ٥٥]، وأَلَان لهُ الحديدَ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**﴾ [سبأ: ١٠]، وسَخَّر لهُ الجبالَ والطَّيرَ يُسبِّحْنَ بتسبيحِه: ﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ**﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وفضَّل سليمانَ ﷺ بأنْ سخَّر لهُ الرِّيحَ تَسِيرُ بأَمْرِه، وسخَّر لهُ الجِنَّ يَعمَلُونَ بينَ يَدَيهِ ما يَشاءُ: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ**﴾ [سبأ: ١٢]، وعلَّمَهُ مَنطِقَ الطَّيرِ: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ [النمل: ١٦].

وفضَّل موسى ﷺ بأنْ أعطاهُ التوراةَ: ﴿**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ٥٣] والكتابُ هو التوراةُ، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ [المائدة: ٤٤]، وفضَّلَهُ برسالاتِه وبكلامِه: ﴿**إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي**﴾ [الأعراف: ١٤]، واصْطَنَعهُ لنفسِه: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾ [طه: ٤١].

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٥/ ٨٧.

وفضَّل عيسى ﷺ بأنَّ أعطاهُ الإنجيلَ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] .

وفضَّل آدمَ ﷺ بأنْ جَعَلهُ أبا البَشَرِ، وخَلَقَهُ بيدِه، ونَفَخ فيهِ من رُوْحِه، وأَمَر الملائكةَ فسَجُدُوا لهُ.

وفضَّل نوحًا ﷺ بأنْ جَعَلَهُ أوَّلَ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ، وسَمَّاهُ عبدًا شَكُورًا.

وفضَّل عيسى ﷺ بالرسالةِ، وبأنَّه كَلِمتُه ألقاها إلى مريمَ، ورُوْحٌ منهُ: ﴿إِنَّمَا المسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وأنَّه كان يُكلِّمُ الناسَ في المَهْدِ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المهْدِ﴾ [آل عمران: ٤٦]، وأنَّه يُبرئُ الأَكمَه والأَبرَصَ ويُحِيي الموتى: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الموْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأمَّا فضائلُ نبيِّنا محمدٍ ﷺ، فسيأتِي لها مبحثٌ خاصٌّ.

تنبيه: قد دلَّتِ النصوصُ السابقةُ على تفاضُلِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، إلَّا أنَّه جاء في بعضِ النصوصِ ما يُوهِمُ النهيَ عن المفاضلةِ بينَ الأنبياءِ، وذلك فيما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ، رَجُلٌ مِنَ اليهودِ ورَجُلٌ من المُسلِمِينَ، فقال المُسلِمُ: والَّذي اصْطَفَى محمَّدًا ﷺ على العالمينَ، وقال اليهوديُّ: والَّذي اصْطَفَى موسى عليهِ السَّلامُ على العالمينَ، قال: فرَفَع المُسلِمُ يَدَهُ عندَ ذلكَ، فلَطَمَ وجهَ اليهوديِّ، فذَهَب اليهوديُّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فأَخبرَهُ بِمَا كان من أَمْرِه وأَمْرِ المُسلِمِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تُخيِّرُونِي على موسى، فإنَّ النَّاسَ يَصعَقُونَ، فأَكُونُ أَوَّلَ مَن يُفِيقُ، فإذا مُوسَى باطشٌ بجانبِ العرشِ، فلا أدري، أكان فيمَن صَعِقَ، فأفاقَ قَبلِي، أم كان ممَّنِ استَثنَى اللهُ**».

وقد أجاب على هذا الإشكالِ ابنُ أبي العِزِّ، فقال: «هذا كان لهُ سببٌ، فإنَّه كان قد قال يهوديٌّ: لا، والذي اصْطَفَى موسى على البَشَر، فلَطَمَهُ مُسلِمٌ، وقال: أَتقُولُ هذا ورسولُ اللهِ ﷺ بينَ أَظهُرِنَا؟ فجاء اليهوديُّ فاشتَكَى من المُسلِمِ الذي

لَطَمَهُ، فقال النبيُّ ﷺ هذا، لأنَّ التفضيلَ إذا كان على وجهِ الحَمِيَّةِ والعصبيةِ وهَوَى النَّفْسِ كان مذمومًا»[(١)].

المسألة الثامنة: المختَلَف في نُبُوَّتِهِم:

١ – ذو الكِفل.

٢ – الخَضِر.

٣ – لقمان.

٤ – ذو القَرنَين.

٥ – تُبَّع.

٦ – إخوة يوسف.

٧ – الرُّسُل المذكورونَ في قولِه تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

١ – ذو الكِفل:

قد وَرَد ذِكرُه في قولِه تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ – ٨٥].

وقد اختُلف في نُبُوَّتِه، والصحيحُ أنَّه نَبِيٌّ، قال ابن كثير: «الظاهرُ مِن ذِكرِه في القرآنِ بالثناءِ عليهِ مقرونًا مع الأنبياءِ، أنَّه نَبِيٌّ عليهِ من ربِّه الصلاةُ والسلامُ، وهذا هو المشهورُ، وقد زَعَم آخرونَ أنَّه لم يَكُن نَبِيًّا، وإنَّما كان رَجُلًا صالحًا، وحَكَمًا مُقسِطًا عادلًا، وتوقَّف ابنُ جريرٍ في ذلكَ، فاللهُ أعلمُ»[(٢)].

٢ – الخَضِر:

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» ١/ ١٥٩.

وانظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» ١٥/ ١٠٨ – ١٠٩، و«فتح الباري» ٦/ ٥٢٠ – ٥٢١.

(٢) «البداية والنهاية» ١/ ٢٢٥.

وقد جاء ذِكرُه في قولِه تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

قال القرطبي في «تفسيره»: «العبدُ هو الخَضِرُ عليهِ السلامُ في قولِ الجمهورِ، وبمقتَضَى الأحاديثِ الثابتةِ».

وجاء اسمُه صريحًا في حديثِ أُبَي بنِ كعبٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «بينَما موسى في مَلَإٍ من بني إسرائيلَ، جاءَهُ رَجُلٌ، فقال: هل تَعلَمْ أحدًا أَعلَمَ منكَ؟ قال موسى: لا، فأَوحَى اللهُ عزَّ وجَلَّ إلى موسى: بلى، عَبْدُنَا خَضِرٌ ...». الحديث.

وقد اختلف في نُبُوَّتِه:

قال القرطبي: «والخَضِرُ نَبِيٌّ عندَ الجمهورِ، وقيل: عبدٌ صالحٌ، والآيةُ تَشهدُ بنُبُوَّتِه؛ لأنَّ بواطنَ أفعالِه لا تكونُ إلَّا بوَحْيٍ، وأيضًا فإنَّ الإنسانَ لا يَتعلَّمُ ولا يَتَّبِعُ إلَّا مَن فوقَهُ، وليس يجوزُ أنْ يكونَ فوقَ النبيِّ مَن ليس بنَبِيٍّ».

وقال ابن كثير بعدَ أنْ ساق قصةَ موسى عليهِ السلامُ مع الخَضِرِ: «وقد دلَّ سياقُ القصةِ على نُبُوَّةِ الخَضِرِ من وجوهٍ:

أحدُها: قولُه تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

الثاني: قولُه تعالى حكايةً عن قولِ موسى للخَضِرِ ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ - ٧٠]، فلو كان وَلِيًّا وليس بنَبِيٍّ؛ لم يُخاطِبْه موسى بهذهِ المخاطبةِ، ولم يَرُدَّ على موسى هذا الرَّدَّ، بل موسى إنَّما سأل صُحبتَه لِيَنالَ ما عندَهُ من العلمِ الذي اختَّصَهُ اللهُ به دونَه، فلو كان غيرَ نَبِيٍّ؛ لم يَكُن معصومًا، ولم تَكُن لموسى -وهو نَبِيٌّ عظيمٌ، ورسولٌ كريمٌ، واجبُ العصمةِ- كبيرُ رغبةٍ ولا عظيمُ طَلِبةٍ في عِلْمِ وَلِيٍّ غيرِ واجبِ العصمةِ، ولَمَا عَزَم

على الذهابِ إليهِ والتفتيشِ عليهِ، ولو أنَّه يَمضِي حُقُبًا من الزمانِ –قيل: ثمانينَ سَنَةٍ–، ثم لمَّا اجتَمَع بِه تَواضَعَ لهُ، وعَظَّمَه، واتَّبَعَهُ في صورةِ مستفيدٍ منهُ، دلَّ على أنَّه نَبِيٌّ مثلُه؛ يُوحَى إليهِ كمَا يُوحَى إليهِ، وقد خُصَّ من العلومِ اللَّدُنيَّةِ والأسرارِ النبويةِ بِمَا لم يُطلِعِ اللهُ عليهِ موسى الكليمِ، نبيَّ بني إسرائيلَ الكريمَ. وقد احتَجَّ بهذا المَسلَكْ بعينِه الرُّمَّاني على نُبُوَّةِ الخَضِرِ عليهِ السلامُ.

الثالث: أنَّ الخَضِرَ أَقدَمَ على قَتْلِ ذلكَ الغلامِ، وما ذاكَ إلَّا للوَحْيِ إليهِ من المَلِكِ العَلَّامِ، وهذا دليلٌ مُستَقِلٌّ على نُبُوَّتِه، وبرهانٌ ظاهرٌ على عصمتِه؛ لأنَّ الوَلِيَّ لا يَجوزُ لهُ الإقدامُ على قَتْلِ النُّفُوسِ بمجرَّدِ ما يُلْقَى في خَلَدِه؛ لأنَّ خاطرَه ليس بواجبِ العصمةِ، إذْ يجوزُ عليهِ الخطأُ بالاتِّفاقِ، ولمَّا أَقدَمَ الخَضِرُ على قَتْلِ ذلكَ الغلامِ الذي لم يَبلُغِ الحُلُمَ –عِلْمًا منهُ بأنَّه إذا بَلَغ يَكفُرُ، ويَحمِلُ أبوَيهِ على الكفرِ لشدَّةِ محبَّتِهِمَا لهُ، فيُتابِعانِه عليهِ؛ ففي قَتْلِه مصلحةٌ عظيمةٌ تَربُو على بقاءِ مُهجَتِه؛ صيانةً لأبوَيهِ عن الوقوعِ في الكفرِ وعقوبتِه– دلَّ ذلكَ على نُبُوَّتِه، وأنَّه مؤيَّدٌ من اللهِ بعصمتِه.

وقد رأيتُ الشيخَ أبا الفَرَجِ ابنَ الجوزيَّ طَرَقَ هذا المَسلَكَ بعينِه في الاحتجاجِ على نُبُوَّةِ الخَضِرِ وصحَّحهُ، وحَكَى الاحتجاجَ عليهِ الرُّمَّاني أيضًا.

الرابع: أنَّه لمَّا فسَّر الخَضِرُ تأويلَ تلكَ الأفاعيلِ لموسى، ووضَّحَ لهُ عن حقيقةِ أَمْرِه قال بعدَ ذلكَ كلِّه: ﴿**وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ يعني: ما فعلتُهُ من تِلقَاءِ نَفْسِي، بل أُمِرْتُ بِه، وأُوحِيَ إليَّ فيهِ.

فدلَّتْ هذهِ الوجوهُ على نُبُوَّتِه، ولا يُنافِي ذلكَ حصولَ ولايتِه، بل ولا رسالتِه، كما قالَه آخرونَ، وأمَّا كونُه مَلَكًا من الملائكةِ؛ فقولٌ غريبٌ جدًّا.

وإذا ثَبَتَتْ نُبُوَّتُه كمَا ذَكَرنَاهُ، لم يبق لمَن قال بوِلَايتِه -وأنَّ الوَلِيَّ قد يَطَّلِعُ على حقيقةِ الأمورِ دونَ أربابِ الشرعِ الظاهرِ- مُستَنَدٌ يَستَنِدُونَ إليهِ، ولا مُعتَمَدٌ يَعتَمِدُونَ عليهِ»[1].

فائدة: تَتَعلَّق بموت الخَضِر:

قال الحافظ ابن كثير: «وأمَّا الذينَ ذهبُوا إلى أنَّه قد مات -ومنهم: البخاريُّ، وإبراهيمُ الحربيُّ، وأبو الحسينِ بنُ المُنادِي، والشيخُ أبو الفَرَجِ بنُ الجوزيُّ، وقد انتَصَر لذلكَ، وألَّف كتابًا سمَّاهُ "عُجالةُ المنتظرِ في شرحِ حالةِ الخَضِرِ"-؛ فيُحتجُّ لهُم بأشياءَ كثيرة:

منها: قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤]؛ فالخَضِرُ إنْ كان بَشَرًا؛ فقد دَخَل في هذا العمومِ لا محالةَ، ولا يَجوزُ تَخصيصُه منهُ إلَّا بدليلٍ صحيحٍ، والأصلُ عَدَمُه حتَّى يَثبُتَ، ولم يُذكَرْ فيهِ دليلٌ على التخصيصِ عن معصومٍ، يَجبُ قولُه.

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران: ٨١]: قال ابنُ عباسٍ: ما بَعَث اللهُ نَبيًّا؛ إلَّا أَخَذ عليهِ الميثاقَ؛ لَئِنْ بُعِثَ محمدٌ وهو حَيٌّ؛ لَيُؤمِنُنَّ بِه ولَيَنْصُرُنَّه، وأَمَرَهُ أنْ يَأخُذَ على أُمَّتِه الميثاقَ؛ لَئِنْ بُعِثَ محمدٌ وَهُم أحياءُ؛ لَيُؤمِنُنَّ بِه ولَيَنْصُرُنَّه. ذَكَرهُ البخاريُّ عنهُ[2].

فالخَضِرُ إنْ كان نَبيًّا أو وَلِيًّا؛ فقد دَخَل في هذا الميثاقِ؛ فلو كان حَيًّا في زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ لكان أَشرَفُ أحوالِه أنْ يكونَ بينَ يَدَيهِ؛ يُؤمِنَ بِمَا أَنزَلَ اللهُ عليهِ، ويَنصُرُه أنْ يَصِلَ أحدٌ من الأعداءِ إليهِ؛ لأنَّه إنْ كان وَلِيًّا فالصِّدِّيقُ أفضلُ منهُ،

(١) «البداية والنهاية» ٢/ ٢٤٨ - ٢٥٠؛ ط دار هجر.

(٢) لم أجده عند البخاري في «صحيحه»، وإنما أخرجه الطبري في «تفسيره».

وإنْ كان نَبِيًّا؛ فموسى أفضلُ منهُ، وقد روى الإمامُ أحمدُ في "مسنده" بسنده عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**والَّذي نَفْسِي بِيدِه؛ لو أنَّ موسى كان حَيًّا؛ ما وَسِعَهُ إلَّا أنْ يَتَّبِعَنِي**»، وهذا الذي يُقطَعُ بِه، ويُعلَمُ من الدِّينِ علمَ الضرورةِ.

وقد دلَّتْ هذهِ الآيةُ الكريمةُ أنّ الأنبياءَ كلَّهُم؛ لو فُرِضَ أنَّهم أحياءُ مُكلَّفونَ في زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ لكانوا كلُّهُم أتباعًا لهُ، وتحتَ أوامرِه، وفي عمومِ شَرْعِه ... والمعلومُ أنَّ الخَضِرَ لم يُنقَلْ بسندِ صحيحٍ ولا حَسَنٍ تَسْكُنُ النَّفْسُ إليهِ أنَّه اجتَمَع برسولِ اللهِ ﷺ في يومٍ واحدٍ، ولم يَشهَدْ معهُ قتالًا في مشهدٍ من المشاهدِ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ قبلَ موتِه بقليلٍ أو بشَهْرٍ: «**ما مِن نَفْسٍ مَنفوسَةٍ -أو: ما منكُم من نَفْسٍ اليومَ مَنفُوسَةٍ- يَأتِي عليهَا مِئَةُ سَنَةٍ وهي يومئذٍ حَيَّةٌ**» ... قال ابن الجوزي: فهذهِ الأحاديثُ الصحاحُ تَقطَعُ دابِرَ دعوى حياةِ الخَضِرِ». «البداية والنهاية» ٢/ ٢٦٥ - ٢٧٠.

وقال ابن القيم: «الأحاديثُ التي ذُكِرَ فيها الخَضِرُ وحياتُه كلُّها كَذِبٌ، ولا يَصحُّ في حياتِه حديثٌ واحدٌ.

كحديثِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان في المسجدِ، فسَمِعَ كلامًا من ورائِه، فذَهَبُوا يَنظُرُونَ، فإذا هو الخَضِرُ.

وحديث: يَلتقِي الخَضِرُ وإلياسُ كُلَّ عامٍ.

وحديث: يَجتمعُ بعرفةَ جبريلُ وميكائيلُ والخَضِرُ ... الحديثُ مُفتَرًى طويلٌ.

سُئِلُ إبراهيمُ الحربيُّ عن تعميرِ الخَضِرِ، وأنَّه باقٍ، فقال: مَن أحال على غائبٍ لم يُنتَصَفْ منهُ، وما أَلقَى هذا بينَ الناسِ إلَّا شيطانٌ.

وسُئل البخاريُّ عن الخَضِرِ وإلياس هل هما أحياءٌ؟ فقال: كيفَ يكونُ هذا؟ وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لا يَبقَى على رأسِ مئة سَنَةٍ ممَّن هو اليومَ على ظَهْرِ الأرضِ أَحَدٌ**»؟

وسُئل عن ذلك كثيرٌ غيرُهُما من الأئمةِ، فقالوا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.

وسُئل عنهُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله، فقال: لو كان الخَضِرُ حَيًّا لوَجَب عليهِ أنْ يأتِيَ النبيَّ ﷺ، ويُجاهِدَ بينَ يَدَيهِ، ويَتعلَّمَ منهُ، وقد قال النبيُّ ﷺ يومَ بدرٍ: (اللهمَّ إنْ تُهْلَكْ هذهِ العصابةُ، لا تُعبَدُ في الأرضِ)، وكانوا ثلاثَ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ رَجُلًا معروفينَ بأسمائِهِم، وأسماءِ آبائِهِم وقبائلِهِم، فأينَ كان الخَضِرُ حينئذٍ؟

وذَكَر ابنُ حجرٍ أحاديثَ وحكاياتٍ تدلُّ على وجودِ الخَضِرِ إلى يومِنَا هذا، وقد أشار إلى ضَعْفِها ونكارتِهَا. «الإصابة» ٣/ ٢٣٦ - ٢٤٠؛ ط دار هجر.

٣ - لقمان:

وقد وَرَد ذِكرُه في القرآنِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۞ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٢- ١٣].

وفي القرآنِ سورةٌ باسمِه.

وقد اختَلَف العلماء في نُبُوَّتِه، والراجح: أنَّه ليس نَبِيًّا؛ لأنَّ القرآنَ والسُّنةَ لم يَنصُّا على ذلكَ، ولأنَّ اللهَ سبحانَه ذَكَر الأنبياءَ ولم يَذكُرْه معهم، بل وَصَفَه بالحكمةِ، ولو كان نَبِيًّا لنصَّ على صفةِ النُّبُوَّةِ، قال البغوي: «اتَّفق العلماءُ على أنَّه كان حكيمًا، ولم يَكُن نَبِيًّا». «معالم التنزيل» ٣/ ٤٩٠.

٤ - ذو القَرنَين:

قد وَرَد ذِكرُه في آياتٍ من القرآنِ، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

وقد اختَلَف العلماء في نُبُوَّتِه على قولين، الراجح: أنَّه عَبْدٌ صالحٌ، وليس نَبِيًّا. وهو قول ابن كثير، وروي عن علي بن أبي طالب.

قال ابن كثير: «والصحيحُ: أنَّه كان مَلِكًا من الملوكِ العادِلِينَ». «البداية والنهاية» ٢/١٠٣.

وأمَّا ما أخرجه البيهقي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**ما أدري ذُو القَرنَينِ أَنَبِيًّا كان أم لا؟**»؛ فلا يصح.

٥- تُبَّع:

ذكر الله تعالى قوم تُبَّع في موضعين من كتابه:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿**أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ [الدخان: ٣٧].

وقوم تُبَّع هم قومُ سبأٍ، وكان مسكنُهُم باليمنِ، وهم المذكورونَ في سورةِ سبأ، حيثُ أخبَر اللهُ عنهم أنَّه أهلَكَهُم، وخرَّب بلادَهُم، وشرَّدَهُم في البلادِ، عقوبةً لهم على كُفرِهِم.

وصحَّ عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّها قالت: كان تُبَّعٌ رَجُلًا صالحًا، أَلَا تَرَى أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ ذَمَّ قومَهُ، ولم يَذُمَّهُ؟.

وأمَّا ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا تَسُبُّوا تُبَّعًا؛ فإنَّهُ قد أَسلَمَ**»؛ فلا يَصحُّ.

٦ – إخوة يوسف:

اختلف العلماء في نبوة إخوة يوسف على قولين، والراجح: أنَّهم ليسوا أنبياءَ. وهو قولُ جمهورِ أهلِ العلم، منهم: القاضي عياض، وابن حزم، وابن تيمية في أحد قولَيه، وابن كثير.

واستدلوا بما يلي:

١ – أنَّه لا يُوجدُ دليلٌ يدلُّ على نُبُوتِهِم.

٢ – أنَّهم لو كانوا أنبياءَ لكانوا معصومِينَ من الكبائرِ، وما جَرَى منهم مع يوسفَ ﷺ كبيرةٌ من الكبائرِ.

٣ – أنَّ اللهَ تعالى لمَّا ذَكَر ما جَرَى منهم لم يَذكُرْ لهم توبةً باهرةً تُقابِلُ ما فَعَلوهُ، وإنَّما حَكَى عنهم الاعترافَ وطلبَ الاستغفارِ.

٤ – أنَّ يوسفَ ﷺ قال لهم: ﴿**أنتم شر مكانا**﴾ [يوسف: ٧٧]، وهذا لا يجوز قولُه لنبيٍّ من الأنبياءِ، ولا لقومٍ صالحينَ.

٥ – أنَّه لم يَدُلَّ دليلٌ على أنَّ أهلَ مصرَ جاءَهُم نَبِيٌّ قبلَ موسى إلَّا يوسفَ، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا**﴾ [غافر: ٣٤]، فلو كان من إخوةِ يوسفَ نَبِيٌّ لدَعَا أهلَ مصرَ، ولظَهَرتْ أخبارُ نُبُوَّتِه.

قالوا: وأمَّا تفسيرُ (الأسباط) بإخوة يوسف ﷺ؛ فلا يصح، وأن المراد بالأسباط: شعوب بني إسرائيل وقبائلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ، بل ولا أصحابه خبر بأن الله تعالى نبأهم، وإنما احتج مَن قال أنهم نُبِّئوا بقوله في آيتي البقرة والنساء ﴿والأسباط﴾، وفسَّر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب، والصواب: أنه ليس المراد بهم أولاده لصُلبه، بل ذريته، فالأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل». «جامع المسائل» (ص ٢٩٧ – ٢٩٩؛ المجموعة الثالثة – «مسألة في إخوة يوسف هل كانوا أنبياء؟».

وقال ابن حزم: «إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء، ولا جاء قط في أنهم أنبياء نص، لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم». «الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» ٤/ ٢١.

وقال الحافظ ابن كثير: «اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومِن الناس مَن يزعم أنهم أُوحي

إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدَّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذَكَرهم إجمالًا لأنهم كثيرون، ولكن كل سِبط من نسل رجلٍ من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أُوحي إليهم، والله أعلم». «تفسير ابن كثير» ٢/ ٤٧٠.

٧ – الرُّسُل المذكورون في قولِه تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾:

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ۝ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٣ – ١٩].

وقد اختلف العلماء في هؤلاء الرُّسُل: هل هم أنبياء، أم أنهم رُسُل لنبي من الأنبياء؟ على قولين، والراجح: أنَّهم رُسُلُ عيسى ﷺ. وهو قول قتادة.

واستدلوا بما يلي:

١ – أنَّه ليس هناك دليل يدل على كونهم رُسُل الله تعالى، والأصل: عدم إثبات النبوة إلا بدليل.

٢ – أنَّ قولَه ﷺ: «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَنَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**»، دليل على أنه لم يكن بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام رسل.

المسألة التاسعة: ثمرات الإيمان بالرسل:

للإيمان بالرسل آثاره الطيبة على المؤمن، فمن ذلك:

١ - العلم برحمة الله تعالى وعنايته بخلقه حيث أرسل إليهم أولئك الرسل الكرام للهداية والإرشاد.

٢ - شكر الله على هذه النعمة الكبرى.

٣ - محبة الرسل وتوقيرهم والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله تعالى وخلاصة عبيده ، ولما قاموا به من تبليغ رسالة الله لخلقه وكمال نصحهم لأقوامهم وصبرهم على أذاهم.

قوله: (**واليومِ الآخرِ**) هذا هو الرُّكنُ الخامس من أركانِ الإيمانِ، وهو الإيمانُ باليومِ الآخرِ.

ويَتَعلَّق بالإيمان باليومِ الآخرِ سِتَّ مسائل:

المسألة الأولى: تعريف اليوم الآخر:

اليومُ الآخِرُ هو اليومَ الذي لا يومَ بعدَهُ، وهو اليومُ الذي تُعادُ فيهِ الأرواحُ إلى الأجسادِ، وتُبعَثُ فيهِ الخلائقُ للجزاءِ والحسابِ.

المسألة الثانية: معنى الإيمان باليوم الآخر:

هو التَّصديقُ بكُلِّ ما أخبَر اللهُ بِه ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ، من الحسابِ، والميزانِ، والجنةِ والنارِ.

المسألة الثالثة: الإيمانُ باليومِ الآخرِ يَتَضمَّنُ ما يلي:

١ – القبر والحياة البرزخية:

وهو أولُ منازلِ الآخرةِ، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿**وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وعن عثمانَ رضي الله عنه: أنَّه كان إذا وَقَف على قبرٍ بَكَى، حتى يَبُلَّ لِحيتَه، فقيل لهُ: تَذكرُ الجنةَ والنارَ فلا تَبكِي، وتَبكِي من هذا؟ فقال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**القبرُ أولُ منازلِ الآخرةِ، فإنْ يَنْجُ منهُ فمَا بعدَهُ أَيسَرُ منهُ، وإنْ لم يَنْجُ منهُ، فمَا بعدَه أشدُّ منهُ**».

والحياةُ البرزخيةُ تَتَضمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ:

(أ) ضغطةَ القبرِ.

(ب) فتنةَ القبرِ.

(ج) نعيمَ القبرِ وعذابَه.

٢ – قيامُ الساعةِ:

وانتهاءُ الحياةِ الدنيا، وذلكَ عندَ النفخِ في الصُّورِ النَّفخةُ الأولى، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّوْرِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ [الزمر: ٦٨][(١)]، وقال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩ - ٥٠].

٣ – البعثِ والنشور:

وهو إحياءُ الموتى عندَ النَّفخِ في الصُّورِ النَّفخةُ الثانيةُ، فيَقومُ الناسُ لرَبِّ العالمينَ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١ - ٥٣].

والبعثُ وما يَلِيهِ من الحوادثِ العِظَامِ هو «القيامة الكبرى»، وأمَّا «القيامة الصغرى» فهي التي تَلِي الموتَ وما يَلِيهِ من الحياةِ البرزخيةِ، وقد جَمَع اللهُ بينَ

---

(١) «﴿وَنُفِخَ فِي الصُّوْرِ﴾ وهو قَرْنٌ عظيمٌ، لا يَعلمُ عظمتَه إلَّا خالقُه، فيَنفخُ فيهِ إسرافيلُ عليهِ السلامُ، أحدُ الملائكةِ المُقرَّبينَ ﴿فَصَعِقَ﴾؛ أي: غَشِيَ أو مات -على اختلافِ القولَين- ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: كلُّهم، لمَّا سَمِعُوا نفخةَ الصُّورِ أَزعَجَتْهُم من شِدَّتِهَا وعِظَمِهَا، وما يَعلمُونَ أنَّها مُقدِّمةٌ لهُ ﴿إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ ممَّن ثبَّته اللهُ عندَ النفخةِ، فلم يُصعَقْ، كالشهداءِ، أو بعضِهم، وغيرِهم. وهذهِ النَّفخةُ الأولى، نَفخةُ الصَّعْقِ، ونَفخَةُ الفَزَعِ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ النَّفخةُ الثانيةُ نَفخةُ البعثِ ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾؛ أي: قد قامُوا من قبورِهم لِبَعثِهم وحسابِهم، قد تمَّت منهم الخِلْقةُ الجسديةُ والأرواحُ، وشَخَصَتْ أبصارُهُم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ماذا يَفعلُ اللهُ بِهِم». «تفسير السعدي» (ص ٧٢٩).

القيامتَينِ في قولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٤ – الحَشر:

وهو سَوْق الناس لأرض المَحشَر.

٥ – الحوض:

وهو خاصٌّ بنبيِّنا محمدٍ ﷺ، يَرِدُ عليهِ الناسُ للشُّربِ منهُ، ومَن شَرِبَ منهُ لم يَظمَأْ بعدَها أبدًا.

٦ – الشفاعة العظمى:

وهي سؤالُ الرَّبِّ تبارك وتعالى منفعةَ العبادِ، بتعجيلِ الحسابِ.

٧ – العرض والحساب والجزاء:

وهو عَرْضُ الأعمالِ على العبادِ. وسيأتي الكلامُ على ذلكَ بإذن اللهِ تعالى.

٨ – الميزان:

فتُوزَنُ أعمالُ العبادِ، فمَن رَجَحَتْ حَسَناتُه على سيِّئاتِه دَخَل الجنةَ، ومَن رَجَحَتْ سيِّئاتُه على حَسَناتِه دَخَل النارَ.

٩ – تطاير الصُّحُف:

بعدَ وَزْنِ الأعمالِ تَتطايَرُ الصُّحُفُ، فآخِذٌ كتابَه بيمينِه، وآخِذٌ كتابَه بشمالِه.

١٠ – الصراط:

وهو جِسْرٌ ممدودٌ على متنِ جهنَّمَ، يَعبُر الناسُ عليهِ، فمَن جَاوَزَه دَخَل الجنةَ، ومَن لم يَتَجاوَزْهُ، سَقَط في جهنَّم.

١١ – القنطرة:

إذا خَلَص المؤمنونَ من النارِ حُبِسُوا بقنطرةٍ بينَ الجنةِ والنارِ، فيَتَقاصُّونَ مظالمَ كانت بينَهُم في الدُّنيا؛ فيَتَراضَون فيما بينَهُم ويَتَسامَحُونَ عمَّا كان لبعضِهِم من تَبِعاتٍ على بعضٍ، حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبُوا، أُذِنَ لهم بدخولِ الجنةِ.

١٢ – الجنة والنار:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

المسألة الرابعة: وجوب الإيمان باليوم الآخر:

قد دلَّ على وجوبِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ: الكتابُ، والسُّنةُ، والإجماعُ.

أمَّا أدلة الكتاب:

فمنها: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الموْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وقوله تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

وأمَّا أدلة السُّنة: فمنها: سؤالُ جبريلَ للنبيِّ ﷺ عن أركانِ الإيمانِ، وفيه: «**أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّهِ**».

وأمَّا الإجماع؛ فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المسلمونُ سُنِّيُّهُم وبِدعِيِّهُم متَّفقونَ على وجوبِ الإيمانِ باللهِ ... واليومِ الآخرِ».

المسألة الخامسة: ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

للإيمانِ باليومِ الآخرِ ثمراتٌ جليلةٌ منها:

الأولى: الرَّغبةُ في فعلِ الطاعةِ، والحرصُ عليها، رجاءً لثوابِ ذلكَ اليومِ.

الثانية: الرَّهبةُ عندَ فعلِ المعصيةِ والرِّضى بِهَا خوفًا من عقابِ ذلكَ اليومِ.

الثالثة: تسليةُ المؤمنِ عمَّا يَفُوتُه من الدُّنيا بِمَا يَرجُوهُ من نعيمِ الآخرةِ وثوابِهَا. «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ العثيمين (ص ١٠٥).

المسألة السادسة: كثيرًا ما يأتي في النصوصِ ذِكرُ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ دونَ ذكرٍ لبقيةِ أركانِ الإيمانِ:

كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ١ - ٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وكما في قولِه ﷺ: «**إنَّ مكةَ حَرَّمهَا اللهُ، ولم يُحرِّمْهَا الناسُ، فلا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ يَسفِكَ بها دَمًا، ولا يُعضَدُ بِهَا شجرةٌ**». أخرجه البخاري (١٠٤).

وفي قولِه ﷺ: «**لا يحلُّ لامرأةٍ تُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ تُسافِرَ مَسِيرةَ يومٍ وليلةٍ ليس معها حُرمَةٌ**». أخرجه البخاري (١٠٨٨).

وقولِه ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لامرأةٍ تُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ تُحِدَّ على ميِّتٍ فوقَ ثلاثٍ إلَّا على زَوْجٍ، فإنَّها تُحِدُّ عليهِ أربعةَ أشهرٍ وعشرًا**». أخرجه البخاري (١٢٨٠).

وقولِه ﷺ: «**مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فَليَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ، ومَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فَليُكرِمْ جارَهُ، ومَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخر فليكرم ضيفه**». أخرجه مسلم (٤٧).

والسببُ في ذلكَ -والله أعلم- أنَّ التذكيرَ باليومِ الآخرِ يَحُثُّ العبدَ على العملِ بطاعةِ اللهِ والبُعدِ عن مَسَاخِطِه؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ هناكَ يومًا للحسابِ والجزاءِ، أَعَدَّ لهذا اليومِ عُدَّتَه.

قوله: (وتُؤمِنُ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه) هذا هو الرُّكنُ السادس من أركانِ الإيمانِ، وهو الإيمانُ بالقَدَرِ.

ويَتَعلَّق بالإيمان عدة مسألة:

المسألة الأولى: تعريف القدر:

القَدَر شرعًا: هو «ما سَبَق بِه العلمُ، وجَرَى به القلمُ، ممَّا هو كائنٌ إلى الأبدِ، وأنَّه عزَّ وجلَّ قدَّر مقاديرَ الخلائقِ، وما يكونُ من الأشياءِ قبلَ أنْ تكونَ في الأزلِ، وعَلِمَ سبحانَه وتعالى أنَّها ستَقَعُ في أوقاتٍ معلومةٍ عندَه تعالى، وعلى صفاتٍ مخصوصةٍ، فهي تَقَع على حَسَبِ ما قدَّرَهَا». «لوامع الأنوار البهية» ١/٣٤٨

المسألة الثانية: معنى الإيمان بالقدر:

هو أنْ تَعلَمَ أنَّ ما أصابَك لم يَكُن لِيُخطِئَكَ، وما أَخطأَكَ لم يَكُن لِيُصيبَكَ، وأنَّ ما شاءَ اللهُ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُن.

المسألة الثالثة: حكم الإيمان بالقدر:

الإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ واجبٌ على كُلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ، وهو أحدُ أركانِ الإيمانِ، التي لا يَتِمُّ الإيمانُ إلَّا بِه، ومَن أَنكَرَه فقد أَشرَكَ في الربوبيةِ؛ لأنَّ القَدَرَ فِعْلُ اللهِ، فمَن أَنكَرَهُ، فقد أَنكَرَ ربوبيتَه.

وقد دلَّ على وجوبِ الإيمانِ بِه الكتابُ، والسُّنَّة، والإجماعُ.

أمَّا أدلة الكتاب:

فقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [التغابن: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]،

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وأمَّا أدلة السُّنة:

١ – فحديثُ جبريلَ عليه السلام، وفيه: «**وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّهِ**».

٢ – وما أخرجه مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**كَتَبَ اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أنْ يَخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سَنَةٍ، قال: وعرشُه على الماءِ**».

٣ – وما أخرجه مسلم أيضًا، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مُشرِكُو قريشٍ يُخاصمُونَ رسولَ اللهِ ﷺ في القَدَرِ، فنَزَلَتْ: ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾».

وأمَّا الإجماع؛ فحكاهُ جَمْعٌ من أهلِ العلمِ، منهم: أبو القاسم اللالكائي، والنووي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن حجر.

وممَّا روي عن الصحابة رضي الله عنهم في هذا الباب:

١ – ما أخرجه مسلم، عن طاوس أنَّه قال: أَدرَكتُ ناسًا من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ يقولون: كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ. قال: وسَمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ يقولُ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ، حتَّى العَجْزُ والكَيْسُ**»[1].

---

(١) **قال النووي:** «العجزَ هنا على ظاهرِه، وهو عدمُ القدرةِ. وقيل: هو تركُ ما يَجِبُ فِعلُه، والتسويفُ بِه، وتأخيرُه عن وقتِه. قال: ويَحتملُ: العجزُ عن الطاعاتِ. ويَحتملُ

٢ – وما أخرجه الفِريابي في «القدر»، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: القَدَرُ نظامُ التوحيدِ، فمَن وَحَّدَ اللهَ عزَّ وجَلَّ، وآمَنَ بالقَدَرِ، فهي الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى الَّتِي لا انفِصَامَ لهَا، ومَن وحَّدَ اللهَ تعالى، وكذَّب بالقَدَرِ، نَقَض التوحيدَ(١).

٢ – وقال ابنُ عمرَ رضي الله عنه لمَّا بَلَغهُ قولُ مَن يُنكِر الإيمانَ القَدَر، ويقولُ: إنَّ الأمرَ أُنُف: والذي نفسُ ابنِ عمرَ بيدِه، لو أَنفَقَ مثلَ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا ما قَبِلَهُ اللهُ منه حتَّى يُؤمِنَ بالقَدَرِ. أخرجه مسلم.

٣ – وأخرج أحمد بسند حسن، عن عبد الله بن فيروز بن الدَّيلمي أنه قال: لَقِيتُ أُبيَّ بنَ كعبٍ، فقلتُ: يا أبا المُنذرِ، إنَّهُ قد وَقَع في نَفْسِي شيءٌ من هذا القَدَرِ، فحَدِّثني بشيءٍ، لعلَّهُ يَذهَبُ من قلبِي. قال: لو أنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سماواتِه وأهلَ أرضِه، لَعَذَّبَهُمْ وهو غيرُ ظالمٍ لهُم، ولو رَحِمَهُم، كانت رَحمَتُه لهُم خيرًا من أعمالِهِم، ولو أَنفَقتَ جَبَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا في سبيلِ اللهِ، ما قَبِلَهُ اللهُ منكَ حتَّى تُؤمِنَ بالقَدَرِ، وتَعْلَمَ أنَّ ما أصابكَ لم يَكُن لِيُخطِئَكَ، وما أَخطَأَكَ لم يَكُن لِيُصِيبَكَ، ولو مِتَّ على غيرِ ذلكَ، لَدَخَلتَ النَّارَ. قال: فأَتَيتُ حذيفةَ، فقال لي مِثلَ ذلكَ، وأَتَيتُ ابنَ مسعودٍ، فقال لي مِثلَ ذلكَ، وأَتَيتُ زيدَ بنَ ثابتٍ، فحَدَّثَني عن النبيِّ ﷺ مِثلَ ذَلِكَ.

٤ – وأخرج أحمد بسند حسن، من طريق عُبَادة بن الوليد بن عُبَادة، قال: حدَّثني أبي قال: دَخَلتُ على عُبادةَ، وهو مريضٌ، أَتَخايَلُ فيهِ الموتَ، فقلتُ: يا أَبَتاهُ، أَوصِنِي، واجتَهِدْ لي. فقال: أجلِسُونِي. فلمَّا أجلَسُوهُ، قال: يا بُنيَّ، إنَّكَ لن

العمومَ في أمورِ الدنيا والآخرةِ. والكَيْسُ: ضِدُّ العجزِ، وهو النَّشاطُ والحَذْقُ بالأمورِ، ومعناهُ: أنَّ العاجزَ قد قَدَّر عَجزَهُ، والكيسُ قد قَدَّر كَيْسَهُ». «شرح صحيح مسلم» ١٦/ ٢٠٥.

(١) **قوله: نظام التوحيد:** قال المُناوي في «فيض القدير»: «إذْ لا يَتِمُّ نظامُه إلَّا باعتقادِ أنَّ اللهَ تعالى مُنفَرِدٌ بإيجادِ الأشياءِ على ما هي عليهِ، وأنَّ كُلَّ نعمةٍ منهُ فضلٌ، وكُلُّ نقمةٍ عَدلٌ، وأنَّه أَعلَمُ بطباعِ خَلْقِه منهم».

تَطعَمَ طَعْمَ الإيمانِ، ولَنْ تَبلُغَ حقَّ حقيقةِ العلمِ باللهِ حتَّى تُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّهِ. قال: قلتُ: يا أَبَتَاهُ، وكيفَ لي أنْ أَعلَمَ ما خَيرُ القَدَرِ من شَرِّهِ؟

قال: تَعلَمُ أنَّ ما أخطأَكَ لم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وما أصابَكَ لم يَكُن لِيُخطِئَكَ، يا بُنيَّ، إنِّي سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، ثُمَّ قال: اكتُبْ. فجَرَى في تلكَ السَّاعةِ بِمَا هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ**»، يا بُنَيَّ، إنْ مِتَّ ولَستَ على ذلكَ دَخَلتَ النَّارَ.

٥ - وأخرج الآجري في «الشريعة»، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لا يَذوقُ عَبْدٌ طعمَ الإيمانِ حتَّى يُؤمِنَ بالقَدَرِ كلِّه، وبأنَّه مبعوثٌ من بعدِ الموتِ.

٦ - وأخرج اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» عنه أيضًا أنَّه قال: لَأَنْ أَعَضَّ على جمرةٍ، وأَقبِضُ عليها، حتَّى تَبرُدَ في يَدِي، أَحَبُّ إليَّ من أنْ أقولَ لشيءٍ قَضَاهُ اللهُ: ليتَه لم يَكُن.

٧ - وأخرج الآجري في «الشريعة»، عن أبي الحجاج الأزدي قال: قلتُ لسلمانَ: ما قولُ الناسِ: حتَّى تُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّهِ؟ قال: حتَّى تُؤمِنَ بالقَدَرِ، وتَعلَمَ أنَّ ما أَخطَأَكَ لم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وما أَصابَكَ لم يَكُن لِيُخطِئَكَ، ولا تقولُ: لو فَعَلتُ كذا وكذا، لكان كذا وكذا، ولو لم أَفعَلْ كذا وكذا، لم يكن كذا وكذا.

فدلَّ ذلكَ على أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم مُجمِعُونَ على الإيمانِ بالقَدَرِ، وأنْ مَن لم يُؤمِنْ بالقَدَر مات على غيرِ الإسلامِ.

فائدة: مشركو العرب كانوا مُقرِّينَ بالقضاءِ والقدرِ، قال تعالى: ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهم أَثبَتُوا للهِ تعالى المشيئةَ، لكنَّهم احتجُّوا بها على الشركِ، لذا ردَّ اللهُ عليهِم بقوله: ﴿**كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا**﴾.

كما أنَّ ذِكرَ القَدَر كان مبثوثًا في أشعارِ الجاهليينَ، فمن ذلكَ:

قول عنترة:

يا عَبْلُ أينَ مِنَ المَنِيَّةِ مَهْرَبِي ❊❊❊ إنْ كان رَبِّي في السَّمَاءِ قَضَاهَا

وقال سُويد بن أبي كاهل:

كَتَبَ الرَّحْمَنُ والحَمْدُ لَهُ *** سَعَةَ الأخلاقِ فِيْنَا والضَّلَعْ

وقال بعض رُجَّازِ الجاهلية:

هِيَ المقَادِيرُ فَلُمْنِي أَوْ فَذَرْ *** إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَا الْقَدَرْ

وقال زُهير بن أبي سُلمَى في معلَّقته المشهورة:

فلا تَكتُمُنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكُمْ *** لِيَخْفَى ومَهْمَا يُكْتمَ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كِتَابٍ فيُدَّخَرْ *** لِيَومِ الحِسَابِ أو يُعجَّلْ فيُنقَمِ

لذا قال أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني، المعروف بـ: ثعلب: لا أَعلمُ عربيًّا قَدَريًّا. فقيل له: يَقَعُ في قلوبِ العربِ القَدَرُ؟ قال: معاذَ اللهِ! ما في العربِ إلَّا مُثبِتُ القدرِ خَيرِه وشَرِّه، أهلُ الجاهليةِ والإسلامِ، ذلكَ في أشعارِهِم وكلامِهِم كثيرٌ بيِّنٌ، ثم أنشَدَ:

تَجْرِي المقَادِيرُ عَلَى غَرْزِ الْإِبَرْ *** فَمَا تَنْفُذُ الْإِبْرَةُ إِلَّا بِقَدَرْ

وأنشَدَ لامرئ القيس:

إنَّ الشَّقَاءَ على الأَشْقِينَ مَكتوبُ

وأنشَدَ لِلَبِيد:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفْلْ *** وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ

مِنْ هَدَاهُ سُبُلُ الْخَيْرِ اهْتَدَى *** نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلّ

أَحْمَدُ اللهَ وَلَا نِدَّ لَهُ **** بِيَدِهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ

تنبيه: مشركو العربِ مع إيمانِهِم بالقدرِ، إلَّا أنَّهم كان عندَهُم تخبُّطٌ في ذلكَ، فمِن ذلك: لَبِيدُ بنُ ربيعةَ العامريُّ يَصِفُ البقرةَ الوحشيةَ وحالَها مع الوحوشِ الضَّاريةِ:

صَادَفْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا *** إِنَّ المنَايَا لا تَطِيْشُ سِهَامُهَا

فهو مُوقِنٌ بأنَّ المَنَايَا مُقدَّرةٌ، لكنَّه يَظُنُّ أنَّ الأقدارَ كالناقةِ العشواءِ، الضعيفةِ البَصَرِ، التي تَسِيرُ في الطريقِ، فمَن أَصَابَتْهُ مات، ومَن أَخطَأَتْهُ عَاشَ.

وهذا جَهْلٌ وتخبُّطٌ؛ لأنَّ المَنَايَا مكتوبةٌ مُقدَّرةٌ، كما صرَّح بذلكَ غيرُه من أهلِ الجاهليةِ، كعمرو بن كُلثومٍ أحدِ شعراءِ المعلَّقاتِ حيثُ قال:

وَأَنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا المنَايَا *** مُقَدَّرَةً لَنَا وَمُقَدِّرِيْنَا

المسألة الرابعة: مراتب القدر:

مراتب القدر اثنان:

المرتبة الأولى: مرتبةُ العلمِ والكتابةِ.

المرتبة الثانية: مرتبةُ الخَلقِ والمشيئةِ.

أمَّا المرتبةُ الأولى: فهي قبلَ وقوعِ المقدورِ، وأمَّا المرتبةُ الثانيةُ: فهي مقارنةٌ لوقوعِ المقدورِ.

وبعضُ العلماءِ يُفصِّلُ في ذلكَ، ويَجعلُها أربعَ مراتبَ، فيقولُ:

١ – مرتبةُ العلمِ.

٢ – مرتبةُ الكتابةِ.

٣ – مرتبةُ المشيئةِ.

٤ – مرتبةُ الخَلْقِ.

وقد نَظَمهَا بعضُهُم بقولِه:

عِلْمٌ كِتَابةُ مَولَانَا مَشِيئَتُه *** وخَلْقُهُ وهو إيْجَادٌ وتَكْوِيْنُ

وشرحُ هذهِ المراتبِ بأنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ أنَّه سيُوجَدُ فلانٌ، ثم كَتَب ذلكَ في اللَّوحِ المحفوظِ، ثم إذا جاء وقتُ وجودِه شاءَ اللهُ أنْ يكونَ، ثم بعدَ ذلكَ يَخْلُقُه، فأنتَ مثلًا قبلَ أنْ تُخلَقَ عَلِمَ اللهُ أنَّه سيَخلُقُكَ، ثم كَتَب ذلكَ في اللَّوحِ المحفوظِ، ثم لمَّا قَرُبَ وقتُ خَلْقِكَ شاءَ خَلْقَكَ، ثم خَلَقَكَ، فكنتَ.

المرتبة الأولى: العلم:

ومعناها: أنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ ما كان، وما يكونُ، وما لم يَكُن لو كان كيف يكونُ.

وقد دلَّ على إثباتِ هذهِ المرتبةِ الكتابُ، والسُّنةُ، والإجماعُ.

أمَّا أدلة الكتاب، فمنها:

١ - فقولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢ - وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

٣ - وقولُه تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

٤ - وقولُه تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٥ - وقولُه تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

٦ - وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

٧ - وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [التوبة: ٧٨].

٨ - وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

٩ - وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨].

١٠ - وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

١١ - وقولُه تعالى في حقِّ المنافقينَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧].

وأمَّا أدلة السُّنة، فمنها:

١ – ما في «الصحيحين»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن أطفالِ المشركينَ، فقال: «**اللهُ أعلمُ بِمَا كَانوا عَامِلِينَ إذْ خَلَقَهُم**».

قال الإمام ابن القيم: «ومعنى الحديث: اللهُ أعلمُ بِمَا كانوا عامِلِينَ لو عاشوا».

٢ – وما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرَةِ، فأَبَواهُ يُهوِّدَانِه، ويُنصِّرَانِه، ويُشرِّكانِه**»، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أَرَأَيتَ لو مات قبلَ ذلكَ؟ قَالَ: «**اللهُ أعلمُ بما كانوا عامِلِينَ**».

٣ – وما أخرجه مسلم، من حديث علي رضي الله عنه أنَّه قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ جالسًا وفي يَدِهِ عُودٌ يَنكُتُ بِه، فرَفَع رأسَهُ، فقال: «**ما مِنكُم من نَفْسٍ، إلَّا وقد عُلِمَ مَنزِلُهَا من الجنَّةِ والنَّارِ**».

وأمَّا دليل الإجماع: فقال الإمام ابن القيم: «فأمَّا المرتبةُ الأولى، وهي: العلمُ السابقُ، فقد اتَّفق عليهِ الرُّسُلُ من أوَّلِهِم إلى خاتمِهِم، واتَّفق عليهِ جميعُ الصحابةِ ومَن تَبِعَهُم من الأمةِ، وخالفَهُم في ذلكَ مجوسُ الأمةِ، وكتابتُه السابقةُ تدلُّ على عِلمِه بِهَا قبلَ كونِهَا». «شفاء العليل» ١/ ٣٢٥؛ ط دار الصميعي.

المرتبة الثانية: الكتابة:

ومعناها: أنَّ اللهَ تعالى كَتَب كُلَّ شيءٍ ممَّا هو كائِنٌ إلى قيامِ الساعةِ في اللَّوحِ المحفوظِ.

وقد دلَّ على إثباتِ هذهِ المرتبةِ الكتابُ، والسُّنةُ، والإجماعُ.

أمَّا أدلة الكتاب، فمنها:

١ – قولُه تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ [الحج: ٧٠].

٢ – وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

٣ – وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥](١).

٤ – وقولُه تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

٥ – وقولُه تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

٦ – وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: ٣].

٧ – وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٨ – وقولُه تعالى: ﴿حم ۝ وَالْكِتَابِ المبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ – ٤].

٩ – وقولُه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢].

وأمَّا أدلة السُّنة، فمنها:

---

(١) **قال الإمام ابن القيم:** «فالزَّبُور هنا: جميعُ الكُتُبِ المُنزَّلةِ من السماءِ، لا تَختصُّ بزَبُورِ داودَ، والذِّكرُ أُمُّ الكتابِ الذي عندَ اللهِ، والأرضُ الدُّنيا، وعبادُه الصالحونَ أمةُ محمدٍ ﷺ. هذا أصحُّ الأقوالِ في هذهِ الآيةِ.

وهي عَلَمٌ من أعلامِ نُبُوَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّه أخبَر بذلكَ بمكةَ، وأهلُ الأرضِ كلُّهُم كفارٌ، أعداءٌ لهُ ولأصحابِه، والمشركونَ قد أَخرَجُوهُم من ديارِهِم ومساكنِهِم، وشَتَّتُوهُم في أطرافِ الأرضِ، فأخبَرَهُم ربُّهُم تبارك وتعالى أنَّه كَتَب في الذِّكرِ الأوَّلِ أنَّهم يَرِثُونَ الأرضَ من الكفارِ، ثم كَتَب ذلكَ في الكُتُبِ التي أَنزَلَهَا على رُسُلِه». «شفاء العليل» ١/ ٣٧٥؛ ط دار الصميعي.

١ – ما أخرجه مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**كَتَبَ اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أنْ يَخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بخمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قال: وعرشُهُ على الماءِ**».

٢ – ما في «الصحيحين»، من حديث علي رضي الله عنه أنَّه قال: كُنَّا في جنازةٍ في بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فأَتَانَا رسولُ اللهِ ﷺ، فقَعَد، وقَعَدْنَا حولَهُ، ومعهُ مِخْصَرَةٌ، فنكَّسَ، فجَعَل يَنكُتُ بمِخْصَرَتِه، ثُمَّ قال: «**ما منكُم من أحدٍ، ما مِن نَفْسٍ مَنفُوسةٍ إلَّا وقد كَتَبَ اللهُ مكانَها من الجنَّةِ والنَّارِ، وإلَّا وقد كُتِبَتْ شَقِيَّةً أو سعيدةً ...**» الحديث.

٣ – ما في «الصحيحين»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: ما رأيتُ شيئًا أَشبَه باللَّمَمِ ممَّا قال أبو هريرةَ: أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: «**إنَّ اللهَ كَتَب على ابنِ آدمَ حَظَّهُ من الزِّنَا، أَدرَكَ ذلكَ لا محالةَ، فَزِنَا العينَينِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللسانِ النُّطقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشتَهِي، والفَرْجُ يُصدِّقُ ذلكَ أو يُكذِّبُه**».

٤ – ما أخرجه مسلم ، من حديث حذيفة بن أَسِيد رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا مَرَّ بالنُّطفَةِ ثنتَانِ وأربعونَ ليلةً، بَعَث اللهُ إليها مَلَكًا، فصَوَّرهَا، وخَلَق سَمْعَهَا، وبَصَرهَا، وجِلْدَهَا، ولَحمَهَا، وعظامَهَا، ثُمَّ قال: يا رَبِّ أَذَكَرٌ أم أُنْثى؟ فيَقضِي رَبُّكَ ما شاءَ، ويَكتُبُ المَلَكُ، ثُمَّ يقولُ: يا رَبِّ أَجَلُهُ، فيَقولُ رَبُّكَ ما شاءَ، ويَكتُبُ الملَكُ، ثُمَّ يَقولُ: يا رَبِّ رِزْقُهُ، فيَقضِي رَبُّكَ ما شاءَ، ويَكتُبُ المَلَكُ، ثُمَّ يَخرُجُ المَلَكُ بالصَّحيفةِ في يَدِهِ، فلا يَزِيدُ على ما أُمِرَ، ولا يَنقُصُ**».

وأمَّا دليل الإجماع؛ فقد قال الإمام ابن القيم: «أَجمَعَ الصحابةُ والتابعون وجميعُ أهلِ السُّنةِ والحديثِ أنَّ كُلَّ كائِنٍ إلى يومِ القيامةِ فهو مكتوبٌ في أُمِّ الكتابِ، وقد دلَّ القرآنُ على أنَّ الرَّبَّ تبارك وتعالى كَتَب في أمِّ الكتابِ ما يَفعَلُه وما يَقولُه، فكَتَب في اللَّوحِ أفعالَه وكلامَه، فـ ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**﴾ في اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ وجودِ أبي لَهَبٍ». «شفاء العليل» ١/ ٣٨٧؛ ط دار الصميعي.

المرتبة الثالثة: المشيئة:

ومعناها: أنَّ ما شاءَ اللهُ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُن.

وقد دلَّ على إثباتِ هذهِ المرتبةِ الكتاب، والسُّنة، والإجماع.

أمَّا أدلة الكتاب، فمنها:

١ – قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

٢ – وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

٣ – وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الكهف: ٢٣ – ٢٤].

٤ – وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٥ – وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

٦ – وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [يوسف: ٧٦].

٧ – وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

٨ – وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

٩ – وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

وأمَّا أدلة السُّنة، فمنها:

١ – ما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا يَقُولنَّ أحدُكُم: اللهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللهُمَّ ارحَمْنِي إنْ شِئتَ، ليَعزِمْ في الدُّعَاءِ، فإنَّ اللهَ صانعٌ ما شاءَ، لا مُكرِهَ لهُ**».

٢ – وما في «الصحيحين»، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**اشفَعُوا تُؤجَرُوا، ويَقضِي اللهُ على لسانِ نَبِيِّه ﷺ ما شاءَ**».

٣ – وما في «الصحيحين»، من حديث عليٍّ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ طَرَقَهُ وفاطمةَ، فقال: «**أَلَا تُصَلُّونَ؟**»، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما أَنْفُسُنَا بيدِ اللهِ، فإذا شَاءَ أنْ يَبعَثَنَا بَعَثنَا ...» الحديث.

٤ – وما أخرجه البخاري، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه في قصةِ نومِهم في الوادي، وفيه: قولُه ﷺ: «**إنَّ اللهَ قَبَض أَرواحَكُم حينَ شَاءَ، ورَدَّهَا عليكُم حينَ شاءَ**».

٥ – وما أخرجه مسلم، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أَنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ قلوبَ بني آدمَ كلَّها بينَ إصْبَعينِ من أصابعِ الرحمنِ، كقَلْبٍ واحدٍ، يُصرِّفُهُ حيثُ يَشاءُ**» **ثُمَّ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ مُصرِّفَ القلوبِ، صرِّفْ قلوبَنا على طاعتِكَ»**.

٦ – وما أخرجه مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أَنَّه قال: «**المؤمِنُ القويُّ خَيرٌ وأَحَبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ، احْرِصْ على ما يَنفَعُكَ، واستَعِنْ باللهِ، ولا تَعْجَزْ، وإنْ أصابكَ شيءٌ، فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فَعَلتُ كان كذا وكذا، ولكنْ قُل: قَدَّرُ اللهُ وما شاءَ فَعَل، فإنَّ لَوْتَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ**».

فائدة: قال الإمام ابن القيم: «ولو ذَهَبنَا نَذكرُ كلَّ حديثٍ أو أثرٍ فيه لفظُ المشيئةِ، وتعليقَ فعلِ الربِّ تعالى بِهَا؛ لطال الكتابُ جدًّا». «شفاء العليل» ١/ ٤٣٤؛ ط دار الصميعي.

وأمَّا دليل الإجماع؛ فقد قال الإمام ابن القيم: «وهذهِ المرتبةُ قد دلَّ عليها إجماعُ الرُّسُلِ من أوَّلِهِم إلى آخِرِهِم، وجميعُ الكُتُبِ المُنزَّلةِ من عندِ اللهِ، والفطرةُ التي فَطَر اللهُ عليها خَلْقَهُ، وأدلةُ العقلِ والعِيانِ». «شفاء العليل» ١/ ٣٩٩؛ ط دار الصميعي.

المرتبة الرابعة: الخَلْق:

ومعناها: أنَّ اللهَ تعالى خَلَق الأشياءَ، وأَوجَدَهَا على مقتضى حِكمَتِه.

وقد دلَّ على إثباتِ هذهِ المرتبةِ الكتابُ، والسُّنةُ، والإجماعُ.

أما أدلة الكتاب، فمنها:

١ – قوله تعالى: ﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [الزمر: ٦٢].

٢ – وقوله تعالى: ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات: ٩٦].

وأمَّا أدلة السُّنة، فمنها:

١ – ما أخرجه مسلم، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أنَّه قال: لا أقولُ لكُم إلَّا كمَا كان رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: كان يقولُ: «**اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ من العَجزِ والكَسَلِ، والجُبْنِ والبُخلِ، والهَرَمِ، وعذابِ القبرِ، اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقوَاهَا، وزَكِّهَا أنتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أنتَ وَلِيُّهَا ومَولَاهَا**».

٢ – وما أخرجه البخاري، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ: **لا إلهَ إلَّا اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ المُلكُ، ولهُ الحمدُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، اللهُم لا مانِعَ لِمَا أَعطَيتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنَعتَ، ولا يَنفَعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ**».

٣ – وما أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد»، من حديث حذيفة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ يَصنَعُ كُلَّ صانعٍ وصَنْعَتَهُ**».

وأمَّا الإجماع؛ فقال الإمام ابن القيم: «وهذا أمرٌ مُتَّفقٌ عليهِ بينَ الرُّسُلِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِم، وعليهِ اتَّفَقَتِ الكُتُبُ الإلهيةُ، ودلَّتْ عليهِ أدلةُ العقولِ، والفِطَرِ، والاعتبارِ». «شفاء العليل» ٢/ ٤٤٩ ؛ ط دار الصميعي.

تنبيه: أول شِرك وقع في هذه الأمة كان نفي القَدَر:

يدل لذلك: ما أخرجه مسلم (٨)، عن يحيى بنِ يَعْمَر قال: كان أَوَّلَ مَن قال في القَدَرِ بالبصرةِ مَعْبَدٌ الجُهنيُّ، فانْطَلَقتُ أنا وحُميدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ الحِمْيَرِيُّ حَاجَّينِ أو مُعتَمِرَينِ، فقُلنَا: لَو لَقِينَا أحدًا من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، فسَأَلنَاهُ عمَّا يقولُ هؤلاءِ في الْقَدَرِ، فوُفِّقَ لنَا عبدُ اللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطابِ دَاخِلًا المسجدَ، فَاكتَنَفْتُهُ أنا وصاحِبِي أَحَدُنَا عن يَمِينِه، والآخرُ عن شِمَالِه، فظَنَنْتُ أنَّ صاحِبِي سَيَكِلُ الكلامَ إليَّ، فقلتُ: أبا عبدِ الرَّحمنِ، إنَّهُ قد ظَهَر قِبَلَنَا ناسٌ يَقرَؤونَ القرآنَ، ويَتَقَفَّرُونَ العلمَ، وذَكَر من شأنِهِم، وأنَّهم يَزعُمُونَ أنْ لا قَدَر، وأنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ، قال: فإذا لَقِيتَ أُولئكَ، فأَخبِرْهُم أنِّي بَرِيءٌ منهُم، وأنَّهُم بُرآءُ مِنِّي.

المسألة السادسة: الهداية والإضلال:

هذهِ المسألةُ من أشرفِ المسائلِ وأَجَلِّهَا في بابِ القضاءِ والقدرِ، فهي «قَلْبُ أبوابِ القدرِ ومسائِلِه، فإنَّ أفضلَ ما يُقدِّرُ اللهُ لعبدِه وأَجَلُّ ما يَقسِمُهُ لهُ الهُدى، وأعظمُ ما يَبتَلِيهِ بِه ويُقدِّرُه عليهِ الضلالُ، وكُلُّ نعمةٍ دونَ نعمةِ الهُدى، وكُلُّ مصيبةٍ دونَ مصيبةِ الضلالِ». «شفاء العليل» ٢/ ٥١٧؛ ط دار الصميعي.

وقد دلَّ الكتابُ والسُّنةُ والإجماعُ دلالةً قاطعةً على أنَّ الهدايةَ والإضلالَ من اللهِ تعالى، وأنَّه تعالى يَهدِي مَن يشاءُ برحمتِه، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ بعَدْلِه.

أمَّا أدلة الكتاب:

فمنها: قوله تعالى: ﴿**مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿**يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**﴾ [السجدة: ١٣].

وأمَّا أدلة السُّنة، فمنها:

١ - ما أخرجه مسلم، من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، فيمَا يَروي عن ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «**يا عبادِي كلُّكُم ضَالٌّ إلَّا مَن هَدَيتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**».

٢ - وما أخرجه مسلم أيضًا، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللهُمَّ، إنِّي أسألُكَ الهُدَى، والتُّقَى، والعفافَ، والغِنَى**».

وأمَّا الإجماع: فقال الإمام ابن القيم: «وقد اتَّفَقَتْ رُسُلُ اللهِ من أوَّلِهِم إلى آخِرِهِم، وكُتُبُه المُنزَّلةُ عليهم على أنَّه سبحانَه يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويَهدِي مَن يَشاءُ، وأنَّه مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضلِلْ فلا هادِيَ لهُ، وأنَّ الهُدى والإضلالَ بيدِه لا بيدِ العبدِ، وأنَّ العبدَ هو الضَّالُّ أو المُهتَدِي، فالهدايةُ والإضلالُ فِعلُهُ سبحانَه وقَدَرُهُ، والاهتداءُ والضلالُ فِعْلُ العبدِ وكَسْبُهُ».

وهداياتُ اللهِ تعالى للخَلْقِ على أربعِ مراتبَ:

المرتبة الأولى: الهُدَى العامُّ، وهو هدايةُ كُلِّ نَفْسٍ إلى مصالحِ معاشِهَا وما يُقِيمُهَا.

ودليلُ هذهِ المرتبةِ: قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١ - ٣]، ٢ - وقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

المرتبة الثانية: هداية البيانِ والدلالةِ:

وهذا خاصٌّ بالمُكلَّفِينَ.

ودليلُ هذهِ المرتبةِ: قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

وهذهِ المرتبةُ هي حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِهِ التي لا يُعذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ إقامتِهَا عليهِ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨ - ٩].

المرتبة الثالثة: هداية التوفيق:

وهذهِ الهدايةُ التي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ.

ودليلُ هذهِ المرتبةِ: قولُه تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقولُه تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ﴾ [النحل: ٣٧].

المرتبة الرابعة: الهدايةُ يومَ المعادِ إلى طريقِ الجنةِ والنارِ.

ودليلُ هذهِ المرتبةِ: قولُه تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٣]، وقولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٥].

قال الإمام ابن القيم: «هذهِ هدايةٌ بعَد قَتْلِهم؛ فقيل المعنى: سيَهدِيهُمُ إلى طريقِ الجنةِ، ويُصلِحُ حالَهُم في الآخرة بإرضاءِ خُصُومِهِم، وقَبولِ أعمالِهِم».

فإن قيل: كيف يَمنعُ اللهُ تعالى بعضَ خَلْقِه الهدايةَ، ثم يُعاقِبهُم يومَ القيامةِ؟

فيقال: قد بيَّن أئمةُ الإسلامِ جوابَ هذا الإشكالِ، وهو: أنَّ اللهَ تعالى ما مَنَعَهُم الهدايةَ إلَّا لعدم فِعْلِهِم ما أَمَرَهُم اللهُ تعالى بِه، فإنَّ اللهَ تعالى خَلَق الخَلْقَ لعبادتِه وحدَه لا شريكَ لهُ، فلمَّا لم يَفعلُوا ما خَلَقَهُم الله تعالى لهُ، وفَطَرَهُم عليهِ؛ عَاقبَهُم على ذلكَ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما يُبتلَى بِه من الذنوبِ وإنْ كان خَلْقًا للهِ، فهو عقوبةٌ لهُ على عدمِ فِعْلِ ما خَلَقَهُ اللهُ لهُ، وفَطَرَهُ عليهِ، فإنَّه خَلَقَهُ لعبادتِه وحدَهُ، ودلَّ عليهِ الفِطرةُ، فلمَّا لم يَفعَلْ ما خُلِقَ لهُ، وما فُطِرَ عليهِ، عُوقِبَ على ذلكَ، بأنْ زيَّن لهُ الشيطانُ ما يَفعلُهُ من الشركِ والمعاصي».

وقال الإمام ابن القيم: «فإنْ قيل: كيف تَقومُ حُجَّتُه عليهِم، وقد مَنَعَهُم من الهُدَى، وحَالَ بينَهم وبينَه؟ قيل: حُجَّتُه قائمةٌ عليهِم بتَخلِيَتِه بينَهُم وبينَ الهُدَى وبيانِ الرُّسُلِ لهم، وإراءَتِهِمُ الطريقَ المستقيمَ حتَّى كأنَّهم يُشاهِدُونَه عِيانًا، وأقام لهم أسبابَ الهدايةِ ظاهرًا وباطنًا، ولم يَحُلْ بينَهُم وبينَ تلكَ الأسبابِ، ومَن حَالَ بينَه وبينها منهم بزوالِ عقلٍ أو صِغَرٍ لا تَمييزَ معهُ، أو كونُه بناحيةٍ من الأرضِ لم تَبلُغْهُ دعوةُ رُسُلِه، فإنَّه لا يُعذِّبُه حتَّى يُقِيمَ عليهِ حُجَّتَه، فلم يَمنَعْهُم من هذا الهُدَى، ولم يَحُلْ بينَهُم وبينَه، نَعَمْ، قَطَع عنهُم توفيقَه، ولم يُرِدْ من نفسِه إعانتَهُم، والإقبالَ بقلوبِهِم إليهِ، فلم يَحُلْ بينَهُم وبينَ ما هو مقدورٌ لَهُم، وإنْ حَالَ بينَهُم وبينَ ما لا يَقدِرُونَ عليهِ، وهو فِعْلُه ومشيئتُه وتوفيقُه، فهذا غيرُ مقدورٍ لهُم، وهو الذي مُنِعُوه، وحِيْلَ بينَهُم وبينَه. فتَأمَّل هذا الموضعَ، واعْرِفْ قَدرَه، واللهُ المستعانُ».

وممَّا ينبغي أنْ يُعلَمَ: أنَّ للهِ عزَّ وجلَّ مع عبدِه تَعامُلَانِ؛ تَعامُلٌ بالعدلِ، وتَعَامُلٌ بالفَضْلِ، فمَن عُومِلَ بالعدلِ، هَلَك، ومَن عُومِلَ بالفَضْلِ، فقد نَجَا، بحَسَبِ فَضْلِ اللهِ الذي عامَلَهُ بِه، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ**

﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]، ويَترتَّبُ على هذا: أنَّه لا يَلزمُ المساواةُ في الفضلِ، ومَن لم يُسَاوِ في الفضلِ لا يُعَدُّ ظالمًا، وإنَّما يُعَدُّ ظالمًا إذا لم يَعدِلْ.

مثال ذلك: لو أنَّ عندَك عَامِلَين، واتَّفَقْتَ معهُما على عَمَلٍ مُعيَّنٍ، واتَّفَقْتَ معهُما على أنْ تُعطِيَ كُلَّ عامِلٍ مئةَ ريالٍ، فلما انتَهَوا، أَعطَيتَ أحدَهُم المئةَ ريالًا التي اتَّفَقتَ معهُ عليها، وأَعطَيتَ الآخرَ خمسينَ ومئةَ ريالٍ، فإنَّكَ لا تُعتبَرُ ظالمًا لمن أعطيته المئة ريالا؛ لأنَّكَ عامَلتَ الأولَ بالعدلِ، وعامَلتَ الآخرَ بالفضلِ، وإنَّما تُعَدُّ ظالمًا لو لم تُعطِهِ المئةَ، فهدايةُ المُهتَدِينَ من فضلِ اللهِ، وكُفرُ الكافرينَ ودخولُهُم النارَ من عَدْلِ اللهِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واللهُ تعالى غنيٌّ عن العبادِ، إنَّما أَمَرَهُم بِمَا يَنفعُهُم، ونَهَاهُم عمَّا يَضُرُّهُم، فهو مُحسِنٌ إلى عبادِه بالأمرِ لهم، مُحسِنٌ لهُم بإعانتِهِم على الطاعةِ، ولو قُدِّر أنَّ عالمًا صالحًا أَمَر الناسَ بِمَا يَنفعُهُم، ثم أَعانَ بعضَ الناسِ على فِعْلِ ما أَمَرهُم بِه، ولم يُعِنْ آخرينَ، لكان مُحسِنًا إلى هؤلاءِ إحسانًا تامًّا، ولم يَكُن ظالمًا لمَن لم يُحسِنْ إليهِ، وإذا قُدِّر أنَّه عاقَبَ المُذنِبَ العقوبةَ التي يَقتضِيهَا عَدْلُه وحِكمتُه، لكان أيضًا محمودًا على هذا وهذا.

وأينَ هذا من حكمةِ أَحكَمِ الحاكمينَ، وأَرحَمِ الراحمينَ؟! فأَمْرهُ لهُم إرشادٌ، وتعليمٌ، وتعريفٌ بالخيرِ، فإنْ أعانَهُم على فِعْلِ المأمورِ، كان قد أَتَمَّ النعمةَ على المأمورِ، وهو مشكورٌ على هذا وهذا، وإنْ لم يُعنْهُ وخَذَلَهُ حتَّى فَعَل الذَّنبَ كان لهُ في ذلكَ حكمةٌ أخرى».

وقال أيضًا: «وليس اطِّلاعُ كثيرٍ من الناس بل أكثرُهُم على حِكَمِ الله في كُلِّ شيء نافعًا لهم، بل قد يكونُ ضارًّا، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة: ١٠١] وهذهِ المسألةُ: مسألةُ غاياتٍ أفعالِ اللهِ، ونهايةُ حكمتِه مسألةٌ عظيمةٌ، لعلَّها أَجَلُّ المسائلِ الإلهيةِ».

فإن قيل: لماذا اللهُ عزَّ وجلَّ حَكَم على فلانٍ بالكفرِ ومات عليهِ، وحَكَم على فلانٍ بالإيمانِ فنَجَا؟

فيقال: إنَّ مَن حُكِمَ عليهِ بالكفرِ فقد عُومِلَ بالعدلِ، ومن حُكِمَ عليهِ بالإيمانِ، فقد عُومِلَ بالفضلِ.

فإن قلت: لماذا عامَلَ اللهُ هذا بالعدلِ، وعامَلَ هذا بالفضلِ؟

وجوابُ ذلكَ أنْ يُقالَ: تفاصيلُ القَدَرِ سِرٌّ من أسرارِ اللهِ، ونحنُ نُؤمِنُ بأنَّ اللهَ عادِلٌ، وأنَّه حكيمٌ عليمٌ، ولا يَلزمُ من إيمانِنَا بذلكَ أنْ نَعرِفَ تفاصيلَ عَدْلِ اللهِ وحكمتِه، وإنَّما نَكِلُ الأمرَ إليهِ، ومَن هنا قال أئمةُ السَّلَفِ: القَدَر سِرُّ اللهِ.

وتقريبُ هذا: أنْ يقال: لو جاء رجلٌ إلى طبيبٍ، وقال: إنَّ بِي مرضًا، فقال لهُ الطبيبُ: علاجُك عمليةً جراحيةً. هذا الرجلُ لم يَستَوعِبْ سببَ إجراءِ العمليةِ، لكنَّه مُقتنِعٌ بصِدقِ الطبيبِ، والسؤالُ الآنَ: هل العاقلُ يُوافِقُ على العمليةِ، أم يَأبَى، ويقول للطبيب: أخبِرني لماذا ستجري العملية؟ لا شك أن العاقلَ سيُسلِّمُ للطبيبِ؛ لأنَّه لا يَلزمُ معرفةُ التفاصيلِ. ولله المَثَلُ الأعلى، فما عَرَفنَاهُ من حكمةِ اللهِ تعالى فبِهَا ونِعمَتْ، وما لم نَعلَمْ سلَّمنَا للهِ بِه، مع يقينِنَا بأنَّ لهُ حكمةً، وإنْ خَفِيَتْ علينَا.

وقد جَرَت مناظرةٌ بين مُلحِدٍ ومُوحِّدٍ، فقال المُلحِدُ: كيف تُريدُ منِّي أنْ أُقِرَّ برَبٍّ يَجعلُ هذا فقيرًا، وهذا غَنِيًّا، وهذا أسودَ، وهذا أبيضَ، وهذا طويلًا وهذا قصيرًا؟! فأجابه المؤمنُ بجوابٍ سديدٍ، فقال لهُ: أنتَ الآنَ تُشكِّك في عدلِ اللهِ، وفي فِعْلِه، والبحثُ بيننا في وُجُودِه سبحانه، فأَثبِتْ وُجُودَهُ أولًا، ثم بعدَ ذلكَ نَبحثُ في عَدلِه.

وصَدَق؛ لأنَّه إذا أثبَتَ وُجودُه؛ فلا بُدَّ أنْ يُقِرَّ بأنَّ هناكَ أمورًا لا نُدرِكُهَا، ومقتَضى كونِه رَبًّا، لا بدَّ أنْ يكون عادلًا حكيمًا في أفعالِه، وما لم نُدرِكهُ من عَدلِه سبحانَه وحِكَمِ أفعالِه، نَردُّهُ إلى ما نَتَيَقَّنُه من عَدْلِه سبحانَه وحِكمتِه.

المسألة السابعة: أهلُ السُّنةِ والجماعةِ يُؤمنونَ بالقدرِ خَيْرِه وشَرِّه، كما في حديثِ جبريلَ عليهِ السلامُ: «**وأنْ تُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّهِ**».

فإن قيل: ما وجه الجمع بين هذا الحديث، وبين قوله ﷺ: «**والشَّرُّ ليس إليكَ**»(١)؟

فالجواب: أن يقال: إنَّ «وَصْفَ القَدَرِ بالشَّرِّ، فالمرادُ به شَرُّ المقدورِ لا شَرُّ القَدَرِ الذي هو فِعلُ اللهِ، فإنَّ فِعلَ اللهِ عزَّ وجلَّ ليس فيه شَرٌّ، فكلُّ أفعالِه خَيْرٌ وحكمةٌ، ولكنْ الشَّرُّ في مفعولاتِه ومقدوراتِه، فالشَّرُّ هنا باعتبارِ المقدورِ والمفعولِ، أمَّا باعتبارِ الفعلِ، فلا، ولهذا قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: (**والشَّرُّ ليسَ إليكَ**)... ثم اعْلَمْ -أيضًا- أنَّ هذا المفعولَ الذي هو شَرٌّ، قد يكون شَرًّا في نفسِه، لكنَّهُ خَيْرٌ من جهةٍ أخرى، قال اللهُ تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الروم: ٤١]، النتيجةُ طيبةٌ، وعلى هذا، فيكونُ الشَّرُّ في هذا المقدورِ شرًّا إضافيًّا، يعني: لا شرًّا حقيقيًّا، لأنَّ هذا ستكونُ نتيجتُهُ خيرًا ... فالحاصلُ أنَّنا نقولُ:

أولًا: الشَّرُّ الذي وُصِفَ بهِ القدرُ هو شَرٌّ بالنسبةِ لمقدورِ اللهِ، أمَّا تقديرُ اللهِ، فكلُّه خَيْرٌ، والدليلُ: قولُ النبيِّ ﷺ: (**والشَّرُّ ليسَ إليكَ**).

ثانيًا: أنَّ الشَّرَّ الذي في المقدورِ ليس شَرًّا محضًا، بل هذا الشَّرُّ قد يَنتجُ عنهُ أمورٌ هي خَيْرٌ، فتكونُ الشَّرِّيةُ بالنسبةِ إليهِ أمرًا إضافيًا».

المسألة الثامنة: المَحْو والإثبات في المقادير:

قد يقولُ قائِلٌ: إذا كان اللهُ سبحانَه قد قدَّر مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أنْ يَخلُقَهُم بخمسينَ ألفَ سَنَةٍ، فما معنى قولِه تعالى: ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٩]؟ وما معنى قولِه ﷺ: «**مَن أَحَبَّ أنْ يُبسَطَ لهُ في رِزقِه، ويُنسَأَ لهُ في أَثَرِه فَليَصِلْ رَحِمَه**»؟

ويقالُ جوابًا على ذلكَ: القَدَر قَدَران: قَدَر مُثبَتٌ، وقَدَر مُعلَّقٌ:

أمَّا القَدَرُ المُثبَتُ: فهو ما في اللَّوحِ المحفوظِ، فهذا ثابتٌ لا يَتَغيرُ ولا يَتَبدَّلُ،

---

(١) أخرجه مسلم، من حديث علي رضي الله عنه.

وأمَّا القَدَرُ المُعلَّق: فهو ما في صُحُفِ الملائكةِ التي بأيدي الملائكةِ، فهذا الذي يَقَع فيهِ المَحْو الإثبات.

وبالمثالِ يَتَّضِحُ المقالُ: فلو قلنا مثلًا: إنَّ اللهَ تعالى كَتَب في اللَّوح المحفوظِ أنَّ عُمُرَكَ سِتُّونَ سنةً، وقدَّر لكَ أنَّك ستَصِلُ رَحِمَكَ، فيُزادُ عُمرُكَ، فيكونُ سبعينَ سَنَةً، والصُّحُفُ التي بأيدي الملائكةِ مكتوبٌ فيها أنَّ عُمُرَكَ سِتُّونَ عامًا، فإذا وَصَلْتَ رَحِمَكَ؛ أَمَر اللهُ الملائكةَ أنْ تَمحُوَ ما في الصُّحُفِ وأنْ تُغيِّرَهُ، فتَجعَلُه سبعينَ سَنَةً بدلًا من سِتِّينَ سَنَةً. وهكذا يقالُ في الرِّزقِ، والسعادةِ، والشقاوةِ.

وقد رُوي معنى هذا عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، وعن عكرمةَ، فرُوي عن ابنِ عباسٍ وعكرمة أنَّهما قالا في هذهِ الآيةِ: ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾، قالا: كتابانِ: كتابٌ يَمحُو منهُ ما يَشاءُ ويُثبِتُ، وعندَهُ أُمُّ الكتابُ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأَجَلُ أَجَلانِ: أَجَلٌ مُطلَقٌ، يَعلمُهُ اللهُ، وأَجَلٌ مقيَّدٌ، وبهذا يَتَبيَّنُ معنى قولِه ﷺ: (**مَن أَحَبَّ أنْ يُبسَطَ لهُ في رِزْقِه، ويُنسَأَ لهُ في أَثَرِه فَليَصِلْ رَحِمَه**)، فإنَّ اللهَ أَمَر المَلَكَ أنْ يَكتُبَ لهُ أَجَلًا، وقال: (إنْ وَصَل رَحِمَهُ، زِدتَهُ كذا وكذا) والمَلَك لا يَعلَمُ: أيزدادُ أم لا؛ لكنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يَستقِرُّ عليهِ الأمرُ، فإذا جاء ذلكَ لا يَتَقدَّمُ ولا يَتَأَخَّرُ».

وقال أيضًا: «الرزقُ نوعانِ: أحدُهُما: ما عَلِمَهُ اللهُ أنَّه يَرزقُهُ، فهذا لا يَتَغيَّرُ. والثاني: ما كَتَبَهُ، وأَعلَمَ بِه الملائكةَ، فهذا يَزِيدُ ويَنقصُ بحَسَبِ الأسبابِ، فإنَّ العبدَ يَأمُرُ اللهُ الملائكةَ أنْ تَكتُبَ لهُ رِزقًا، وإنْ وَصَل رَحِمَهُ زادَه اللهُ على ذلكَ ... وكذلكَ عُمْرُ داودَ زاد سِتِّينَ سنةً، فجَعَلهُ اللهُ مئةً بعدَ أنْ كان أربعينَ.

ومن هذا البابِ: قولُ عمرَ: اللهمَّ إنْ كنتَ كَتَبتَنِي شَقِيًّا، فَامْحُنِي واكتُبنِي سعيدًا، فإنَّك تَمحُو ما تَشاءُ وتُثبِتُ.

ومن هذا البابِ: قول نوحٍ عليه السلام لقومه: ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾. وشواهدُه كثيرةٌ».

وقال الشيخ السعدي في «تفسيره»: «﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأقدارِ، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يَشاءُ منها، وهذا المَحْوُ والتغييرُ في غيرِ ما سَبَق بِه عِلمُهُ، وكَتَبَهُ قَلَمُه، فإنَّ هذا لا يَقَعُ فيهِ تبديلٌ ولا تغييرٌ؛ لأنَّ ذلكَ محالٌ على اللهِ أنْ يَقَع في عِلْمِه نقصٌ أو خَلَلٌ، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، أي: اللَّوحُ المحفوظُ الذي تَرجِعُ إليهِ سائرُ الأشياءِ، فهو أصلُهَا، وهي فروعٌ لهُ، وشُعَبٌ، فالتغييرُ والتبديلُ يقعُ في الفروعِ والشُّعَبِ، كأعمالِ اليومِ والليلةِ التي تَكتُبُهَا الملائكةُ، ويَجعلُ اللهُ لثبوتِهَا أسبابًا، ولمَحْوِهَا أسبابًا، لا تَتعدَّى تلكَ الأسبابِ ما رُسِمَ في اللَّوحِ المحفوظِ، كمَا جَعَل اللهُ البِرَّ والصِّلةَ والإحسانَ من أسبابِ طولِ العُمُرِ، وسَعَةِ الرِّزقِ، وكمَا جَعَل المعاصي سببًا لمَحْقِ بركةِ الرِّزقِ والعُمُرِ، وكمَا جَعَل أسبابَ النجاةِ من المَهَالِكِ والمعاطبِ سببًا للسلامةِ، وجَعَل التعرُّضَ لذلكَ سببًا للعَطَبِ، فهو الذي يُدبِّرُ الأمورَ بحَسَبِ قُدرتِه وإرادتِه، وما يُدبِّرُهُ منها لا يُخالِفُ ما قد عَلِمَهُ، وكَتَبَهُ في اللَّوحِ المحفوظِ».

المسألة التاسعة: الإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ لا يُنافِي أنْ يكونَ للعبادِ مشيئةٌ واختيارٌ:

قال اللهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ففي هذهِ الآياتِ بيَّن اللهُ تعالى أنَّ للعبدِ مشيئةً واختيارًا، فإنْ شاءَ اتَّخَذ للقاءِ ربِّه، وإنْ شاءَ أنْ يُؤمِنَ فَليُؤمِنْ، وإنْ شاءَ أنْ يَكفُرَ فَليَكفُرْ، لكنَّ مشيئتَهُم واقعةٌ بمشيئتِه تعالى واختيارِه، كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩].

المسألة العاشرة: الإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ لا يُنافِي فعلَ الأسبابِ:

فقد أَمَر اللهُ تعالى في آياتٍ كثيرةٍ بالسَّعيِ إلى ما فيهِ صلاحُهُم في دُنياهُم وأُخرَاهُم، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وأخرج مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمنُ القَوِيُّ خَيرٌ وأَحَبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ، احْرِصْ على مَا يَنفَعُكَ، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجَزْ، وإنْ أصابكَ شيءٌ، فلا تَقُل: لو أنِّي فَعَلتُ كان كذا وكذا، ولكنْ قُل: قَدَّر اللهُ وما شاءَ فَعَل، فإنَّ لو تَفتحُ عَمَلَ الشَّيطانِ**»(١).

---

(١) **قوله: المؤمنُ القويُّ:** الظاهرُ أنَّ المرادَ القوَّةُ في أمرِ اللهِ وتنفيذِه، والمسابقةِ بالخيرِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، والصبرِ على ما يُصِيبُ في ذاتِ اللهِ، ونحوِ ذلكَ، لا قُوَّةُ البَدَنِ. ولهذا مَدَح اللهُ الأنبياءَ بذلكَ في قولِه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾، فالأَيْدِي: القُوَّةُ، والعزائمُ في تنفيذِ أمرِ اللهِ. وقولِه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

قوله: خيرٌ وأَحَبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ: فيهِ أنَّ اللهَ سبحانَه موصوفٌ بالمحبةِ، وأنَّه يُحِبُّ حقيقةً، وأنَّ محبتَه للمؤمنينَ تتفاضَلُ، فيُحِبُّ بعضَهُم أكثرَ من بعضٍ.

قوله: وفي كُلٍّ خَيرٌ: أي: كُلٌّ من المؤمنِ القويِّ والمؤمنِ الضعيفِ على خيرٍ وعافيةٍ، لاشتراكِهِمَا في الإيمانِ والعملِ الصالحِ، ولكنَّ القويَّ في إيمانِه ودينِه أَحَبُّ إلى اللهِ.

قوله: احْرِصْ على ما يَنفَعُكَ: قال الإمام ابن القيم: «سعادةُ الإنسانِ في حرصِه على ما يَنفَعُه في معاشِه ومَعَادِهِ، والحرصُ: هو بَذْلُ الجُهْدِ واستفراغُ الوُسْعِ، فإذا صادَفَ ما يَنتفِعُ بِه الحريصُ كان حِرْصُه محمودًا، وكمالُه كلُّه في مجموعِ هذينِ الأمرينِ: أنْ يكونَ حَريصًا، وأنْ يكونَ حِرصُه على ما يَنتفعُ بِه، فإنْ حَرَص على ما لا يَنفعُه، أو فَعَل ما يَنفَعُهُ بغيرِ حرصٍ؛ فاتَهُ من الكمالِ بحَسَبِ ما فاتَهُ من ذلكَ، فالخيرُ كُلُّه في الحرصِ على ما يَنفعُ».

قوله: واسْتَعِنْ باللهِ: أي: اطْلُبِ الإعانةَ في جميعِ أمورِك من اللهِ عزَّ وجَلَّ لا من غيرِه، فلا تَعتمِدْ على الحرصِ فقط، فتَجمعُ بينَ الأمرَين: فعلَ السببِ مع الاستعانةِ باللهِ عزَّ وجَلَّ.

يقول الإمام ابن القيم: «لمَّا كان حَرصُ الإنسانِ وفِعلُهُ إنَّما هو بمعونةِ اللهِ ومشيئتِه وتوفيقِه، أَمَرهُ أنْ يَستعينَ باللهِ؛ لِيَجتمِعَ لهُ مقامُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنَّ حِرصَهُ على ما يَنفعُه عبادةٌ للهِ، ولا تَتِمُّ إلَّا بمعونتِه، فأَمَرهُ بأنْ يَعبُدَهُ وأنْ يَستعِينَ بِه».

وقد كان النبيُّ ﷺ يقولُ في خُطبتِه ويُعلِّمُ أصحابَه أنْ يقولوا: «الحمدُ للهِ نَستعينُه ونَستَهدِيهِ»، ومن دعاء القنوت: «اللهمَّ، إنَّا نَستَعِينُكَ»، ومنه أيضًا: «اللهمَّ أَعِنِّي ولا تُعِنْ عليَّ»، وأَمَر معاذَ بنَ جَبَلٍ ألَّا يَدَع في دُبُر كُلِّ صلاةٍ أنْ يقولَ: «اللهمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ».

قوله: ولا تَعجِزَنَّ: بكسر الجيم وفتحها، أي: لا تُفرِّطْ في طلبِ ما يَنفعُكَ مُتَّكِلًا على القَدَرِ، ومُستَسلِمًا للعجزِ والكَسَلِ.

قوله: وإنْ أصابَكَ شيءٌ: أي: إنْ أصابَكَ شيءٌ ممَّا تَكرهُ بعدَ بذلِ الجهدِ والحرصِ والاستعانةِ.

قوله: فلا تَقُل: لو أنِّي فَعَلتُ كذا، لكان كذا وكذا: أي: لا تُرجِعُ هذا إلى تقصيرِكَ، ولكنْ أَرجِعهُ إلى قضاءِ اللهِ وقدرِهِ.

قوله: ولكنْ قُلْ: قَدَّر اللهُ: أَرجِعْ هذا إلى قضاءِ اللهِ وقَدَرِه، فالذي مَنَعهُ عنكَ ليس هو فِعْلُكَ أو تَرْكُكَ، وإنَّما الذي مَنَعهُ عنكَ هو اللهُ سبحانَه وتعالى، ولا تَدري لعلَّ اللهَ أراد بِكَ خيرًا، وصَرَف عنكَ شَرًّا، فارْضَ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

قوله: وما شَاءَ فَعَل: أي: ما شَاءَ اللهُ فِعْلَهُ فإنَّه يَفعلُه؛ لا مُعقِّبَ لحُكمِه، ولا رَادَّ لقضائِه، وهذا يَحُلُّ عن المسلمِ مشاكلَ كثيرةً.

قوله: فإنْ (لو) تَفتحُ عملَ الشيطانِ: أي: أنَّ هذهِ اللفظةَ تَفتحُ وَساوِسَ الشيطانِ؛ لِمَا فيها من الجَزَعِ، والعجزِ، واللَّومِ، والسَّخَطِ من القضاءِ والقدرِ، ونحوِ ذلكَ، ولهذا مَن قالها على وجهِ النهيِ عنهُ، فإنَّه إنْ سَلِمَ من التكذيبِ بالقضاءِ والقَدَرِ، لم يَسلَمْ من المعاندةِ لهُ، واعتقادِ أنَّه لو فَعَل ما زَعَم، لم يَقَعِ المقدورُ، وهذا من عملِ الشيطانِ.

وعملُ الشيطانِ أمرانِ:

أحدُهُما: الاعتراضُ على قدرِ اللهِ.

الثاني: إدخالُ الحُزنِ على المؤمنِ.

وفي «الصحيحين»، من حديث علي رضي الله عنه أنَّه قال: كُنَّا في جنازةٍ في بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فأَتَانَا رسولُ اللهِ ﷺ، فقَعَد وقَعَدنَا حولَهُ، ومعهُ مِخْصَرَةٌ، فنكَّسَ، فجَعَل يَنكُتُ بمِخصَرَتِهِ، ثم قال: «**ما منكُم مِنْ أَحَدٍ، ما مِن نَفْسٍ مَنفُوسةٍ إلَّا وقد كَتَب اللهُ مكانَها من الجنَّةِ والنَّارِ، وإلَّا وقد كُتِبَتْ شَقِيَّةً أو سعيدةً**»، قال: فقال رَجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أَفَلَا نَمكُثُ على كتابِنَا، ونَدَعُ العملَ؟ فقال: «**مَن كان مِن أهلِ السَّعادةِ، فَسَيَصِيرُ إلى عَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، ومَن كان من أهلِ الشَّقاوةِ، فَسَيَصِيرُ إلى عملِ أهلِ الشَّقَاوَةِ**» فقال: «**اعْمَلُوا، فكُلٌّ مُيسَّرٌ، أمَّا أهلُ السَّعادةِ، فيُيسَّرُونَ لعملِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوةِ، فيُيسَّرُونَ لعَمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ**»، ثُمَّ قَرَأ: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾ [الليل: ٥ - ١٠]».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا تَرَك العبدُ ما أُمِرَ به مُتَّكِلًا على الكتابِ، كان ذلكَ من المكتوبِ المقدورِ الذي يَصِيرُ به شَقِيًّا، وكان قولُه ذلكَ بمنزلةِ مَن يقولُ: أنا لا آكُلُ ولا أَشرَبُ؛ فإنْ كان اللهُ قَضَى بالشِّبعِ والرِّيِّ حَصَل، وإلَّا لم يَحصُلْ، أو يقول: لا أُجامِعُ امرأتِي، فإنْ كان اللهُ قَضَى لي بوَلَدٍ، فإنَّه يكونُ، وكذلكَ مَن غَلِطَ فتَرَك الدعاءَ، أو تَرَك الاستعانةَ والتَّوكُّلَ ظانًّا أنَّ ذلكَ من مقاماتِ الخاصَّةِ، ناظرًا إلى القدرِ، فكلُّ هؤلاءِ جاهلونُ ضالُّونَ.

ويَشهدُ لهذا: ما رواه مسلم في "صحيحه" عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: (**المؤمنُ القَوِيُّ خَيرٌ من المؤمنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ، احْرِصْ على ما يَنفَعُك، واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعجَزَنَّ، وإنْ أصابك شيءٌ، فلا تَقُل: لو أَنِّي فَعَلْتُ لكان كذا وكذا، ولكنْ قُلْ: قَدَّر اللهُ وما شاءَ فَعَل، فإنَّ لو تَفتَحُ عَمَلَ الشيطانِ**)، فأَمَرهُ بالحرصِ على ما يَنفَعُه، والاستعانةِ باللهِ، ونَهَاهُ عن العجزِ الذي هو الاتِّكالُ على القدرِ، ثم أَمَرهُ إذا أصابَهُ شيءٌ ألَّا يَيأسَ على ما فاتَه، بل يَنظرُ إلى القدرِ، ويُسلِّمُ الأمرَ للهِ؛ فإنَّه هنا لا يَقدِرُ على غيرِ

قال بعضُ العقلاءِ: إذا نَزَل بِكَ أمرٌ مهمٌّ فانْظُر: فإنْ كان لكَ فيهِ حِيلةٌ، فلا تَعجَز، وإنْ لم يَكُن لكَ فيهِ حيلةٌ، فلا تَجزَعْ.

ذلكَ، كما قال بعضُ العقلاءِ: الأمورُ أمرانِ: أمرٌ فيهِ حِيلَةٌ، وأمرٌ لا حِيلَةَ فيهِ، فمَا فيهِ حِيلَةٌ لا يَعجِزُ عنهُ، وما لا حِيلَةَ فيهِ لا يَجزَعُ منهُ.

وفي "سنن أبي داود": (أنَّ رَجُلَينِ اختَصَما إلى النبيِّ ﷺ، فقَضَى على أحدِهِما، فقال المَقضِيُّ عليهِ: حَسبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، فقال النبيُّ ﷺ: (**إنَّ اللهَ يَلُومُ على العَجْزِ، ولكنْ عليكَ بالكَيْسِ، فإذا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فقُل: حسبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ**)».

فائدة: قال الإمام ابن القيم: «العبدُ إذا فاتَهُ ما لم يُقدَّرْ لهُ: فلهُ حالتانِ:

حالةُ عَجْزٍ، وهي مفتاحُ عَمَلِ الشيطانِ، فيُلقِيهِ العجزُ إلى "لو"، ولا فائدةَ في "لو" ههنا، بل هي مفتاحُ اللَّومِ والجَزَعِ والسَّخَطِ والأَسَفِ والحزنِ، وذلكَ كلُّه من عَمَلِ الشيطانِ، فنَهاهُ ﷺ عن افتتاحِ عَمَلِه بهذا المفتاحِ.

وأَمَرَهُ بالحالةِ الثانيةِ، وهي النظرُ إلى القَدَرِ وملاحظتُه، وأنَّه لو قُدِّرَ لهُ لم يَفُتْهُ، ولم يَغْلِبْهُ عليهِ أحدٌ، فلم يَبْقَ لهُ ههنا أنفعُ من شهودِ القَدَرِ، ومشيئةِ الرَّبِّ النافذةِ التي تُوجِبُ وجودَ المقدورِ، وإذا انتَفَتْ امتَنَع وجودُه، فلهذا قال: "فإنْ غَلبَكَ أَمْرٌ، فلا تَقُل: لو أنِّي فَعَلتُ لكان كذا، ولكنْ قُل: قدَّر اللهُ وما شَاءَ فَعَل"، فأَرشَدَهُ إلى ما يَنفعُه في الحالتَينِ: حالةِ حصولِ مطلوبِه، وحالةِ فواتِه.

فلهذا كان هذا الحديثُ ممَّا لا يَستغني عنهُ العبدُ أبدًا، بل هو أَشَدُّ شيءٍ إليهِ ضرورةً، وهو يَتَضمنُ إثباتَ القدرِ والكَسْبِ والاختيارِ، والقيامِ بالعبوديةِ ظاهرًا وباطنًا في حالتَي حصولِ المطلوبِ وعَدَمِه.

ففي الحديثِ ثلاثةُ أمورٍ مهمةٍ:

الأمر الأول: الحَثُّ على الحرصِ، والحرصُ هو بذلُ الوُسْعِ والطاقةِ الممكنةِ.

الأمر الثاني: أنْ يكونَ حرصُك فيما يَنفعُكَ في أمرِ دِينِكَ ودُنياكَ.

الأمر الثالث: أنْ تَستعينَ باللهِ في إنجاحِ أمورِكَ.

المسألة الحادية عشرة: حُرمة الاحتجاجِ بالقدرِ على المعاصي:

إنَّ الذين يَحتجُّ بالقدرِ على المعاصي مَثَلُه كمَثَلِ إبليسَ والمشركينَ، فقد ذَكَر سبحانَه عن إبليسَ أنَّه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، وذَكَر عن المشركينَ أنَّهم احتَجُّوا بالقدرِ على شِركِهِم، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقد ردَّ اللهُ عليهِم قولَهُم هذا، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ولو كان احتجاجُهُم بالقدرِ على شِركِهِم مَقبُولًا؛ لمَا أَذَاقَهُمُ اللهُ بأسَهُ.

ثم إنَّ الاحتجاجَ بالقدرِ على المعاصي يَلزمُ منهُ لوازمُ باطلةٌ، منها:

١ – أنَّه لو سَاغَ الاحتجاجُ بالقدرِ على المعاصي؛ لَبَطَلَتِ الشرائعُ.

٢ – أنَّه لو سَاغَ الاحتجاجُ بالقدرِ على المعاصي؛ لقَبِلَ اللهُ حُجَّةَ إبليسَ في قولِه: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦].

٣ – أنَّه لو سَاغَ الاحتجاجُ بالقدرِ على المعاصي؛ لمَا كان فرعونُ مَلُومًا على تكذيبِه لموسى.

٤ – أنَّه لو سَاغَ الاحتجاجُ بالقدرِ على المعاصي؛ لكان حُجَّةً لأهلِ النارِ في إنقاذِهِم من العذابِ، غيرَ أنَّهم لم يَحتَّجُوا بِه، بل قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ولأجلِ هذهِ اللوازمِ الباطلةِ المترتبةِ على الاحتجاجِ بالقدرِ على المعاصي، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية:** «هؤلاءِ القومُ إذا أَصَرُّوا على هذا الاعتقادِ كانوا أكفرَ من اليهودِ والنَّصارى».

وقال أيضًا: «لو كان مقبولًا لأَمكَنَ كلَّ أحدٍ أنْ يَفعَلَ ما يَخطُرُ لهُ من قَتْلِ النفوسِ، وأَخْذِ الأموالِ، وسائرِ أنواعِ الفسادِ في الأرضِ، ويَحتجَّ بالقدرِ».

وقد بيَّن شيخُ الإسلامِ تَناقُضَ هؤلاءِ المُحتَّجِينَ بالقدرِ على المعاصي، فقال: «نفسُ المُحتَجِّ بالقدرِ إذا اعتُدِيَ عليهِ، واحتَجَّ المُعتَدِي بالقدرِ لم يَقبَلْ

منهُ، بل يَتَناقضُ، وتَنَاقضُ القولِ يدلُ على فسادِه، فالاحتجاجُ بالقدرِ معلومُ الفسادِ في بدايهِ العقولِ».

فإن قيل: متى يَسوغُ الاحتجاجُ بالقدرِ؟

فيقال: يَسوغُ الاحتجاجُ بالقدرِ في حالتين:

الحالة الأولى: عندَ حلولِ المصائبِ التي تَنزِلُ بالإنسانِ، كالفقرِ، والمرضِ، وفَقْدِ القريبِ، وتَلَفِ الزَّرعِ، وخسارةِ المالِ، وقَتْلِ الخطإِ، ونحوِ ذلكَ.

الحالة الثانية: التائبُ من الذنبِ. فلو لَامَهُ أَحَدٌ على مصيبةٍ حَدَثَتْ بسببِ ذنبِه الذي تابَ منهُ؛ فإنَّه يَسوغُ لهُ الاحتجاجُ بالقدرِ.

ومن هنا صحَّ احتجاجُ آدم على موسى بالقدرِ، لمَّا لَامَهُ موسى على خُرُوجِهِم من الجنةِ[1]، فآدمُ عليهِ السلامُ لم يَحتجَّ بالقَدَرِ على الذَّنبِ، كمَا يَظُنُّ ذلكَ بعضُ الطوائفِ، وموسى عليه السلام لم يَلُمْ آدمَ على الذنبِ؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّ آدمَ استَغفَرَ ربَّه وتابَ، فاجتَبَاهُ ربُّه، وتَابَ عليهِ، وهَدَاهُ، والتائبُ من الذَّنبِ كمَن لا ذَنْبَ لهُ، ولو أنَّ موسى لامَ آدمَ على الذَّنبِ لأجابَه: إنِّني أَذنَبتُ فتُبتُ، فتَابَ اللهُ عليَّ، ولقال له: أنتَ يا موسى أيضًا قَتَلتَ نَفْسًا، وأَلقَيتَ الألواحَ إلى غيرِ ذلكَ، إنَّما احتَجَّ موسى بالمصيبةِ، فحَجَّهُ آدمُ بالقَدَرِ.

«فمَا قُدِّرَ من المصائبِ يَجبُ الاستسلامُ لهُ؛ فإنَّه من تمامِ الرِّضا باللهِ رَبًّا، أمَّا الذنوبُ فليس لأحدٍ أنْ يُذنِبَ، وإذا أَذنَبَ فعليهِ أنْ يَستغفِرَ ويَتُوبَ، فيَتُوبُ مِن المعائبِ، ويَصبِرُ على المصائبِ».

المسألة الثانية عشرة: حكم الرضا بالقضاء:

---

(١) في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«احتَجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدمُ، أنتَ أبونَا، خَيَّبتَنَا، وأَخرَجتَنَا من الجنَّةِ، فقال لهُ آدمُ: أنتَ موسى، اصطَفاكَ اللهُ بكلامِه، وخَطَّ لكَ بيدِهِ، أَتَلُومُنِي على أَمْرٍ قَدَّرهُ اللهُ عليَّ قبلَ أنْ يَخلُقَنِي بأربعينَ سَنَةً؟** فقال النبيُّ ﷺ: **«فحَجَّ آدمُ موسى، فحَجَّ آدمُ موسى»**.

هناكَ فرقٌ بين القضاءِ والمَقضِيِّ، أمَّا القضاءُ الذي هو فِعْلُ اللهِ تعالى، فهذا يَجبُ الرِّضا بِه؛ لأنَّه حَقٌّ، وعدلٌ، وإحسانٌ، وأمَّا المَقضِيُّ، الذي هو فِعْلُ العبدِ، فيَنقسمُ إلى أقسامٍ كثيرةٍ:

= فالإيمانُ والطاعةُ علينا الرِّضا بِهَا.

= والكفرُ والمعصيةُ لا يَحِلُّ لنا الرِّضا بِهَا، بل علينا أنْ نكرَهُهَا، ونَفعَلُ الأسبابَ التي تَرفَعُها من التوبةِ، والاستغفارِ، والحسناتِ الماحيةِ، وإقامةِ الحدِّ، والتعزيرِ على فاعلِهَا.

= والفقرُ والمرضُ والعاهةُ لا يَلزمُ الرضا بِه.

المسألة الثالثة عشرة: هل الإنسان مُسيَّر أو مُخيَّر؟

من العباراتِ التي يَتَساهَلُ كثيرٌ من الناس في إطلاقِهَا قولُهُم: هل الإنسانُ مُسيَّرٌ أم مُخيَّرٌ؟

ومَن أجاب على هذا السؤالِ بأنَّ الإنسانَ مُسيَّر لا مُخيَّرٌ، أو أنَّه مُخيَّرٌ لا مُسيَّرٌ، بهذا الإطلاقِ، فهو مخطئٌ؛ ووجهُ الخطأِ في هذه الإجابةِ من وجهَينِ:

الوجه الأول: أنَّ هناكَ أمورًا الإنسانُ فيها مُخيَّرٌ، بمعنى: أنَّ لهُ قدرةً وإرادةً في اختيارِ ما هو الأنفعُ والأصلحُ لهُ، قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد: ١٠]، وقال ﷺ: «**احْرِصْ على ما يَنفَعُكَ، واستَعِنْ باللهِ، ولا تَعجِزْ**».

وهناكَ أمورٌ هو فيها مُسيَّرٌ لا مُخيَّرٌ، فهو يُولَدُ بغيرِ اختيارِه، ويَموتُ بغيرِ اختيارِه، ويَمرضُ بغيرِ اختيارِه، ويُصابُ في حادثٍ بغيرِ اختيارِه ... وهكذا، كما قال تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢]، وكما قال ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مقاديرَ الخلائِقِ قبلَ أنْ يَخلُقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قال: وعَرشُهُ على الماءِ**».

والأمورَ التي هو فيها مُخيَّرٌ تَقَعُ بإرادةِ اللهِ تعالى ومشيئتِه، كما قال تعالى: ﴿**لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]، فإرادةُ العبدِ ومشيئتُه تابعةٌ لإرادة الربِّ تعالى ومشيئتِه، وواقعةٌ بِهَا.

الوجه الثاني: أنَّ في إطلاق القولِ بأنَّ الإنسانَ مُسيَّرٌ مشابهةً لقولِ الجَبريةِ، القائلينَ بأنَّ العبدَ مجبورٌ على أفعالِه! كما أنَّ في إطلاق القولِ بأنَّه مُخيَّرٌ مشابهةً لقولِ القدريةِ القائلينَ بأنَّ العبدَ يَخلقُ فِعْلَ نفسِه!

ومن هنا يَتبيَّنُ خطأُ السؤالِ، وخطأُ الجوابِ، والصوابُ أنْ يُقالَ: هل للعبدِ قدرةٌ ومشيئةٌ أم لا؟ لأنَّ هذهِ هي الألفاظُ التي أطلقتَها الشريعةُ، كما قال تعالى: ﴿**لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ**﴾ [التكوير: ٢٨]، وكما قال تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ**﴾ [الإسراء: ١٨].

المسألة الرابعة عشرة: حُكم الحديث عن القَدَر:

وَرَدَتْ عدَّةُ أحاديثَ في النهيِ عن الخوضِ في القدرِ، فمن ذلكَ:

١ – ما أخرجه الطبراني في «الكبير»، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا ذُكِرَ أصحابِي فأَمسِكُوا، وإذا ذُكِرَ النجومُ فأَمسِكُوا، وإذا ذُكِرَ القَدَر فأَمسِكُوا**».

٢ – وما أخرجه الإمام أحمد، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّه قال: خَرَج رسولُ اللهِ ﷺ على أصحابِه وَهُم يَختَصِمُونَ في القَدَر، فكأَنَّما يُفقَأُ في وَجهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ من الغَضَبِ، فقال: «**بهذا أُمِرتُم، أو لهذا خُلِقتُم؟ تَضرِبُونَ القرآنَ بعضَهُ ببعضٍ، بهذا هَلَكتِ الأُمَمُ قبلَكُم**»[1].

---

(١) **قوله: يَختَصِمُونَ في القَدَرِ:** قال السِّندي: أي: بالإثباتِ والنفيِ، وكأنَّ كُلًّا منهم كان يَستدِلُّ بِمَا يُناسِبُ مطلوبَه من الآياتِ، ولذا أَنكَر عليهِمُ النبيُّ ﷺ بقولِه: (تَضرِبُونَ القرآنَ بعضَه ببعضٍ)». «حاشية السندي على سنن ابن ماجه» ١/ ٦٥.

قوله: فكأَنَّما يُفقَأُ في وَجهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ من الغضبِ: أي: من أَجْلِ شدةِ غضبِه ﷺ عليهم. قال الشيخ علي القاري: «وإنَّما غَضِبَ؛ لأنَّ القدرَ سِرٌّ من أسرارِ اللهِ تعالى، وطَلَبُ سِرِّ اللهِ تعالى مَنهِيٌّ عنهُ، ولأنَّ مَن يَبحثُ في القدرِ لم يَأمَنْ أنْ يَصِيرَ قدريًّا أو جبريًّا، بلِ العبادُ مأمورونَ بقَبولِ ما أَمَرَهُم الشرعُ من غيرِ أنْ يَطلبُوا سِرَّ ما لا يَجوزُ طَلَبُ سِرِّهِ». «مرقاة المفاتيح» ١/ ٢٩٩.

وفي رواية: سَمِعَ النبيُّ ﷺ قومًا يَتدارَؤونَ، فقال: «**إنَّما هَلَك مَن كان قبلَكُم بهذا، ضَربُوا كتابَ اللهِ بعضَهُ ببعضٍ، وإنَّما نَزَل كتابُ اللهِ يُصدِّقُ بَعضُه بعضًا، فلا تُكذِّبُوا بعضَه ببعضٍ، فمَا عَلِمتُم منهُ فقولُوا، وما جَهِلتُم، فكِلُوهُ إلى عالِمِه**»(١).

وفي رواية: لقد جَلَستُ أنا وأخي مَجلسًا، ما أُحِبُّ أنَّ لِي بِه حُمْرَ النَّعَمِ، أَقبَلتُ أنا وأخي، وإذا مشيخةٌ من صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ جلوسٌ عندَ بابٍ من أبوابِه، فكَرِهنَا أنْ نُفرِّقَ بينَهُم، فجَلَسْنَا حَجْرَةً(٢)، إذْ ذَكَروا آيةً من القرآنِ، فتَمَارَوْا فيها، حتَّى ارتَفَعَتْ أصواتُهُم، فخَرَج رسولُ اللهِ ﷺ مُغضبًا، قَدِ احمَرَّ وَجهُهُ، يَرمِيهِم بالترابِ، ويقولُ: «**مَهْلًا يا قومِ، بهذا أُهلِكَتِ الأُمَمُ مِن قَبلِكُمْ، باختلافِهِم على أنبيائِهِم، وضَرْبِهِمُ الكُتُبَ بعضَها ببعضٍ، إنَّ القرآنَ لم يَنزِلْ يُكذِّبُ بَعضُهُ بعضًا، بل يُصدِّقُ بعضُه بعضًا، فمَا عَرَفتُم منهُ، فاعمَلُوا بِه، وما جَهِلْتُم منهُ، فرُدُّوهُ إِلَى عالِمِه**».

قوله: بهذا أُمِرتُم: قال الشيخ علي القاري: «أي: أبهذا التنازعِ في القدرِ أَمَرتُكُم؟ والاستفهامُ للإنكارِ». «مرقاة المفاتيح» ١/ ٢٩٩.

قوله: أو لهذَا خُلِقتُم؟: قال السِّندي: «أي: لهذا البحثِ عن القدرِ والاختصامِ فيهِ، هل هو المقصودُ من خَلْقِكُم؟ أو هو الذي وَقَع التكليفُ بِه حتَّى اجْتَرَأتُم عليهِ؟ يريدُ أنَّه ليس بشيءٍ من الأمرَينِ، فأيُّ حاجةٍ إليهِ؟». «حاشية السِّندي على سنن ابن ماجه» ١/ ٦٥.

قوله: تَضرِبُونَ القرآنَ بَعضَهُ ببعضٍ: أي: تُعارِضُونَ بعضَ الآياتِ ببعضِهَا، وتَدَّعُونَ التناقضَ بينَها. انظر: «مشارق الأنوار الوهاجة» للشيخ محمد آدم الأثيوبي ٢/ ٥٣٣.

وقوله في رواية أحمد: هذا يَنزِعُ آيةً، وهذا يَنزِعُ آيةً: أي: يَجرُّهَا إلى نفسِه، ويَستدِلُّ بِهَا على مقصودِه.

(١) **قوله: يَتَدارَؤونَ:** أي: يَختلِفُونَ، ومنه: قولُه تعالى: ﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**﴾ [البقرة: ٧٢]، أي: تَدَارَأتم وتَدَافَعتُم واختَلَفتُم. قاله البغوي. والمراد: يَتَدافَعُونَ في القرآنِ.

(٢) أي: ناحية.

٤ – وما أخرجه البيهقي في «القدر»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا يزالُ أمرُ هذهِ الأُمَّةِ مُؤاتيًا -أو قال- مُقَارِبًا، ما لم يَتكلَّموا في الولدانِ والقَدَر**».

ففَهِمَ البعضُ من هذهِ الأحاديث أنَّ فيها نَهْيًا عن الخوضِ في القدرِ، وحجَّتُهُم في ذلكَ: أنَّ الكلامَ في القَدَر يُورِثُ الشَّكَّ، والحِيرةَ، والاضطرابَ، لاسيَّما وقد ضَلَّ فيهِ أقوامٌ، وزلَّتْ فيهِ أقدامٌ.

وهذا الكلامُ غيرُ صحيحٍ على إطلاقِهِ؛ لما يلي:

١ – أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عن مسائلَ في القدرِ، ولم يَعِبْ ذلكَ عليهم.

ففي «صحيح مسلم»، من حديث جابر رضي الله عنه قال: جاء سُراقةُ بنُ مالكِ بنِ جُعْشُمٍ قال: يا رسولَ اللهِ، بَيِّن لنَا دِينَنَا، كأَنَّا خُلِقنَا الآنَ، فيمَا العملُ اليومَ؟ أَفيمَا جَفَّتْ بِه الأقلامُ، وجَرَت بِه المقاديرُ، أم فيمَا نَستَقبِلُ؟ قال: «**لا، بَل فيمَا جَفَّتْ بِه الأقلامُ، وجَرَتْ بِه المقاديرُ**»، قال: ففِيمَ العملُ؟ فقال: «**اعمَلُوا، فكُلٌّ مُيسَّرٌ**».

قوله: أفيمَا جَفَّت بِه الأقلامُ: أي: مَضَتْ بِه المقاديرُ، وسَبَق عِلْمُ اللهِ تعالى بِه، وتمَّت كتابتُه في اللَّوحِ المحفوظِ، وجَفَّ القلمُ الذي كُتِبَ بِه، وامتَنَعَتْ فيهِ الزيادةُ والنقصانُ.

وأخرج مسلم، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال: قيل: يا رسولَ اللهِ، أَعُلِمَ أهلُ الجنَّةِ من أهلِ النَّارِ؟ قال: فقال: «**نَعَم**»، قال: قيل: ففِيمَ يَعمَلُ العاملونَ؟ قال: «**كُلٌّ مُيسَّرٌ لمَا خُلِقَ لهُ**».

٢ – وكذلكَ الصحابةُ رضي الله عنهم سألوا التابعينَ مُعلِّمِينَ لهُم ما يَجِبُ اعتقادُه في هذا البابِ:

ففي «صحيح مسلم»، من طريق أبي الأسود الدِّيلي قال: قَالَ لِي عِمرانُ بنُ الحُصَينِ، أَرَأَيتَ ما يَعمَلُ النَّاسُ اليومَ، ويَكدَحُونَ فيهِ، أشيءٌ قُضِيَ عليهِم،

ومَضَى عليهِم من قَدَرٍ ما سَبَق؟ أو فيمَا يُستَقبَلُونَ بِه مِمَّا أتاهُم بِه نَبِيُّهُم، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهِم؟ فقلتُ: بل شيءٌ قُضِيَ عليهِم، ومَضَى عليهِم.

قال: فقال: أفَلَا يكونُ ظُلْمًا؟ قال: ففَزِعْتُ من ذلكَ فَزَعًا شديدًا، وقلتُ: كُلُّ شيءٍ خَلْقُ اللهِ، ومِلْكُ يدِهِ، فلا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ وهُم يُسْأَلُونَ.

فقال لي: يَرحمُكَ اللهُ، إنِّي لَم أُرِدْ بِمَا سألتُكَ إلَّا لأَحْزِرَ عَقلَكَ، إنَّ رَجُلَينِ من مُزَينةَ أَتيَا رسولَ اللهِ ﷺ، فقالا: يا رسولَ اللهِ أَرَأيتَ ما يَعمَلُ النَّاسُ اليومَ، ويَكدَحُونَ فيهِ، أَشَيءٌ قُضِيَ عليهِم، وَمَضَى فيهِم من قَدَرٍ قَدْ سَبَق، أو فيمَا يُستَقبَلُونَ بِه ممَّا أَتَاهُم بِه نَبِيُّهُم، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ عليهِم؟ فقال: «**لا، بل شَيْءٌ قُضِيَ عليهِم، وَمَضَى فيهِم، وتصديقُ ذلكَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**»[1].

٣ – أنَّ أئمةَ السَّلَفِ كَتَبُوا في مسائلِ القدرِ، وبَحثُوا في ذلكَ، كمَا بَحثُوا في غيرِه من مسائلِ العلمِ، فالقولُ بعدمِ الخوضِ في مسائلِ القدرِ يَرجِعُ إلى إزراءِ السَّلَفِ.

٤ – أنَّ مسائلَ القضاءِ والقدرِ من الأمورِ التي يَجِبُ تعليمُها للناسِ؛ لكثرة مَن يُشكِّكُ فيها في هذا العصرِ ممَّن تأثَّر بأصحابِ المذاهبِ الفكريةِ الهدَّامةِ، وما أكثرَها في عصرِنَا بعدَ انتشارِ وسائلِ الاتصالِ الحديثةِ، وقد أخرج البخاري في «صحيحه»، من حديث حذيفة رضي الله عنه أنَّه قال: كان الناسُ يَسألُونَ رسولَ اللهِ ﷺ عن الخيرِ، وكنتُ أَسأَلُه عن الشَّرِّ مخافةَ أنْ يُدرِكَنِي.

فإن قيل: فما معنى النهي عن الخوض في القدر؟

فيقال: بدلالةِ الأحاديثِ التي فيها الإذنُ في السؤالِ عن مسائلِ القدرِ، يكونُ النهيُ عن الخوضِ في مسائلِ القدرِ إذا كان ذلكَ على جهةِ الاعتراضِ والشَّكِّ.

المسألة الخامسة عشرة: ثمرات الإيمان بالقدر:

---

(١) **قوله: لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ:** أي: لأمتحنَ عقلَك وفهمَك ومعرفتَك.

للإيمانِ بالقضاءِ والقَدَرِ ثمراتٌ نافعةٌ في حياةِ المؤمنِ، فمن ذلكَ:

١ - الاعتمادُ على اللهِ تعالى عندَ فعلِ الأسبابِ، لأنَّه مقدِّرُ الأسبابِ والمُسبَّباتِ.

٢ - راحةُ النَّفْسِ وطمأنينةُ القلب؛ لِمَا يَعلَمُ من أَنَّ ما أصابَهُ لم يَكُن ليُخطِئَه، وما أَخطَأَهُ لم يَكُن لِيُصِيبَهُ، فإنْ أصابَهُ خَيرٌ حَمِدَ اللهَ وشَكَرَهُ، وإنْ أَصابَهُ ما يَكرَهُ، عَلِمَ أَنَّ ذلكَ بقضاء اللهِ وقَدَرِه، فلا يَجزَعُ، ولا يَسخَطُ.

يقول ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: لأَنْ أَعَضَّ على جَمْرةٍ، وأَقبِضَ عليها حتَّى تَبرُدَ فِي يَدِي، أَحَبُّ إليَّ من أنْ أقولَ لشيءٍ قَضَاهُ اللهُ: لَيتَهُ لم يَكُن.

٣ - أنَّ من الأمورِ ما يُحِبُّها العبدُ، ومنها ما يَكرَهُهَا، لكنَّه لا يَعلَمُ عاقبةَ ما يُحِبُّ ولا عاقبةَ ما يَكرَهُ، فإذا قَدَّر اللهُ لهُ شيئًا لا يُحِبُّه، أو قَدَّر عليهِ شيئًا يَكرَهُه، فإنَّه يَرضَى ويُسلِّم، لِعِلْمِه بأنَّ للهَ سبحانَه الحكمةَ البالغةَ في تقديرِ هذهِ الأمورِ عليهِ.

ومَن تأمَّلَ في أحوالِ الناسِ عَلِمَ أن كثيرًا من الأمراضِ النَّفْسيَّةِ التي يُبتلَى بِهَا العِبَادُ - عافَانَا اللهُ وإيَّاكُم-، بل وكثيرٌ من حالاتِ الانتحارِ إنْ لم تَكُن كلُّها، راجعةٌ إلى عدمِ الرِّضا والتسليم لأقدارِ اللهِ المُؤلِمَةِ.

٤ - طَرْدُ الإعجابِ بالنَّفْسِ عند حصولِ المرادِ؛ لِيَقِينِه أنَّ كُلَّ خَيرٍ يَنالُهُ إنَّما هو من فضلِ اللهِ ورحمتِه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فعندَ ذلكَ يَشكرُ اللهَ، ويَدَعُ العُجْبَ.

٥- إدراكُ العبدِ أنَّ مصالحَه لا يَجلِبُهَا إلَّا اللهُ تعالى، وأنَّ الشُّرُورَ والابتلاءاتِ لا يَدفَعُهَا إلَّا اللهُ تعالى، فيَتَعلَّقُ قلبُه بربِّه سبحانَه، فيَسعى لاستمطارِ رحماتِه بالدعاءِ واللُّجُوءِ إليهِ.

[المرتبة الثالثة: الإحسان]

قال المؤلِّف:

المرتبة الثالثة: الإحسانُ، ركنٌ واحدٌ، وهو: «أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لم تكُن تَرَاهُ، فإنَّه يَرَاكَ».

والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، **وقولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]، **وقولُه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾** [يونس: ٦١].

والدليل من السُّنة: حديثُ جبرائيلَ المشهورُ عن عمرَ رضي الله عنه قال: بينَما نحنُ جلوسٌ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ إذْ طَلَع علينا رَجُلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سَوَادِ الشَّعرِ، لا يُرَى عليهِ أَثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعرِفُه منَّا أحدٌ، حتَّى جَلَس إلى النبيِّ ﷺ، فأَسنَدَ رُكبتَيهِ إلى رُكبتَيهِ، ووَضَع كفَّيهِ على فَخِذَيهِ، وقال: يا محمدُ، أخبِرني عن الإسلامِ؟ قال: أنْ تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتُقِيمَ الصلاةَ، وتُؤتِيَ الزكاةَ، وتَصومُ رمضانَ، وتَحُجَّ البيتَ إنِ استَطعتَ إليهِ سبيلًا. فقال: صَدَقتَ. فعَجِبنَا لهُ يَسأَلُه ويُصدِّقُه.

قال: فأخبِرني عن الإيمانِ؟ قال: «أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخرِ، وتُؤمِنَ بالقدرِ خَيرِه وشَرِّه». قال: صَدَقتَ.

قال: فأخبِرني عن الإحسانِ. قال: «أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لم تكُن تَرَاهُ، فإنَّه يَرَاكَ».

قال: فأخبِرني عن الساعةِ؟ قال: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ».

قال: فأخبِرني عن أَمَاراتِهَا؟ قال: «أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وأنْ تَرَى الحُفاةَ العُرَاةَ العالةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في البُنيانِ».

قال: فمَضَى، فلَبِثنَا مَلِيًّا، فقال: «يا عمرُ، أَتَدرِي مَن السائلُ؟»، قلت: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: «فإنَّه جبريلُ، أَتَاكُم يُعلِّمُكُم أَمْرَ دِينِكُم».

الشرح

بعدَ أنِ انتَهَى المؤلِّفُ من الكلامِ على المرتبةِ الأولى والثانيةِ، شَرَع في

الكلامِ على المرتبةِ الثالثةِ، وهي الإحسانُ.

ويَتَعلَّق بالإحسانِ مسألتان:

المسألة الأولى: معنى الإحسان:

الإحسان لغة: مشتقٌّ من الحُسْنِ. ويُطلقُ على الإتقانِ والإجادةِ.

وشرعًا: إتقانُ الظاهرِ والباطنِ. أي: إتقانُ الإسلامِ والإيمانِ.

المسألة الثانية: أقسام الإحسان:

ينقسمُ الإحسانُ إلى قسمين:

القسم الأول: الإحسانُ في عبادةِ الخالقِ:

ولهُ مرتبتانِ:

المرتبة الأولى: مرتبةُ الحضورِ والمشاهدةِ:

وهي المذكورةُ في قولِه ﷺ: «**أَنْ تَعبُدَ اللهَ، كأَنَّك تَرَاهُ**»، فيَعبُدُ العبدُ ربَّه في الدُّنيا كأنَّه يَرَاهُ بقلبِه.

وهذا المرتبةُ تُوجِبُ النُّصحَ في العبادةِ، وبذلَ الجُهدِ في تَحسينِهَا، وإتمامِهَا، وإكمالِهَا.

وهو «مقامُ مَن يميِّزُ بينَ المحظورِ والمأمورِ، فإنَّ العبدَ إذا صار كأنَّه يُشاهِدُ ربَّه، فَعَل ما أُمِرَ بِه، وتَرَك ما نُهِيَ عنه، ووالَى أولياءَه، وعادَى أعداءَه. وهذا مشهدُ الإلهيةِ، الذي دَعَتْ إليهِ الرُّسُلُ، حيثُ أُمِرُوا بعبادةِ اللهِ وحدَه وطاعتِه». «الرد على البكري» ١/ ٣٥١.

المرتبة الثانية: مرتبةُ الاطلاعِ والمراقبةِ:

وهي المذكورةُ في قولِه ﷺ: «**فإنْ لم تَكُن تَرَاهُ، فإنَّه يَرَاكَ**»، فتَعبدُ اللهَ كأنَّه يَرَاكَ، ومُطَّلِعٌ عليكَ، ويُراقِبُكَ.

والمرتبةُ الأولى أفضلُ، ولذلكَ بَدَأ بِهَا في الحديثِ.

القسم الثاني: الإحسانُ إلى الخَلْقِ:

ويكونُ في أربعةِ أمورٍ:

١ – في المالِ.

٢ – والجَاهِ.

٣ – والعلمِ.

٤ – والبَدَنِ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾: «يُخبِر تعالى في هذهِ الآيةِ بأنَّه مع المُتَّقِينَ المُحسنِينَ، بعَوْنِه وتوفيقِه وتسديدِه، وهم الذين اتَّقَوا الكفرَ والمعاصي، وأَحسَنُوا في عبادةِ اللهِ، بأنْ عَبدُوا اللهَ كأنَّهُم يَرَونَه، فإنْ لم يكونوا يَرَونَهُ فإنَّه يَرَاهُم، والإحسانُ إلى الخَلْقِ ببَذْلِ النَّفعِ لهم من كُلِّ وجهٍ». «تفسير السعدي (ص ٤٥٢).

وهذهِ الآيةُ هي دليلُ المرتبةِ الأولى.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ التَّوكُّلُ هو اعتمادُ القلبِ على اللهِ تعالى في جَلْبِ المنافعِ ودَفْعِ المَضَارِّ، مع ثِقَتِه بِه، وحُسْنِ ظَنِّه بحصولِ مطلوبِه، فإنَّه عزيزٌ رحيمٌ، بعِزَّتِه يَقدِرُ على إيصالِ الخيرِ ودَفْعِ الشَّرِّ عن عَبْدِه، وبرحمتِه بِه يَفعلُ ذلكَ، ثم نَبَّهَهُ على الاستعانةِ باستحضارِ قُرْبِ اللهِ، والنزولِ في منزلِ الإحسانِ، فقال: **﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾**؛ أي: يَرَاكَ في هذهِ العبادةِ العظيمةِ، التي هي الصلاةُ، وقتَ قيامِكَ، وتَقَلُّبِكَ راكعًا وساجدًا، خَصَّهَا بالذِّكرِ، لِفَضْلِهَا وشَرَفِهَا، ولأنَّ مَن استَحضَرَ فيها قُرْبَ ربِّه، خَشَع وذَلَّ، وأَكمَلَهَا، وبتَكمِيلِهَا، يَكمُلُ سائرُ عَمَلِه، ويَستعينُ بِهَا على جميعِ أمورِه **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾** لسائرِ الأصواتِ على اختلافِهَا وتَشَتُّتِهَا وتَنَوِّعِهَا **﴿الْعَلِيمُ﴾** الذي أحاط بالظواهرِ والبواطنِ، والغيبِ والشهادةِ، فاستحضارُ العبدِ رؤيةَ اللهِ لهُ في جميعِ أحوالِه، وسَمْعِه لكُلِّ ما يَنطِقُ بِه، وعِلْمِه بِمَا يَنطَوِي عليهِ قَلْبُه، من الهَمِّ، والعَزمِ، والنِّيَّاتِ، ممَّا يُعِينُه على منزلةِ الإحسانِ». «تفسير السعدي (ص ٥٩٩).

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: «يُخبِرُ تعالى عن عمومِ مشاهدتِه، واطِّلاعِه على جميعِ أحوالِ العبادِ في حركاتِهم، وسَكَنَاتِهم، وفي ضِمْنِ هذا الدعوةُ لمراقبتِه على الدَّوامِ، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾؛ أي: حالٍ من أحوالِكَ الدينيةِ والدنيويةِ ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾؛ أي: وما تَتْلُو من القرآنِ الذي أَوحَاهُ اللهُ إليكَ ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغيرٍ أو كبيرٍ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: وقتَ شُرُوعِكُم فيهِ، واستمرارِكُم على العملِ بِه، فرَاقِبُوا اللهَ في أعمالِكُم، وأدُّوهَا على وجهِ النصيحةِ والاجتهادِ فيها، وإيَّاكُم وما يَكرهُ اللهُ تعالى، فإنَّه مُطَّلِعٌ عليكُم، عالِمٌ بظواهرِكُم وبواطنِكُم ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: ما يَغِيبُ عن عِلْمِه، وسَمْعِه، وبَصَرِه، ومشاهدتِه ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: قد أحاط بِه عِلْمُه، وجَرَى بِه قَلَمُه». «تفسير السعدي (ص ٣٦٧).

وهاتانِ الآيتانِ دليلٌ على المرتبةِ الثانيةِ.

[الأصل الثالث: معرفةُ النبيِّ محمدٍ ﷺ]

قال المؤلِّف:

الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نَبيِّكُم محمدٍ ﷺ.

وهو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمٌ من قريشٍ، وقريشٌ من العَرَبِ، والعَرَبُ من ذُرِّيَّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصلاةِ والسلامِ.

ولهُ من العُمُرِ: ثلاثٌ وسِتُّونَ سَنَةً، منها أربعُونَ قبلَ النُّبُوةِ، وثلاثٌ وعشرونَ نبيًّا رسولًا.

نُبِّئَ بـ:﴿اقْرَأْ﴾، وأُرسِلَ بـ: ﴿المدَّثِّر﴾.

وبَلَدُه مكةُ، وهاجَرَ إلى المدينةِ.

بَعَثَهُ اللهُ بالنِّذارةِ عن الشِّركِ، ويَدعُو إلى التوحيدِ.

والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا المدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١- ٧].

ومعنى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنذِرُ عن الشِّركِ، ويَدعُو إلى التوحيدِ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أي: عَظِّمْهُ بالتوحيدِ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عن الشِّركِ.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهَجْرُهَا: تَرْكُهَا والبراءةُ منها وأهلِهَا.

أَخَذ على هذا عشرَ سنينَ يَدعُو إلى التوحيدِ.

الشرح

بعدَ أنْ فَرَغ المؤلِّفُ من الكلامِ على الأصلِ الأولِ والثاني، شَرَع في الكلامِ على الأصلِ الثالثِ، وهو معرفةُ نبيِّه محمدٍ ﷺ.

ويَتَعلَّق بهذا الأصل خمسُ مسائل:

المسألة الأولى: العِلم باسمه ﷺ ونَسَبَه:

دلَّ عليهِ قولُه: (**هو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ بنِ هاشمٍ، وهاشمٌ من قريشٍ، وقريشٌ من العَرَبِ، والعَرَبُ من ذُرِّيَّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ**).

المسألة الثانية: كونه نَبِيًّا رسولًا.

وقد دلَّ عليهِ قولُه: (**نُبِّئَ بـ:﴿اقْرَأْ﴾، وأُرسِلَ بـ: ﴿المدَّثِّر﴾**).

المسألة الثالثة: معرفةُ بَلَدِه ومُهَاجَرِه:

وقد دلَّ عليهِ قولُه: (**وبَلَدُه مكةُ، وهاجَرَ إلى المدينةِ**).

المسألة الرابعة: معرفةُ ما أُرسِلَ بِه:

وقد دلَّ عليهِ قولُه: (**بَعَثَهُ اللهُ بالنِّذارةِ عن الشِّركِ، ويَدعُو إلى التوحيدِ**).

المسألة الخامسة: معرفةُ شيءٍ من سيرتِه الذاتيةِ:

وقد دلَّ عليه قولُه: (**ولهُ من العُمُرِ: ثلاثٌ وسِتُّونَ سَنَةً، منها أربعُونَ قبلَ النُّبُوةِ، وثلاثٌ وعشرونَ نبيًّا رسولًا**).

فإنْ قيل: قد تقرَّر لدينا أنَّ معرفةَ هذا الأصلِ واجبٌ، فما مقدارُ الواجبِ من هذا الأصلِ؟

والجواب: ظاهرُ صنيعِ المؤلِّف أنَّ جميعَ ما ذُكِرَ في هذا الأصلِ واجبٌ كلُّه، والذي يَظهرُ أنَّ الواجبَ بعضُ ذلكَ لا كلُّه، وقد يكونُ مرادُه أنَّه واجبٌ على الكفايةِ.

ومقدارُ هذا الواجبِ ما يلي:

١ – معرفةُ اسمِه، وأمَّا معرفةُ اسمِ أبيهِ وجَدِّه؛ فهو مُستحبٌّ.

٢ – أنَّه رسولُ اللهِ، وأنَّه عبدُ اللهِ.

فقد وَرَد في الأحاديثِ التي فيها سؤالُ المَلَكَينِ للعبدِ في قبرِه أنَّهما يَقولانِ لهُ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرَّجُلِ محمدٍ ﷺ؟

وفي رواية: ما هذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فيكُم؟ فيقولُ: هو رسولُ اللهِ ﷺ.

وفي رواية: فيَقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فيقولُ: هو عبدُ اللهِ ورسولُه.

٣ – معرفةُ أنَّه أُرسِلَ بالدعوةِ إلى التوحيدِ، والتحذيرِ من الشركِ.

قوله: (هو محمدُ بنُ عبدِ اللهِ) هذا أشهرُ أسمائِه ﷺ، قال تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**﴾ [محمد: ٢]، وقال تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ [الفتح: ٢٩].

وسمَّى اللهُ تعالى سورةً في القرآنِ باسمِه، وهي «سورة محمد».

قوله: (ابنِ عبدِ المُطَّلبِ) اسمُ عبدِ المُطَّلبِ: شَيبة، ويقال له: شَيبةُ الحَمْدِ، وإنَّما سُمِّيَ (عبدُ المطلبِ)؛ لأنَّ أباهُ هاشمَ بنَ عبدِ منافٍ كان قد تزوَّج امرأةً من بني النجَّارِ من الخَزرَجِ، وجاءَ منها بهذا الابنِ، ثم مات هاشمٌ، وشَبَّ شيبةُ الحَمْدِ بين أخوالِهِ من بني النجار، ثم جاء المطلبُ بنُ عبدِ منافٍ إلى المدينةِ لِيَأخُذَ ابنَ أخيه هاشمَ[1]؛ لِيَرجِعَ بِه إلى قومِه في مكةَ، وكان قد أَردَفَهُ على دابتِه، فرآهُ أهلُ مكة وقد تَغَيَّر لَوْنُهُ من السَّفَرِ، فظنُّوه عبدًا له، فقالوا: عبدُ المُطَّلبِ، فعَلِقَ بِه هذا الاسمُ ورَكِبَه، فصار لا يُذكَرُ ولا يُدعَى إلَّا بِه، فلم يَبْقَ للأصلِ معنًى مقصودٍ.

قوله: (ابن هاشم) هاشمٌ لَقَبٌ، واسمُه: عمرو، ولُقِّبَ بهاشمٍ؛ لأنَّه أوَّلُ مَن هَشَمَ الثَّريدَ لقومِه، وهو أحدُ الأجوادِ الذينَ ضُرِبَ بِهِمُ المَثَلُ في الكَرَمِ، وأَحَدُ مَن انتَهَتْ إليهِ السِّيادةُ في الجاهليةِ.

قوله: (والعَرَبُ من ذُرِّيَّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ وعلى نبيِّنا أفضلُ الصلاةِ والسلامِ) فالنبيُّ ﷺ من ولدِ إسماعيلَ، وليس من أولادِ إسحاقَ، وأنبياءُ بني إسرائيلَ كلُّهم من يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ.

وإسماعيلُ وُلِدَ لإبراهيمَ من أَمَتِه هاجَرَ على كِبَرٍ منهُ، قال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وهو الذي أُمِرَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ بذَبْحِه، كما قال تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾ [الصافات: ١٠١- ١٠٢].

قوله: (ولهُ من العُمُرِ ثلاثٌ وستُّونَ سَنَةً) روي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: تُوفِّي النبيُّ ﷺ وهو ابنُ ثلاثٍ وستينَ.

وأمَّا مَولِدُه ﷺ ففي عامِ الفيلِ، في الثاني عشرَ من شهرِ ربيعٍ الأول على المشهورِ.

---

(١) فهاشم كان له ثلاثة إخوة: عبد شمس، ونوفل، والمطلب.

توفِّي أبوه عبدُ اللهِ وهو حَمْلٌ في بطنِ أُمِّه آمنةَ بنتِ وَهْبٍ، فكَفَلَهُ جَدُّهُ عبد المُطَّلِب، ثم عمُّه أبو طالبٍ.

وأوَّلُ زوجاتِه خديجةُ رضي الله عنها، تزوَّجَها وله خمسٌ وعشرونَ سَنَةً، ومنها أولاده: القاسمُ، وعبد الله، وفاطمةُ، وزينبُ، ورُقيَّةُ، وأُمُّ كُلْثُومٍ، وأمَّا ابنُه إبراهيمُ فأمُّه مَارِيةُ القِبطيَّةُ.

قوله: (منها أربعُونَ قبلَ النُّبُوةِ، وثلاثٌ وعشرونَ نبيًّا رسولًا) فلم يُوحَ إليهِ إلَّا بعدَ الأربعينَ، وإذا ثَبَت أنَّ النبيَّ ﷺ مات وعُمُرهُ ثلاثٌ وسِتونَ سَنَةً، وأنَّه بُعِثَ على رأسِ الأربعينَ، فتكونُ مدةُ النُّبُوةِ والرسالةِ ثلاثًا وعشرينَ سَنَةً.

قوله: (نُبِّئَ بـ﴿اقْرَأْ﴾)؛ أي: خبِّر؛ لأنَّ أصلَ النُّبُوةِ مأخوذةٌ من النَّبَأِ، وهو الخبرُ، وكان هذا يومَ الاثنينِ في رمضانَ، وهو بغار حِرَاءٍ.

وقولُه: (بـ﴿اقْرَأْ﴾) يعني: قولَه تعالى: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** [العلق: ١ – ٥].

قوله: (وأُرسِلَ بـ: ﴿المدَّثِّر﴾)؛ أي: بُعِثَ؛ لأنَّ الإرسالَ معناهُ البعثُ والتوجيهُ، وكان ذلك بعد فترة الوحي، قال ﷺ: «**فبَينا أنا أَمشِي سَمِعتُ صوتًا من السماءِ، فرَفَعتُ رأسِي، فإذا المَلَكُ الذي جاءَنِي بحِرَاءٍ، جالسًا على كرسيٍّ بينَ السماءِ والأرضِ، فجَئِثْتُ منهُ فَرَقًا، فرَجَعتُ، فقلتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فدَثَّرُونِي، فأَنزَلَ اللهُ تبارَك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا المدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، ثم تَتَابَعَ الوَحْيُ**». أخرجه البخاري ومسلم، من حديث جابر رضي الله عنه.

وقولُه: (وأُرسِلَ بـ﴿المدَّثِّر﴾) يعني: صدرَ السُّورةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا المدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

قوله: (وبَلَدُه مكةُ)؛ أي: وُلِدَ فيها، وبَقِيَ بِهَا ثلاثَ عشرةَ سَنَةً بعد أنْ أَوحَى اللهُ إليهِ.

وهي أَحَبُّ البلادِ إلى اللهِ تعالى، فقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال وهو في سُوقِ الحَزَوَّرَةِ بمكةَ: «**واللهِ إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ، وأَحَبُّ البلادِ إلى اللهِ، ولولا أنِّي أُخرِجتُ منكِ ما خَرَجتُ**». أخرجه النسائي في «الكبرى»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: (وهاجَرَ إلى المدينةِ)؛ أي: المدينةِ النبويةِ، وذلكَ بعدَ أنْ اشتَدَّ عليهِ أذى قريشٍ، فتَغيَّب في الغارِ هو وصاحبُه أبو بكر رضي الله عنه، ثم سَارَا مُهاجِرَينِ إلى المدينة، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**رأيتُ في المنامِ أنِّي أُهاجِرُ من مكةَ إلى أرضٍ بِهَا نَخْلٌ، فذَهَب وَهْلِي إلى أنَّها اليمامةُ أو هَجَرُ، فإذا هي المدينةُ يَثرِبُ**»(١).

ووُضِعُ التاريخُ الإسلاميُّ بتاريخِ هجرةِ النبيِّ ﷺ، فعن ميمونَ بنِ مهرانَ أنَّه قال: رُفِعَ إلى عمرَ رضي الله عنه صَكٌّ مَحَلَّه في شعبان، فقال عمر: أيُّ شعبانَ؟ هذا الذي مَضَى، أو الذي هو آتٍ، أو الذي نحنُ فيهِ؟ ثم جَمَع أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: ضَعُوا للناسِ شيئًا يَعرِفُونَه، فقال قائِلٌ: اكتُبُوا على تاريخِ الرُّومِ. فقيل: إنَّه يَطُولُ، وإنَّهم يَكتُبُونَ من عندِ ذي القَرنَينِ. وقال قائِلٌ: اكتُبُوا تاريخَ الفُرْسِ، كُلَّمَا قام مَلِكُ طَرَح ما كان قبلَه، فاجتَمَع رأيُهُم على أن يَنظُرُوا: كم أقام رسولُ اللهِ ﷺ بالمدينة؟ فوَجَدُوهُ أقام بها عشرَ سنينَ، فكَتَب أو كُتِبَ التاريخُ على هجرةِ رسولِ اللهِ ﷺ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فإن قيل: قد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن سَمَّى المدينةَ يَثرِبَ، فَلَيَستَغفِرِ اللهَ عزَّ وجَلَّ، هي طابَةُ، هي طابَةُ**»؟

فيقال: هذا الحديث أخرجه أحمد، لكن لا يَصحُّ؛ لضَعْف يزيد بن أبي زياد، ولاضطرابه فيه.

(٢) أخرجه أحمد

قوله: (بَعَثَهُ اللهُ بالنِّذارةِ عن الشِّركِ) لعِظَمِ خَطَرِه، فإنَّه إذا خالَطَ العبادةَ أَفسَدَهَا، وصار صاحبُه من الخالِدِينَ في النارِ، ولا يُغفَرُ لهُ إذا مات عليهِ من غيرِ توبةٍ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

قوله: (ويَدعُو إلى التوحيدِ) لأنَّه أَوجَبُ الواجباتِ، وهو حَقُّ اللهِ على العبيدِ، ولأجل هذا كان كُلُّ نَبِيٍّ يَفتتِحُ دعوتَه بالدعوةِ إلى التوحيدِ.

قوله: (والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا المدَّثِّرُ ...﴾)؛ أي: والدليلُ على أنَّه ﷺ بُعِثَ بالإنذارِ عن الشركِ، والدعوةِ إلى توحيدِ اللهِ تعالى، وإفرادِه بالعبادةِ، هذه الأياتُ.

قوله: (ومعنى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنذِرُ عن الشِّركِ) في هذا دليلٌ على وجوبِ التحذيرِ من الشركِ، وعدمِ الاكتفاءِ بالدعوةِ إلى التوحيدِ، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة ٢٥٦]، وقال ﷺ: **«مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وكَفَر بِمَا يُعبَدُ من دُونِ اللهِ، حَرُمَ مالُه ودَمُه، وحسابُه على اللهِ»**.

قوله: (ويَدعُو إلى التوحيدِ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أي: عَظِّمْهُ بالتوحيدِ)؛ أي: نَزِّهْهُ عمَّا افتَراهُ عَبَدةُ الأوثانِ من أنَّ للهِ شريكًا في ربوبيتِه، أو ألوهيتِه، أو أسمائِه وصفاتِه.

قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عن الشِّركِ) لأنَّ تطهيرَ الملابسِ غيرُ مرادةٍ في هذهِ الآيةِ؛ لأنَّ الصلاةَ لم تُفرَضْ في ذلكَ الوقتِ، فالمرادُ هنا الأعمالُ، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فالعملُ يُسمَّى لِبَاسًا. «شرح ثلاثة الأصول» لابن باز (ص ٧٠).

قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: الرُّجْزُ: الأصنامُ) قال اللهُ تعالى: **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾** [الحج: ١٣٠]، وقال إبراهيمُ عليه السلام لقومِه: **﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾** [مريم: ١٤٨].

قوله: (وهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، والبراءةُ منها وأهلِهَا) معناهُ: أن تُبغِضَ بقلبِكَ الشركَ وأهلَه، وأن تُفارِقَهُم، وأنْ تَعتقِدَ بطلانَ ما هُم عليهِ، قال اللهُ تعالى: **﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [التوبة: ١]، وقال تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾** [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

قوله: (أَخَذ على هذا عشرَ سنينَ يَدعُو إلى التوحيدِ) لأنَّ هذا هو المقصودُ الأعظمُ من النُّبُوةِ والرسالةِ، ولأن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [الزمر: ٦٥].

قال المؤلِّف:

وبعدَ العَشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ، وفُرِضَتْ عليهِ الصلواتُ الخَمْسُ، وصَلَّى في مكةَ ثلاثَ سنينَ.

الشرح

في هذه الجملةِ إشارةٌ إلى العُروجِ بالنبيِّ ﷺ إلى السماواتِ، وأنَّ المعراجَ كان قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنينَ.

وقد اختُلف في زمن المعراجِ على أقوالٍ كثيرةٍ:

فقيل: قبل الهجرةِ بخمسِ سنينَ.

وقيل: قبل الهجرةِ بستِّ سنينَ.

وقيل: قبلَ الهجرةِ بثمانيةَ عشرَ شهرًا.

وقيل: قبلَ الهجرةِ بسَنَةٍ.

وقيل: قبلَ الهجرةِ بستةِ أشهرٍ.

وقيل: غيرُ ذلكَ.

وقد حكى ابنُ حزمٍ الإجماعَ على أنَّ المعراجَ كان قبلَ الهجرةِ بسَنَةٍ، نَقَلَهُ عنهُ السَّفَّاريني، وقال: «وهو قولُ ابنِ عباسٍ وعائشةَ رضي الله عنهم».

قوله: (وفُرِضَتْ عليهِ الصلواتُ الخَمْسُ)؛ أي: أنَّ فرضَ الصلاةِ كان ليلةَ المعراجِ. وقد دلَّ على ذلكَ: السُّنةُ والإجماعُ.

أمَّا السُّنة: فما في «الصحيحين»، من حديثِ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه في قصةِ المعراجِ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«ثُمَّ عَرَج بِي، حتَّى ظَهَرتُ لِمُستَوَى أَسمَعُ فيهِ صَرِيفَ الأقلامِ، ففَرَض اللهُ على أُمَّتي خمسينَ صلاةً، قال: فَرَجَعتُ بذلكَ، حتَّى أَمُرَّ بموسى، فقال موسى عليهِ السَّلامُ: ماذا فَرَضَ ربُّكَ على أُمَّتِكَ؟ قال: قلتُ: فَرَضَ عليهِمْ خمسينَ صلاةً، قال لي موسى عليهِ السَّلامُ: فرَاجِعْ ربَّكَ، فإنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذلكَ، قال: فرَاجَعتُ ربِّي، فوَضَعَ شَطْرَهَا، قال: فرَجَعتُ إلى موسى عليهِ السَّلامُ، فأَخبَرتُهُ، قال: رَاجِعْ ربَّكَ، فإنَّ أُمَّتَكَ لا تُطيقُ ذلكَ، قال: فرَاجَعتُ ربِّي، فقال: هي خمسٌ، وهي خمسونَ، لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَيَّ»**[1].

وقوله: هي خمسٌ، وهي خمسونَ: أي: خمسٌ في الفعلِ، وخمسونَ في الأجرِ والثوابِ.

وأمَّا الإجماعُ: **فقال ابنُ عبد البر:** «وقد أَجمَعَ العلماءُ أنَّ الصَّلواتِ الخمسَ إنَّما فُرِضَتْ في الإسراءِ».

وقال أيضًا: «وأجمَعُوا أنَّ فرضَ الصلاةِ إنَّما كانت في حينِ الإسراءِ».

[الهجرة إلى بلاد الإسلام]

قال المؤلِّف:

وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

والهجرةُ: الانتقالُ من بَلَدِ الشركِ إلى بَلَدِ الإسلامِ.

والهجرةُ فريضةٌ على هذهِ الأُمَّةِ من بَلَدِ الشركِ إلى بَلَدِ الإسلامِ.

وهي باقيةٌ إلى أنْ تَقُومَ الساعةُ.

والدليل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظَالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا المسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال البغويُّ رحمه الله تعالى: «سببُ نزولِ هذهِ الآيةِ في المسلمينَ الذينَ بمكةَ لم يُهاجِرُوا؛ نادَاهُم اللهُ باسمِ الإيمانِ».

والدليلُ على الهجرةِ من السُّنَّةِ: قولُه ﷺ: «لا تَنقطِعُ الهجرةُ حتَّى تَنقطِعَ التوبةُ، ولا تَنقطِعُ التوبةُ حتَّى تَطلُعَ الشمسُ من مَغرِبِهَا».

الشرح

في هذهِ الجملةِ يَتكلَّمُ المؤلفُ عن الهجرةِ، وسببُ إيرادِ المؤلِّفِ الكلامَ عن الهجرةِ في هذهِ الرسالةِ –والله أعلم–؛ لأنَّ الهجرة من بلادِ الكفرِ إلى بلادِ الإسلامِ من أبرزِ الأمورِ التي تَتِمُّ بِهَا البراءةُ من الشركِ وأهلِه.

قوله: (وبعدَها أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ)؛ أي: بعد السَّنةِ الثالثةَ عشرَ من بعثتِه أُمِرَ بمفارقةِ المشركينَ.

والهجرة لغة: الترْكُ والخروجُ من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ آخرَ.

وشرعًا: الانتقالُ من بَلَدِ الكفرِ أو الشركِ إلى بَلَدِ الإسلامِ.

قوله: (والهجرةُ فريضةُ على هذهِ الأمةِ من بَلَدِ الشركِ إلى بَلَدِ الإسلامِ) واستَدلَّ المؤلِّفُ لوجوبِ الهجرةِ من بَلَدِ الشركِ إلى بَلَدِ الإسلامِ

بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَم تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ....﴾ الآيات.

ووجهُ الدلالةِ من هذهِ الآياتِ على وجوبِ الهجرةِ من بَلَدِ الشركِ: أنَّ الله تعالي سمَّاهم ظالمِينَ، وقد نَقَل المؤلِّفُ عن البغويِّ أنَّ هذهِ الآياتِ نَزَلَتْ في المسلمينَ الذينَ بَقَوا بمكةَ، ولم يُهاجِرُوا للمدينةِ مع قدرتِهم على الهجرةِ.

مسألة: يُشترطُ لوجوبِ الهجرةِ شرطانِ:

الشرط الأول: القدرةُ على الهجرةِ.

ويدلُّ لذلكَ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

وجه الدلالة: أنَّ اللهَ تعالى سمَّى القادرينَ على الهجرةِ ظالِمِينَ، ومفهومُ الآيةِ: أنَّ مَن كان غيرَ قادرٍ على الهجرةِ، فإنَّه لا تَجِبُ عليه.

ويدلُّ لذلكَ -أيضًا- الآيةُ التي بعدَها: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوا غَفُورًا﴾.

وجه الدلالة: أنَّ اللهَ تعالى عَذَر غيرَ القادرِ على الهجرةِ، إمَّا لمَرَضٍ، أو إكراهٍ، أو غيرِ ذلكَ، وأخبَر عن عَفوِهِ عنهُم.

الشرط الثاني: ألَّا يكونَ قادرًا على إظهارِ دينِه في بَلَدِ الكفرِ أو الشركِ. وهذا بالإجماع، **قال ابن كثير في «تفسيره»** عندَ هذهِ الآيةِ: «الآيةُ الكريمةُ عامَّةٌ في كُلِّ مَن أقام بينَ ظَهرَانَي المشركينَ، وهو قادرٌ على الهجرةِ، وليس مُتمَكِّنًا من إقامةِ الدِّينِ، فهو ظالِمٌ لنفسِه، مُرتَكِبٌ حرامًا بالإجماعِ».

- فإنْ كان قادرًا على الهجرةِ، لكنْ يَستطيعُ إظهارَ دينِه في بلدِ الشركِ؛ فالهجرةُ في حقِّه مستحبةٌ عندَ الجمهورِ، لأنَّ الآيةَ جَعَلتْ للظالمِ لنفسِه وَصفَينِ:

١ – استطاعةَ الهجرةِ.

٢ – الاستضعافَ.

ومعنى ذلك: أنَّه إذا كان قادرًا على إظهارِ دينِه، فليس مُستَضَعفًا.

فإن قيل: ما المقصودُ بإظهارِ الدِّينِ؟

فيقال: هو القيامُ بأمورِ الشريعةِ، ولا يَلزمُ من ذلكَ الصَّدعُ بتَسْفِيهِ آلهةِ المشركينَ، ويدلُّ لذلكَ: أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم لمَّا هاجرُوا إلى الحبشةِ، لم يَصدَعُوا بتسفيهِ دينِ النَّصارى، ولم يَعرِفِ النَّجَاشِيُّ اعتقادَهُم في عيسى عليهِ السلامُ إلَّا لمَّا سألَهُم، كما أفاده السعدي. انظر: «الفتاوى السعدية» ص/ ٨٠ – ٨١.

قوله: (**وهي باقيةٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ**)؛ أي: قُربَ قيامِ الساعةِ؛ لأنَّ القيامةَ لا تقومُ إلَّا على شِرَارِ الناسِ.

واستدلَّ المؤلِّفُ لبقاءِ الهجرةِ بقولِه ﷺ: «**لا تَنقطِعُ الهجرةُ حتَّى تَنقطِعَ التوبةُ، ولا تَنقطِعُ التوبةُ حتَّى تَطلُعَ الشمسُ من مَغرِبِهَا**».

فائدة: قوله: لا تَنقطِعُ التوبةُ: المرادُ عدمُ قَبولِهَا؛ لأنَّ هذا أوانُ قيامِ الساعةِ، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ**﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فإن قيل: ما معنى ما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «**لا هجرةَ بعدَ الفتحِ**»؟

فيقال: المقصودُ من الحديثِ: أنَّه لا هجرةَ من مكةَ بعدَ فَتحِهَا؛ لأنَّها صارَتْ دارَ إسلامٍ.

وههنا مسألة: ما هي دارُ الإسلام، وما هي دارُ الكفرِ أو الشركِ؟

والجواب: **دارُ الإسلامِ:** هي الدارُ التي تُقامُ فيها شعائرُ الإسلامِ على وجهٍ عامٍّ شاملٍ، **ودارُ الكفرِ أو الشركِ:** فهي الدارُ الذي تُقامُ فيها شعائرُ الكفرِ، ولا تُقامُ فيهِ شعائرُ الإسلامِ، كالأذانِ، والصلاةِ، والأعيادِ، والجمعةِ، على وجهٍ عامٍّ شاملٍ. انظر: «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ العثيمين، ص ١٣٠.

قال الشيخ العثيمين: «وإنَّما قلنا: (على وجهٍ عامٍّ شاملٍ)؛ لِيَخرُجَ بذلكَ ما تقامُ فيهِ هذهِ الشعائرُ على وجهٍ محصورٍ، كما هو الواقعُ في بلادِ الكفارِ التي فيها

أقلياتٌ مسلمةٌ، فإنَّها وإنْ كانت تُقامُ فيها شعائرُ الإسلامِ، لكنْ ليس على وجهٍ عامٍّ شاملٍ، وإنَّما على وجهٍ محصورٍ». «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ العثيمين، ص ١٣٠.

وقال أيضًا: «ودارُ الإسلامِ هي التي غَلَب عليها الإسلامُ ظُهُورًا وشُيُوعًا، بحيثُ يُؤذِّنُ فيها للصلاةِ، وتُقام فيها الجماعاتُ، ويُصام فيها رمضانُ ويُعلَنُ، وتَظهرُ فيها الشعائرُ، حتَّى وإنْ كان فيها كفارٌ، فلو قُدِّرَ أنَّ الكفار فيها خمسون في المئةِ أو أكثرَ، فهي دارُ إسلامٍ، ما دام حُكمُ الإسلامِ غالبًا عليها.

أمَّا إذا لم يَكُن حُكمُ الإسلامِ عليها غالبًا، فهي دارُ كُفرٍ، ولو كَثُرَ فيها المسلمونَ، والاعتبارُ بالمظهرِ والظاهرِ، ويدلُّ لهذا: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا غَزَا قومًا أَمْسَكَ حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ، فَإِنَّ أَذَنُوا امتنع من قتالهم، وإن لم يُؤذِّنُوا قَاتَلَهُم

فمثلًا: بلادُ أوروبا الآن بلادُ كُفرٍ؛ لأنَّ الحُكمَ الشائعَ والظاهرَ فيها هو الكفرُ، وإنْ كان يُوجد فيها جمعياتٌ إسلاميةٌ، وربَّما يُوجَدُ في بعضِ البلادِ هناكَ مناطقُ تقامُ فيها الجماعةُ والجمعةِ، لكنَّها بلادُ كُفرٍ؛ لأنَّ الغالبَ والمُهيمِنَ عليها هو حُكمُ الكفارِ.

وقيل: إنَّ دارَ الإسلامِ: مَن كان أكثرُ أهلِهَا مسلِمِينَ، بغَضِّ النظرِ عن الحاكمِ.

وقيل: إنَّ دارَ الإسلامِ: مَن يَحكُمُهَا مسلمٌ، ولو كان أكثرُ أهلِ البلدِ كفارًا.

والعلماءُ اختلفوا في هذا اختلافًا كبيرًا، لكنْ أقربُ الأقوالِ: أنَّه ما أُعلِنَ فيها بالإسلامِ». «الشرح الممتع» ١٠/ ٣٢٤ – ٣٢٥.

وسُئل -رحمه الله- هذا السؤالُ: بالنسبة لحَدِّ دارِ الإسلامِ وحَدِّ دارِ الكفرِ؟

فقال: دارُ الإسلامِ هي التي تُقامُ فيها شعائرُ الإسلامِ بقطعِ النظرِ عن حُكَّامِهَا، حتى لو تَولَّى عليها رجلٌ كافرٌ، وهي ممَّا يَظهرُ به شعائرُ الإسلامِ، فهي دارُ إسلامٍ، يُؤذَّنُ فيها، يُقام فيها الصلاةُ، تُقامُ فيها الجُمَعُ، تَقومُ فيها الأعيادُ الشرعيةُ، والصومُ، والحَجُّ، وما أَشبَه ذلكَ، هذهِ ديارُ إسلامٍ، حتَّى لو كان حُكَّامُهَا كفارًا؛ لأنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أَمَرنَا إذا رَأَينَا كُفرًا بَوَاحًا أنْ

نُقاتِلَ، و معنى ذلك: أنَّ بلادَنا بَقِيَتْ بلادَ إسلامٍ، تُقاتِلُ هذا الكافرَ، وتُزِيلُه من الحُكمِ.

فأمَّا قول مَن يقولُ: إنَّ بلادَ الإسلامِ هي التي يَحكُمُهَا المسلمونَ؛ أي: يكونُ حُكَّامُهَا مسلِمِينَ؛ فهذا ليس بصحيحٍ، لو طبَّقنا هذا القولَ على واقعِ الناسِ اليومَ كم تكونُ بلادُ الإسلامِ؟! يُمكِنُ بَلَدُ أو بلدان، اللهُ أعلمُ هذا!! إنَّما على كُلِّ حالٍ مو هذا صحيحُ، إذا كانتْ شعائرُ الإسلامِ تُظهَرُ في هذهِ البلادِ، فإنَّها بلادُ إسلامٍ، فإنَّها بلادُ إسلامٍ.

بَقِيَ علينا إذا كان يَظهرُ فيها شعائرُ الإسلامِ وشعائرُ الكفرِ، كما لو كان يُسمع فيها الأذان، وتُقام فيها الجُمُعات، ولكنْ يُسمَعُ فيها أيضًا أبواقُ اليهودِ ونواقيسُ النَّصارى في نفسِ الوقتِ، وتُقام فيها صلواتُ النَّصارى واليهودِ، فماذا نُسمِّيهِ؟!

في هذا الحالِ قد نَرجِعُ إلى الحُكَّامِ والأغلبيةِ؛ لأنَّ الحاكمَ قد يَعجَزُ عن إزالةِ شعائرِ الكفرِ، فإذا كان غالبُ البلدِ مسلِمِينَ، وحُكَّامُها مسلِمِينَ، قلنا: هذهِ بلادُ إسلامٍ، وإنْ كان فيها شيءٌ من شعائرِ الكفرِ؛ لأنَّ الغلبةَ كِمِّيةً وسُلطةً للمسلِمِينَ، لكنِ هذهِ معاصٍ، يَعجَزُونَ أنْ يُزِيلُوهَا؛ الواجبُ إزالتُهَا ومَنْعُهَا؛ لأنَّه حتَّى إظهارُ الصَّليبِ ممنوعٌ في بلادِ الإسلامِ، كونُه يُعلَنُ الصَّليبُ مثلًا على الكنائسِ، أو في الطُّرُقاتِ، وما أَشبَه ذلكَ، هذا ممنوعٌ في بلادِ الإسلامِ.

تنبيهان:

التنبيه الأول: ليس لمسألةِ الحكمِ بغيرِ ما أَنزَلَ اللهُ أثرٌ في تحوُّلِ الدارِ من دارِ إسلامٍ إلى دارِ كُفرٍ، وإنَّما شاع هذا عندَ خوارجِ العصرِ، الذين كفَّروا دورَ المسلمينَ، بدعوى أنَّ حُكَّامَهَا لا يَحكُمُونَ بِمَا أَنزَلَ اللهُ.

وقد ذَكَر هذهِ المسألةَ الشيخ العثيمين رحمه الله، فقال: «ما هي دار الإسلام ودار الكفر؟ هل إذا كانت هذه البلدةُ شعائرَ الإسلامِ فيها ظاهرةٌ من أذانٍ، وصلاةِ جماعةٍ، وجمعةٍ، وصيامٍ، وأعيادٍ، وكُلُّ شعائرِ الإسلامِ فيها ظاهرةٌ، لكنَّ

حُكَّامَها يَحكُمُونَ بالقانون عَمْدًا وقصدًا، فهل نقولُ: هذهِ بلادُ إسلامٍ أو بلادُ كُفرٍ؟

نقول: هي بلادُ إسلامٍ؛ لأنَّ المَظهَرَ فيها مَظهَرُ إسلامٍ، وإذا قصَّر الحُكَّامُ أو اعتَدَوا، فإنَّ ذلكَ لا يَنقُلُهَا إلى دارِ الكفرِ، وأمَّا مَا هَيْمَنَ عليهِ الكَفَرةُ، فهي دارُ كُفرٍ، وإنْ كان يُوجَدُ فيها مَن يَحكُمُ بالإسلامِ، فهذا هو تعريفُ دارِ الإسلامِ.

فدارُ الإسلامِ ما ظَهَرَتْ فيها شعائرُ الإسلامِ، وكان أهلُها مُسلِمِينَ بقطعِ النَّظَرِ عن الحُكَّامِ، والحُكَّامُ لهُم شأنُهُم، وبِه تَعرِفُ خطأَ مَن يقولونَ في بلادِ المسلمينَ التي يَحكُمُ فيها حُكَّامُهَا بالقانونِ، إنَّها بلادُ كُفرٍ، فهذهِ مسألةٌ خطيرةٌ».

«تعليقات ابن عثيمين على الكافي لابن قدامة» ٥/ ٢٩٧.

التنبيه الثاني: لهذهِ المسألةِ، وهي تعريفُ الدارِ أَثَرٌ فقهيٌّ عمليٌّ، فمن ذلكَ: أنَّ دارَ الكفرِ يَجبُ الهجرةُ منها لمَن لم يَستطِعْ إظهارَ دينِه، وهذا بخلافِ دارِ الإسلامِ، فإنَّه يَجبُ الهجرةُ إليها لا منها.

مسألة: حكم السفر لبلاد الكفار:

الأصلُ هو حُرمةُ السَّفرِ لبلادِ الكفارِ؛ لما يلي:

١ - النصوصُ الدالةُ على وجوبِ الهجرةِ من بلادِ الكفارِ.

٢ – ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن جامَعَ المُشرِكَ وسَكَن معهُ، فإنَّه مثلُه**»، وقولُه ﷺ: «**لا يَقبَلُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِن مُشرِكٍ بعدَما أَسلَم عَمَلًا أو يُفارِقُ المشركينَ إلى المسلمينَ**»، وقولُه ﷺ: «**أنا بَرِئٌ ممَّن يُقِيمُ بينَ أَظهُرِ المشركينَ، لا تَراءَى نَارُهُمَا**»، وقولُه ﷺ لجريرِ بن عبدِ اللهِ رضي الله عنه لمَّا جاء لمبايعتِه ﷺ، فقال له: «**قُل: أُبَايِعُكَ على أن تَعبُدَ اللهَ، وتُقِيمَ الصلاةَ، وتُؤدِّيَ الزكاةَ، وتُناصِحَ المسلمينَ، وتُفارِقَ المشركينَ**».

ويجوز السَّفرُ بشروطٍ ثلاثةٍ:

«١ - أنْ يكونَ عندَهُ عِلْمٌ يدفعُ بِه الشُّبَهاتِ.

٢ - أنْ يكونَ عندَهُ دِينٌ يَمنَعُه من الشَّهواتِ.

٣ - أنْ يكونَ محتاجًا إلى ذلكَ.

فإنْ لم تَتِمَّ هذهِ الشروطُ فإنَّه لا يجوزُ السَّفرُ إلى بلادِ الكفارِ؛ لِمَا في ذلكَ من الفتنةِ، أو خوفٍ، وفيهِ إضاعةُ المالِ؛ لأنَّ الإنسانَ يُنفِقُ أموالًا كثيرةً في هذهِ الأسفارِ.

أمَّا إذا دَعَتِ الحاجةُ إلى ذلكَ لعلاجٍ أو تلقِّي علمٍ لا يُوجَدُ في بَلَدِه، وكان عندَهُ عِلْمٌ ودِينٌ، فهذا لا بأسَ بِه». «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ العثيمين (ص ١٣١ - ١٣٢).

مسألة أخرى: حكم السفر لبلاد الكفار للتجارة:

قال الشيخ السعدي»: «وأمَّا السَّفَرُ إلى هذهِ الأقطارِ للاتِّجارِ مع حفظِ العبدِ لدينِه، وقُدرتِه على إظهارِه فما المانعُ من ذلكَ، والمسلمونَ ما زالوا يُسافِرُونَ للتجارةِ لبلادِ الكفرِ في وقتِ الصحابةِ رضي الله عنهم، وقد ذَكَر ذلكَ أهلُ العلمِ رحمهم الله تعالى، وذَكَروا ما يَدلُّ عليهِ». «الفتاوى السعدية» (ص ٨١).

[إكمالُ سيرةِ النبيِّ ﷺ]

قال المؤلِّف:

فلمَّا استَقَرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيةِ شرائعِ الإسلامِ؛ مثلُ: الزكاةِ، والصومِ، والحَجِّ، والجهادِ، والأذانِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنكرِ، وغيرِ ذلكَ من شرائعِ الإسلامِ.

أَخَذ على هذا عشرَ سنينَ، وبعدَها تُوفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ.

الشرح

قوله: (فلمَّا استَقَرَّ بالمدينةِ أُمِرَ ببقيةِ شرائعِ الإسلامِ) هذا من أعظمِ الأدلةِ على بيانِ عِظَم شأنِ التوحيدِ في هذا الدِّينِ، وأنَّ غيرَه من أمورِ الإسلامِ الظاهرةِ تكونُ بعدَه، فالدعوةُ إنَّما تكونُ إلى توحيدِ اللهِ؛ لأنَّ القلبَ إذا وحَّد اللهَ تعالى تَرَكَ الشركَ، وكلَّ ما يُغضِبُ اللهَ تعالى ولا يَرضاهُ، وهذا من حقوقِ التوحيدِ.

قوله: (أَخَذ على هذا عشرَ سنينَ) أي: أَخَذ على تبليغِ الشريعةِ وبيانِهَا بعدَ هجرتِه إلى المدينةِ عشرَ سنينَ.

قوله: (وبعدَها تُوفِّيَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ) قال ابن كثير: «لا خلاف أنَّه ﷺ تُوفِّيَ يومَ الاثنينِ، والمشهور أنَّه في الثاني عشرَ من ربيعٍ الأولِ».

[الدِّينُ الذي دَعَا إليهِ النبيُّ ﷺ]

قال المؤلِّف:

ودِينُه باقٍ، وهذا دِينُه، لا خَيرَ إلَّا دلَّ الأُمَّةَ عليهِ، ولا شَرَّ إلَّا حذَّرَهَا منهُ.

والخيرُ الذي دلَّ عليهِ: التوحيدُ، وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويَرضاهُ، والشَّرُّ الذي حذَّر منهُ: الشركُ، وجميعُ ما يَكرَهُه اللهُ ويَأبَاهُ.

بَعَثهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّةً، وافتَرَض اللهُ طاعتَه على جميعِ الثَّقَلَينِ؛ الجِنِّ والإنسِ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأَكمَلَ اللهُ به الدِّينَ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة:].

الشرح

قوله: (ودِينُه باقٍ) لأنَّ اللهَ تعالى تكفَّل بحفظِه، قال تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [الحجر: ٩].

قوله: (وهذا دِينُه، لا خَيرَ إلَّا دلَّ الأُمَّةَ عليهِ، ولا شَرَّ إلَّا حذَّرَهَا منهُ) وهذا من تمامِ نُصحِه ﷺ ومحبَّته الخيرَ لأمتِه، وقد قال الله تعالى في وَصْفِ رسولِه محمدٍ ﷺ: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** [التوبة: ١٢٨]، وقال ﷺ: **«إنَّه لم يَكُن نبيٌّ قبلي إلَّا كان حقًّا عليهِ أنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ على خيرِ ما يَعلَمُه لهم، ويُنذِرَهُم شَرَّ ما يَعلَمُه لهم»**.

وقال ﷺ: **«لقد تَرَكتُكُم على مِثْلِ البيضاءِ، لَيْلُهَا ونهارُهَا سَوَاءٌ»**.

وقال ﷺ: «**قد تَرَكتُكُم على البيضاءِ، ليلُها كنهارِهَا، لا يَزِيغُ عنها بعدِي إلَّا هالِكٌ، ومَن يَعِشْ منكُم، فسيَرَى اختلافًا كثيرًا، فعليكُم بِمَا عَرَفتُم من سُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المَهدِيينَ**».

وعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: تَرَكنَا رسولُ اللهِ ﷺ وما طائرٌ يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ إلَّا عندَنا منهُ عِلْمٌ.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنَّه قال: قام فِينَا رسولُ اللهِ ﷺ مقامًا، فأَخبَرَنا بِمَا يكونُ في أُمَّتِه إلى يوم القيامةِ، وَعَاهُ مَن وَعَاهُ، ونَسِيَهُ مَن نَسِيَهُ.

قوله: (والخيرُ الذي دلَّ عليهِ: التوحيدُ، وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويَرضاهُ، والشَّرُّ الذي حذَّر منهُ: الشركُ، وجميعُ ما يَكرَهُه اللهُ ويَأبَاهُ) وفي هذا أَبلَغُ زاجرٍ لهؤلاءِ الدُّعاةِ الذينَ فرَّطُوا في دعوةِ النبيِّ ﷺ، فأَهمَلُوا الدعوةَ إلى التوحيدِ والتحذيرِ من الشركِ والمُحرَّماتِ.

ويتبيَّن لنا أيضًا مسيسُ الحاجةِ للعنايةِ بتعليمِ الناسِ التوحيدَ؛ لإخراجِهم من ظلماتِ الشركِ إلى نورِ التوحيدِ.

وتبيَّن لنا أيضًا مدى الجنايةِ التي يَرتكِبُها كثيرٌ من الدُّعاةِ الذينَ أَهمَلُوا الدعوةَ إلى التوحيدِ، وشَغَلُوا الناسَ بالقصصِ والحكاياتِ (من أمثال: حازم شُومان، وأيمن صَيْدَح، ومسعد أنور، وأحمد العزب، وسليمان الجِبيلَان)، فإنَّ هؤلاءِ الدعاةَ من أبعدِ الناسِ عن تعليمِ الناس حقيقةَ التوحيدِ وأحكامَ الحلالِ والحرامِ.

وتبيَّن لنا أيضًا جنايةُ شيوخِ الثوراتِ والربيعِ العربيِّ الذينَ أَفسَدُوا على الناسِ دينَهُم، وكانوا سببًا لكراهيةِ الناسِ لأصحابِ اللِّحَى؛ لِمَا رأوا من استخدامِهِم الدِّينَ للوصولِ إلى السلطةِ، ومنازعةِ حُكَّامِ المسلمينَ[1].

---

(١) ومن هؤلاء: عبد الرحمن عبد الخالق، ومحمد إسماعيل المُقدِّم، وياسر برهامي، وأحمد فريد، وأحمد حطيبة، وعبد المنعم الشحَّات، وشريف الهواري، وسيد حسين العفَّاني، وعادل نصر، وكُل مَن ينتمي لجماعة ياسر برهامي في داخل

وتبيَّن لنا أيضًا خطرُ وجودِ هذهِ الجماعاتِ الضالَّةِ: كجماعة الإخوان المسلمينَ، وجماعةِ التبليغِ، والتنظيماتِ القتاليةِ، فإنَّ هذهِ الجماعاتِ شَوَّهَتْ الدِّينَ، حيثُ كانت سببًا في جَهْلِ المسلمينَ بحقيقةِ التوحيدِ:

فالتوحيدُ عندَ جماعة الإخوان المسلمين والتنظيمات القتالية هو (توحيدُ الحاكميةِ)، الذي علَّمَهُم إيَّاهُ شيخُ الخوارجِ في هذا العصرِ (سيد قطب).

والتوحيدُ عندَ جماعةِ التبليغِ هو (توحيدُ الربوبيةِ)، فضَلُّوا وأَضَلُّوا.

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يُطهِّرَ بلادَ المسلمينِ من خُبثِ هذهِ الجماعاتِ[1].

وشَغَلُوا الناسَ بالوعظِ والتذكيرِ -كما هو حالُ جماعةِ التبليغِ-، ومنهم مَن شَغَل الناسَ بالسياسةِ، وتحريضِ الناسِ على حُكَّامِ المسلمينَ، وتأجيجِ

الأسكندرية وخارجها، ومحمد بديع، وخيرت الشاطر، ومحمد عبد المقصود، وسيد العربي، ونشأت أحمد، وصفوت حجازي، ومحمد البلتاجي، ورفاعي سرور، وحازم صلاح أبو إسماعيل، وفوزي السعيد، وسَفَر الحوالي، وسلمان العودة، ومحمد صالح المُنجِّد، وناصر العمر، ومحمد العوضي، ونبيل العوضي، وحسن الحسيني، ومحمد العريفي، وأبو إسحاق الحويني، ومصطفى العدوي، ومحمد حسان، ومحمد حسين يعقوب، ووحيد عبد السلام بالي، وأبو بكر الحنبلي، ومحمد الغَلِيظ، ومحمود المصري، وسمير مصطفى، والحدادي محمد شمس الدين المقيم بألمانيا.

(١) وقد سُئل فضيلة الشيخ صالح الفوزان: هل يجوزُ للعلماءِ أنْ يُبيِّنوا للشبابِ وللعامةِ خطرَ التَّحزُّبِ والتَّفرُّقِ والجماعاتِ؟

فأجاب: «نعم، يَجبُ بيانُ خطرِ التحزُّبِ وخطرِ الانقسامِ والتفرُّقِ؛ ليكونَ الناسُ على بصيرةٍ؛ لأنَّه حتَّى العوامُّ الآنَ انخدعوا ببعضِ الجماعاتِ، يَظنُّونَ أنَّها على الحقِّ، فلا بُدَّ أنْ نُبيِّنَ للناسِ المُتعلِّمِينَ والعوامِّ خطرَ الأحزابِ والفِرَقِ؛ لأنَّهم إذا سَكَتُوا قال الناسُ: العلماءُ كانوا عارِفِينَ عن هذا وساكِتِينَ عليهِ، فيَدخلُ الضَّلالُ من هذا البابِ، فلا بُدَّ من البيانِ عندما تَحدُثُ مثلُ هذهِ الأمورِ، والخطرُ على العوامِّ أكثرُ من الخطرِ على المُتعلِّمِينَ، لأنَّ العَوَامَّ مع سكوتِ العلماءِ يَظنُّونَ أنَّ هذا هو الصحيحُ، وهذا هو الحقُّ». «الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة» ص/ ٦٨.

الثوراتِ -كما هو الحالُ في جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ والقطبيةِ والسُّرُوريةِ-، ويَزدادُ الأمرُ سُوءًا عندما يَنتسِبُ هؤلاءُ الدعاةِ لمنهجِ السَّلَفِ، هنا يَزدادُ البلاءُ.

قوله: (بَعَثهُ اللهُ إلى الناسِ كافَّةً، وافتَرَض اللهُ طاعتَه على جميعِ الثَّقَلَينِ؛ الجِنِّ والإنسِ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾) هذهِ الآيةُ دليلٌ على عمومِ رسالةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الخطابَ فيها للناسِ وهو لفظٌ شاملٌ للعربِ والعَجَمِ، وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ من هذهِ الأمةِ، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يَموتُ ولم يُؤمِنْ بالذي أُرسِلْتُ بهِ، إلَّا كان من أصحابِ النارِ»، وهذا دليلٌ أيضًا على عمومِ رسالتِه ﷺ، وعلى وجوبِ الإيمانِ بِه.

قوله: (وأَكمَلَ اللهُ به الدِّينَ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾) فليس في هذا الدينِ -ولله الحمدُ- زيادةٌ لمستزيدٍ، فلا نقص يَستَدعِي الإكمالَ، ولا قصورَ يَستَدعِي الإضافةَ.

[الدليل على موت النبيّ ﷺ]

قال المؤلِّف:

والدليل على موتِه ﷺ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ - ٣١].

الشرح

أي: أنَّ موتَه ﷺ موتٌ حقيقيٌّ، وفي هذا ردٌّ على عبَّاد القبورِ الذينَ يَزعُمُونَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَمُتْ، قال الله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾** [الأنبياء: ٣٤]، وقال تعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٤]، وقال تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** [آل عمران: ١٨٥].

وحياتُه ﷺ في قبره حياةٌ برزخيةٌ، ولِرُوحِه اتِّصالٌ بالبَدَنِ، ولذا جاء في الحديثِ أنَّه ﷺ يَرُدُّ السلام على مَن يُسلِّمُ عليهِ.

[البعث والحساب والجزاء]

قال المؤلِّف:

والناسُ إذا ماتُوا يُبعَثُونَ، والدليل: قولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]**، وقولُه تعالى: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾** [نوح: ١٧ - ١٨].

وبعدَ البعثِ محاسبُونَ ومَجزِيُونَ بأعمالِهم، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

ومَن كذَّب بالبعثِ كَفَر، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

الشرح

في هذهِ الجملةِ يُبيِّنُ المؤلفُ وجوبَ الإيمانِ بالبعثِ، وأنَّ من جملةِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ.

ويَتعلَّقُ بالبعثِ عدَّة مسائل:

المسألة الأولى: معنى البعث لغة وشرعًا:

البعثُ لغة: الإثارةُ والتحريكُ.

وشرعًا: هو إحياءُ الأمواتِ وإخراجُهُم من قُبُورِهِم للجزاء والحسابِ، وذلكَ حينَ يَنفخُ إسرافيلُ في الصُّورِ نفخةَ البعثِ والنشورِ، فتُعادُ الأرواحُ إلى الأجساد، ويقومُ الناسُ لربِّ العالمينَ، قال تعالى: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾** [يس: ٥١]، وإذا أُطلِقَ النَّفخُ في الصُّور، فالمرادُ به: نفخةُ البعثِ.

المسألة الثانية: أسماء البعث:

للبعثِ أسماءُ أخرى، منها: النُّشُورُ، والمَعَادُ، والخروجُ.

١ - النُّشُور: يُرادِفُ البعثَ في المعنى، يقالُ: نَشَر الميِّتَ يَنشُرُ نُشُورًا إذا عاش بعدَ الموتِ، وأَنشَرَهُ اللهُ؛ أي: أَحيَاهُ، ومنهُ قولُهم: يومُ البَعثِ والنُّشُورِ.

وأمَّا معناه: فهو جَمْعُ أجزاءِ الإنسانِ بعدَ التفرقةِ، ثم إحياءُ الأبدانِ بعدَ موتِهَا:

قال تعالى: ﴿**وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ [فاطر: ٩].

وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ [الملك: ١٥].

وقال تعالى: ﴿**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢].

وفي «صحيح البخاري»، من حديث حذيفة رضي الله عنه أنَّه قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أَوَى إلى فراشِه، قال: «**باسْمِكَ أَموتُ وأَحيَا**»، وإذا قام قال: «**الحمدُ للهِ الذي أَحيانَا بعدمَا أماتَنا، وإليهِ النُّشُورُ**».

وعلى هذا؛ فالنُّشُورُ يُرادِفُ البعثَ في المعنى، ومنه قولُهُم: يومُ البَعثِ والنُّشُورِ.

٢ - المَعَاد: وهو المرَدُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ والإيابُ إليهِ، قال تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٩]، قال مجاهد: يُحيِيكُم بعدَ موتِكُم.

٣ - الخروجُ: قال تعالى: ﴿**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**﴾ [ق: ١٠ - ١١].

المسألة الثالثة: صفة البعث:

البعثُ هو إعادةٌ لِمَا زال وتحوَّل من بَدَنِ الإنسانِ، فإنَّ الجَسَدَ يَتَحوَّلُ إلى ترابٍ، والعظامُ تكونُ رَمِيمًا، فيَجمعُ اللهُ تعالى هذا المُتفرِّقَ حتَّى يَتكوَّنَ الجَسَدُ، وتُعادُ إليهِ الأرواحُ، وأمَّا مَن زَعَم بأنَّ الأجسادَ تُخلقُ من جديدٍ؛ فإنَّ هذا زَعْمٌ

باطلٌ، يَردُّه الكتابُ، والسُّنةُ، والعقلُ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

قال البيهقي: «الإيمانُ بالبعثِ هو: أنْ يُؤمِنَ بأنَّ اللهَ تعالى يُعِيدُ الرُّفَاتَ من أبدانِ الأمواتِ، ويَجمَعُ ما تفرَّق منها في البحارِ وبُطُونِ السِّباعِ وغيرِهَا، حتَّى تَصِيرَ بهيئتِهَا الأولى، ثم يَجمعُهَا حيَّةً، فيَقومُ الناسُ كلُّهُم بأمرِ اللهِ تعالى أحياءً، صغيرُهُم وكبيرُهُم، حتَّى السِّقْطُ الذي قد تَمَّ خَلْقُهُ، ونَفَخ فيهِ الرُّوحَ، فأمَّا الذي لم يَتِمَّ خَلْقُهُ أو لم يُنفَخْ فيهِ الروحُ أصلًا، فهو وسائرُ الأمواتِ بمنزلةٍ واحدةٍ».

وقال القرطبي: «وعندَ أهلِ السنةِ أنَّ تلكَ الأجسادَ الدنيويةَ تُعادُ بأعيانِهَا وأعراضِهَا، بلا خلافٍ بينَهُم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه الأجسادُ هي التي تُبعثُ، كما نَطَق بِه الكتابُ والسُّنةُ».

فإن قيل: إنَّ بعضَ الناسِ ربَّما تأكُلُهُم السِّباعُ، ويَتَحوَّلُ إلى غذاءٍ لهذا السَّبُعِ؟ فيقال: إنَّ الأمرَ هيِّنٌ على اللهِ تعالى، يقول للشيءِ: كُنْ، فيَكونُ.

المسألة الرابعة: البعثُ عامٌّ يَشملُ الجِنَّ، والإنسَ، والشَّجَرَ، والحَجَرَ، والحيوانَ، وما شاءَ اللهُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

وقال ﷺ في المؤذِّن: «**لا يَسمعُ صوتَه شَجَرٌ، ولا مَدَرٌ، ولا حَجَرٌ، ولا جِنٌّ، ولا إنسٌ، إلَّا شَهِدَ لهُ**».

وقال ﷺ: «**لَتُؤَدُّنَ الحقوقَ إلى أهلِهَا يومَ القيامةِ، حتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ من الشَّاةِ القَرْنَاءِ**»، وقال أيضًا: «**يُقتَصُّ للخَلْقِ بعضِهِم من بعضٍ حتَّى للجَمَّاءِ من القَرْنَاءِ**»، وفي رواية: «**لَيَختَصِمَ يومَ القيامةِ حتَّى الشَّاتانِ فيمَا انتَطَحَتَا**»، وفي التنزيل: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

ولا يَلزمُ من عمومِ البعثِ لسائرِ المخلوقاتِ دخولُهُمُ الجنةَ أو النارَ، لأنَّ دخولَهُما مِن خواصِّ مَن شأنُه التكليفُ، وإنَّما بعدَ القِصَاصِ يَصيرُ الحيوانُ ترابًا:

فعن أبي هريرة في قوله عزَّ وجَلَّ: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، قال: يُحشَرُ الخَلْقُ كلُّهُم يومَ القيامةِ: البهائمُ، والدَّوابُّ، والطَّيرُ، وكُلُّ شيءٍ، فيَبلُغُ مِن عَدْلِ اللهِ أنْ يَأخُذَ للجَمَّاءِ من القَرْناءِ، ثم يقول: كُونِي ترابًا، لذلكَ يقولُ الكافرُ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إذا كان يومُ القيامةِ مُدَّتِ الأرضُ مَدَّ الأَدِيمِ، وحَشَرَ اللهُ الخلائقَ الإنسَ والجنَّ والدَّوابَّ والوُحُوشَ، فإذا كان ذلكَ اليومُ جَعَل اللهُ القِصَاصَ بينَ الدَّوابِّ، حتَّى تُقَصَّ الشَّاةُ الجَمَّاءُ من القَرْناءِ بنَطْحِهَا، فإذا فَرَغ اللهُ من القِصَاصِ بينَ الدَّوابِّ قال لها: كُونِي تُرابًا، فتكونُ تُرابًا، فيَراهَا الكافرُ، فيقولُ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

المسألة الخامسة: أدلة البعث:

استدلَّ المؤلِّفُ على وقوعِ البعثِ بقولِه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

ومن الأدلة أيضًا على وقوعِ البعثِ:

قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وقولُه تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الموْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٧ - ٥٠].

المسألة السادسة: الحكمة من البعث:

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فمِن حِكمتِه وعَدلِه سبحانَه أنَّه لا يُسوِّي بينَ المؤمنِ والكافرِ، فلا بُدَّ من وجودِ دارٍ أخرى، يُثابُ فيها المُطِيعُ، ويُعاقَبُ فيها الفاجر.

المسألة السابعة: حكم إنكار البعث:

الإيمانُ بالبعثِ ركنٌ من أركانِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ، فمَن أَنكَرهُ كَفَر، وقد أشار المؤلِّفُ إلى حُكم مَن أَنكَرَ البعثَ، فقال: **(ومَن كذَّب بالبعثِ كَفَر، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾)**.

ومن الأدلة أيضًا على كُفرِ مَن أَنكَر البعثَ:

١ – قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۝ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٧ - ٩٨]، وغيرُ ذلكَ من الآياتِ.

قال ابن القيم: «ومَن تأمَّل أدلةَ المَعَادِ في القرآنِ وَجدهَا كذلكَ مُغنِيةً –بحمدِ اللهِ ومِنَّتِه على عبادِه– عن غيرِهَا، كافيةً شافيةً مُوصِلةً إلى المطلوبِ بسرعةٍ، متضمِّنةً للجوابِ عن الشُّبَهِ العارضةِ لكثيرٍ من الناسِ».

٢ – ما أخرجه البخاري، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**قال اللهُ: كذَّبَنِي ابنُ آدمَ ولم يَكُن لهُ ذلكَ، وشَتَمَنِي ولم يَكُن لهُ ذلكَ، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقوله: لَن يُعِيدَنِي، كمَا بَدَأَنِي، وليسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بأهونَ عليَّ من إعادتِه**».

قال ابن حزم: «اتَّفق جميعُ أهلِ القِبلةِ –على تَنَابُذِ فِرَقِهِم– على القولِ بالبعثِ، وعلى تكفيرِ مَن أَنكَر ذلكَ».

وقال ابن عبد البر: «أَجمَعَ المسلمون على أنَّ مَن أَنكَر البعثَ، فلا إيمانَ لهُ ولا شهادةَ».

وقال الشوكاني: «والحاصلُ أنَّ هذا أمرٌ اتَّفَقَتْ عليهِ الشرائعُ، ونَطَقَتْ بِه كُتُبُ اللهِ عزَّ وجَلَّ، سابِقُها، ولاحِقُها، وتَطَابَقَتْ عليهِ الرُّسُلُ: أَوَّلُهُم وآخِرُهُم، ولم يُخالِفْ فيهِ أحدٌ منهم، وهكذا اتَّفَق على ذلكَ أتباعُ جميعِ الأنبياءِ من أهلِ المِلَلِ، ولم يُسمَعْ عن أحدٍ منهم أنَّه أَنكَر ذلكَ قطُّ».

المسألة الثامنة: المنكرون للبعث:

من المُنكِرينَ للبعثِ: الدَّهرية من مشركي العربِ:

وهؤلاء أقرُّوا بالخالقِ، لكنَّهم أَنكرُوا المعادَ الجُسمانيَّ، وهم الذينَ عَنَاهُمُ اللهُ تعالى بقولِه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].

وهم المذكورون في حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدِّم: «**قال اللهُ: كذَّبَنِي ابنُ آدمَ ولم يَكُن لهُ ذلكَ، وشَتَمَنِي ولم يَكُن لهُ ذلكَ، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقوله: لَن يُعِيدَنِي، كمَا بَدَأَنِي، وليسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بأهونَ عليَّ من إعادتِه**».

ومن أشعارهم في ذلك:

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ نَشْرٌ ❊❊❊ حَدِيْثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرِو

ولبعضِهِم مَرثِيةٌ في أهلِ بدرٍ من المشركينَ[1]**:**

يُخبِّرُنا الرسولُ بأنْ سَنَحْيَا ❊❊❊ وكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ وهَامِ

لكن لم تَكُن هذهِ عقيدةُ جميعِ مشركي العربِ، فإنَّ منهم مَن أَقَرَّ بالبعثِ والجزاءِ، فمِن ذلكَ:

قولُ زُهير بن أبي سُلْمى:

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كتابٍ فيُدَّخَرْ ❊❊❊ ليومِ الحسابِ أو يُعَجَّلْ فيُنْقَمِ

وقول حاتم الطائي:

أَمَا وَالَّذِي لا يَعْلَمُ السِّرَّ غَيْرُهُ ❊❊❊ ويُحْيِي العِظَامَ البِيْضَ وَهِيَ رَمِيمُ

وقول قُس بن ساعدة الإيادي:

يا بَاكِيَ المَوْتَ والأَمْوَاتُ في جَدَثٍ ❊❊❊ عَلَيهِمْ من بَقَايَا بَزِّهِمْ خِرَقُ
دَعْهُمْ فإنَّ لهُم يَوْمًا يُصاحُ بِهِم ❊❊❊ كَمَا يُنَبَّهُ مِن نَوْمَاتِهِ الصَّعِقُ
حتَّى يَجِيؤُوا بحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمُ ❊❊❊ خَلْقٌ مَضَى ثم هَذَا بعدَ ذَا خُلِقُوا

(١) «المِلَل والنِّحَل» (ص ٢٣٦).

منهُم عُرَاةٌ ومنهُمْ في ثيابِهِمُ *** مِنْهَا الجَدِيدُ ومِنْهَا الأَزْرَقُ الخَلِقُ

ومنهم عبدُ المطلبِ بنُ هاشمِ جَدُّ النبيِّ ﷺ: فقد رُوي عنه أنَّه كان إذا رأى ظالمًا لم تُصِبْهُ عقوبةٌ، قال: تاللهِ إنَّ وراءَ هذهِ الدارِ لدارًا يُجزَى فيها المُحسِنُ والمُسِيءُ.

قال المؤلِّف:

وبعدَ البعثِ محاسبُونَ، ومَجزِيُونَ بأعمالِهم، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

الشرح

في هذهِ الجملةِ يُبيِّنُ المؤلِّفُ أمرًا آخرَ يَتعلَّق بالإيمانِ باليومِ الآخرِ، وهو الإيمانُ بالحسابِ والجزاءِ.

ويَتعلَّق بالحسابِ عدَّة مسائل:

المسألة الأولى: معنى الحساب لغة وشرعًا:

الحساب لغة: هو العَدُّ والإحصاءُ، يقال: حَسَبتُ الشيءَ أَحسُبُه حَسْبًا وحُسبَانًا.

وشرعًا: هو توقيفُ اللهِ عبادَه قبلَ الانصرافِ من المَحشَرِ على أعمالِهم خيرًا كانت أو شرًّا، إلَّا مَن استَثنَى منهم.

المسألة الثانية: الأدلة على وقوع الحساب يوم القيامة.

استَدلَّ المؤلِّفُ لوقوعِ الحسابِ يومَ القيامةِ بقولِه تعالى: **﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾**.

ومن الأدلة أيضًا:

١ - قولُه تعالى: **﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْالَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وقولُه تعالى: **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾** [الانشقاق: ٧ - ٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقولُه تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ۝ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١- ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

وقولُه تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى المجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٠].

ومن السُّنة:

١ – ما أخرجه مسلم، من حديث عائشةَ رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن حُوسِبَ يومِ القيامةِ عُذِّبَ**»، فقلتُ: أليسَ قد قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «**ليس ذاكَ الحسابُ، إنَّما ذاكَ العَرْضُ، مَن نُوقِشَ الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ**».

٢ – ما في «الصحيحين»، من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ اللهَ يقولُ لأَهوَنِ أهلِ النَّارِ عذابًا: لو أنَّ لكَ ما في الأرضِ من شيءٍ كنتَ تَفتَدِي بِه؟ قال: نَعَم، قال: فقد سألتُكَ ما هو أَهوَنُ من هذا وأنتَ في صُلْبِ آدمَ، ألَّا تُشرِكَ بِي، فأَبَيتَ إلَّا الشِّركَ**».

٣ – ما أخرجه البخاري، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**مَن كانت لهُ مَظلَمَةٌ لأخيهِ من عِرْضِه أو شيءٍ، فليَتَحَلَّلْهُ منهُ اليومَ قبلَ ألَّا يَكونَ**

دِينارٌ ولا دِرهَمٌ، إنْ كان لهُ عملٌ صالحٌ أُخِذَ منهُ بقدرِ مَظلَمَتِه، وإنْ لم تكُن لهُ حَسَناتٌ، أُخِذَ من سَيِّئاتِ صاحبِه، فحُمِلَ عليهِ».

٤ – ما في الصحيحين»، من طريق صفوان بن مُحْرِزٍ المَازِني قال: قال رَجُلٌ لابنِ عمرَ: كيف سَمِعتَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ في النَّجْوى؟ قال: سَمِعتُه يقولُ: **«يُدْنَى المؤمنُ يومَ القيامةِ من ربِّهِ عزَّ وجَلَّ حتَّى يَضَعَ عليهِ كَنَفَهُ، فيُقرِّرُهُ بذُنُوبِه، فيقولُ: هل تَعرِفُ؟ فيقولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قال: فإنِّي قد سَتَرتُهَا عليكَ في الدُّنْيَا، وإنِّي أَغفِرُهَا لكَ اليومَ، فيُعطَى صحيفةَ حَسَناتِه، وأمَّا الكفارُ والمنافقونَ، فيُنادَى بِهِم على رؤوسِ الخلائقِ: هؤلاءِ الذينَ كَذَبُوا على اللهِ»** الحديث.

وأَجمَعَ عليهِ أهلُ السُّنَّةِ: قال السِّجزي: «وقد اتَّفقتِ العلماءُ على أنَّ اللهَ سبحانَه يَتولَّى الحسابَ بينَ خَلْقِه يومَ القيامةِ».

وقال ابن أبي زَمَنِين: «ومن قولِ أهلِ السُّنةِ: أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُحاسِبُ عبادَه يومَ القيامةِ».

وقال أبو عثمان الصابوني: «ويُؤمنونَ بالحَوضِ والكَوثرِ، وإدخالِ فريقٍ من المُوحِّدينَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ، ومحاسبةِ فريقٍ منهم حسابًا يسيرًا».

المسألة الثالثة: مقدار يوم الحساب:

يُحاسِبُ اللهُ تعالى خَلْقَه في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سَنَةٍ[1]، لو كان غيرُ اللهِ تعالى هو الحاكمَ بينَ خَلْقِه، لكنَّه جَلَّ جلالُه يَلِي الحكمَ بينهُم بعَدْلِه بمقدارِ القائلةِ في الدُّنيا، وهو أسرعُ الحاسِبينَ[1].

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في قولِه تعالى: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج: ٤] قال: يوم القيامة. قال ابن كثير في «تفسيره»: «وإسناده صحيح».

قال القرطبي: «وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء الله».

وممَّا يؤكِّدُ أنَّ يومَ الحسابِ مقدارُه خمسينَ ألفَ سَنَةٍ: ما أخرجه مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما من صاحبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ، لا يُؤدِّي منها حقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القيامةِ، صُفِّحَتْ لهُ صفائِحُ من نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جهنَّم، فيُكوى بِهَا جَنْبُه وجَبِينُه وظَهرُه، كلَّما بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لهُ، في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سَنَةٍ، حتَّى يُقضَى بينَ العبادِ، فيَرى سبيلَهُ، إمَّا إلى الجنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ ...**». الحديث.

وهذا المقدارُ بالنسبةِ للكافرِ، فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال في قولِه تعالى: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج: ٤]: فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

ويَدخلُ فيهم أيضًا مَن شاءَ اللهُ سبحانَه، كما في حديثِ أبي هريرةَ رضي الله في محاسبةِ مانعِ الزكاةِ.

ويُخفَّفُ هذا اليومُ على المؤمنينَ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**يقومُ الناسُ لربِّ العالمينَ مقدارَ نصفِ يومٍ من خمسينَ ألفَ سَنَةٍ، يُهوَّنُ ذلكَ على المؤمنينَ كتَدَلِّي الشمسِ للغروبِ إلى أنْ تَغرُبَ**».

---

(١) **قال الإمام أحمد:** لو وَلِيَ حسابَ الخلائقِ غيرُ اللهِ ما فَرَغ منهُ في يومٍ مقدارُه خمسونَ أَلْفَ سَنَةٍ، ويَفرغُ اللهُ منهُ مقدارَ نصفِ يومٍ من أيامِ الدُّنيا إذا أَخَذ في حسابِ الخلائقِ، فذلكَ قولُه: ﴿**وكفى بنا حاسبين**﴾ [الأنبياء: ٤٧]».

وقال المزني: «في يومٍ كان مقدارُه خمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ لو كان غيرُ اللهِ عزَّ وجَلَّ الحاكمَ بينِ خَلْقِه، لكنَّ اللهَ يَلِي الحُكمَ بينَهُم بعَدلِه بمقدارِ القائلةِ في الدُّنيا، وهو أسرعُ الحاسِبينَ».

وقال القرطبي: «فقيل: معناه: لو حاسَب فيها غيرُ اللهِ تعالى، وإنَّما هو سبحانَه وتعالى يَفرُغُ منهُ في مقدارِ نصفِ نهارٍ من أيامِ الدُّنيا».

وعن ابن عباس رضى اللهُ عنهما في تفسير قول الله تعالى: ﴿**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا**﴾ [الفرقان: ٢٤]، قال: إنَّما هي ضَحْوَةٌ، فيَقِيلُ أولياءُ اللهِ على الأَسِرَّةِ مع الحُورِ العِينِ، ويَقِيلُ أعداءُ اللهِ مع الشياطينَ مُقرَّنِينَ.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: لا يَنتصِفُ النهارُ حتَّى يَقِيلَ هؤلاءِ وهؤلاءِ.

وعن سعيد بن جُبير أنَّه قال: يَفرُغُ اللهُ من الحسابِ نصفَ النهارِ، فيَقِيلُ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأهلُ النَّارِ في النَّارِ.

وقد جاء في بعضِ الأحاديثِ النصُّ على خِفَّةِ حسابِ المؤمنِ، كقولِه ﷺ: «**يومُ القيامةِ على المؤمنينَ كقَدْرِ ما بينَ الظهرِ والعصرِ**».

ولمَّا قيل لعليِّ بنِ أبي طالبٍ: كيف يُحاسِبُ اللهُ العِبَادَ في يومٍ؟ فقال: «كمَا يَرزُقُهُم في يومٍ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واللهُ سبحانَه يُحاسِبُ الخَلْقَ في ساعةٍ واحدةٍ لا يَشغلُه حسابُ هذا عن حسابِ هذا».

المسألة الرابعة: أنواع الحساب:

يَنقسِمُ الحسابُ إلى قسمَين:

القسم الأول: الحسابُ اليسيرُ:

وهو العَرْضُ والتقريرُ، فيَعرِضُ الرَّبُ تبارَك وتعالى على العبدِ ذنوبَه، فيُقرَّرُ بِهَا، ثم يَعفُو عنها؛ لِئلَّا يُفضَحَ بينَ الخلائقِ، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ [الانشقاق: ٧ - ٨].

وهو الحسابُ اليسيرُ، كما فسَّرهُ النبيُّ ﷺ: فعن عائشةَ رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَن حُوسِبَ يومِ القيامةِ عُذِّبَ**»، فقلتُ: أليسَ قد قال اللهُ عزَّ

وجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «**ليس ذاكَ الحسابُ، إنَّما ذاكَ العَرْضُ، مَن نُوقِشَ الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ**»(١).

وعنها رضي الله عنها أنَّها قالت: قلتُ: يا نَبِيَّ اللهِ، ما الحسابُ اليسير؟ فقال: «**الرَّجُلُ تُعرَضُ عليهِ ذُنُوبُه، ثُمَّ يُتَجَاوَزُ لهُ عنها، إنَّهُ مَن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّبَ**».

وأمَّا عن صفة العَرْض: ففي الصحيحين»، من طريق صفوان بن مُحْرِزٍ المَازِني قال: قال رَجُلٌ لابنِ عمرَ: كيف سَمِعتَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ في النَّجْوى؟ قال: سَمِعتُه يقولُ: «**يُدْنَى المؤمنُ يومَ القيامةِ من ربِّهِ عزَّ وجَلَّ حتَّى يَضَعَ عليهِ كَنَفَهُ، فيُقَرِّرُهُ بذُنُوبِه، فيقولُ: هل تَعرِفُ؟ فيقولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قال: فإنِّي قد سَتَرتُهَا عليكَ في الدُّنْيَا، وإنِّي أَغفِرُهَا لكَ اليومَ، فيُعطَى صحيفةَ حَسَناتِه، وأمَّا الكافرُ والمنافقونَ، فيقولُ الأشهادُ: ﴿هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** [هود: ١٨]» الحديث.

قال الإمام ابن القيم في «الكافية الشافية»:

٥٥٤١ - وَيُحَاضِرُ الرَّحْمنُ وَاحِدَهُم مُحَا * ضَرَةَ الحَبِيبِ يَقُولُ يَا ابْنَ فُلانِ

٥٥٤٢ - هَلْ تَذْكُرُ اليَوْمَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ فِيـ * ـهِ مُبَارِزًا بِالذَّنْبِ والعِصْيَانِ

٥٥٤٣ - فَيَقُولُ رَبِّ أَمَا مَنَنْتَ بِغَفْرِهِ * قِدْمًا فإنَّكَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ

٥٥٤٤ - فَيُجِيبُهُ الرَّحْمنُ مَغْفِرَتِي الَّتِي * قَدْ أَوْصَلَتْكَ إِلَى المَحَلِّ الدَّانِي

القسم الثاني: الحسابُ العَسِيرُ:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

قال النووي: «قال القاضي: له معنيان: أحدُهُما: أنَّ نَفْسَ المناقشةِ وعرضَ الذنوبِ والتوقيفِ عليها هو التعذيبُ؛ لِمَا فيهِ من التوبيخِ. والثاني: أنَّه مُفْضٍ إلى العذابِ بالنارِ، ويُؤيِّدُه: الروايةُ الأخرى: «هَلَك»، مكان: «عُذِّبَ». هذا كلام القاضي. وهذا الثاني هو الصحيحُ، ومعناهُ: أنَّ التقصيرَ غالبٌ في العِبَادِ، فمَن استُقصِيَ عليهِ، ولم يُسامَحْ، هَلَك، ودَخَل النارَ، ولكنَّ اللهَ تعالى يَعفُو ويَغفِرُ ما دونَ الشركِ لمَن يَشاءُ».

وهو مناقشة العبدِ، واستقصاءُ أعمالِه، وإيقافُه عليها، وبعدَها يكونُ العذابُ، أو يكونُ نفسُ الحسابِ عذابًا وهلاكًا؛ لِمَا فيهِ من التقريعِ والتوبيخِ.

وأمَّا الكَفَرةُ، فقال اللهُ تعالى عنهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٥ - ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، فالحسابُ العسيرُ يكونُ للمؤمنِ والكافرِ، كُلٌّ بحَسَبِه.

المسألة الخامسة: مَن الذي يَتَولَّى حسابَ الخَلْقِ؟

دلَّتِ النصوصُ على أنَّ اللهَ تعالى هو الذي يَتَولَّى ذلكَ:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١ - ١١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وفي «الصحيحين» من حديث عَديِّ بن حاتم رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**ما منكُم من أَحَدٍ إلَّا سَيُكلِّمُه رَبُّه، ليس بَينَه وَبَينَه حاجِبٌ ولا تُرجُمَانٌ**».

المسألة السادسة: المُستَثنُونَ من الحسابِ:

دلَّتِ الأدلةُ على أنَّ مَن الخلائقِ مِن لا يُحاسَبُ، وأنَّهم مُستَثنُونَ من عمومِ قولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وهم:

١ - الأنبياء والرُّسُل:

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أنَّ الرُّسُلَ تُسْأَلُ، لكنْ هذا السؤالُ ليس المرادُ بِه سؤالَ المناقشةِ، وإنَّما المرادُ بِه

سؤالُ الإبلاغِ للرسالةِ، **قال الحافظ ابن كثير:** «وقولُه تعالى: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾، كقولِه: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: ٦٥]، وقولِه: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة: ١٠٩]، فيَسألُ اللهُ الأممَ يومَ القيامةِ عمَّا أجابُوا رُسُلَه فيمَا أَرسَلَهُم بِه، ويَسْألُ الرُّسُلَ أيضًا عن إبلاغِ رسالاتِه؛ ولهذا قال عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباسٍ في تفسيرِ هذهِ الآيةِ: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾ قال: يَسألُ اللهُ الناسَ عمَّا أجابُوا المُرسَلِينَ، ويَسألُ المُرسَلِينَ عمَّا بَلَّغُوا».

وقال السفَّاريني: «لا حسابَ على الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ على سبيلِ المناقشةِ والتقريعِ».

وقال الشنقيطي: «وسؤالُ اللهِ للرُّسُلِ ﴿**مَاذَا أُجِبْتُمْ**﴾؛ لتوبيخِ الذينَ كذَّبُوهُم، كسؤالِ المَوؤُودةِ: ﴿**بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾؛ لتوبيخِ قاتِلِهَا».

٢ – السَّبعونَ أَلْفًا من أمةِ محمدٍ ﷺ:

ففي «الصحيحين»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ، فرأيتُ النبيَّ ﷺ ومعهُ الرُّهَيطُ، والنبيُّ ومعهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ، والنبيَّ ليس معهُ أَحَدٌ، إذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عظيمٌ، فظَنَنْتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومُه، ولكنْ انْظُر إلى الأُفُقِ، فنَظَرتُ، فإذا سَوَادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انْظُر إلى الأُفُقِ الآخرِ، فإذا سَوَادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذهِ أُمَّتُكَ، ومعهُم سبعونَ أَلفًا، يَدخُلُونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ ... هم الذين لا يَسترقُون، ولا يَتَطيَّرُونَ، ولا يَكتَوُونَ، وعلى ربِّهِم يَتَوكَّلونَ**»، فقام عُكَّاشةُ بنُ مِحصَن، فقال: ادْعُ اللهَ أنْ يَجعَلَنِي منهُم، قال: «**اللهمَّ اجْعَلْهُ منهُم**». الحديث.

وجاء في بعض الروايات: «**مع كُلِّ أَلْفٍ سبعون أَلْفًا**».

المسألة السابعة: متى يكون الحساب؟

دلَّ قولُه تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا**﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩] على أنَّ الحسابَ يكونُ بعدَ إيتاءِ الكُتُبِ،

قال القرطبي: «فإذا وَقَف الناسُ على أعمالِهِم من الصُّحُفِ التي يُؤتُونَها بعدَ البعثِ حُوسِبُوا بِهَا».

المسألة الثامنة: موقف الناس عند الحساب:

أمَّا موقفُ الكفارِ؛ فقد دلَّتِ الأدلةُ على أنَّ موقفَهُم يكونُ مغايرًا لموقفِ المؤمنينَ، قال تعالى: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يس: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ**﴾ [يُونُسَ: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**﴾ [الروم: ١٤].

لكنْ لم يَرِدْ نصٌّ في بيانِ صفةِ هذا التَّغايُرِ.

وأمَّا موقفُ المؤمنينَ؛ فقد ذَكَر الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «البداية والنهاية» أنَّ المؤمنينَ منهم مَن يكونُ عن يمينِ العرشِ، ومنهم مَن يكونُ بينَ يَدَيهِ تعالى، وأنَّ الكفار يكونونَ ناحيةَ الشمالِ.

لكنْ هذا التفصيلُ الذي ذَكَره ابنُ كثيرٍ لم نَقِفْ لهُ على دليلٍ، فاللهُ أعلمُ بكيفيةِ ذلكَ.

المسألة التاسعة: أوَّلُ مَن يُحاسَبُ من الأُمَمِ:

أوَّلُ مَن يُحاسَبُ من الأُمَم أمةُ محمدٍ ﷺ، قال الحافظ ابن كثير: «ويكونُ أوَّلُ الأُمَمِ يُقضَى بينَهُم هذهِ الأُمَّةُ؛ لشَرَفِ نَبيِّهَا ﷺ وفضلِهَا، كما أنَّهم أوَّلُ مَن يَجوزُ على الصِّراطِ، وأوَّلُ مَن يَدخُلُ الجنَّةَ، كما ثَبَت في "الصحيحين" من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: (**نحنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يومَ القيامةِ**) ، وفي رواية: (**المَقضِيُّ لهُم قبلَ الخلائقِ**)».

وفي «سنن ابن ماجه»، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**نَحنُ آخرُ الأُمَمِ، وأوَّلُ مَن يُحاسَبُ، يُقالُ: أينَ الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ ونَبِيُّهَا؟ فنحنُ الآخرونَ الأوَّلُونَ**».

المسألة العاشرة: أوَّلُ ما يُسأل عنه العبدُ يومَ القيامةِ:

أخرج الترمذي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ أوَّلَ ما يُحاسبُ بِه العبدُ يومَ القيامةِ من عَمَلِه صلاتُه، فإنْ صَلَحَتْ، فقد أَفلَحَ وأَنجَحَ، وإنْ فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِرَ، فإنِ انتَقَص من فريضتِه شيءٌ، قال الرَّبُّ عزَّ وجَلَّ: انْظُرُوا هل لعَبدِي من تَطَوُّعٍ فيُكمَّلَ بِهَا ما انْتَقَص من الفريضةِ، ثُمَّ يكونُ سائرُ عَمَلِه على ذلكَ**».

وفي «الصحيحين»، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أوَّلُ ما يُقضَى بينَ النَّاسِ يومَ القيامةِ في الدِّماءِ**».

ووجهُ الجمعِ أنْ يُقالَ: إنَّ هذهِ الأوَّليةَ أوليةٌ مخصوصةٌ بموضوعِهَا: فأوَّلُ ما يُسْأَلُ عنهُ من حقوقِ العِبَادِ: الدماءُ، وأوَّلُ ما يُسْأَلُ عنه من عباداتِهم: الصلاةُ، وقد وَرَد ما يدلُّ على هذا، وهو ما أخرجه النسائيُّ، من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه مرفوعًا: «**أوَّلُ ما يُحاسَبُ العبدُ عليهِ صلاتُه، وأوَّلُ ما يُقضَى بينَ الناسِ في الدِّماءِ**.

وأمَّا أيُّهما يُقدَّمُ على الآخرِ؟ فليس في هذا توقيفٌ، وظاهرُ الأحاديثِ دالَّةٌ على أنَّ الذي يَقَعُ أولًا المحاسبةُ على حقوقِ اللهِ قبلَ حقوقِ العبادِ[1].

واختار الحافظ ابن كثير أنَّ أوَّلَ ما يُقضَى فيهِ مطلقًا هو الدماءُ، فقال: «ثم يَقضِي اللهُ تعالى بينَ العِبَادِ، فكان أوَّلَ ما يَقضِي فيهِ الدماءُ»[2].

المسألة الحادية عشرة: محاسبة الكفار:

قد دلَّتِ الأدلةُ على أنَّ الكفارَ يُحاسبُونَ:

قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾،

وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۝ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٣ - ١٠٥].

---

(١) «عون المعبود» ٣/ ٨٢.

(٢) «تفسير ابن كثير» ٣/ ٢٨٥، و«البداية والنهاية» ٢٠/ ١٧؛ ط دار هجر.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

وقال تعالى: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢- ١٣].

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

ففي هذهِ الآياتِ دلالةٌ على أنَّ الكفارَ يُحاسبُونَ، قال القرطبي: «ثَبَت أنَّ الكفارَ يُسألُونَ عمَّا خالفُوا فيهِ الحَقَّ من أصلِ الدِّينِ وفروعِه ... وفي القرآنِ ما يدلُّ على أنَّهم مُخاطبُونَ بِهَا، مسؤولُونَ عنها، مُحاسبُونَ بِهَا، مَجزيُونَ على الإخلالِ بِهَا؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦ - ٧]، فتَوعَّدَهُم على مَنْعِهِمُ الزكاةَ، وأخبَر عن المجرمينَ أنَّه يُقالُ لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، فبَانَ بهذا أنَّ المشركينَ مُخاطبُونَ بالإيمانِ، والبعثِ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وأنَّهم مسؤولُونَ عنها، مُحاسبُونَ بِهَا، مَجزِيُونَ على الإخلالِ بِهَا»(١).

إلَّا أنَّ هذا الحسابَ للكفارِ ليس حسابَ مَن تُوزَنُ حَسَناتُه وسيِّئاتُه، وإنَّما حسابُ تقريرٍ وتقريعٍ، فتُعَدُّ أعمالُهم، وتُحصَى عليهم، ثم يُوقَفُونَ عليهَا، ويُقرَّرُونَ بِهَا.

ومن الأدلةِ على أنَّ الكفارَ يُحاسبونَ محاسبةَ توبيخٍ وتقريعٍ:

(١) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» ٢/ ٧١٦؛ ط دار المنهاج.

١ – قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وقولُه تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢ – ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

٢ – وما أخرجه مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل: «فيَلقَى العبدَ، فيقولُ: أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بَلَى، قال: فيقولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فيقولُ: لا، فيقولُ: فإنِّي أَنسَاكَ كمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلقَى الثانيَ، فيقولُ: أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وتَرْبَعُ، فيقولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ، فيقولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فيقولُ: لا، فيقولُ: فإنِّي أَنسَاكَ كمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلقَى الثالثَ، فيقولُ لهُ مِثْلَ ذلكَ، فيقولُ: يا رَبِّ آمَنتُ بكَ، وبكتابِكَ، وبرُسُلِكَ، وصَلَّيْتُ، وصُمْتُ، وتَصَدَّقْتُ، ويُثْنِي بخيرٍ ما استطاعَ، فيقولُ: ههُنَا إذن. قال: ثُمَّ يُقالُ لهُ: الآنَ نَبعَثُ شَاهِدَنَا عليكَ، ويَتَفَكَّرُ في نَفْسِه: مَن ذَا الذي يَشهَدُ عليَّ؟ فيُختَمُ على فِيهِ، ويُقالُ لِفَخِذِه ولَحْمِه وعِظَامِه: انْطِقِي، فتَنْطِقُ فَخِذُه وَلَحْمُه وعِظَامُه بعَمَلِه، وذلكَ لِيُعذِرَ مِن نَفْسِه، وذلكَ المنافِقُ، وذلكَ الذي يَسخَطُ اللهُ عليهِ».

٣ - وروي عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]: عمَّا كانوا يَفتَرُونَ، ثم أُجازِيهِم بأعمالِهِم.

وقال عندَ قولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، قال: لا يُسْأَلُونَ سؤالَ استفهامٍ؛ لأنَّه عَلِمَ ما عَمِلُوا، ولكنْ يُسْأَلُونَ سؤالَ تقريعٍ؛ فيُقالُ لهم: لِمَ عَمِلتُم كذا وكذا؟.

فإن قيل: ما تقولونَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، فإنَّ ظاهرَ هذهِ الآيةِ أنَّه يُذهَبُ بِهِم إلى النارِ مباشرةً؟

فيقال: إنَّهم لا يُسأَلُونَ سؤالَ رحمةٍ، وإنَّما يُسأَلُونَ سؤالَ توبيخٍ وعذابٍ، فالمَنفِيُّ نوعٌ من السؤالِ، وليس أصلُ السؤالِ.

وقد أَوضَحَ هذا المعنى شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ، فقد سُئِلَ: هل الكفارُ يُحاسبُونَ أم لا؟ فقال: «فَصْلُ الخطابِ: أنَّ الحساب يُرادُ بِه عَرْضُ أعمالِهم عليهِم، وتوبيخُهُم عليها، ويُرادُ بالحسابِ موازنةُ الحسناتِ بالسيِّئاتِ.

فإنْ أُرِيدَ بالحسابِ المعنى الأولُ؛ فلا ريبَ أنَّهم يُحاسبُونَ بهذا الاعتبارِ.

وإنْ أُرِيدَ المعنى الثاني؛ فإنْ قُصِدَ بذلكَ أنَّ الكفارَ تَبقَى لهم حَسَناتٌ يَستحِقُّونَ بِهَا الجنةَ؛ فهذا خطأٌ ظاهرٌ.

وإنْ أُرِيدَ أنَّهم يَتَفاوتُونَ في العقابِ؛ فعقابُ مَن كَثُرَتْ سيِّئاتُه أعظمُ من عقابِ مَن قلَّتْ سيِّئاتُه، ومَن كان لهُ حَسَناتٌ خفِّفَ عنهُ العذابُ، كما أنَّ أبا طالبٍ أَخَفُّ عذابًا من أبي لَهَبٍ، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧]».

المسألة الثانية عشرة: الحكمةُ من محاسبةِ الكفارِ:

قد دلَّتِ الأدلةُ على أنَّ الكفارُ يَتَفاوتُونَ في الكفرِ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، و«النارُ دَرَكاتٌ، فإذا كان بعضُ الكفارِ عذابُه أشدُّ عذابًا من بعضٍ؛ لكثرةِ سيِّئاتِه، وقلَّةِ حَسَناتِه، كان الحسابُ لبيانِ مراتبِ العذابِ، لا لأجلِ دخولِهِمُ الجنةَ». «مجموع الفتاوى» ٤/ ٣٠٦.

وفي الحديث: «**منهُم مَن تأخُذُه النَّارُ إلى كَعبَيْهِ، ومنهُم مَن تأخُذُه إلى حُجْزَتِه، ومنهُم مَن تأخُذُه إلى عُنُقِه**». أخرجه مسلم (٢٨٤٥)، من حديث سَمُرة بن جُندُب رضي الله عنه.

المسألة الثالثة عشرة: ثمرة الإيمان بالحساب:

الإيمانُ بالحسابِ يَجعلُ المسلمَ يُبادِرُ إلى محاسبةِ نفسِه قبلَ يومِ الحسابِ، ويُعاتِبُهَا قبلَ ألَّا يَنفعَ العِتَابَ، فعن عمرَ رضى اللهُ عنه أنَّه قال: حاسِبُوا أنفسَكُم قبلَ أنْ تُحاسَبُوا، وَزِنُوا أنفسَكُم قبلَ أنْ تُوزَنُوا، فإنَّه أهونُ عليكُم في الحسابِ غدًا أنْ تُحاسِبُوا أنفسَكُم اليومَ، وتَزَيَّنُوا للعَرْضِ الأكبرِ.

وقال وهب بن مُنبِّه: «مكتوبٌ في حكمةِ آلِ داودَ عليه السلامُ: ينبغي للعاقلِ ألَّا يَغْفُلَ عن أربعِ ساعاتٍ: ساعةٍ يُحاسِبُ فيها نفسَه، وساعةٍ يُناجِي فيها ربَّه، وساعةٍ يَلقَى فيها إخوانَه الذينَ يُخبِرُونَه بعيوبِه، ويَصدُقُونَه عن نفسِه، وساعةٍ يُخلِّي بينَ نفسِه وبينَ لذاتِهَا فيمَا يَحِلُّ ويَجمُلُ، فإنَّ في هذهِ الساعةِ عونًا على تلكَ الساعاتِ، وفضلَ بُلغَةٍ، واستجمامًا للقلوبِ»، يعني: ترويحًا لها.

ومحاسبةُ العبدِ لنفسِه بأنْ يَتُوبَ عن كُلِّ معصيةٍ، وأنْ يُبادِرَ بأداءِ حقوقِ العبادِ قبلَ أنْ يَفجَأَهُ الموتُ.

المسألة الرابعة عشرة: الحكمة من الحساب:

الحكمةُ من الحسابِ ظاهرةٌ، وهي مجازاةُ العبادِ على أعمالِهِم، وهذا من تمامِ عدلِ اللهِ تعالى ورحمتِه أنَّه يُجازِي كلَّ عاملٍ على عَمَلِه، ومَن ظنَّ بربِّه أنَّه يَترُكُ خَلْقَه سُدًى وهَمَلًا، فلا يُجازِيهِم على أعمالِهِم؛ فقد ظنَّ باللهِ ظنَّ السَّوْءِ.

قال الإمام ابن القيم: «ومَن ظنَّ بِه أنْ يَترُكَ خَلْقَه سُدًى مُعطِّلِينَ عن الأمرِ والنَّهيِ، ولا يُرسِلَ إليهم رُسُلَهُ، ولا يُنزِّلَ عليهِم كُتُبَه، بل يَترُكُهُم هَمَلًا كالأنعامِ، فقد ظَنَّ بِه ظَنَّ السَّوْءِ، ومَن ظنَّ أنَّه لن يَجمعَ عَبِيدَهُ بعدَ موتِهِم للثوابِ والعقابِ

في دارٍ يُجازِي المُحسِنَ فيها بإحسانِه والمُسِيءَ بإساءتِه، ويُبيِّنَ لخَلْقِه حقيقةَ ما اختَلَفُوا فيهِ، ويُظهِرَ للعالَمِينَ كلِّهِم صِدْقَه وصِدْقَ رُسُلِه، وأنَّ أعداءَهُ كانوا هُمُ الكاذبينَ، فقد ظَنَّ بِه ظَنَّ السَّوْءِ». «زاد المعاد» ٣/ ٢٣٠.

[الرُّسُل]

قال المؤلِّف:

وأَرسَلَ اللهُ جميعَ الرُّسُلِ مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأوَّلُهُم: نوحٌ عليهِ السلامُ، وآخِرُهُم محمدٌ ﷺ.

والدليلُ على أنَّ أوَّلَهُم نوحٌ عليهِ السلامُ، وآخِرُهُم محمدٌ ﷺ، وهو خاتَمُ النبيِّينَ.

والدليلُ على أنَّ أوَّلَهُم نوحٌ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

الشرح

لمَّا تكلَّم المؤلِّفُ على ما يَختصُّ بالنبيِّ ﷺ، ناسَبَ أنْ يَتكلَّمَ على الرُّسُلِ عمومًا.

قوله: (وأَرسَلَ اللهُ جميعَ الرُّسُلِ مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾) في هذهِ الآيةِ الكريمةِ بيَّن سبحانَه الحكمةَ من بعثةِ الرُّسُلِ، وهي البِشارةُ والنِّذارةُ، البِشارةُ لأهلِ الإيمانِ، والنِّذارةُ لأهلِ الكفرِ والعصيانِ.

قال تعالى: **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾** [الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿الر ۞ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ - ٢].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥ - ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨ - ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٦].

قوله: (وأوَّلُهم: **نوحٌ عليهِ السلامُ**) واستَدلَّ المؤلِّفُ لذلكَ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

ومن الأدلةِ أيضًا: ما جاء في حديثِ الشفاعةِ الطويلِ: «**ولكنْ ائْتُوا نوحًا أول رسولٍ بَعَثَهُ اللهُ**».

وهذا من أقوى الأدلةِ على أنَّ نوحًا عليهِ السلامُ أولُ الرُّسُلِ.

قوله: (وآخِرُهُم **محمدٌ** ﷺ، **وهو خاتَمُ النبيّينَ**) المؤلِّفُ ساق الدليلَ على أوليةِ نوحٍ ﷺ، ولم يَسُقِ الدليلَ على أنَّ محمدًا ﷺ آخرُهُم؛ لوضوحِه،

قال اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياءِ من قَبلِي كمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنيانًا، فأَحسَنَهُ، وأَجمَلَهُ، إلَّا مَوضِعَ لَبِنَةٍ من زاويةٍ من زَوَاياهُ، فجَعَل النَّاسُ يَطوفُونَ بِه، ويَعجبُونَ لهُ، ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ، قال: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتَمُ النَّبِيِّينَ**».

وعن ثوبانَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لا تَقومُ الساعةُ حتَّى تَلحَقَ قبائلُ من أُمَّتي بالمشركينَ، وحتَّى يَعبُدُوا الأوثانَ، وإنَّهُ سيكونُ في أُمَّتِي ثلاثونَ كذَّابونَ، كلُّهُم يزعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ، وأنا خاتَمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعدِي**».

وقد ادَّعى النُّبُوةَ أناسٌ في أواخرِ عهدِ النُّبُوةِ، كما ادَّعاها مسيلمةُ الكذابُ، وبعد وفاتِه ﷺ ادَّعاها سَجَاح، والأسود العَنْسي، وطليحةُ بنُ خُوَيلِد الأَسَدي.

[الطاغوت]

قال المؤلِّف:

وافتَرَضَ اللهُ على جميعِ العبادِ الكفرَ بالطاغوتِ، والإيمانَ باللهِ.

قال ابن القيم رحمه الله: «الطاغوتُ: ما تَجَاوَزَ بِه العبدُ حَدَّهُ من معبودٍ، أو مَتبُوعٍ، أو مُطاعٍ».

وكُلُّ أُمَّةٍ بَعَث اللهُ إليهَا رسولًا، من نوحٍ إلى محمدٍ، يَأمُرُهُم بعبادةِ اللهِ وحدَه، ويَنهَاهُم عن عبادةِ الطاغوتِ.

والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والطواغيتُ كثيرةٌ، ورؤوسُهُم خمسةٌ:

إبليسُ لَعَنَهُ اللهُ.

ومَن عُبِدَ وهو راضٍ.

ومَن دَعَا الناسَ إلى عبادةِ نفسِه.

ومَن ادَّعى شيئًا من عِلْمِ الغيبِ.

ومن حَكَم بغيرِ ما أَنزَلَ اللهُ.

والدليل: قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا معنى لا إلهَ إلَّا اللهُ. وفي الحديثِ: «رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعَمُودُه الصلاةُ، وذِروَةُ سَنَامِه الجهادُ في سبيلِ اللهِ».

هذا والله أعلم، وصلَّى اللهُ على محمدٍ، وعلى آلِه، وصحبِه، وسَلِّمْ.

الشرح

الطَّاغُوت لغة: مشتَقٌّ من الطغيانِ، وهو مجاوزةُ الحَدِّ:

قال اللهُ تعالى: **﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الماءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾** [الحاقة:١١]؛ أي: تَجَاوَزَ حدَّهُ.

وقال تعالى: **﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾** [العلق: ٦ - ٧]؛ أي: يَتَجاوَزُ حدَّهُ، ويَستكبِرُ على ربِّهِ، إذا رأى نفسَهُ غنيًّا.

وشرعًا: اسمٌ يُطلق على كلِّ ما عُبِدَ من دون الله.

وتَسميتُهُ طاغوتًا: هو عندَ مَن رَضِيَ بذلكَ، أو عندَ عابِدِيهِ ومُطيعيهِ، **قال الطبري** في «تفسيره» [البقرة: ٢٥٦]: «والصوابُ من القولِ عندِي في الطاغوتِ: أنَّه كُلُّ ذي طُغيانٍ على اللهِ، فعُبِدَ من دونِهِ، **إمَّا بقَهْرٍ منهُ لِمَن عَبَدَهُ، وإمَّا بطاعةٍ ممَّن عَبَّدَهُ لهُ**».

ومعنى الكفرِ بالطاغوتِ: أنْ تَعتقِدَ بطلانَ عبادةِ غيرِ اللهِ، وأنْ تُبغِضَهَا، وأنْ تُكفِّر أهلَها، وأنْ تُعادِيَهُم.

قوله: (قال ابن القيم رحمه الله: الطاغوتُ: ما تَجَاوَزَ به العبدُ حَدَّهُ من معبودٍ، أو مَتبُوعٍ، أو مُطاعٍ) مجاوزةُ العبدِ حَدَّهُ: هو أنْ يَتعدَّى الحَدَّ الذي لم يأذَنْ له الشرعُ بمجاوزته. **هذا معنى مجاوزةِ الحَدِّ في المعبودِينَ.**

وأمَّا المتبوعُ: وهم العلماءُ، ومعنى مجاوزةُ الحَدِّ فيهم: أنَّ الناسَ صارُوا يَتَّبِعُونَهُم في تحليلِ الحرامِ، أو تحريمِ الحلالِ، أو جَعْلِ السُّنةِ بدعةً، والبدعةِ سنةً، فإنَّ هذا قد تُجوِّز بِه حَدَّهُ، فإنَّ حَدَّ المتبوعِ في الدِّينِ: أنْ يكونَ آمرًا بِمَا أَمَر بِه الشرعُ، ناهِيًا عمَّا نَهَى عنهُ الشرعُ.

«مثالُ ذلكَ مشايخُ الطرقِ الصوفيةِ، يَتَّبِعُهُم مُرِيدُوهُم وعَبِيدُهُم في غيرِ طاعةِ الرسولِ ﷺ، بل يقولونَ: إنَّنا لَسنَا بحاجةٍ إلى الرسولِ ﷺ، نحنُ نَأْخُذُ ممَّا أَخَذ منهُ الرسولُ ﷺ، ونَتَلقَّى عن اللهِ مباشرةً، الرسولُ ﷺ يَتَلقَّى عن اللهِ بالواسطةِ، بواسطةِ جبريلَ، ونحن نَتَلقَّى عن اللهِ مباشرةً.

ويقولونَ: أنتُم تَروُونَ دينكُم عن ميِّتٍ، ونحن نَروِي دينَنا عن اللهِ سبحانَه وتعالى، لأنَّهم يَزعمُونَ أنَّ شيوخَهُم يَتَّصِلُونَ باللهِ، ويَتَلقَّونَ من اللهِ مباشرةً، بَلَغ بِهِمُ الحَدُّ إلى هذا الطغيانِ، والعياذُ باللهِ، هذه طريقتُهُم». «شرح ثلاثة الأصول» للشيخ صالح الفوزان (ص ٢٩٧).

وأمَّا المطاع: فيَشملُ الأمراءَ والرؤساءَ، ومعنى مجاوزةِ الحَدِّ فيهم: أنْ يُطاعُوا في تحريمِ الحلالِ، أو تحليلِ الحرامِ.

فهؤلاء اتَّخَذُوهُم طواغيتَ؛ لأنَّهم جاوَزُوا بِهِم حَدَّهُم.

قوله: (وكُلُّ أُمَّةٍ بَعَث اللهُ إليهَا رسولًا، من نوحٍ إلى محمدٍ، يَأمُرُهُم بعبادةِ اللهِ وحدَه، ويَنهَاهُم عن عبادةِ الطاغوتِ، والدليلُ: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾) في هذهِ الجملةِ بيانٌ لموضوعِ رسالةِ الرُّسُلِ.

قوله: (والطواغيتُ كثيرةٌ) لأنَّ كُلَّ مَن عُبِدَ أو اُتُّبِعَ أو أُطِيعَ، فيَصدقُ عليهِ أنَّه طاغوتٌ، وهؤلاءِ كثيرونَ، ولكنْ رؤوسُهُم بالتَّتبُّع والاستقراءِ خمسةٌ، وما عدا هذهِ الخمسةِ، فهو مُتفرِّعٌ عنها.

قوله: (ورؤوسُهُم خمسةٌ: إبليسُ لَعَنهُ اللهُ) إبليسُ هو رأسُ الطواغيتِ؛ لأنَّه هو الذي يأمرُ بعبادةِ غيرِ اللهِ، وهو الذي يَأمُر باتباعِ غيرِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهو

الذي يَأمرُ بطاعةِ غيرِ اللهِ بالتحليلِ والتحريمِ، فإبليسُ هو مصدرُ الشَّرِّ، وهو رأسُ الطواغيتِ». «شرح ثلاثة الأصول لصالح الفوزان» ص٣٠١.

قوله: (ومَن عُبِدَ وهو راضٍ) لأنَّ حدَّ العبد أنْ يكونَ خاضعًا للهِ لا أنْ يُخضَعَ لهُ، ويُعبَدَ من دونِ اللهِ، فمَن عَلِمَ أنَّ الناسَ يَعبُدونَهُ، ويَتوسَّلُونَ بِه، ويَصرِفُونَ لهُ شيئًا من أنواعِ العبادةِ، فرَضِيَ بهذهِ العبادةِ، كما هو الحالُ في مشايخِ الصوفيةِ، فهو طاغوتٌ، وسواءٌ عُبِدَ في حياتِه، أو بعدَ مماتِه، وهو راضٍ بذلكَ.

قوله: (ومَن دَعَا الناسَ إلى عبادةِ نفسِه) كفرعونَ الذي قال لقومِه: **﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾** [القصص: ٣٨]، وقال: **﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾** [النازعات: ٢٤] بل قال لموسى: **﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾** [الشعراء: ٢٩]، فحَمَلَهُم على عبادتِه من دونِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

والنَّمرُود، ومشايخُ الطرقِ الصوفيةِ الغُلاةِ، الذينَ يَعبُدُهمُ أتباعُهُم، ويَرضَونَ بذلكَ، أو يَدعُونَ الناسَ إلى أنْ يَعبُدوهُم، فهذا طاغوتٌ في العبادةِ. «شرح ثلاثة الأصول لصالح الفوزان» ص٢٩٦.

ويَدخلُ في ذلكَ: مَن دعَا الناسَ إلى عبادةِ نفسِه وإنْ لم يَعبُدُوه، فإنَّه من رؤوسِ الطواغيتِ، سواءٌ أُجِيبَ لِمَا دعَا إليهِ أم لم يُجِيبَ. «شرح ثلاثة الأصول للعثيمين» ص١٥٣.

«وكذلك مَن دعَا الناسَ إلى عبادةِ غيرِه من الطواغيتِ، وهم دُعاةُ الشركِ، هؤلاءِ طواغيتٌ، الذين يُزيِّنُونَ الشركَ للناسِ، ويُسمُّونَه بغيرِ اسمِه، ويقولونَ: هذا من بابِ التَّوسُّلِ، أو هذا من بابِ الشفاعةِ، فهؤلاءِ طواغيتٌ». «شرح ثلاثة الأصول لصالح الفوزان» ص٣٠٣.

قوله: (ومَن ادَّعى شيئًا من عِلْمِ الغيبِ) كالمُنجِّمِينَ، والعَرَّافِينَ، والرَّمَّالِينَ، الذينَ يدَّعُونَ شيئًا من علمِ الغيبِ، واللهُ تعالى يقولُ: **﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾** [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾** [الجن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ**

الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

فائدة: عِلمُ الغيبِ نوعان:

القسم الأول: الغيبُ المطلقُ (المستقبل).

القسم الثاني: الغيبُ النِّسبي.

أمَّا الغَيبُ المطلقُ: فهو الغَيبُ المُتعلِّقُ بالمستقبلِ، وهو ما لا يَعلَمُهُ إلَّا اللهُ تعالى، ومن الآياتِ الدالةِ على الغَيبِ المطلق:

قولُه تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [لقمان: ٣٤].

وقولُه تعالى: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾** [الأنعام: ٥٩].

وفي «صحيح البخاري»، من حديثِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ لا يَعلمُهَا إلَّا اللهُ: لا يَعلَمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلمُ ما في غَدٍ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ متى يأتي المَطَرُ أحدٌ إلَّا اللهُ، ولا تَدري نَفْسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ متى تقومُ الساعةُ إلَّا اللهُ**».

وأمَّا الغَيبُ النِّسبيُّ: فهو غيبُ الماضي والحاضر، وهو ما خَفِيَ عليكَ، وعَلِمَه غيرُك، ممَّن تَوَفَّرتْ لهُ أسبابُ معرفتِهِ، وقد يَعرِفُهُ البعضُ، ويَجهلُهُ البعضُ الآخرُ، فهي غَيبٌ لمَن لم يَحضُرْهَا، وشهادةٌ لمَن حَضَرهَا.

ومن الآياتِ الدالةِ على الغَيبِ النِّسبي:

قولُه تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾** [يوسف: ١٠٢].

وقولُه تعالى: **﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾** [هود: ٤٩].

وقولُه تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾** [آل عمران: ٤٤].

فهذهِ الأنباءُ التي قصَّها اللهُ تعالى على رسولِه ﷺ هي غَيبٌ عن الرسولِ ﷺ، وغَيبٌ بالنسبةِ لنا قبلَ أنْ يُخبِرَنَا اللهُ بِهَا.

أصناف مدَّعي الغيب:

١ – المُنجِّم: وهو مَن يُخبِرُ عن طريقِ النُّجُومِ.

٢ – الكاهِنُ: وهو مَن يُخبِرُ عن طريقِ الجِنِّ، وما يَنقُلُونَ إليهِ من الأخبارِ.

٣ – العرَّاف: وهو مثلُ الكاهنِ، إلَّا أنَّ العرَّافَ يُخبِرُ عن السَّرقةِ، ومكانِ الضَّالَّةِ، بعدَ أنْ تُخبِرَهُ الشياطينُ، بخلافِ الكاهنِ، فإنَّه يُخبِرُ عمَّا في الضميرِ.

٤ – الساحرُ: وهو مِثلُ الكاهنِ والعرَّافِ، إلَّا أنَّ الساحرَ أَعَمُّ.

٥ – الرَّمَّالُ: وهو مَن يُخبِرُ عن طريقِ الخطوطِ في الرِمَالِ.

وكيفيتُه: أنْ يأتِيَ إلى الرَّمَّالِ مَن يُريدُ السَّفرَ أو التجارةَ، فيَخُطُّ الرَّمَّالُ خطوطًا في الأرضِ غيرَ معروفةِ العددِ، ثم يَبدأُ، فيَمحُو خَطَّينِ خَطَّينِ، فإنْ بَقِيَ خطانِ، تفاءَلَ، وإنْ بَقِيَ خَطٌّ، تشاءَمَ.

وبعضُهُم يَستعمِلُ الحجارةَ بدلَ الخطوطِ، فيَجمعُ كَومةً من الحجارةِ، ويَأخذُ حَجَرينِ حَجَرينِ، فإنْ بَقِيَ حَجَرانِ، تفاءَلَ، وإنْ بَقِيَ حَجَرٌ، تشاءَمَ.

٦ – العائِفُ: هو مَن يُخبِرُ عن طريقِ الطَّيرِ، فإذا أراد أحدٌ سَفَرًا، أو تجارةً، أو زواجًا، أَرسَلَ الطَّيرَ، فإنِ اتَّجَهَتْ يمينًا، تفاءَلَ، وإنِ اتَّجَهَتْ يسارًا، تشاءَمَ.

ومنهُ: قراءةُ الفنجانِ، وهو مَن يَنظرُ في الفنجانِ بعدَ الشربِ فيهِ، فيَنظرُ في جُدرانِه، فإنْ رأى ما يُشبِهُ الحَيَّةَ، تشاءَمَ، وإنْ رأى ما يُشبِهُ الوَردةَ، تفاءَلَ.

ومنهُ: فتحُ الكتابِ، وهو مَن يَقومُ بفتحِ كتابٍ، أو فتحِ المُصحَفِ، بطريقةٍ عَفَويةٍ، ويَنظرُ في أوَّلِ كلمةٍ تَقَع عَينُه عليها، فإنْ كانتْ كلمةَ رحمةٍ أو كلمةً جميلةً، تفاءَلَ، وإلَّا تشاءَمَ.

ومنهُ: قراءةُ النارِ، وهو أن ينظر في لهب النار، فإن تشكَّل من لهيب النار ما يُشبه الفأس أو المطرقة قال: ستصيبه كارثة، وإن تشكَّل ما يُشبه الشجرة تفاءل.

ومنهُ: تحضيرُ الأرواحِ، وهو عبارةٌ عن استحضارِ جِنِّيٍّ عن طريقِ أدعيةٍ، وتعاويذَ، وشركياتٍ، فيَتَقَمَّصُ شخصيةَ شخصٍ أو صوتَه، ويُخبِرُه بالأمورِ الماضيةِ أو المستقبلةِ، ويدَّعي هذا الجِنِّيُّ أنَّه رُوحُ فلانٍ.

ومنهُ: حَظُّكَ اليومَ، الذي تَجِدُه في الصُّحُفِ، والمجلاتِ، والمواقعِ الإلكترونيةِ، ووسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ.

فكُلُّ هؤلاء -كما تَرَى- مُدَّعُونَ لعلمِ الغيبِ، ولكنْ بطُرُقٍ مختلفةٍ.

قوله: (ومن حَكَم بغيرِ ما أَنزَلَ اللهُ) «الحكمُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ تعالى من توحيدِ الربوبيةِ؛ لأنَّه تَنفيذٌ لحكمِ اللهِ، الذي هو مقتضى ربوبيتِه، وكمالِ مُلْكِه وتَصَرُّفِه، ولهذا سمَّى اللهُ تعالى المَتبُوعِينَ في غيرِ ما أَنزَلَ اللهُ تعالى أربابًا لمُتبِّعِيهِم، فقال سبحانَه: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١]، فسَمَّى اللهُ تعالى المَتبُوعِينَ أربابًا، حيثُ جُعِلُوا مُشرِّعِينَ مع اللهِ تعالى، وسَمَّى المُتَّبِعِينَ عُبَّادًا، حيثُ إنَّهم ذَلُّوا لهم، وأطاعُوهُم في مخالفةِ حكمِ اللهِ سبحانَه وتعالى». «شرح ثلاثة الأصول للعثيمين» (ص ١٥٤).

والحكمُ بغيرِ ما أَنزَلَ اللهُ لهُ تِسعُ صُوَرٍ:

١- أنْ يَجحَدَ حُكمَ اللهِ.

٢- أنْ يُكذِّبَ بحُكمِ اللهِ تعالى.

٣- أنْ يجوِّز الحُكمَ بغيرِ ما أَنزَلَ اللهُ سبحانَه، بمعنى أنْ يَستَحِلَّهُ.

٤- أنْ يُسوِّيَ الحاكمُ حُكمَه بحكمِ اللهِ تعالى.

٥- أنْ يُفضِّلَ الحاكمُ حُكمَه على حُكمِ اللهِ تعالى.

٦- أنْ يَحكُمَ بغيرِ ما أَنزَلَ اللهُ على أنَّه حُكمُ اللهِ، وهو التبديلُ.

وكُلُّ هذهِ الصُّورِ كُفرٌ أكبرُ مُخرِجٌ من الملَّةِ.

٧- الاستبدالُ (التغيير).

٨- التقنينُ.

٩ – التشريعُ.

وهذهِ الصُّوَرُ الثلاثةُ تنازَع المعاصرونَ في تكفيرِ مُرتكبِهَا، وقولُ ابنِ عباس رضي الله عنهما في تفسيرِ آيةِ الحكمِ بغيرِ ما أَنزَلَ اللهُ بأنَّه كُفرٌ دونَ كُفرٍ، دليلٌ على أنَّ فاعلَ هذا لا يَكفرُ كُفرًا أكبرَ مُخرِجًا من المِلَّةِ؛ لأنَّه لم يَستحِلَّه.

وسيأتي تفصيلُ الكلامِ على هذهِ المسألةِ، والردُّ على شبهاتِ المخالفينَ عندَ التعليقِ على رسالةِ «نواقض الإسلام – الناقض الرابع» بإذنِ اللهِ تعالى.

قوله: (**والدليل: قولُه تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾**) أي: الدليلُ على وجوبِ الحكمِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ والكفرِ بالطاغوتِ هذهِ الآيةُ.

قوله: (**وهذا معنى لا إلهَ إلَّا اللهُ**) أي: أنَّ هذهِ الآيةَ مُتضمِّنةٌ للنفيِ والإثباتِ، فتُثبِتُ جميعَ أنواعِ العبادةِ للهِ وحدَه لا شريكَ لهُ، وتَنفِي جميعَ أنواعِ العبادةِ عن غيرِ اللهِ تعالى، وقد تقدَّم بيانُ ذلكَ.

قوله: (**وفي الحديثِ: رأسُ الأمرِ الإسلامُ**) أراد المؤلِّفُ بهذا الحديثِ الاستدلالَ على أنَّ لكُلِّ شيءٍ رأسًا، وأنَّ رأسَ الأمرِ الذي جاءَ بِه محمدٌ ﷺ هو الإسلامُ، وجاء تفسيرُه في روايةٍ أخرى بالشهادتَينِ، فمَن لم يُقِرَّ بِهِمَا باطنًا وظاهرًا، فليس من الإسلامِ في شيءٍ. انظر: «جامع العلوم والحكم» شرح الحديث: رقم "٢٩".

قوله: (**وعَمُودُه الصلاةُ**) أي: قوامُ الدِّينِ الذي لا يَقومُ الدِّينُ إلَّا بِه، كما يَقومُ الفُسطاطُ على عَمُودِه هو الصلاةُ.

وهذا دليلٌ على عِظَمِ شأنِ الصلاةِ، وأنَّها من الدِّينِ بهذا المكانِ العظيمِ.

قوله: (**وذِروَةُ سَنَامِه الجهادُ في سبيلِ اللهِ**) وهذا يدلُّ على أنَّ الجهادَ هو أعلى شيءٍ في الدِّينِ؛ والجهادُ فيهِ بَذْلٌ للنَّفسِ التي هي أغلى وأثمنُ شيءٍ عندَ الإنسانِ.